بوزياني الدراجي

دول الخوارج والعلويين
في بلاد المغرب والأندلس

دار الكتاب العربي

دار الكتاب العربي
للطباعة، النشر، التوزيع والترجمة

حي العناصر عمارة 309 رقم 03. القبة. الجزائر
الهاتف/فاكس: 021 31.44.51
الجوال: 070 91.77.73

بوزياني، الدراجي
دول الخوارج والعلويين / بوزياني الدراجي؛ تصميم الغلاف لويزة الحسين؛ الإخراج الفني فراس الجهماني.-
الجزائر: دار الكتاب العربي، 2007.- 243ص؛ 23سم
ردمك: 978-9947-833-01-8
الإيداع القانوني:154-2007 المكتبة الوطنية
الرقم التسلسلي: 5-2007 دار الكتاب العربي

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتو كوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

كتب عربية ومترجمة
https://abbassa.wordpress.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

ـ إلى شهـداء الجزائـر الأبـرار الذيـن قدمـوا أرواحهـم مـن أجـل قيـام دولـة جزائريـة عزيـزة مستقلـة وموحـدة.

ـ إلى المجاهديـن المخلصيـن لهـذه البـلاد الطاهـرة؛ الذيـن حققـوا المعجـزة وحـرروا البـلاد والعبـاد.

ـ إلى شبـاب الجزائـر المستقلـة الذيـن يضحـون بكـل غـال ورخيـص في سبيـل وحـدة الجزائـر وازدهارهـا الثقـافي والاقتصـادي.

ـ إلى كـل امـرأة جزائريـة حافظـت عـلى قيـم شعبهـا وثوابـت أمتهـا.

ـ إلى كـل هـؤلاء جميعـا أهـدي كتـابي المتـواضـع هـذا؛ راجيـا مـن اللـه أن يكـون لبنـة جديـدة تضـاف إلى صـرح بـلادي الثقـافي.

المقدمة

يدخل هذا الكتاب ضمن سلسلة تاريخية ستنشر تباعا بإذن الله. وتعالج هذه المجموعة من الكتب مواضيع تتعلق بتاريخ المغرب والأندلس؛ انطلاقا من الفتح الإسلامي وحتى حلول العهد العثماني. ولا بد هنا من التنبيه إلى أني قد التزمت ـ في إعداد هذه الدراسات ـ بمنهج يميل إلى شكل من أشكال الكتابة التي تنطوي على قراءة جديدة للأحداث. ويعتمد هذا الأسلوب على تطبيق نظرية ابن خلدون بخصوص العصبية القبلية؛ تلك النظرية التي تفسر أثر العصبية في قيام الدول وفي سقوطها. ويعود سبب اهتمامي بموضوع العصبية القبلية إلى إيماني الشديد بما سعى ابن خلدون إلى إبرازه؛ بخصوص تلك الظاهرة الاجتماعية السلبية التي هيمنت على المجتمعات المغربية؛ الأمر الذي جعلها بمثابة الأداة المعرقلة والمقيدة لكل ما من شأنه إضفاء حركة تنموية، وعمل تنظيمي على المجتمع المغربي بكامله.

لقد اكتشف ابن خلدون ـ بعد تأمل عميق وتجربة واسعة ـ أن ظاهرة العصبية في بلاد

المغرب وقفت في طريق كل المحاولات الممهدة لقيام أي دولة قوية أو لاستقرار أي تنظيم مخالف للتنظيم القبلي؛ ذلك التنظيم الذي يفتقر – بدوره – للاستقرار والانضباط. وعليه فقد وضع نظريته ليساعد الدارسين لتاريخ هذه الديار على فهم السبب الكامن وراء التخلف السائد في بلاد المغرب؛ ذلك التخلف الذي منع كل تطور وتقدم نحو حياة جديدة فاضلة؛ كان ابن خلدون قد عرفها في بلدان أخرى. وإذا كان هناك من يشكك في موضوعية النظرية الخلدونية وصحة طرحها؛ فإن قراءتنا نحن للأحداث التاريخية والأوضاع الاجتماعية والسياسية في بلاد المغرب تجعلنا أكثر قربا من التسليم بها وتصديق معظم ما جاء فيها.

وإذا كان ابن خلدون يصف ظاهرة اجتماعية سلبية كانت سائدة في عصره المظلم؛ ذلك العصر الذي تميز بالتراجع والانكماش في الميادين الحضارية كافة من: فكر وثقافة، أو صناعة وابتكار، أو عمران وبناء، أو سياسة مدنية، أو اقتصاد منظم؛ فإن تلك الظاهرة الاجتماعية السلبية ما زالت متحكمة فينا، ومهيمنة علينا حتى في زمننا هذا؛ حيث ظلت الروح القبلية والنزعة للعصبية في أوج قوتها وعنفوانها؛ على الرغم من انتسابنا للقرن الواحد والعشرين، وعلى الرغم من قربنا من مراكز الحضارة الحديثة، وعلاقاتنا الوطيدة مع المجتمعات المدنية المتحضرة في العالم المتقدم.

ولما كان التاريخ ـ دوما ـ عبارة عن مخزون حضاري وثقافي يلخص تجارب الأسلاف.. مخزون يوضع بين أيدي الأجيال الحديثة للاستفادة من تجارب غيرهم، ولأخذ العبر من الأحداث التي مرت بالأجداد؛ فأني وجدت من الضروري ـ هنا ـ معاودة الكشف عن خطورة ظاهرة العصبية القبلية المتخلفة، وتأثيرها على سلامة وأمن مجتمعنا، وعلى استقرار المؤسسات الحضارية القائمة فيه. وعليه فلو تأملنا جيدا في معظم الأحداث التاريخية الموغلة في القدم ـ أو على الأقل ـ التي سادت البلاد منذ الفتح الإسلامي؛ لوجدنا أنها عبارة عن تسجيل وتاريخ لأحداث متواصلة من الحروب والفتن الدائمة بين القبائل فيما بينها، أو بين القبائل والدولة التي أقامتها قبائل أخرى؛ بحيث لم تعرف الأطراف المتورطة كلها فوائد الأمن والاستقرار؛ سواء: القبائل المشاغبة، أو الدول المدافعة عن كيانها، أو الدولة التي سعت القبائل لإقامتها وحمايتها.

وسيلاحظ القارئ في هذا البحث كيف عانى الفاتحون العرب من ظاهرة العصبية القبلية؛ سواء كان ذلك من داخل أوساطهم المريضة بالعصبية القبلية، أو بواسطة القبائل الأمازيغية المعادية لهم؛ والتي تتحكم فيها عصبيات عاتية أيضا. لذا كانت جل الفتن والحروب بين الفاتحين والأمازيغ مصدرها العصبية. ومما يعزز الرأي الذي يحصر الخصومات التي قامت بين الفاتحين

والأمازيغ في نطاق العصبية لا غير؛ هو أن الثورات الأمازيغية بكاملها تقريبا كانت تتمسك بالدين الإسلامي؛ وترفع شعاره عاليا؛ بل يصل تمسكها بالإسلام إلى درجة التعصب والتزمت أحيانا. وهذا ما يمكن ملاحظته في ثورات الخوارج من الصفرية والإباضية؛ تلك الثورات التي انطلقت اعتبارا من الربع الأول من القرن الثاني الهجري؛ إذ كانت كلها – مع كثرتها – تنادي بالمبادئ الإسلامية؛ بل تخضع لمذاهب عربية إسلامية أصلا. كما ترحب بالنموذج الحضاري العربي وتتبناه؛ سواء في جانبه الثقافي أو في جانبه الاجتماعي. وأهم ما يمكن ملاحظته هو أنه يمكن التأكد – بسهولة – من طبيعة الدول التي قامت في بلاد المغرب؛ إذ منها: من تأمر عليها ملوك من أصل أمازيغي يلتزم بالإسلام ديناً، وبالعربية ثقافة؛ ومنها من سلمت قيادها طوعاً إلى ملوك من أصل عربي؛ ولكنها – في حقيقة الأمر – كانت أمازيغية التركيبة والنشأة؛ إذ قامت على دعائم رفعت بسواعد قبائل أمازيغية، وبقيت طوال حياتها أمازيغية المحتوى والتركيب، إسلامية العقيدة.

وعلى الرغم من قيام دول أمازيغية قوية في ربوع المغرب؛ فقد لوحظ تمسكها بالإسلام ودفاعها عنه بكل قوة وإصرار؛ سواء كانت تلك الدول خارجية كـ: دولة بني مدرار، والدولة الرستمية؛ أو سنية مثل: دولة المرابطين والموحدين وغيرهما؛ أو علوية كـ: الدولة الإدريسية التي أقامتها قبائل

أمازيغيـــة واستماتـــت في حمايتهـــا؛ ثـــم الدولـــة الفاطميـــة الـــتي نشـــأت بسواعـــد أبنـــاء كتامـــة وصنهاجـــة. وعليـــه فـــلا شـــك في أن أي صـــراع حـــدث بيـــن قبائـــل المغـــرب والـــدول القائمـــة في تلـــك الأثنـــاء لا يعـــدو أن يكـــون محصـــورا في نطـــاق العصبيـــة القبليـــة؛ كمـــا لا يخـــرج عمـــا ذكـــره ابـــن خلـــدون حـــول تطلـــع القبيلـــة ـــ كـــل قبيلـــة ـــ ورغبتهـــا في الوصـــول إلى مرتبـــة الملـــك؛ كمرحلـــة طبيعيـــة؛ تقتـــضي تطـــور السلطـــة في القبيلـــة مـــن مرتبـــة الرئاســـة إلى مرتبـــة أعـــلى وأسمى وهي الملـــك.

ولا تفوتـــني ـــ قبـــل الختـــام ـــ فرصـــة التنويـــه بالمجهـــود الكبيـــر الـــذي بـــذل مـــن طـــرف دار الكتـــاب العـــربي بالجزائـــر في نشـــر وطباعـــة هـــذا الكتـــاب ـــ وغيـــره مـــن الكتـــب الـــتي أتممتهـــا ـــ بهـــذا الشكـــل الأنيـــق الجيـــد. وأخـــص بالذكـــر ـــ هنـــا ـــ مديـــر الدار السيـــد **محمـــد خيـــر الجهمـــاني**، وولديـــه: **مهنـــد الجهمـــاني، وفـــراس الجهمـــاني**؛ بالإضافـــة إلى الآنســـة الفنانـــة **لويـــزة الحسيـــن**؛ الـــتي لـــم تبخـــل ـــ في كـــل مـــرة ـــ بمـــا حباهـــا اللـــه مـــن إحســـاس مرهـــف كي تمنـــح كتـــابي لوحـــات معبـــرة بريشتهـــا الذهبيـــة.

بوزياني الدراجي

الجزائر في: 4 ـ جوان ـ 2001م

مـدخــل

يتضــح مــن عنــوان هــذا الكتــاب؛ أن للموضــوع شقيــن: أولهمــا يتعلــق بنشــأة الدولــة وسقوطهــا؛ وثانيهمــا يعالــج نشــاط الحضــارة وأفولهــا؛ وذلــك مــن خــلال تأثيــر ظاهــرة العصبيــة القبليــة عليهمــا. وستتــم معالجــة الشقيــن ــ ضمــن هــذا المجــال ــ في سيــاق واحــد؛ دون اللجــوء إلى الفصــل بينهمــا؛ لأنهمــا متكامــلان، ويــدوران ــ معــا ــ في حلقــة واحــدة.

فعنــد التأمــل في موضــوع نشــأة الدولــة؛ سينســاق الذهــن ــ منــذ الوهلــة الأولى ــ نحــو إيجــاد تصــور للكيفيــة الــتي نشــأت بهــا الدولــة الأولى عبــر التاريــخ؛ في المجتمعــات الإنسانيــة عمومــا. ويبــدو أن هــذه الفكــرة تحتــل مكانــة ذات إغــراء وإثــارة أكثــر مــن مجــرد الاكتفــاء باستقــراء وتتبــع الطريقــة الــتي قامــت بهــا دولــة مــا؛ عــلى أنقــاض دولــة أخــرى. وعليــه فبفضــل هــذه الدراســة، ومــا يليهــا ضمــن هــذه السلسلــة؛ ستتضــح الصــورة عــن الكيفيــة التي تنشــأ أو تسقــط بهــا الدولــة. وهنــا سيتحتــم ــ في هــذا السيــاق ــ الاعتمــاد عــلى نظريــة ابــن خلــدون؛ لكونــه احتــل مكانــة مرموقــة ومتقدمــة بيــن المفسريــن لنشــأة الدولــة بالمغــرب الإســلامي بصــورة خاصــة، والمجتمعــات الإسلاميــة عامــة.

وكما هو معروف فنشأة الدولة ــ عموما ــ ليست سوى خطوة حدثت بين خطوات عديدة سبقتها؛ ضمن مسيرة الإنسان الطويلة؛ عبر الفترات التاريخية المختلفة في سبيل تحقيق التمدن والتحضر. وهذا ما يمكن استنتاجه من خلال الشواهد التي تثبت مواكبة نشأة الدولة ــ في غالب الأحيان ــ للنشاط العمراني، والازدهار الحضاري. وبالمقابل فقد لوحظ أن سقوط الدولة ينجر عنه ــ في جل الحالات ــ انهيار عمراني، وتقهقر حضاري.

فالدارس لتاريخ بلاد المغرب سيلاحظ ــ حتما ــ ما تعرضت له هذه البلاد من تقلبات؛ نتيجة لطغيان ظاهرة اجتماعية مثيرة للجدل؛ تركت بصماتها العميقة في المسار التطوري للمجتمعات المغربية، ومنعت كل نشاط يهدف إلى استقرار الدول في تلك الديار. وهذه الظاهرة تتمثل في كثرة القبائل وتباينها، وتعدد العصبيات واختلافها. ويبدو أن الذي اكتشف تأثير هذه الظاهرة قبل غيره هو عبد الرحمن بن خلدون؛ ذلك النابغة الذي خصص فصلا مستقلا في مقدمته يشير فيه إليها وهو: "**فصل في أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب؛ قل أن تستحكم فيها دولة**".[1]

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص: 646.**

وقد برهن على رأيه ـ في هذا السياق ـ ببعض الأمثلة التي جرت في بلاد إفريقية والمغرب. كما حرص على مقابلتهما بما هو حاصل في بلدان أخرى؛ كانت تتميز بقلة القبائل وضعف العصبية. ثم أشار إلى موقف المسلمين خلال فتح ديار المغرب؛ أي حينما واجهتهم مقاومة شديدة؛ لم تواجههم عندما فتحوا أقطارا أخرى آنذاك. ومن الأمثلة التي ذكرها؛ ما حدث لهم في العراق والشام؛ أيام الفتح الإسلامي. ثم علل استقرار الأمر في تلك الديار المشرقية؛ بكون حامية الدولة فيها ـ آنئذ ـ كانت من الفرس والروم. أما بقية السكان؛ فكانوا كما ذكر: ((**دهماء وأهل مدن وأمصار**)). وواصل ـ بعد ذلك ـ شرح فكرته بقوله: ((**والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى؛ وكلهم بادية، وأهل عصائب وعشائر. وكلما هلكت قبيلة؛ عادت الأخرى مكانها وإلى دينها؛ من الخلاف والردة. فطال أمر العرب في تمهيد الدولة بوطن إفريقية والمغرب**)).[1] وبعد الشرح والتعليل تطرق إلى ما ذكره بعض المؤرخين والنسابين؛ بخصوص ما قيل عن ارتداد سكان المغرب اثنتي عشر مرة. ومن هنا يحق لنا أن نتساءل.. عما يمكن أن يفهمه القارئ من هذه الأقوال؟

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص: 647.**

فما يمكن استنتاجه هنا.. هو أن للعصبية أثرا كبيرا؛ على نشأة الدول وسقوطها في هذه الديار. والدليل على ذلك يظهر من خلال ما واجه المسلمين من أحداث؛ على الرغم من قوتهم، وتعدد جيوشهم، وصدق دعوتهم. حيث واجهتهم ــ في بلاد المغرب ــ صعوبات كثيرة؛ عرقلت مساعيهم؛ قصد ترسيخ سلطانهم، وتثبيت دعائم الدولة الإسلامية. وربما استعصى عليهم تحقيق ذلك الأمر؛ ولم يتمكنوا من تمهيد البلاد إلا في عهد موسى بن نصير؛ كما ذكر ابن خلدون. أما عبد الله المالكي، والرقيق القيرواني؛[1] فيجمعان على استقامة الأوضاع بإفريقية في عهد حسان بن النعمان. ومع هذا يبدو أن استتباب الأمر لم يدم طويلا؛ حيث عادت الفتن، والحروب من جديد؛ ودون توقف. ويرجع السبب في ذلك إلى العصبية المهيمنة، والطابع القبلي؛ الذي يتميز بهما المغرب. هذا بالإضافة إلى ظاهرة البداوة؛ المتفشية في تلك الربوع؛ نظرا لكون الأمازيغ يعتبرون من أهل العصبيات والأنساب؛ كما يقول ابن خلدون ضمن "**فصل في أن المدن والأمصار بإفريقية والمغرب قليلة**".[2]

---

[1] رياض النفوس، ج: 1، ص: 57. وتاريخ إفريقية والمغرب، ص: 64.

[2] ((وأيضا فالصنائع بعيدة عن البربر؛ لأنهم أعرق في البداوة. والصنائع من توابع الحضارة؛ وإنما تتم المباني بها؛ فلا بد من الحذق في تعلمها؛ فلما لم يكن للبربر انتحال لها لم يكن لهم تشوف إلى المباني؛ فضلا عن

وإذا كانت للبيزنطيين أثار بارزة ــ لا ينبغي نكرانها ــ في تغذية المقاومة، وتحريض القبائل الأمازيغية ضد المسلمين؛ خلال فتحهم لإفريقية والمغرب. فإن هذا لا ينفي ــ في الحقيقة ــ جوهر المقاومة؛ الذي اقتضته طبيعة الأحداث؛ لأن الأمازيغ ــ في تلك الفترة ــ لم يتعرفوا على الإسلام، والمسلمين؛ ومن جهل شيئا عاداه طبعا. وعليه فقد لعبت العصبية الأمازيغية دورا خطيرا؛ كقوة متصدية للمسلمين؛ في بلاد المغرب. وما نكث كَسيلة، وثورته على المسلمين؛ سوى نعرة من نعرات العصبية. وربما دخلت في هذا الاعتبار؛ مقاومة الكاهنة، وقومها جراوة للفاتحين أيضا.

ومع ذلك.. فقد استتب الأمر للمسلمين؛ بعض الوقت؛ بفضل حنكة عدد من الولاة وحسن سياستهم؛ مثل: أبي المهاجر، وحسان، ومحمد بن يزيد، وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر. غير أن ذلك الاستقرار انقطع؛ ولم يدم طويلا. إذ كانت العصبية القبلية أهم عوامل الهدم، والتفريق. فهي التي أشعلت أتون الفتنة بالمغرب كافة. حيث انقسمت هذه الديار؛ إلى عصبيات عديدة؛ متضادة. فنشأ صراع بين العرب الموالين للأمويين من جهة، وبين الأمازيغ من جهة أخرى. ثم انقسم العرب ــ أيضا ــ إلى عرب القيروان، والعرب

المدن. وأيضا فهم أهل عصبيات وأنساب؛ لا يخلو عن ذلك جمع منهم. والأنساب والعصبية أجنح إلى البدو)). المقدمة، ج: 3، ص ص: 989 ــ 990.

المستجدين من الوافدين إلى إفريقية حديثا. هذا بالإضافة إلى انقسام الفاتحين العرب أيضا إلى عصبيتين هما: القيسية، والكلبية. أي (العدنانية والقحطانية أو المضرية واليمنية).[1]

وهكذا.. كان المغرب ـ في تلك الفترة ـ تتقاذفه صراعات لا نهاية لها. ومن أخطرها ذلك الفيض من الفتن والصراعات، التي نشبت بين الأمازيغ والأمويين؛ ومعظم تلك الأحداث كانت عبارة عن ردود أفعال ضد تعسف بعض ولاة الدولة الأموية، وسوء سياستهم، وتعصبهم؛ كيزيد ابن أبي مسلم، وعبيد الله بن الحبحاب.[2] الأمر الذي ساعد على نمو الأحزاب وترعرع الفرق المعارضة لطبيعة الحكم الأموي، ثم الحكم العباسي من بعده. ومن بين تلك الفرق: الخوارج

---

[1] لم يكن تقسيم العرب إلى قيسية ويمنية معروفا قبل الإسلام. حيث كان التقسيم محصورا ضمن عصبيات ضيقة؛ لا تتجاوز القبيلة أو البطن؛ ولم تتسع ظاهرة العصبية بحيث تشمل الشعب أو الجذم. ويبدو أن موضوع القيسية، واليمنية من المبتكرات التي ظهرت في ظل الدولة الأموية. أنظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج: 1، ص ص: 493 ـ 494. والعصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، ص ص: 141 ـ 144.

[2] تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 99 ـ 101. 107 ـــ 111. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 48. 51 ـ 54. وفجر الأندلس، ص: 145. والمغرب الإسلامي، ص ص: 104. 155 ـــ 157.

والشيعة.[1] بالإضافة إلى برغواطة؛ المرتدين عن الإسلام كليا.

هذا وقد ساعد العجز الدائم عن التخلص من الطابع القبلي المتحجر على استفحال روح العصبية، واتساع نطاقها. والأمر الذي ضاعف في نمو هذه الظاهرة السلبية وازدهارها؛ أنها كانت مهيمنة حتى على قلوب فئة كبيرة من الفاتحين أنفسهم. فانغمسوا في مستنقعها الموبوء بعاهات العُبِّية والنعرة الجاهلية؛ التي بقيت عالقة بنفوسهم. فأضحى المغرب الإسلامي ــ نتيجة لذلك كله ــ مسرحا واسعا للصراعات القبلية، ومرتعا خصبا للعصبية الفياضة بالنزوات والشطحات. وعليه فقد انقسم الفاتحون بين عصبية قيسية متعالية، وعصبية كلبية متعنتة. على أن الغلبة تكون ــ طبعا ــ للعصبية التي ينتمي إليها الوالي المعين على إفريقية والمغرب؛ من قبل الخليفة الأموي.

---

[1] لمعرفة هذه الفرق أنظر كتاب الملل والنحل، ج: 1، ص ص: 114 ــ 138. 146 ــ 198. وكتاب المفصل في الملل والأهواء والنحل، ج: 4، ص ص: 179 ــ 192. وكتاب المغرب الإسلامي، ص ص: 147 ــ 166. وكتاب دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص ص: 193 ـــ 209.

ومن هنا.. تتضح الكيفية التي انتقلت بها عدوى عصبية القيسيين واليمنيين؛ إلى إفريقية والمغرب.. إذ انطلقت هذه الظاهرة الخطيرة من مكمنها؛ بتحريك وإثارة من قمة الدولة الأموية نفسها. وذلك أنه إذا كان بعض الفاتحين موبوءا بها دون وعي بمخاطرها؛ فإن خلفاء بنى أمية؛ مثل: يزيد بن عبد الملك ـ حكم من 101هـ(719م) إلى 105هـ(723م) ـ وهشام بن عبد الملك ـ حكم من 105هـ إلى 125هـ(742م). ساعدا على استفحال هذا الوباء؛ بتشجيعهما للعصبية، والتكتلات القبلية.

ولمَّا كان المغرب الإسلامي ـ منذ البداية ـ يعج بأهل اليمن؛ فقد أضحى القادمون الجدد؛ من أهل الشام، وشمال شبه الجزيرة؛ غير مرغوب فيهم. وبذلك تبادل الولاة ـ من الطرفين ـ اضطهاد الرعية التي لا تتحدر من سلسلة نسبهم؛ ولا تجمعهم وإياهم عصبية واحدة. وقد يكون بشر ابن صفوان الكلبي هو أول الولاة المنحازين إلى عصبيتهم. حيث أحاط نفسه بهم، وأبعد غيرهم. ولكنه عزل بعد موت يزيد بن عبد الملك. ولما تولى هشام بن عبد الملك الحكم؛ عين قيسيا متعصبا على إفريقية والمغرب، **(وهو عبيدة بن عبد الرحمن السلمي القيسي)**. فاضطهد أهل اليمن؛ من الكلبيين؛ الأمر الذي جعل أبا الخطار حسام

ابـن ضـرار الكلـبي[1] يسـارع في إرسـال أبيـات شعريـة مـن نظمـه إلى الخليفـة هشـام؛ ذكـره فيهـا بمواقـف الكلبييـن مـن بـني أميـة. وفيهـا يقـول:[2]

أفأتـمْ بَـنِي مَـرْوَانَ قيـساً دِمَاءَنـا
وَفِي اللـهِ إنْ لمْ تُنْصِفُـوا حَكَـمٌ عَـدْلُ
كَأنكـمْ لـمْ تشْـهَـدُوا مَـرْجَ رَاهِـطٍ
وَلَـمْ تَعلمُـوا مَنْ كَانَ ثمَّ لـهُ الفَضْـلُ
تعَامَيتـمُ عَنـا بِعَيْـنٍ جَلِيـةٍ
وَأنتـمْ كـذَا ما قدْ عَلِمْنـا لنَا فِـعْـلُ

فاغتـاظ الخليفـة هشـام مـن الـوالي عبيـدة بـن عبـد الرحمـن؛ فعزلـه مـن منصبـه؛ ولكنـه عيـن قيسيـا آخـر؛ **(وهـو عبيـدة اللـه بـن الحبحـاب)**. فتمـادى ــ هـو الآخـر ــ في لعبـة العصبيـة الخطيـرة؛ الـتي انجـر عنهـا ــ في عهـده ــ أحـداث خطيـرة للغايـة؛ إذ نشبـت ثـورة الخـوارج الكبـرى؛ الـتي قادهـا ميسـرة المطغـري؛ تلـك الثـورة الـتي كـادت أن تطيـح الحكـم العـربي نهائيـا في بـلاد المغـرب؛ كـل ذلـك جـراء النزعـة المتطرفـة للعصبيـة، والنعـرة المتشـددة للقبليـة.

---

[1] **أسنـدت إليـه فيمـا بعـد إمـارة الأندلـس؛ فأظهـر فيهـا تعصبـا شديـدا لأهـل عصبيتـه اليمنيـة. ممـا أودى بـه إلى التهلكـة؛ بعـد أن أشعـل بـلاد الأندلـس بالفتـن والحـروب.**

[2] **البيـان المغـرب، ج: 1، ص: 50.**

وهكذا فمن يحلو له اللعب بالنار؛ يتعرض للاحتراق أحيانا.. حيث استفحلت ظاهرة العصبية القبلية، وأخذت تنخر كيان الدولة الأموية نفسها. فانحدرت بها تلك الظاهرة السلبية إلى مهاوي السقوط والاندثار.[1] لأن خلفاء تلك الدولة استهوتهم اللعبة، فغفلوا عن الأخطار التي يمكن للعصبية أن تفرزها، إذا ما استهين بمفعولها العكسي، وتأثيرها على استقرار دولتهم وسلامتها؛ فلم يكتشفوا جوانبها السلبية؛ وانساقوا خلف إغرائها العابر، وطمعوا في بعض الفوائد الظرفية الزائفة. وشاءت الأقدار أن تتسبب ظاهرة العصبية في تفكك الدولة؛ عندما تمردت بعض القبائل، والعصبيات؛ في الأطراف النائية؛ حيث أنشأت دولا، وإمارات خاصة بها. من ذلك ما حدث في المغرب الإسلامي مثلا؛ إذ تمكن زعماء بعض القبائل، والأحزاب من إقامة كيانات، ودول مستقلة؛ عن الدولتين: الأموية، ثم العباسية بعدها؛ وتبعا لما تفرضه المجتمعات القبلية؛ فقد كانت تلك الكيانات تستند ــ بدورها ــ إلى عصبية القبائل الأمازيغية.

---

[1] **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج: 1، ص 495. والعصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، ص: 243. وفجر الأندلس، ص: 142. والمغرب الإسلامي، ص: 119.**

لقد كان الأمازيغ في بلاد المغرب يعيشون ضمن قبائل وشعوب عديدة؛ منتشرة في تلك الربوع. ويرأس هذه القبائل والشعوب بعض الشيوخ الذين لم يصل بهم الحال إلى مرتبة الملك القاهر، المتحكم في الرقاب. وسبق أن حدثت بعض المحاولات ــ منذ البداية ــ قصد تأليف دول وإمارات ــ هنا وهناك ــ ولكنها فشلت؛ بسبب ضعف اللحمة، وبروز التناقضات المتعددة بين القبائل من جهة، وبسبب عدم حصول الغلبة لعصبية ما على بقية العصبيات المتحالفة من جهة أخرى؛ وعليه فقد عجزت تلك الكيانات عن الوصول إلى مرتبة الملك المتغلب. وظلت في طور الرئاسة والسؤدد؛ اللذين يتصفان بضعف الحكم وهشاشة السلطة. إذ يكون الوازع أو الحاكم ــ في هذه الحال ــ متبوعا؛ دون أن تكون له سلطة قاهرة.

وهذه الصفة تصدق على الكيانات الأولى التي أقامتها الصفرية والإباضية. ولا تدخل في هذا الاعتبار دولة بني مدرار، ولا الدولة الرستمية؛ لأنهما توصلتا إلى مرتبة الملك المتغلب. بينما يصدق ذلك على الكيانات القبلية الأولى؛ التي ظهرت أثناء الفتحِ وبعده؛ مثل: إمارة أوربة البرنسية؛ بزعامة كسيلة، وإمارة جراوة البترية البدوية؛ برئاسة الكاهنة. فهاتان الإمارتان لم تتوصلا إلى مرتبة الملك الغالب والقاهر. كما أن

أهم عوامل فشلهما ــ على ما يبدو ــ هو العامل الديني؛ الذي كان في صف الفاتحين.

وفي هذا السياق تتولى نظرية ابن خلدون تعزيز هذا الاعتقاد؛ وذلك من خلال ما عرضه ضمن بعض الفصول من مقدمته مثل: "**فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية؛ من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم؛ من الدين على الجملة**". و"**فصل في أن الدول العامة الاستيلاء؛ العظيمة الملك؛ أصلها الدين؛ إما من نبوة، أو دعوة حق**". و"**فصل في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة؛ على قوة العصبية؛ التي كانت لها؛ من عددها**". و"**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[1] وعليه فقد فشلت تلك الكيانات جميعها؛ في إنشاء ملك مستقل وقاهر. وتوقف الحال بها كلها في طور المشيخة والرئاسة؛ ذات السلطات المحدودة. غير أنه حصل لبعض القبائل الأخرى أنها تمكنت من إقامة دول مستقلة عن الخلافة الأموية، ثم العباسية بعدها. ويعود السبب في ذلك إلى ما أصاب عصبية بني أمية من وهن؛ أدى إلى تلاشي ظلها عن بلاد المغرب. كما أن توافر بعض الشروط الفعالة؛ ساعدت هي الأخرى القبائل على إقامة دول مستقلة. من بينها العامل الديني أو المذهبي؛ الذي تمكنت بعض

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 626. 636 ــ 642.**

القبائل من تحقيقه؛ الأمر الذي ساعد على تعزيز دور العصبية التي تنتمي إليها.

ولما كانت الدولة العباسية قد ورثت الأوضاع المتردية في بلاد المغرب ـ بعد سقوط الدولة الأموية ـ فقد تعذر عليها إعادة الكرة؛ وإخضاع الدول التي استقلت عن الخلافة من قبل. وهذا ـ طبعا ـ يعود إلى حداثة الدولة العباسية، وبداية عهدها من جهة؛ وإلى شدة العصبية الفياضة؛ التي تتميز بها القبائل المغربية؛ تلك العصبية التي جعلت منها قوة لا يستهان بها. هذا بالإضافة إلى العامل الديني؛ الذي أضحى يشد أفراد القبائل بعضهم إلى بعض. كما أن للعامل الجغرافي كلمته التي لا شك فيها في هذا الباب.

****

دول الخـــوارج

هــذه التسميــة (**الخــوارج**) لــم يطلقهــا أصحابهــا عــلى أنفسهــم؛ بــل سماهــم بهــا خصومهــم. لذلــك نجــد الإباضييــن في بــلاد المغــرب يستنكــرون إطــلاق هــذه التسميــة عليهــم.[1] وتعــود بدايــة ظهــور المذهــب الخــارجي إلى عهــد عــلي بــن أبي طالــب كــرم اللــه وجهــه. وبالتحديــد أثنــاء وقعــة صفيــن؛ أي حيــن رفضــت فئــة مــن المتقاتليــن نتيجــة التحكيــم؛ فخرجــوا عــن صــف عــلي، وفارقــوا صفــوف أنصــاره؛ معلنيــن العصيــان، ثــم دعــوا النــاس إلى خلعــه هــو ومعاويــة معــا. فاعتبرهــم أهــل السنــة ــ بسبــب ذلــك ــ خارجيــن عــن الصــف؛ وأسموهــم الخــوارج.[2]

---

[1] أنظــر: كتــاب طبقــات المشائــخ بالمغــرب، للدرجيــني، ج: 2، الصفحــات: 201 ومــا يليهــا. وكتــاب مختصــر تاريــخ الإباضيــة لسليمــان البــاروني، ص ص: 17 ــ 33. وكتــاب الإباضيــة في موكــب التاريــخ، الحلقــة الثانيــة، ص ص: 21 ــ 23. وكتــاب تاريــخ المغــرب الكبيــر، ج: 2، ص ص: 337 ــ 400.

[2] أمــا الشهرستــاني فيقــول: ((كــل مــن خــرج عــلى الإمــام الحــق الــذي اتفقــت الجماعــة عليــه يســمى خارجيــا؛ ســواء كــان الخــروج في أيــام الصحابــة عــلى الأئمــة الراشديــن، أو كــان بعدهــم عــلى التابعيــن بإحســان، والأئمــة في كــل زمــان... اعلــم أن أول مــن خــرج عــلى أميــر المؤمنيــن عــلي رضي الله عنــه جماعــة ممــن كــان معــه في حــرب صفيــن؛ وأشدهــم خروجــا عليــه ومروقــا في الديــن الأشعــث بــن قيــس الكنــدي، ومسعــر بــن فــدكي التميــمي، وزيــد بــن حصيــن الطــائي؛ حيــن قالــوا: "القــوم يدعوننــا إلى كتــاب اللــه، وأنــت تدعونــا إلى السيــف" حــتى قــال: "أنــا أعلــم مــا في كتــاب اللــه! انفــروا إلى بقيــة الأحــزاب! انفــروا إلى مــن يقــول: كــذب اللــه ورسولــه، وأنتــم تقولــون: صــدق اللــه

ويتميز المذهب الخارجي بسماته السياسية؛ وإن مزج بصبغة دينية. وتدور أصوله حول فكرة الإمامة، ونظرية الحكم في الإسلام؛ حيث شكك أصحابه في صحة الحديث القائل: ((**الأئمة من قريش**))؛ وقالوا بشرعية الإمامة لكل مسلم صالح؛ على أن يتم اختياره بحرية مطلقة؛ لا فرق في ذلك بين عربي وأعجمي، وبين أبيض وأسود. واستندوا في ذلك إلى الحديث الشريف: ((**اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي ذو زبيبة**)). هذا وتباعدت ــ بمرور الوقت ــ الآراء والمعتقدات بينهم، فظهرت اختلافات أساسية في الأفكار المتداولة في أوساطهم؛ وذلك نتيجة لتنوع التأويلات وتشتت المبادئ وتباين المصالح؛ فتوالدت فرقهم وانشقت صفوفهم فانبثقت بينهم فرق جديدة؛ فتتتهم إلى فروع متباينة؛ قد تصل إلى العشرين فرقة تقريبا؛[1] أشهرها: الأزارقة؛

ورسوله)). الملل والنحل، ج: 1، ص: 114. للمزيد من الشرح أنظر: كتاب الكامل للمبرد، ج: ص ص: 76 ــ 251. وكتاب العبر، مج: 3، ص ص: 303 ــ 364. وكتاب الخوارج والشيعة للمستشرق الألماني يوليوس فلهوزن ص ص: 3 ــ 145. وكتاب الفرق الإسلامية للمستشرق الفرنسي آلفرد بل، ص ص: 140 ــ 150. وكتاب فجر الإسلام لأحمد أمين، ص ص: 256 ــ 265.

[1] ذكر الشهرستاني منها: المحكمة الأولى؛ وهم الذين خرجوا عند التحكيم. والأزارقة؛ وهم الذين خرجوا مع نافع بن الأزرق من البصرة إلى الأهواز. والنجدات العاذرية؛ وهم أصحاب نجدة بن عامر الحنفي. والبيهسية؛ وهم أصحاب بيهس الهيصم بن جابر. والعجاردة؛ وهم أصحاب عبد الكريم بن عجرد. والثعالبة؛ وهم أصحاب ثعلبة بن عامر. والإباضية؛ وهم أصحاب عبد الله بن إباض. والصفرية؛ وهم أصحاب زياد بن الأصفر. وتفرع ــ

نسبة إلى نافع بن الأزرق؛ وهم من غلاة الخوارج. ثم النجدات؛ أتباع نجدة بن عامر. ثم الإباضية؛ أتباع عبد الله بن إباض التميمي؛ وهم أقرب الفئات المذكورة من المذاهب السنية؛ فلم يكونوا متطرفين، ولا مغالين في أحكامهم تجاه المخالفين لمعتقدهم من المسلمين. ثم الصفرية؛ أصحاب زياد ابن الأصفر، ويقتربون من الإباضية في أحكامهم ومواقفهم.[1]

وترجع بداية ظهور المذهب الخارجي؛ في بلاد المغرب إلى أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة. حيث انتقل من المشرق بواسطة الخوارج الهاربين من قمع الأمويين بالمشرق؛ إذ وجدوا في ديار المغرب النائية ملجأ آمنا لهم؛ ومنهم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري؛ ذلك الداعية الإباضي اليمني الأصل.[2] وربما كان من أولئك الخوارج أيضا من كان مندسا في صفوف

فيما بعد ــ عن هذه الفرق الثمانية فرق أخرى كثيرة منها: العوفية (العونية)، الصلتية، الميمونية، الحمزية، الخلفية، الأطرافية، الشعيبية، الحازمية، الأخنسية، المعبدية، الرشيدية، الشيبانية، المكرمية، المعلومية والمجهولية، البدعية، الحفصية، الحارثية، اليزيدية. أنظر الملل والنحل، ج: 1، ص ص: 114 ــ 138.

[1] يبدو أن الصفرية في بلاد المغرب كانوا أشد تطرفا من صفرية المشرق. مع استثناء واحد يتمثل في دولة سجلماسة التي تميزت بالتسامح؛ وإن كان ذلك التسامح بدأت بوادره انطلاقا من حكم مدرار؛ الذي أخذ في التقرب من بني رستم ومذهبهم الإباضي.

[2] سير الأئمة وأخبارهم، ص: 57. طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص: 22. الفرق الإسلامية لآلفرد بل، ص: 170. تاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص: 3.

جيوش الخلافة الزاحفة إلى بلاد المغرب؛ ومن هؤلاء على سبيل المثال عكاشة بن أيوب الفزاري؛ الذي كان ضمن جيش عبيد الله بن الحبحاب.[1] كما يمكن إضافة الدور الهام الذي قام به عكرمة بن عبد الله مولى ابن عباس؛ ذلك العالم التابعي الأمازيغي الأصل؛ الذي تقول المصادر أنه كان يعتنق المذهب الخارجي؛ بل الصفري بالتحديد.[2] ولما كانت لعكرمة اتصالات مع بعض رؤساء القبائل الأمازيغية؛ سواء عندما زار إفريقية،[3] أو حينما تقابل معهم في المدينة المنورة. فقد تمكن من نشر أفكاره بينهم. وهذا ما اتضح

---

[1] يقول الرقيق القيرواني: ((وكان صفريا يعبد الله؛ وهو الذي قدم على طليعة أهل الشام؛ مع عبيد الله بن الحبحاب)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 114. أنظر أيضا فتوح مصر والمغرب، ص ص: 294 ــ 299. والكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 223. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 58 ــ 59.

[2] ذكره الشهرستاني بين رجال الخوارج؛ دون أن يحدد أي فرقة منهم. الملل والنحل، ج:1، ص: 137. وكذلك ابن خلكان الذي قال فيه: ((وقد تكلم الناس فيه؛ لأنه يرى رأي الخوارج)). وفيات الأعيان، ج: 3، ص: 265.

[3] قال المالكي: ((دخل عكرمة إفريقة وأقام بالقيروان، وبث بها العلم؛ وكان مجلسه في مؤخر جامع القيروان في غربي الصومعة)). رياض النفوس، ج: 1، ص: 146. وجاء في التعليق 8 من الصفحة نفسها بالمصدر نفسه: ((أورد الذهبي في تاريخ الإسلام (3: 160) نصا مهما عن صلة عكرمة بالمغرب؛ ويزيد في أهميته أن سنده إفريقي: "حدثنا خلاد بن سليمان الحضرمي عن خالد بن أبي عمران قال: كنا بالمغرب وعندنا عكرمة في وقت الموسم؛ فقال عكرمة: وددت أن بيدي حربة اعترض بها من شهد الموسم. قال فرفضه أهل إفريقية")). وإن صح هذا النص ربما دل على نزعة العنف عند عكرمة. أنظر أيضا طبقات علماء إفريقية لأبي العرب. ص ص: 82 ــ 83.

من اجتماع سمغون (سمكو) بن واسول به بإفريقية عندما زار عكرمة تلك الديار للدعوة لمذهبه؛ أو بالمدينة كما ذكر ابن خلدون.[1] وكما هو معروف كان هو كبير مكناسة؛ تلك القبيلة التي أنشأت دولة بني مدرار في سجلماسة. هذا وانتشر المذهب الخارجي ببلاد المغرب بين الأمازيغ بسرعة قياسية مدهشة؛ إذ اعتنقه السواد الأعظم منهم؛ منبهرين بتعاليمه الداعية إلى ما يعرف اليوم بالديمقراطية والمساواة والحرية. وقد ساعد على سرعة انتشار هذا المذهب، وازدياد أنصاره؛ ما كان يبديه بعض ولاة الدولتين: الأموية والعباسية من سلوك اتسم بسوء السياسة، والجشع المادي، والعصبية العمياء. وقد استفحل أمر هذا المذهب ــ منذ البداية ــ في ظل ثورات الأمازيغ؛ ضد الحكم الأموي. وكانت أولى الثورات الخطيرة هي الثورة التي قادها ميسرة المطغري سنة

---

[1] قال البكري: ((وكان فيه أبو القاسم سمجوا [سمغون] بن واسول المكناسي أبو اليسع المذكور وجد مدرار لقي بإفريقية عكرمة مولى ابن عباس وسمع منه وكان صاحب ماشية وكثيرا ما ينتجع موضع سجلماسة؛ فاجتمع إليه قوم من الصفرية ؛ فلما بلغوا أربعين رجلا قدموا على أنفسهم عيسى بن مزيد الأسود، وولوه أمرهم؛ فشرعوا في بنيان سجلماسة؛ وذلك سنة أربع ومائة)). المغرب، ص: 149. أما ابن خلدون فيقول أن اللقاء حدث في المدينة: ((كان أبوه سمقو [سمغون] من حملة العلم؛ ارتحل إلى المدينة؛ فأدرك التابعين، وأخذ عن عكرمة مولى ابن عباس. ذكره عريب بن حميد في تاريخه. وكان صاحب ماشية وهو الذي بايع لعيسى بن يزيد، وحمل قومه على طاعته)). العبر، مج: 6، ص ص: 210. 267 ــ 268.

122هـ(739م)؛ ذلك الثائر الذي حاول إنشاء إمارة؛ بل خلافة؛ بعد أن عقد البيعة لنفسه بالخلافة. ولكنه لم يدم في مركزه طويلا؛ إذ ثار عليه أتباعه، وقتلوه؛ بسبب بعض المآخذ التي حسبوها عليه؛ منها سوء القيادة، وفساد سياسته.

ثم أجمعت القبائل الثائرة ــ بعد مقتل ميسرة ــ على إسناد أمرها إلى خالد بن حميد الزناتي؛ ذلك القائد الذي تصدى لجيوش بني أمية، وأشعل البلاد حربا ضارية ضدهم؛ كادت أن تزيل حكم الأمويين من بلاد المغرب كافة. ومع هذا لم تنجح هذه الإمارة في البقاء طويلا؛ بسبب تباين أهواء قبائلها، وافتقارها للعصبية المتجانسة؛ ذات النفوذ والكثرة والفاعلية والغلبة.[1] وذلك أن أتباع هذه الإمارة وأنصارها كانوا ــ منذ البداية ــ خليطا من مختلف القبائل الأمازيغية المتساوية في العدد والسطوة وشدة العصبية؛ وكان الحلف بينها هشا وظرفيا؛ فاستظلوا ــ سطحيا ــ بمظلة المذهب الصفري بعض الوقت. غير أن العصبية القبلية ــ وإن كانت تفتقر إلى التلاحم والتماسك اللازمين ــ فقد هيمنت على النزعة المذهبية التي كانت تتسم ــ في ذلك الوقت ــ بالضعف وعدم الوضوح؛ وعليه فلم يستحوذ جوهر ذلك المذهب على القلوب بالقدر

---

[1] أنظر كيف تخلى وأتباع أبي قرة عن حلفائهم الخوارج بمجرد إغرائهم بأربعين ألف درهم؛ خلال حصارهم لعمر بن حفص بطبنة حاضرة الزاب. العبر، مج: 7، ص ص: 24 ــ 25. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 49 ــ 51.

الكافي؛ مما أضعف دوره في مساعدة العصبيات المتحالفة على تحقيق التلاحم المطلوب.

وحتى يسهل تفسير تلك الأحداث؛ يستحسن مراجعة نظرية ابن خلدون؛ التي تقول بضرورة تحقيق شروط التركيب والمزج الصحيحين؛ لكي يتحقق الالتحام الفعال بين العصبيات المراد توحيدها؛ ((**لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكون؛ لا يصلح إذا تكافأت العناصر؛ فلا بد من غلبة أحدها؛ وإلا لم يتم التكوين. فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية**)).[1] ولما كانت القبائل الأمازيغية المتحالفة متساوية في قوة العصبية؛ فقد تعذر عليهم تحقيق الوحدة والمزج والتلاحم؛ خاصة وأنهم لم يمتلكوا زمام الدعوة المذهبية على أفضل وجه. وطبعا هذا شرط آخر يضعه ابن خلدون في نظريته؛ إلى جانب شرط المزج والتركيب السابق الذكر.[2] وقد ثبت عجز تلك القبائل المتحالفة تحت

---

[1] **المقدمة ، ج: 2، ص: 599.**

[2] **يقول ابن خلدون: ((أن الصبغة الدينية تذهب التنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية... واعتبر ذلك أيضا في دولة لمتونة ودولة الموحدين. فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم في العدد والعصبية أو يشف [أي يزيد] عليهم؛ إلا أن الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة... واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفسدت؛ كيف ينتقض الأمر، ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين؛ فيغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها؛ الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد بداوة. واعتبر هذا في الموحدين مع زناتة؛ لما كانت زناتة أبدى [أي أشد بداوة]**

قيادة خالد بن حميد الزناتي عن إنشاء ملك أو دولة ما. وكل ما ورد في المصادر عنها؛ هو إمكانية انقسامها إلى فئتين اثنتين؛ يجمعهما ما اصطلح على تسميته بفرق المذهب الخارجي؛ وهي: الصفية، والإباضية.

ويبدو أن أولئك الثائرين من أبناء القبائل الأمازيغية لم يصلوا إلى مستوى يؤهلهم للتأمل الدقيق في الجوهر الذي يفصل بين الصفرية والإباضية. وكل ما كان يشدهم إليهما هو المبدأ الديمقراطي الذي يجمعهما.[1] أما سبب تصنيفهما إلى صفرية وإباضية؛ فربما رجع إلى المؤرخين الإسلاميين؛ أكثر من رجوعه إلى المعنيين أنفسهم؛ لذا فإن النزعة القبلية كانت هي الأقوى بروزا؛ واتباع رئيس القبيلة هو الأهم لديهم. وما كان يجمع الناس آنئذ هو سخطهم وعداوتهم للحكم الأموي الظالم. ويبدو أنهم وجدوا في الانتساب لتلك الفرق الخارجية مخرجا يقيهم من التسلط الأموي؛ دون أن يجبروا على مخالفة الدين الإسلامي الحنيف. وربما جاء تصنيف المؤرخين للقبائل الأمازيغية

من المصامدة وأشد توحشا؛ وكان للمصامدة الدعوة الدينية بإتباع المهدي؛ فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم بها؛ فغلبوا على زناتة أولا واستتبعوهم؛ وإن كانوا من حيث العصبية والبداوة أشد منهم؛ فلما خلوا من تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناتة من كل جانب، وغلبوهم على الأمر وانتزعوه منهم)). نفسه، ص ص: 637 ــ 638.

[1] أنظر تاريخ مسلي أسبانيا، لدوزي، ص : 146 ــ 147. والفرق الإسلامية لبل، ص: 146.

الثائرة إلى صفرية وإباضية؛ تبعا لملاحظة سلوك كل فئة في القتال أمام خصومهم من المسلمين؛ ومدى ما يحرمونه على أنفسهم وما يحللونه.

وهكذا فبواسطة هاتين الفرقتين انتشرت ــ بعد ذلك ــ الثورات الطاحنة؛ عبر بلاد المغرب كلها. ثورات ظاهرها مذهبي وديني؛ أما مضمونها فيتميز بالعصبية والنزعة القبلية. وقد تمكن المذهبان المذكوران من تقسيم البلاد بينهما تقريبا؛ فانحازت قبائل: غمارة ومكناسة وبرغواطة وبنو يفرن ومغيلة وورفجومة، وبعض بطون صنهاجة، وبطون من زناتة؛ إلى الصفرية. أما: هوارة ونفوسة ولمايه ولواتة، وبطون أخرى من زناتة؛ فقد انضمت إلى المذهب الإباضي.[1]

هذا وقد انجر عن تلك الانتماءات المذهبية قيام دول خارجية مستقلة في أقاصي البلاد؛ ترتكز على النظام القبلي، والروح المذهبية. منها: دولة برغواطة؛ التي نشأت في بدايتها ضمن الغطاء المذهبي الصفري، ثم دولة بني مدرار الصفرية، ثم دولة بني رستم الإباضية. وقد استطاعت هذه الدول الثلاث البقاء والصمود؛ أمام كل الاضطرابات التي اجتاحت المغرب الإسلامي آنذاك؛ متحدية ــ بذلك ــ سطوة الخلافة الأموية، ثم الخلافة العباسية بعدها. كما استطاعت أيضا إضفاء

---

[1] العبر، مج: 6، ص ص: 223 ــ 227. 246 ــ 248. 255 ــ 267. 286 ــ 287. 428 ــ 438.

طابع مذهبي وديني على مؤسساتها؛ مع شيء من التفاوت فيما بينها.

غير أنه من الضروري ـ هنا ـ التذكير؛ بكون الدول الثلاث كان يغلب عليها الطابع القبلي؛ مصبوغا بسمات البداوة المحض؛ معززة بمبادئ مذهبية، وعقائدية؛ منحتها نفحة دينية متميزة. علما بأن دولة بني رستم تفوقت على أختيها؛ في نظمها وفي سيادتها وفي نفوذها. إذ كانت تتمتع باستقلالية أوسع منهما. حيث كانت دولة برغواطة تعلن ولاءها للدولة الأموية بالأندلس.[1] أما إمارة بني مدرار؛ فقد صرحت بالدعوة لخلفاء بني العباس ببغداد.[2] ومع هذا فقد ظل ذلك الولاء شكليا؛ لا يؤثر ولا يتأثر. فالهدف منه هو كسب نوع من الشرعية؛ قد تساعد على الثبات والاستقرار. والذي يحث على تخصيص فقرات للحديث عن تلك الدول؛ في هذا المجال؛ هو ما عرف عن منعتها، وتحديها للدول الكبرى آنئذ. غير أن المعلومات الضئيلة التي أوردها المؤرخون عنها لا تفي بالحاجة المطلوبة. وسيبقى أمرها مغلفا بالغموض؛ ما دامت النصوص التاريخية الكافية مفقودة.

---

[1] **المغرب، 135. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص: 183. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 224. والعبر، مج: 6، ص: 130.**

[2] **العبر، مج: 6، ص: 268. وصبح الأعشى، ج: 5، ص: 165.**

وجملة القول؛ فهذه الدول نشأت في أعقاب الفشل الذي لحق بالقبائل الصفرية والإباضية؛ أمام ولاة إفريقية والمغرب؛ طوال الفترة الزمنية الممتدة من عام 124هـ(741م) إلى عام 144هـ(761م)؛ حيث تفرقت ـ نتيجة لذلك الفشل ـ القبائل الأمازيغية (الصفرية والإباضية) في ربوع المغربين: الأقصى والأوسط؛ أين تحصنوا في المناطق النائية، وشيدوا دولهم الخاصة بهم.

****

1)ـ الدولـــة البرغواطيـــة:

أدى فشـــل الصفريـــة والإباضيـــة أمـــام الدولـــة الأمويـــة ببـــلاد المغـــرب؛ إلى قيـــام الدولـــة الصفريـــة الأولى في أقـــصى البـــلاد؛ ممثلـــة ببرغواطـــة سنـــة 127هـــ (744م). وذلـــك عندمـــا لجـــأت فلولهـــم ـــ مـــع طريـــف الصفـــري ـــ إلى إقليـــم تامسنـــا (بمنطقـــة الـــدار البيضـــاء حاليـــا)؛ حيـــث تـــرأس بعـــض القبائـــل ـــ هنـــاك ـــ مـــن: مصمـــودة وزواغـــة وزناتـــة، وقبائـــل أخـــرى.[1] وبعـــد موتـــه خلفـــه ابنـــه صالـــح؛ الـــذي نسبـــت إليـــه النحلـــة البرغواطيـــة. وبذلـــك يكـــون طريـــف وابنـــه صالـــح قـــد وصـــلا إلى مرتبـــة الرئاســـة والســـؤدد في قبائـــل متعـــددة؛ مـــع أنهمـــا لا ينتميـــان إلى عصبيتهمـــا. فكيـــف حصـــل ذلـــك؟

الإجابـــة عـــلى هـــذا توجـــد عنـــد ابـــن خلـــدون؛ الـــذي ذكرهـــا ضمـــن: "**فصـــل في أنـــه يحـــدث لبعـــض أهـــل النصـــاب الملـــكي دولـــة؛ تستغـــني عـــن العصبيـــة**".[2]

---

[1] **وكانـــوا أحيـــاء مـــن قبائـــل كثيـــرة؛ ذكرهـــم البكـــري بقولـــه: ((وأن قبائـــل برغواطـــة الذيـــن يدينـــون لهـــم؛ وهـــم عـــلى ملتهـــم: جـــراوة، وزواغـــة، والبرانـــس، وبنـــو أبي ناصـــر، ومنجصـــة، وبنـــو أبي نـــوح، وبنـــو واغمـــر، ومطغـــرة، وبنـــو يـــورغ، وبنـــو دمـــر، ومطماطـــة، وبنـــو وزكسينـــت؛ وعددهـــم ينتـــهي أزيـــد مـــن عشـــرة آلاف فـــارس. وممـــن يديـــن لهـــم مـــن المسلميـــن، وينضـــاف إلى مملكتهـــم زناتـــة الجبـــل، وبنـــو يليـــت، ونمالتـــة، وبنـــو واسينـــت، وبنـــو يفـــرن، وبنـــو وناغيـــت، وبنـــو النعمـــان، وبنـــو إفلوســـة، وبنـــو كونـــة، وبنـــو يسكـــر، وأصـــادة، وركانـــة، وإيزميـــن، ومنـــادة، وماسينـــة، ورصانـــة، وترارتـــة؛ ومبلـــغ عددهـــم اثـــني عشـــر ألـــف فـــارس)). المغـــرب، ص ص: 140 ـــ 141.**

[2] **المقدمـــة، ج: 2، ص ص: 635 ـــ 636.**

والمقصود هنا؛ هي عصبية صاحب النصاب؛ الذي يلجأ إلى عصبية أخرى؛ عندما يفقد عصبيته الخاصة. ويرى ابن خلدون في هذا الفصل أن معرفة الناس بصاحب النصاب اللاجئ إليهم، وتقديرهم منزلته السابقة وتعظيمها؛ يكفيان لقبول رئاسته، وسلطانه عليهم. وهكذا يستعين بعصبية أخرى؛ غير عصبيته؛ فيؤسس بواسطتها دولته المستحدثة. وقد حدث هذا ـ أيضا ـ في دولتي: الأدارسة، والفاطميين فيما بعد.

ـ حكومة صالح بن طريف البرغواطي:

ولما كان طريف وزيرا وقائدا سابقا لميسرة المطغري؛[1] فقد اعتبرته القبائل الأمازيغية ـ المتواجدة بمنطقة تامسنا ـ أحد الذين يدخلون ضمن أهل النصاب الملكي؛ فسهل انقيادهم إليه؛ تسليما منهم بمكانته، ومركزه السابق. وثمة أقوال أخرى تنسب جزيرة طريف ـ بالعدوة الأندلسية ـ إلى طريف هذا[2]. وإذا صح هذا الخبر؛ يكون هذا الرجل هو ذلك القائد الأمازيغي الذي قام بغزو بلاد الأندلس في حملة استطلاعية سنة 91هـ(709م) قبل أن يغزوها طارق بن زياد.[3] وعليه يكون طريف هذا من

---

[1] **أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 181.**

[2] **المغرب، ص: 135.**

[3] **قال ابن عذاري: ((فبعث موسى بن نصير عند ذلك رجلا من البربر؛ يسمى طريفا ويكنى أبا زُرَعة؛ في مائة فارس وأربعمائة راجل؛ فجاز في**

أبـرز القـادة والأمـراء الأمازيـغ. أضـف إلى ذلـك كلـه مـا للعامـل الديـني مـن أثـر عـلى الأوضـاع؛ حيـث كـان للمذهـب الصفـري دوره في تعزيـز اللحمـة وشحـن النفـوس بالغيـرة وروح التضحيـة. ذلـك لأن الديـن يزيـل خلـق التكبـر والحسـد والتنافـس. وبمـرور الوقـت نسيـت قبائـل تامسنـا نسـب طريـف الأول، وخفيـت عـن التابعيـن الكيفيـة الـتي وصـل بهـا إلى الحكـم. وهكـذا أصبـح منسوبـا إليهـم وفي عدادهـم.

هـذا مـن جهـة؛ ومـن جهـة أخـرى ثمـة مـن لا يضـع الدولـة البرغواطيـة في عـداد الـدول الصفريـة أصـلا؛ نظـرا لكونهـا انحرفـت عـن تعاليـم المذهـب الصفـري الخـارجي نفسـه؛ بـل هنـاك مـن يتهـم أمراءهـا بالارتـداد عـن الديـن الإسـلامي أيضـا؛ حيـث أجمعـت المصـادر التاريخيـة عـلى ذلـك تقريبـا؛ تبعـا لمـا يدعيـه البرغواطيـون مـن النبـوة، وزعمهـم بنـزول الـوحي عـلى رابـع أمرائهـم (يونـس)؛ الـذي يقـال أنـه ابتـدع النحلـة البرغواطيـة، وألـف مـا أسمـاه قرآنـا.[1] عـلى أن بعـض المؤرخيـن ينسبـون ادعـاء النبـوة إلى جـدّه صالـح؛ ويقولـون أنـه هـو الـذي ابتكـر هـذه

أربعـة مراكـب؛ حـتى نـزل في ساحـل البحـر بالأندلـس؛ فيمـا يحـاذي طنجـة؛ وهـو المعـروف اليـوم بجزيـرة طريـف؛ سميـت باسمـه لنزولـه هنالـك؛ فأغـار منهـا عـلى مـا يليهـا إلى جهـة الجزيـرة الخضـراء، وأصـاب سبيـا ومـالا كثيـرا؛ ورجـع سالما. وكانت إجازته في شهر رمضان من سنة 91هـ)). البيـان المغـرب، ج: 2، ص: 5.

[1] المغـرب، ص ص: 134 ـــ 141. والبيـان المغـرب، ج: 1، ص ص: 223 ــ 227. وأعمـال الأعـلام، ق: 3، ص ص: 182 ــ 187. والعبر، مج: 6، ص ص: 428 ــ 435.

النحلة. أما يونس فقد أظهرها للعلن؛ بعد أن كانت تمارس في الخفاء.[1] وهذا طبعا يخرجه ـ مع أتباعه ـ من صفوف المذهب الصفري الخارجي الإسلامي. غير أن نشأة الدولة البرغواطية في بداية عهدها الأول ـ كما تشير مصادر عديدة ـ كانت صفرية المذهب؛ ولم يظهر على أصحابها انحراف ما عن جوهر الدين الإسلامي؛ وما حدث من انحراف لم يتم إلا في عهد أمير الدولة الرابع. لذلك وجدت هذه الدولة مكانا لها في هذا المجال.

والذي يهم هنا؛ هو أنه لا سبيل إلى الشك في أن عامل العقيدة ـ الممثل بالمذهب الصفري ـ قد لعب دورا هاما في تعزيز التحالف القبلي، وفي التلاحم بين أعضائه في بداية الأمر؛ مما ساعد على تشييد إمارة برغواطة. لكن هذا لا ينفي ما للعصبية الأمازيغية أيضا من تأثير في تقوية اللحمة وتماسكها بين القبائل. بحيث انبثق الأمر على شكل من أشكال الرفض والمقاومة للعصبية العربية؛ الممثلة بالأمويين أولا، ثم العباسيين بعدهم. هذا كله حث بعض العشائر والقبائل الأمازيغية، وحفزها على التحالف فيما بينها؛ ضمن عصبية واحدة؛ لمواجهة التحدي الذي كانوا يعتقدون أنه يهددهم.

---

[1] **المغرب، ص: 135.**

وظهور النحلة البرغواطية ــ فيما بعد ــ بين قبائل لا تعرف من تعاليم الإسلام الصحيحة إلا القليل منها؛ ساعد على تكتلها ضمن عصبية موحدة وقوية؛ شحنت بمفاهيم خرافية وطقوس مضللة، خاطئة. كما أن تلك النحلة ليست بريئة من النزعة الشعوبية؛ التي متنت اللحمة بين العشائر الأمازيغية، وزادتها ارتباطا. ودلائل ذلك؛ تتجلى فيما ورد من نصوص تخص نحلتهم؛ تلك النصوص والطقوس الوثنية الناطقة بالأمازيغية.[1] الأمر الذي كان يمدهم بشحنات من الزهو والافتخار الشعوبي. وبذلك اشتدت عصبيتهم واستفحلت؛ محققة لدولتهم البقاء، والاستمرار إلى عهد المرابطين؛ المشكلين من قبائل لمتونة ومسوفة؛ الذين تمكنوا من إسقاط الدولة البرغواطية تماما سنة 450هـ(1058م)؛ بفضل تفوقهم وامتيازهم في شدة العصبية وتماسكها؛ إلى جانب صدق وعنفوان التعاليم الدينية المهيمنة على النفوس.

وثمة بعض الكتاب والمؤرخين الأندلسيين والمغاربة ــ مثل ابن أبي زرع وابن الخطيب ــ ينسبون طريفا وابنه صالحا إلى أصول يهودية؛ وتقول مصادرهم بأن صالحا ــ أو طريفا وربما يونس في أقوال أخرى ــ قد قدم إلى بلاد المغرب من بلدة شذونة؛ المتواجدة بوادي برباط بالجنوب

---

[1] **أنظر ما أورده البكري في كتابه المغرب، ص ص: 139 ــ 140. وابن عذاري في البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 226 ــ 227.**

الغـربي مـن بـلاد الأندلـس؛ وعـلى ذلـك فقـد سـمي كـل مـن اتبعـه ــ في بدايـة الأمـر ــ بربـاطي؛ ومـع الوقـت حرفـت التسميـة تبعـا لنطـق النـاس آنـذاك؛ فقالـوا في كـل مـن أتبـع مذهـب صالـح الصفـري برغـواطي.[1] غيـر أن عـددا مـن المؤرخيـن يخالفـون

---

[1] وعـن صالـح ونحلتـه يقـول ابـن أبي زرع: ((وكـان أصلـه ــ لعنـه اللـه ــ مـن بَربـاط مـن عمـل شذونـة مـن بـلاد الأندلـس؛ فكـان يقـال مـن تبعـه ودخـل في ديانتـه بربـاطي؛ فعربتـه العـرب، وقالـوا برغـواطي؛ فسمـوا برغواطـة. وكـان صالـح بـن طريـف الـذي ادعى فيهـم النبـوة رجـلا خبيثـا يهـودي الأصـل؛ مـن ولـد شمعـون بـن يعقـوب عليـه السـلام؛ نشـأ ببربـاط مـن بـلاد الأندلـس، ثـم رحـل إلى المشـرق؛ فقـرأ عـلى عبيـد اللـه المعتـزلي القـَدَري، واشتغـل بالسحـر؛ فجمـع منـه فنونـا كثيـرة. وقـدم المغـرب فنـزل بـلاد تامسنـا؛ فوجـد بهـا قبائـل مـن البربـر هـالا؛ فأظهـر لهـم الإسـلام والزهـد والـورع؛ فأخـذ بعقولهـم، واستمالهـم بسحـره ولسانـه؛ وأراهـم مـن نوارجـه [أي نميمتـه] وتمويهاتـه؛ فاستهواهـم بذلـك، وأقـروا بفضلـه، واعترفـوا بولايتـه؛ فقدمـوه عـلى أنفسهـم، وصـدروا عـن رأيـه في جميـع أمورهـم، ووقفـوا عنـد أمـره ونهيـه؛ فـادعى النبـوة، وتسـمى بصالـح المؤمنيـن. وقـال لهـم أنـا صالـح المؤمنيـن الـذي ذكـره اللـه في كتابـه العزيـز الـذي أنزلـه عـلى محمـد e؛ وشـرع لهـم الديانـة الـتي أخذوهـا عنـه وذلـك في سنـة خمـس وعشريـن ومائـة... وأنهـم يصومـون شهـر رجـب، ويأكلـون شهـر رمضـان، وفـرض عليهـم عشـر صلـوات: خمسـا بالليـل، وخمسـا بالنهـار؛ وإن الأضحيـة واجبـة عـلى كـل مسلـم في الحـادي والعشريـن مـن المحـرم. وشـرع لهـم في الوضـوء غسـل السـرة والخاصرتيـن. وصلاتهـم إيمـاء؛ لا سجـود فيهـا، ويسجـدون في آخـر ركعـة خمـس سجـدات. ويقولـون عنـد الطعـام والشـراب: باسـم "ياكـس"؛ وزعـم أن تفسيـره باسـم اللـه. وأمرهـم أن يخرجـوا العشـر مـن جميـع الثمـار. وأبـاح لهـم أن يتـزوج الرجـل مـن النسـاء مـا شـاء؛ ولا يتـزوج مـن بنـات عمـه؛ ويطلقـون ويرجعـون ألـف مـرة في اليـوم. فـلا تحـرم عليهـم المـرأة بـشيء مـن ذلـك. وأمرهـم بقتـل السـارق حيـث وجـد؛ وزعـم أنـه لا يطهـره مـن ذنبـه إلا السيـف. وأمرهـم بالديـة مـن البقـر. وحـرم عليهـم رأس

هـذا الـرأي؛ مـن بينهـم عبـد الرحمـن بـن خلـدون الـذي يكـذب الأخبـار الـتي تنسـب صالحـا هـذا إلى اليهـود، أو ترجـع موطنـه الأول إلى بلـدة برباط، أو تقـول أنـه ذهـب إلى المشـرق؛ أيـن تعلـم السحـر، أو تزعـم أنـه قـرأ عـلى عبيـد اللـه المعتـزلي؛ ثـم عودتـه إلى المغـرب؛ أيـن وجـد قومـا مـن زناتـة جهلـة... إلـخ. ثـم ينتـهي إلى القـول: ((**ذكـر ذلـك كلـه صاحـب كتـاب نظـم الجوهـر وغيـره مـن النسابيـن للبربـر. وهـو مـن الأغاليـط البينـة. وليـس القـوم مـن زناتـة؛ ويشهـد لذلـك كلـه موطنهـم وجوارهـم لإخوانهـم المصامـدة. وأمـا صالـح بـن طريـف فمعـروف منهـم؛ وليـس مـن غيرهـم؛ ولا يتـم التغلـب عـلى النـواحي والقبائـل لمنقطـع جذمـه، دخيـل في نسبـه. سنـة اللـه في عبـاده؛ وإنمـا الرجـل في برغواطـة؛ وهـم شعـب مـن شعـوب المصامـدة معـروف**)).[1] ومـع ذلـك فمـا قالـه ابـن خلـدون في هـذا الأمـر يحتـاج إلى تمحيـص وفحـص؛ فهـو عندمـا نسـب برغواطـة إلى المصامـدة. وحيـن أرجـع مصـدر تلـك الأخبـار ــ المرفوضـة

كـل حيـوان؛ والدجاجـة مكـروه أكلهـا؛ وقـد وقتهـم في الأوقـات الديكـة؛ وحـرم عليهـم ذبحهـا وأكلهـا؛ ومـن ذبـح ديكـا وأكلـه أعتـق رقبـة... ووضـع لهـم قرآنـا يقرؤونـه في صلواتهـم)). الأنيـس المطـرب، ص: 83. كمـا تكلـم البكـري أيضـا عـن بعـض التفاصيـل الأخـرى تخـص هـذه النحلـة. المغـرب، ص ص: 135 ــ 140. وقـد أشـار إليهـا أيضـا ابـن عـذاري وابـن الخطيـب. البيـان المغـرب، ج: 1، ص ص: 225 ــ 227. أعمـال الأعـلام، ق: 3، ص ص : 182 ــ 183.

[1] **العبـر، مج: 6، ص: 435.**

لديه ــ إلى صاحب كتاب نظم الجوهر وآخرين؛ لم يقدم دليلا أو حجة مقنعة تساند رأيه الرافض لما ذكره غيره؛ سوى تعليله للأمر بوحدة الموطن وعامل الجوار؛ علما بأن المنطقة التي تغلبت عليها برغواطة؛ تعتبر عند كثير من المؤرخين موطنا لقبائل عديدة ومتنوعة الأنساب ومختلفة العصبيات؛ وليست خاصة بالمصامدة فقط؛ بل هي من مواطن زناتة حسبما ذكر البكري.[1] كما أن خبر برغواطة لم يأت عن طريق كتاب نظم الجوهر والنسابة الأمازيغ فحسب؛ بل جاء أيضا بواسطة الرواية التي أوردها البكري صاحب كتاب المغرب ــ وهو قديم العهد بالمقارنة مع زمن ابن خلدون ــ وقد استعان ابن خلدون نفسه بخبر البكرى.[2] وفي هذا يقول البكري أنه نقل خبر برغواطة عن الرواية المنسوبة إلى المدعو زمور ابن موسى بن هشام بن وارديزن البرغواطي؛ صاحب صلاتهم، وسفير آخر أمرائهم أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار. حدث ذلك عندما قدم رسولا إلى الخليفة المستنصر، من قبل أميره عيسى ابن أبي الأنصار البرغواطي. وكان وصوله إلى قرطبة في 352هـ(963م).

---

[1] **المغرب، ص: 135.**

[2] **العبر، مج: 6، ص ص: 428 ــ 432.**

وجملة القول؛ فإن ما قاله البكري لا يختلف كثيرا عما ذكره آخرون؛ ومنهم ابن أبي زرع وابن الخطيب وابن عذاري؛ الذين يجمعون على أن برغواطة عبارة عن تجمع لقبائل أمازيغية متحالفة. ثم كيف يستبعد ابن خلدون أن تقبل قبائل تامسنا بطريف كأمير عليهم؟! مع أنه هو صاحب النظرية التي تقول بإمكان الاستعانة بعصبية أخرى؛ غير عصبية صاحب النصاب؛ بحيث تعوضه العصبية البديلة عن غياب عصبيته؛ وهذا ما نص عليه ضمن: "**فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة؛ تستغني عن العصبية**".[1] وكما هو معلوم فطريف هذا يدخل في عداد أهل النصاب؛ إذ كان وزيرا وقائدا في جيش ميسرة. بل كان عاملا لميسرة في تامسنا نفسها؛ كما ذكر ابن خلدون بالذات.[2] وإذا صحت الرواية التي تسند إلى طريف قيادة الحملة العسكرية الاستطلاعية إلى أرض الأندلس؛ تلك الحملة التي سبقت غزوة طارق بن زياد؛ فإنه عندئذ يكون من أبرز القادة الأمازيغ في تلك الأيام. وعليه فإنه يكون قد انفرد بالأمر في تامسنا النائية؛ حيث انضم إليه ــ حسبما يبدو ــ جماعات من الصفرية الذين سبق لهم أن ثاروا معه ومع ميسرة؛ وبهم تشكلت النواة الأولى للدولة البرغواطية. وبعد مماته خلفه في الحكم ابنه صالح؛

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 635 ـــ 636.**

[2] **العبر، مج: 6، ص: 428.**

الـذي نسبـت إليـه النحلـة البرغواطيـة. ويقـول ابـن خلـدون أن أول ظهـور لـه كـان في عهـد هشـام بـن عبـد الملـك.

أمـا مـا راج مـن مزاعـم تنسـب طريفـا أو صالحـا إلى اليهـود؛ يظهـر أنهـا لـم تكـن سـوى شكـل مـن أشكـال النبـز والشتيمـة.. والـذي عـزز تلـك الافتراضـات ــ حسبمـا يظهـر ــ هي أسمـاء أجدادهمـا مثـل: شمعـون ويعقـوب وإسحـاق؛ ثـم بعـض الإشـارات الأخـرى الـتي تنبعـث مـن معتقداتهـم وأساطيرهـم؛ الـتي وردت في قرآنهـم المزعـوم. وحـتى إن صـح نسبهـم لليهـود؛ فقـد يكـون ذلـك حصـل قبـل الفتـح؛ إذ يحتمـل أن يكـون طريـف قـد انحـدر مـن أسـرة كانـت تعتنـق ديانـة يهوديـة؛ قبـل أن يدخـل الإسـلام إلى ديـار المغـرب. وهـذا أمـر كـان موجـودا في تلـك الربـوع؛ إذ ذكـرت مصـادر تاريخيـة عديـدة اعتنـاق بعـض القبائـل الأمازيغيـة للديانـة اليهوديـة، إلى جانـب المسيحيـة في بـلاد المغـرب قبـل الفتـح الإسـلامي. وطبعـا فمـا المانـع مـن التسليـم بدخـول مـن كـان يهوديـا أو نصرانيـا إلى الإسـلام؛ ضمـن الأفـواج الـتي دخلـت فيـه مـن أتبـاع الديانـات الأخـرى؟

ـ حكومة إلياس بن صالح البرغواطي:

وتقول بعض المصادر أن صالحا استخلف ابنه إلياس، ثم سافر إلى المشرق سنة 128هـ(745م). وذلك بعد أن أوصاه بإخفاء ديانتهم؛ حتى يقوى شأنهم؛ فيتسنى له ـ عندئذ ـ قتل المخالفين. كما أوصاه بأن يلتزم بموالاة ملوك بني أمية في الأندلس. وتقول بعض الروايات أيضا أنه أخبره بموعد عودته المقبلة؛ التي حددها بحلول عهد الملك السابع من ملوكهم؛ حيث قال أنه سيظهر لهم في شخص المهدي؛ الذي يقتل الدجال، ويملأ الأرض عدلا بعد أن تكون قد ملئت جورا. ثم قال له: إن عيسى بن مريم عليه السلام سيكون من بين جنوده؛ إذ يصلي خلفه. ومن خلال ما جاء في بعض الروايات؛ تكون مدة حكم صالح قد دامت نحو ست سنين. ولما انتصب إلياس ملكا على قبائل برغواطة عمل بوصية والده؛ فلم يظهر شيئا من نحلة برغواطة؛ وتقول المصادر أنه كتمها ولم يخض في شأنها؛ وبالمقابل كان يظهر الإسلام، ويتحلى بالعفاف والصلاح. وبقي في الحكم ما يقارب الخمسين سنة.

ـ حكومة يونس بن إلياس البرغواطي:

وبعد موت إلياس سنة 176هـ(792م) خلفه ولده يونس. فاتخذ **شالة** حاضرة لملكه. وهو أول من أظهر ديانتهم المزعومة؛ في أرجح الأقوال. وتم ذلك بعد عودته من رحلة الحج.[1] غير أن بعضهم ينسب إليه تأسيس النحلة دون جده صالح.[2] وكان يونس هذا شديدا وفاتكا؛ إذ أشعل تلك الجهات الغربية حربا وتدميرا وتشريدا للسكان؛ مجبرا

---

[1] قال ابن خلدون: ((ورحل يونس إلى المشرق وحج؛ ولم يحج أحد من أهل بيته قبله أو بعده؛ وهلك لأربع وأربعين سنة من ملكه)). العبر، مج: 6، ص: 430.

[2] نقل البكري قائلا: (("قال أبو العباس فضل بن مفضّل المذحجي؛ أن يونس القايم بدين برغواطة أصله من شذونة؛ من وادي بَربَط. وكان قد رحل إلى المشرق في عام واحد مع عباس بن ناصح، ويزيد بن سنان الزناتي صاحب الواصلية، وبرغوت بن سعيد التراري، وجدّ بني عبد الرزاق (ويعرفون ببني وكيل الصفرية)، ومناد صاحب المنادية (المنسوب إليه القلعة المعروفة بالمنادية قريبا من سجلماسة)، وآخر ذهب عني اسمه. فأربعة منهم فقهوا في الدين؛ وادعى ثلاثة منهم النبوة؛ منهم يونس صاحب برغواطة". قال: "وكان يونس شرب دواء الحفظ؛ فلقن كل ما سمع وحفظه، وطلب علم النجوم والكهانة والجانّ، ونظر في الكلام والجدال؛ وأخذ ذلك عن غيلان؛ ثم انصرف يريد الأندلس؛ فنزل بين هؤلاء القوم من زناتة؛ فلما رأى جهلهم استوطن بلدهم. وكان يخبرهم بأشياء قبل كونها؛ مما تدل عليه النجوم عندهم؛ فتكون على ما يقول أو قريبا منه؛ فعظم عندهم. فلما رأى ذلك منهم، وعرف ضعف حلومهم وسخافة عقولهم أظهر ديانته، ودعا إلى نبوته؛ وسمى من اتبعه بربطي؛ لما كان من بربط؛ ثم أحالوه بألسنتهم وردّوه إلى لغتهم؛ فقالوا برغواطي)). المغرب، ص ص: 137 ــ 138.

النـــاس عـــلى إتبـــاع نحلـــة جـــده.[1] ودام حكمـــه تســـع وعشـــرة سنـــة؛ إذ تـــوفي في عـــام 195هـــ(810م). وهـــذا الـــرأي يخالـــف مـــا ذكـــره ابـــن خلـــدون؛ الـــذي يـــرى أنـــه حكـــم زهـــاء 44 سنـــة.

ـ حكومـــة أبي غفيـــر معـــاذ بـــن يونـــس البرغـــواطي:

وبعـــد مـــوت يونـــس تربـــعِ عـــلى ســـدة الحكـــم في دولـــة برغواطـــة ولـــده أبـــو غُفيـــرْ معـــاذ بـــن يونـــس؛ فكانـــت وطأتـــه عـــلى النـــاس شديـــدة؛ حيـــث تابـــع نهـــج أبيـــه في إبـــادة الخارجيـــن عـــن ديانـــة أجـــداده. وقـــد شـــن حمـــلات إبـــادة جماعيـــة عـــلى الخارجيـــن عـــن سلطانـــه والرافضيـــن لنحلتـــه؛ وأهـــم تلـــك الوقائـــع والحمـــلات: موقعـــة مدينـــة **تيمغيســـن**؛ وكانـــت مـــن كبريـــات المـــدن؛ فهجـــم عليهـــا هجمـــة إبـــادة ذات أبعـــاد وحشيـــة؛ دامـــت رحاهـــا ثمانيـــة أيـــام كاملـــة؛ حيـــث بـــدأت بيـــوم الخميـــس؛ ولـــم تتوقـــف إلا في الخميـــس المـــوالي؛ وجـــاء في الأخبـــار أن أزقـــة المدينـــة ودورهـــا أضحـــت مليئـــة بالدمـــاء. وشـــن أيضـــا حملـــة أخـــرى في موضـــع يقـــال

---

[1] **وفي هـذا يقـول البكـري: ((فتـولى الأمـر بعـد أبيـه؛ فاظهـر ديانتهـم، ودعـا إليهـا، وقتـل مـن لـم يدخـل فيهـا؛ حـتى أخـلى ثلاثمائـة مدينـة وسبعـا وثمانيـن مدينـة؛ حمـل جميـع أهلهـا عـلى السيـف لمخالفتهـم إيـاه؛ وقتـل منهـم بموضـع يقـال لـه تَامُّوكـَافْ ـ وهـو حجـر نابـت عـالي في وسـط السـوق ـ سبعـة آلاف وسبعمائـة وسبعيـن قتيـلا. وقتـل مـن صنهاجـة خاصـة في وقعـة واحـدة ألـف وغـد؛ ـ والوغـد عندهـم المنفـرد الوحيـد؛ الـذي لا أخ لـه ولا ابـن عـم ـ)). المغـرب، ص: 136.**

لـــه **بَهْـــت**؛ فأحـــدث فيـــه مـــن القتـــل والتمثيـــل مـــا لا حصـــر لـــه. وكانـــت لـــه كذلـــك حـــروب عظيمـــة مـــع الأدارســـة؛[1] وقـــد خســـر في تلـــك الحـــروب كثيـــرا مـــن أتباعـــه وأراضيـــه؛ حـــتى **شالـــة** ــ عاصمـــة دولتـــه نفسهـــا ــ سقطـــت في أيـــدي إدريـــس بـــن إدريـــس؛ بالإضافـــة إلى مناطـــق واسعـــة مـــن تامسنـــا.[2]

---

[1] أعمـــال الأعـــلام؛ ق: 3، ص: 186. دولـــة الأدارســـة، ص: 280.

[2] وأبـــو غُفَيـــر هـــذا هـــو الـــذي جـــاء ذكـــره في القصيـــدة الـــتي قالهـــا سعيـــد بـــن هشـــام المصمـــودي؛ يهجـــو فيهـــا برغواطـــة؛ منهـــا:

قِـــفِي قَبْـــلَ التَّفَـــرق فَاخْبِرينَـــا
وقـــولِي وَاخْبَـــرِي خَبَراً مُبِينَـــا
هُمُـــومَ بَرَابِر خَسِـــرُوا وَضَلُّـــوا
وخَابُـــوا لاَ سُقُوا مَـــاءً مَعِينَـــا
يَقُولُـــونَ: النَّـــبِيُّ أَبُـــو غَفِيـــرٍ
فَأَخْـــزَى اللَّـــهُ أَمَّ الكَاذِبِينَـــا
أَلَمْ تَسْمَـــعْ وَلَمْ تَـــرَ يَوْمَ بَهْـــتٍ
عَـــلَى آثَـــارِ خَيْلِهِـــمُ رَنِينَـــا
رَنِيـــنَ البَاكِيَـــاتِ بِهِـــمْ ثُكَـــالَى
وَعَاوِيَـــةٍ وَمُسْقِطَـــةٍ جَنِينَـــا
هُنَالِـــكَ يُونُـــسُ وَبَنُـــو أَبِيـــهِ
يُوَالُـــونَ البَـــوَارَ مُعَظِّمِينَـــا
فَلَيْـــسَ اليَـــوْمَ رِدَّتُكُـــمْ وَلَكِـــنْ
لَيَـــالِي كُنْتُـــمُ مُسْتَيْسِرِينَـــا

(يقصـــد بكلمـــة مستيسريـــن أنهـــم كانـــوا مـــن أتبـــاع ميســـرة المطغـــري)

وبقي أبو غفير في الحكم زهاء خمس وثلاثين سنة؛ إذ توفي في حدود عام 230هـ(844م) كما ذكر ابن الخطيب. أما ابن خلدون فيقول أنه حكم حوالي 29 سنة؛ إذ توفي في أواخر المائة الثالثة. وتقول الأخبار أن له أربع وأربعين زوجة؛ ومن البنين مثلهن وأزيد.[1]

ـ حكومة أبي الأنصار عبد الله بن محمد بن اليسع البرغواطي:

وبموت أبي غفير معاذ خلفه بعض الأمراء من بينهم: أبو الأنصار عبد الله بن محمد بن اليسع؛ هذا وقد أثنت المصادر التاريخية عليه، واعترفت بحسن سياسته، وابتعاده عن سفك الدماء. وتقول أنه لا يعتم إلا في وقت الحرب؛ وفي دولته لا يعتم إلا الغرباء؛ وكان لباسه الملاحف والسراويل؛ ولا يلبس القميص. ومن سياسته في الحرب؛ أنه

---

[1] من هنا بدأت أخبار المؤرخين عن برغواطة تغيب وتضطرب؛ فابن الخطيب هنا يقول: ((وولي بعده [أي بعد أبي غفير] ولده أبو حفص [عمر]. واستمرت دولة عمر بن معاذ إلى أن توفي؛ وولي ولده اليسع بن إسماعيل [هكذا يصبح عمر إسماعيلا]؛ فقام بدياناتهم ينتظر ظهور جده الشيخ صالح؛ إذ كان سابع الأمراء من بنيه. واتصل أمر اليسع إلى سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة. وظهر أمر اللمتونيين ودعوتهم إلى أساس من فقه ودين؛ فجعلوهم جهادا قريبا وغزاهم الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني؛ فقتلهم قتلا ذريعا؛ حتى أسلموا إسلاما جديدا. وكان آخر ملوكهم عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن محمد بن اليسع؛ وانقرض ملكهم. وقبيلهم اليوم قبيل ضعيف؛ لعب سيف الملثمين فيهم، ثم سيف المهدي بعده)). أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 186 ـ 187.

يبدي ــ في كل عام ــ أنه ينوي الغزو؛ فيشرع في حشد الحشود؛ موهما القبائل الأخرى بأنه سيغزوها؛ فتسارع إلى تقديم الهدايا إليه؛ وبذلك يتخلى عن نواياه المزعومة. وهكذا يتخذ مبدأ الردع سياسة؛ بدلا من الحرب. هذا وقد ملك أبو الأنصار زهاء اثنين وأربعين سنة. ولم تشر المصادر إلى تاريخ وفاته

ــ حكومة أبي منصور عيسى بن عبد الله البرغواطي:

ولما توفي أبو الأنصار خلفه ابنه أبو منصور عيسى. وهذا الملك هو الذي أرسل سفيره زمورا إلى المستنصر بقرطبة سنة 352هـ(963م).[1] كما أنه هو سابع الأمراء

[1] يقول البكري: ((أخبر أبو صالح زمور بن موسى بن هشام بن واردیزن البرغواطي ــ وكان صاحب صلاتهم حين قدم رسولا من قبل صاحب برغواطة أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي غُفَيْر محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف ــ وكان وصوله إلى قرطبة في شوال سنة اثنتين وخمسين وثلاثماية ــ وكان المترجم عنه بجميع ما أخبر به الرسول الذي قدم معه وهو أبو موسى عيسى بن داود بن عشرين السطاسي ــ من أهل شلة. مسلم، من بيت خيرون بن خير. فأخبر زمور أن طريفا أبا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحاق؛ وأنه كان من أصحاب ميسرة المطغري ــ المعروف بالحقير ــ ومغرور بن طالوت. وإلى طريف نسبت جزيرة طريف. فلما قتل ميسرة وافترق أصحابه؛ احتل طريف ببلد تامسنى ــ وكان إذ ذاك ملكا لزناتة وزواغة ــ فقدمه البربر على أنفسهم؛ وولي أمرهم؛ وكان على ديانة الإسلام؛ إلى أن هلك هنالك؛ وتخلف من الولد أربعة؛ فقدم البربر ابنه صالحا منهم. قال زمور: "وكان موت صالح بعد موت النبي صلى الله علية وسلم بماية عام سوا". قال:

البرغواطيين، وعليه فقد يكون أطال الانتظار؛ طمعا في تحقيق نبوءة جده صالح المزعومة؛ ولكن جده لم يف بوعده؛ ولم يعد كما زعم وأوهم أحفاده وأتباعه.. غير أن قادما آخر ظهر في الأفق؛ وهذا الوافد هو الذي تولى مهمة القضاء على دولة برغواطة نفسها؛ ثم إزالة نحلتهم الشاذة الغريبة نهائيا. وذلك القادم لم يكن سوى أبي بكر ابن عمر اللمتوني أمير المرابطين؛ الذي سحق مملكة برغواطة، وحاربهم كما يحارب الوثنيين والكفار؛ وهكذا؛ لم يبق لهم شأن يذكر؛ بعد سنة 450هـ(1058م). وما بقي من شتاتهم وجيوبهم المتفرقة؛ أكمل حصاد رؤوسهم المهدي بن تومرت. أما وفاة أبي منصور عيسى فقد حدثت قبل ظهور المرابطين في بلاده؛ إذ قتل في سنة 368هـ(978م) في غزوة شنها على برغواطة بلكين بن زيري.

"وحضر مع أبيه حروب ميسرة الحقير وهو صغير". قال: "وكان من أهل العلم والخير؛ فتنبأ فيهم، وشرع لهم الديانة التي هم عليها إلى اليوم؛ وادعى أنه نزل عليه قرءانهم الذي يقرؤونه إلى اليوم". قال زمور: "وهو صالح المؤمنين الذي ذكره الله عز وجل في قرءان محمد عليه السلام في سورة التحريم. وعهد صالح إلى ابنه إلياس بديانته، وعلمه شرايعه، وفقهه في دينه؛ وأمره أن لا يظهر ذلك إلا إذا قوي وأمن؛ فإنه يدعوا إلى ملته؛ ويقتل حينئذ من خالفه. وأمره بموالاة أمير الأندلس. وخرج صالح إلى المشرق؛ ووعد أنه ينصرف إليهم في دولة السابع من ملوكهم؛ وزعم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال الدجال؛ وأن عيسى بن مريم يكون من أصحابه، ويصلي خلفه؛ وأنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا...)). المغرب، ص ص: 134 ـــ 136.

وجملة القول تتلخص في أن هذه الدولة لم تهنأ بالأمن والاستقرار طوال حياتها الطويلة؛ إذ تعرضت ـ منذ نشأتها ـ إلى هجمات وغزوات عديدة؛ من قبل الدول المجاورة لها أو البعيدة عنها؛ وإذا خفت الضغوط عليها قامت هي بالهجوم على القبائل المجاورة لها؛ بهدف إخضاعها وسلب ثرواتها. وهذا هو ـ بالطبع ـ شأن الكيانات القبلية؛ التي تنبذ السكون وتمل الاستقرار على حال واحدة. ومن بين الدول التي ناصبت البرغواطيين العداء، وناوشتهم بالقتال: الدولة الإدريسية بفاس؛ التي تمكنت من انتزاع مقاطعات شاسعة منهم في إقليم تامسنا؛ وطردتهم حتى من عاصمتهم مدينة شالة. ثم الدولة الأموية بالأندلس؛ وذلك عندما قام جعفر بن علي ـ في عهد المنصور بن أبي عامر ـ بالزحف لقتال برغواطة في سنة 366هـ(976م)؛ ولكنه هزم في تلك المعركة. ثم في عام 389هـ(998م)؛ حينما قاد واضح مولى المنصور بن أبي عامر جيشا لغزوهم؛ فبالغ في قتلهم وسبيهم. كما غزاهم بلكين بن زيري سنة 368هـ(978م)؛ فاكتسح برغواطة وأثخن فيهم، وشتت شملهم؛ وقتل ملكهم أبا منصور عيسى بن أبي الأنصار، وبعث سبيهم إلى القيروان. ثم شن عليهم تميم بن زيري بن يعلى اليفرني سنة 420هـ(1029م) حربا كاسحة؛ فانتزع منهم تامسنا وأنهكهم بالقتل والسبي والتشريد.

وبعدها انتهى أمر دولتهم نهائيا بواسطة المرابطين؛ بقيادة أبي بكر بن عمر سنة 450هـ(1058م)؛ وذلك بإسقاطها، وقتل ملكهم؛ وسماه ابن خلدون بأبي حفص عبد الله البرغواطي؛ وهو من ولد أبي المنصور عيسى بن الأنصار.[1]

****

ـ الحضارة والحركة الثقافية:

ويبدو أن دولة برغواطة هذه ظلت على طابعها البدوي الساذج؛ لأنها لم تخلف وراءها أية مآثر حضارية وثقافية تستحق الذكر. ولم يعرف من آدابهم سوى ذلك المنتوج الشفوي المتمثل فيما ابتكره صالح ـ أو يونس ـ من نصوص؛ أوهم أتباعه بأنها وحيا أو قرآنا نزل عليه. ويقال أن تلك النصوص تقدر بثمانين سورة كما سموها؛ منها: سورة الديك، وسورة الجمل، وسورة الفيل، وسورة الحجل، وسورة الجراد، وسورة العجل، وسورة الحنش الذي يمشي على ثمانية أرجل، وسورة آدم، وسورة نوح، وسورة يونس، وسورة أيوب، وسورة طالوت، وسورة هاروت وماروت وإبليس، وسورة غرائب الدنيا، وسورة الدجال، وسورة فرعون، وسورة قارون، وسورة هامان،

---

[1] **العبر، مج: 6، ص ص: 432 ـ 434.**

وسورة ياجوج وماجوج، وسورة نمرود؛ بالإضافة إلى ما كانوا يشتغلون به من طقوس سحرية، وما كانوا يجيدونه من تنجيم ومعرفة بالنجوم..[1] وقد أورد البكري نصا مترجما من السورة المسماة بسورة أيوب؛ وقال أنها استفتاح كتابهم؛ وهي طويلة. جاء فيها: ((**بسم الله الذي أرسل به الله كتابه إلى الناس؛ وهو الذي بين لهم به أخباره. قالوا علم إبليس القضية أبى الله ليس يطيق إبليس؛ كما يعلم الله سل أي شيء؛ يغلب الألسن في الأقولة، ليس يغلب الألسن في الأقولة إلا الله بقضائه باللسان الذي أرسل الله بالحق إلى الناس استقام الحق. أنظر محمدا (وعبارة ذلك بلسانهم أيمني مامت؛ فمامت محمد). كان حين عاش استقام الناس كلهم الذين صحبوه؛ حتى مات ففسد الناس. كذب من يقول أن الحق يستقيم وليس ثم رسول الله**)).[2] ومن خلال ما ورد من أسماء لتلك السور وما توحي إليه؛ يمكن استشفاف تأثير التراث اليهودي في ذلك كله. وقد يكون هذا من بين العوامل التي أثارت الشكوك في يهوديتهم؛ مع أن الأثير الإسلامي متوفر أيضاً.

---

[1] **المغرب، ص: 140. والعبر، مج: 6، ص: 429.**

[2] **المغرب، ص: 140.**

المهم أن هذه الدولة كانت منغلقة على نفسها؛ لا تترك للتيارات الثقافية والحضارية الأخرى مجالا للتسلل إليها. ويعود ذلك إلى عزلتها وانطوائها ضمن النظم القبلية المتحجرة، وإلى الجهل المتحكم في أبنائها، وإلى رفض حكامها كل العوامل الثقافية الخارجة عن نطاقهم وكل ابتكار حضاري متطور يرد إليهم. وعليه فقد بقيت هذه الدولة ــ طيلة القرون التي عاشتها ــ تستند إلى النظام القبلي إلى أن جاء يوم سقوطها.

ويبدو ــ من جهة أخرى ــ أن انعدام الإنجازات الحضارية، وغياب الصلات الثقافية مع غيرهم؛ كان بمثابة التحصين والوقاية لأصحاب هذه الدولة؛ الأمر الذي ساعد على إبعادهم عن أسباب الترف والبذخ والاستسلام للسكينة والفتور. والراجح أن هذه الظاهرة ساعدت الدولة البرغواطية البدوية؛ على البقاء حتى عهد المرابطين؛ أي من الثلث الأول من القرن الثاني إلى منتصف القرن الخامس للهجرة. وخلال تلك الفترة الطويلة بقي أبناؤها على حال من الشدة والقوة والإقدام؛ حيث كانت أهم الصفات التي يتحلون بها، ويحرصون على التمسك بها هي الصفات العسكرية؛ ذات الطابع القتالي. وعليه فقد صح فيهم حكم ابن خلدون؛ حين تناول هذا الموضوع في مقدمته ضمن: "**فصل في أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر**".

و"**فصل في أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها**".[1]

ولكي نستكمل الصورة التي تخص قبيلة برغواطة؛ لابد من الإشارة هنا ــ ولو بإيجاز ــ إلى إمارة برغواطية أخرى؛ هي إمارة سقوط البرغواطي. نشأت هذه الامارة فجأة واختفت دون ضجيج كبير، أو اعتناء كافي بها من طرف المؤرخين؛ وتم قيام هذه الإمارة ضمن محيط مختلف ــ بعض الشيء ــ عما كانت عليه الإمارات البرغواطية السابقة. ويعتبر أهم عامل تختلف فيه دولة ((سقوط)) عن الإمارات السالفة الذكر؛ هو أن أمراء هذه الدولة لا يؤمنون بالنحلة الإلحادية البرغواطية. وربما كانوا يتبعون المذهب السني؛ بحكم الولاء والتبعية لسادتهم من الأدارسة الحموديين؛ الذين يدينون بالمذهب السني. ومع هذا لا بد من الإشارة إلى عبارة خاطفة أوردها ابن بسام نقلا عن ابن حيان؛ حين قارن بين المعتضد بن عباد وسقوط؛ فقال: ((**من هضم جاره الخارجي سقوت مولى ابن حمود**)).

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 588 ــ 589. 607 ــ 609.**

وهذه العبارة توحي للقارئ باحتمال اعتناق سقوط للمذهب الخارجي. غير أن قول ابن حيان هذا قد يكون من قبيل التشنيع بسقوط؛ وتذكير الناس بأسلافه الصفرية. المهم أن سقوط وابنه ــ حسبما جاء في المصادر ــ لا علاقة لهما ببدع الامارات البرغواطية الأولى؛ وكل ما يربطهما ببرغواطة هو أنهما ينحدران من أصول عرقية برغواطية؛ كما أن جيشهما مكون ــ في معظمه ــ من شتات قبيلة برغواطة.

ــ حكومة سقوط البرغواطي:

تجمع المصادر على أن هذه الإمارة نشأت في سبتة وطنجة؛ بقيادة سقوط أو (سكوت) بن محمد البرغواطي، وبمساعدة زميله أبي العطاف رزق الله البرغواطي أيضا؛ والذي كان في طنجة. وربما تكون هذه الإمارة قد بدأت في الظهور لأول مرة؛ في شكل ولاية من ولايات الدولة الإدريسية الحمودية التي كانت قائمة بمالقة؛ ويرجح أن ذلك حصل بعد مقتل الفتى الصقلبي نجا في سنة 434هـ(1042م)؛ الأمر الذي أبقى سبتة خالية من شخص قوي يتولاها. ولا يعرف بالضبط التاريخ الذي أصبح فيه سقوط هذا واليا عليها.[1] وكل ما

[1] لقد تضاربت الأقوال حول التاريخ الذي ولي فيه سقوط بسبتة. وقد ذكر ابن بسام أن يحيى بن علي بن حمود هو الذي ولى سقوط على سبتة؛ (المجلد الثاني من القسم الثاني، ص: 657. أنظر إلى ما جاء في التعليق

عرف هو أن الذي ولي على سبتة وطنجة ــ بعد إدريس بن علي بن حمود ــ هو الحسن بن يحيى بن علي؛ رفقة الوصي عليه المسمى نجا الصقلبي. لذا يمكن إرجاع بداية أمر هذين البرغواطيين إلى الفترة الزمنية التي تلت مقتل الفتى نجا؛ ذلك المملوك الصقلبي الذي طمع في اغتصاب عرش الحموديين؛ فاغتاله بعض جنوده؛ الذين ينتمون أصلا إلى برغواطة؛ وهم كما قيل: أخوال الأمير حسن بن يحيى بن علي بن حمود.[1]

وحسبما يظهر فمنذ تلك الحادثة رجحت كفة سقوط مولى يحيى بن على بن حمود؛ ذلك المملوك الذي تركه يحيى في سبتة لأمر ما؛ عندما قرر التوجه إلى مالقة.[2] ومرت فترة من

بالصفحة الموالية). بينما الخبر المؤكد الذي ذكره ابن بسام نفسه؛ نقلا عن ابن حيان؛ واتفق فيه مع كثير من المؤرخين (أنظر المجلد الأول من القسم الأول، ص: 481.) أن يحيى المعتلي أسند ولاية سبتة ــ عندما جاز للأندلس ــ إلى أخيه إدريس بن علي؛ الذي كان ــ في عهد أبيهما ــ واليا على مالقة. ولما قتل يحيى بن علي؛ خلفه أخوه إدريس المتأيد؛ الذي ولى الحسن بن يحيى بسبتة؛ تحت وصاية الفتى نجا. (الكامل، ج: 7، ص: 288. والمعجب، ص: 61). ولما تولى الحسن بن يحيى مقاليد الخلافة بمالقة؛ ترك أمر سبتة في يد الفتى نجا. (الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص: 63). وعليه قد يعود ظهور سقوط إلى هذه الفترة بالذات؛ خاصة بعد مقتل نجا.

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص: 216.

[2] يقول ابن عذاري: ((وكان سوَّجًات [سقوط] مولى ليحيى بن علي بن حمود؛ اشتراه من رجل حداد من سبي برغواطة وهو دون البلوغ؛ فحظي عنده؛ فلما سار يحيى إلى الأندلس وخلف سوَّجًات مولاه بسبتة؛ وجعل معه ناضرا عليه مولاه رزق الله)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 250. وهذا الخبر

الوقت لا يعرف الدور الذي كان يلعبه سقوط هذا في سبتة؛ خاصة في ولاية إدريس بن علي بسبتة، ثم ولاية الحسن بن يحيى. والراجح أن مركزه قد تعزز خلال الفوضى التي سادت مالقة؛ بعد اجتياحها من طرف الخادم نجا؛ الأمر الذي أوصله إلى القتل بيد جنوده الأمازيغ البرغواطيين. وهنا يمكن للقارئ تخيل الحركة التي تكون قد حدثت بعد مقتل نجا؛ وعودة الجيش إلى سبتة؛ ذلك الجيش المشكل من الأمازيغ؛ ومن برغواطة

يكون قد اقتبسه ابن عذاري عن ابن بسام الذي قال: ((ولما أفضت الدولة الحمودية إلى سقط زندها، ومنتهى جهدها؛ يحيى بن علي ـــ المتقدم الذكر ـــ ألقى بمقاليد سبتة إلى هذه الأفعى الجارية، والشعلة الوارية؛ سقوت المذكور؛ [أنظر التعليق السابق؛ ففيه ما يعارض هذا] فأقام به عمودها، وأطمعه قائمها وحصيدها؛ وطفق لأول حينه يخلق ويفري، ويجر لأبعد شئونه ليسير ويسري؛ وقد كان يحيى بن علي أشرك معه في عمالتها مولى آخر من مواليه يكنى أبا العطاف؛ أحد أجذال الطعان، وكفاة الأقران؛ فأقاما بقية أيام يحيى بن علي يتجاذبان أهدابها، ويتعاطيان أقداحها وأكوابها؛ إلى أن وقع من مقتله؛ سنة سبع وعشرين [وأربعمائة] ما فرغنا من ذكره، ونبهنا على مستودع مستقره. ولما أفضت دولة آل حمود إلى ابنه [العالي] إدريس بن يحيى بن علي؛ سما سقوت بن محمد؛ فأخذ بلقم الطريق، وطلع لمغبونه إدريس من ثنايا العقوق؛ وأول ما بدأ به من ذلك الفتك بشريكه الخاسر؛ بحيلة خفية.. فأصبح بعده سقوت بن محمد قد حلت شمس سلطانه بالحمل، وقام وزن زمانه فاعتدل؛ وتسمى ـــ لأول وقته يومئذ ـ من الأسماء السلطانية بالمنصور المعان)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 657 ـ 658. ويقول ابن خلدون في حديثه عن العالي أيضا: ((ولقب العالي؛ وولى على سبتة سكوت ورزق الله من عبيد أبيه)). العبر، مج: 4، ص: 334.

بالخصوص. والأمر المؤكد ــ بعد ذلك ــ أن المصادر أصبحت تتكلم عن سقوط البرغواطي كوال على سبتة؛ وفي طاعة الخليفة الحمودي العالي إدريس بن يحيى بمالقة. ثم أخذ نفوذ سقوط يتوسع، وتزداد قبضته إمساكا وتحكما في الأمر؛ حتى استبد نهائيا؛ بعد انحلال الدولة الحمودية واندثارها. ويمكن تفسير حدوث ذلك؛ طبقا لما قرره ابن خلدون ضمن فصل: "**فصل في حدوث الدولة وتجددها؛ كيف يقع؟**".[1]

ولما زالت دولة بني حمود نهائيا انبرى سقوط لضم طنجة إلى إمارته وانتزاعها من يد زميله رزق الله؛ الذي كان واليا على تلك المدينة. وتم له ذلك ــ بالفعل ــ سنة 453هـ(1061م)[2] حيث تغلب على طنجة وقتل واليها رزق الله. وهنا تطلع إلى مرتبة أسمى من التي كان يحتلها؛ إذ تسمى بلقب المنصور المعان؛ واستقل نهائيا بدولته. وأورد ابن حيان خبر الخصومة التي حدثت بين سقوط والمعتضد بن عباد؛ الذي أصبحت الجزيرة

---

[1] **وفيه يقول: ((بأن يستبد ولاة الأعمال في الدولة بالقاصية؛ عندما يتقلص ظلها عنهم؛ فتكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وما يستقر في نصابه؛ يرثه عنه أبناؤه أو مواليه؛ ويستفحل لهم الملك بالتدرج. وربما يزدحمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه، ويتنازعون في الاستئثار به؛ ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه، وينتزع ما في يده)). المقدمة، ج: 2، ص: 872.**

[2] **البيان المغرب، ج: 3، ص: 250.**

الخضـــراء ضمـــن مملكتـــه؛ وقـــد تصاعـــد خلافهمـــا حـــتى وصـــل إلى الاقتتـــال في البحـــر سنـــة 457هـــ(1064م).[1] وكـــان يشـــد أزره ابنـــه يحـــيى؛ الـــذي يقـــوم مقـــام وزيـــره، إذ هـــو المتصـــرف في شئـــون الدولـــة؛ خاصـــة بعـــد أن كبـــر سقـــوط، وبعـــد أن أثقلتـــه السنـــون. وظهـــر هـــذا مـــن خـــلال معارضتـــه لأبيـــه؛ حيـــن أراد مساعـــدة المرابطيـــن ضـــد قبائـــل غمـــارة [وعنـــد ابـــن بســـام زناتـــة]؛ فأقنعـــه بالعـــدول عـــن ذلـــك الأمـــر.[2] المهـــم أن

---

[1] قـال ابـن بسـام نقـلا عـن ابـن حيـان: ((كـان سبـب ذلـك باعتقـال عبـاد لرجـل مـن تجـار سبتـة؛ في شـيء حضـره بحضرتـه؛ فاعتـدى عليـه سقـوت؛ فاعتقـل لـه عـدة تجـار؛ فنشـأت لذلـك بينهمـا وحشـة سنـة سبـع وخمسيـن [وأربعمائـة]؛ فامتطيـا لهـا ظهـر اللجـج؛ عـلى مـا بينهمـا مـن التطـام اللجـج؛ فتهافتـا عـلى القطيعـة، واجتمعـا عـلى عقـد البحـر بينهمـا؛ فتلفـت فيـه رؤوس وأمـوال، وهلكـت مـن أجلهـا نفـوس رجـال؛ يطـول في صفتهـا المقـال؛ إلى أن أكمـل عبـاد مـن أسطـول أنشـأه نحـوا مـن ثمانيـن قطعـة؛ فأجراهـا إلى سبتـة؛ فخـرج عليهـا أسطـول لسقـوت؛ فكـان الظهـور لابـن عبـاد؛ ثـم افترقـت الأساطيـل؛ بعـد حـروب وسفـك دمـاء؛ وانقطـع بحـر الزقـاق بينهمـا مـدة استهمـا اجتـرار منافعـه فيهـا. ثـم يضيـف ابـن بسـام قائـلا: ثـم غلـظ أمـر سقـوت؛ حـتى أخـاف القريـب والنـازح، واقتـاد الحـرون والجامـح، وانبثـت سراياه في البحـر والبـر؛ فأدرك المطلوب والطالب، وتصيد الطافي والراسب)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 659 ــ 660.

[2] يقـول ابـن بسـام ((ودارت النوبـة عـلى سقـوت بـن محمـد؛ فتطـرف أميـر المسلميـن ــ رحمـه اللـه ــ بلـده للفـراغ ممـن شـذ عنـه مـن زناتـة؛ وقـد التفـوا بأحـد محـاش الفتنـة، ووألـوا إلى موضـع يعـرف بالدمنـة؛ فنـزل بساحتهـم أميـر المسلميـن؛ سنـة إحـدى وسبعيـن [وأربعمائـة]؛ عـلى مقربـة مـن بـلاد سقـوت؛ فهـم بالانحيـاش إليـه؛ فقـد كـان آل وآيـل عليـه؛ فنهـاه حزبـه الذميـم السـعي، وثنـاه ابنـه الفائـل الـرأي)). الذخيـرة، ق: 2، مج: 2، ص: 660. وقـال أحمـد الناصـري: ((إلى أن استقـل [سقـوط] بالأمـر، واقتعـد كـرسي عملهـم [عمـل الحموديـن] بطنجـة وسبتـة؛ وأطاعتـه قبائـل غمـارة؛ واتصلـت أيـام ولايتـه إلى أن

جيش لمتونة ــ بعد انتهائه من موقعة الدمنة ــ تحول إلى قتال سقوط؛ وذلك لما شعروا منه من بوادر العصيان، نظرا لرفضه الانضمام إليهم. ولما علم سقوط بزحف المرابطين إليه خرج وهو يقسم: ((**ألاّ يسمع قرع طبله في ملكه**)).[1] وكان سقوط هذا قد امتد حكمه حتى بلغ من العمر عتيا؛ إذ ناهز التسعين سنة كما يقال. وقدر له أن تكون نهايته في سنة 471هـ(1078م)؛ خلال المعركة التي تقابل فيها مع جيش المرابطين الزاحف إلى طنجة؛ بقيادة صالح بن عمران. حيث ختمت الواقعة بمقتل سقوط؛ ودخول المرابطين إلى طنجة.

كانت دولة المرابطين؛ وتغلب يوسف بن تاشفين على بلاد المغرب؛ ونازل بلاد غمارة؛ فدعا الحاجب سكوت إلى مظاهرته عليهم؛ فهم بالاجلاب معه، ومظاهرته على عدوه؛ ثم ثناه عن ذلك ابنه الفائل الرأي. فلما فرغ يوسف بن تاشفين من أهل الدمنة، وانقاد المغرب لطاعته صرف عزمه إلى الحاجب سكوت)).الاستقصاء، ج: 2، ص ص: 30 ــ 31.

[1] **مفاخر البربر، ص: 55. وقال أحمد الناصري أيضا: ((فلما قربوا [المرابطون] من طنجة برز إليهم الحاجب سكوت بجموعه ــ وهو شيخ كبير قد ناهز التسعين سنة ــ وقال: "والله لا يسمع أهل سبتة طبول اللمتوني وأنا حي أبدا". فالتقى الجمعان بوادي منى من أحواز طنجة؛ والتحم القتال؛ فقتل سكوت، وفضت جموعه، وسار المرابطون إلى طنجة؛ فدخلوها واستولوا عليها. ولحق ضياء الدولة يحيى بن سكوت بسبتة؛ فاعتصم بها)). الاستقصاء، ج: 2، ص: 31.**

ـ حكومة الحاجب ضياء الدولة يحيى بن سقوط:

لما سقطت طنجة ـ بعد مقتل سقوط ـ سارع ابنه يحيى إلى التحصن خلف أسوار سبتة؛ تلك المدينة المنيعة. وجدد فيها ملك أبيه؛ حيث لقب بالحاجب العز؛ كما تسمى أيضا بلقب مشرقي وهو ضياء الدولة. هذا وقد استمر هذا الأمير في حكم مدينة سبتة لبضع سنين؛ بعد أن استعصى أمره على المرابطين. ويظهر مما كتبه ابن بسام؛ أن ضياء الدولة العز بن سقوط هذا يكون قد أشعل محيطه بالفتن والحروب الخاطفة؛ خاصة في البحر؛ حيث قال: ((**لا سيما البحر ؛ فإنه أضرم لججه نارا، ولقي ريحه إعصارا؛ أخذ كل سفينة غصبا، وأضاف إلى كل رعب رعبا؛ فضجت منه الأرض والسماء، والتقت الشكوى عليه والدعاء**)).[1] ولما صعب أمر العز؛ وتعذر اقتحام سبتة من البر؛ طلب ابن تاشفين من ابن عباد مده بسفينة في غاية الإتقان؛ جاءت إلى طنجة للميرة؛ لكي يستعملها في حصار سبتة من البحر؛ فاستجاب له ابن عباد ووضعها تحت تصرفه؛ وبذلك تقدم أسطول المرابطين في البحر محاصرا سبتة؛ بينما شدد الخناق عليها ـ أيضا ـ من البر.[2] ومع هذا كاد المرابطون أن يخسروا المعركة

---

[1] **الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص: 662. ومفاخر البربر، ص ص: 55 ـ 56.**

[2] **قال ابن بسام في فتح سبتة: ((فلما كان يوم الخميس من صفر سنة ست وسبعين [وأربعمائة] قدّم أمير المسلمين لقتال سبتة أسطولا فخما؛ رجم**

في بداية الأمر؛ وذلك عندما استولى العز بن سقوط على أهم سفينة لديهم؛ فبعث هذا فيهم هلعا واستياء؛ ومع ذلك استطاعوا ضبط الأمور، واستعانوا بالصبر على المصاب؛ ثم عاودوا الكرة ــ مرة أخرى ــ بعزيمة أشد وأقوى؛ فانهار لها دفاع جيش يحيى بن سقوط؛ فانهزم جله؛ لما تأكد يحيى بن سقوط من فشل دفاعه؛ حاول الهروب عبر البحر؛ ولكنه استدرك وتراجع عن اختيار الهروب؛ فقبض عليه بعد مقاومة دامت

به مردة عفاريتها رجما؛ ولقيه العز بن سقوت ببقية جمة من أسطول؛ طالما أوسع البلاد شرا، وملأ قلوب أهلها ذعرا. فكان ــ لأول ذلك اليوم ــ ظهور على أسطول المرابطين؛ حتى أخذ منه قطعة جليلة المقدار؛ ظاهرة الحماة والأنصار؛ فكان من إذلال الله للعز بن سقوت ــ يومئذ ــ أن بخل على آخذيها؛ وتكلم كلام أنكر عليه فيه. وارتاعت محلة المرابطين لأخذ تلك القطعة؛ حتى هموا بالإحجام؛ وقوضوا بعض الخيام. وغضب أمير المسلمين وناصر الدين ــ رحمه الله ــ إحدى غضباته؛ فكانت إياها؛ وفغرت المنايا على سبتة فاها؛ وتقدمت تلك السفينة حتى أطلت على أسوارها، ورفعت صوتها ببوارها؛ وأفضت بدولة صاحب سبتة إلى سوء قرارها؛ ليلة الجمعة من صفر المؤرخ. ولجأ العز بن سقوت في نُفَيْرٍ من أصحابه إلى البحر؛ فهم بركوبه؛ فأعوزه الفرار؛ ودفع في صدره المقدار؛ وكر راجعا؛ فدخل دارا تعرف بدار تنوير؛ وبدر به جماعة من المرابطين؛ فاقتحموا عليه بعد مرام بعيد، وقتال شديد؛ حتى ضاق اضطرابه، وفر عنه أصحابه. ولما أحس بالشر دفع ذخائر كانت عنده إلى أحد من وفى له من رؤوس حماته. فبلغني أنه عثر عليها؛ وَوُجِدَ فيها جوهرٌ كثيرٌ، ونشب من نشب الملوك خطير؛ وَوُجِدَ في جملتها خاتم يحيى بن علي بن حمود. وخرج العز بن سقوت حين وضح الفجر؛ فلقيه المعز بن أمير المسلمين ــ رحمهما الله ــ فجلله الحسام، وحكم فيه الحمام)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 663 ــ 664.

ليلـــة بكاملهـــا. ويقـــول صاحـــب مفاخـــر البربـــر: أنـــه لمـــا مثـــل أمـــام المعـــز بـــن يوســـف بـــن تاشفيـــن ((**فطلـــب منـــه المـــال؛ فقـــال لـــه**: "**ألخـــازن أبيـــك كنـــت نجمـــع المـــال؟**" **فحللـــه الحســـام، وحكـــم فيـــه الحمـــام**)).[1] وانتـــهى بذلـــك أمـــر ضيـــاء الدولـــة العـــز بـــن سقـــوط؛ إذ قتـــل في ربيـــع الآخـــر مـــن سنـــة 477هـــ(1084م). وبذلـــك انتهـــت دولـــة سقـــوط البرغـــواطي نهائيـــا.

****

[1] **مفاخـــر البربـــر، ص ص: 56 ــ 57.**

ـ الحضـــارة والحركـــة الثقافيـــة:

يبـــدو أن سبتـــة في عهـــد سقـــوط البرغـــواطي لـــم تكـــن في مستـــوى يؤهلهـــا للقيـــام بـــدور ثقـــافي معيـــن بيـــن سكانهـــا. وعـــلى الرغـــم مـــن أنهـــا كانـــت كرسيـــا لحكـــم بعـــض الأدارســـة مـــن الحموديين؛ إلا أنهـــا لـــم تظهـــر أي دور ثقـــافي وعلـــمي يستحـــق التنويـــه. وإن كـــان البكـــري ــ الـــذي عاصـــر سقوطـــا ــ يقـــول عـــن سبتـــة: **((ولـــم تـــزل دار علـــم))**.[1] ومـــع هـــذا فـــلا بـــد أن يكـــون للأندلـــس بعـــض الأثـــر في الحركـــة الثقافيـــة بتلـــك المدينـــة، خاصـــة في بعـــض المنجـــزات الحضاريـــة والعمرانيـــة كالمساجـــد والحمامـــات. غيـــر أنـــه سجـــل في الزمـــن الـــذي تـــلا عصـــر سقـــوط هـــذا؛ ازدهـــار علـــمي ملحـــوظ في سبتـــة؛ تلـــك المدينـــة الـــتي أضحـــت مركـــز علـــم وثقـــافـــة مرمـــوق في المغـــرب والأندلـــس.[2] أمـــا عصـــر سقـــوط فيمكـــن أن يعبـــر عنـــه خطابـــه لابـــن جهـــور أميـــر قرطبـــة؛ الـــذي يقـــال أنـــه طلـــب فيـــه منـــه أن يرســـل إليـــه قارئـــا للقـــرآن. وربمـــا دل هـــذا عـــلى نـــدرة القـــراء في سبتـــة في تلـــك الأثنـــاء.[3] كمـــا أن

---

[1] **المغـــرب، ص: 103.**

[2] **للتوســـع في هـــذا الأمـــر يمكـــن الرجـــوع إلى كتـــاب المقـــري أزهـــار الريـــاض في أخبـــار عيـــاض؛ ففيـــه مـــا يفيـــد.**

[3] **أورد ابـــن عـــذاري خبـــرا قـــال فيـــه: ((وذكـــر عـــن أبي الوليـــد بـــن جهـــور صاحـــب قرطبـــة أنـــه قـــال: "وردت عـــلي مـــن الكتـــب في يـــوم واحـــد كتـــاب مـــن ابـــن صمـــادح صاحـــب المريـــة يطلـــب جاريـــة عـــوادة، وكتـــاب مـــن ابـــن عبـــاد يطلـــب جاريـــة زامـــرة، وكتـــاب مـــن سواجـــات [سقـــوط] صاحـــب سبتـــة يطلـــب قارئـــا يقـــرأ القـــرآن". فوجـــه مـــن طلبـــة قرطبـــة رجـــلا يعـــرف بعـــون اللـــه بـــن نـــوح. وعجـــب أبـــو الوليـــد**

الإشارة الساخرة التي أطلقها أبو الوليد الشقندي في رسالته التي يفاخر فيها ببلاد الأندلس والأندلسيين؛ تبرز صورة سقوط التي كانت في ذهن المثقفين آنئذ؛ وذلك حين قال لأبي يحيى بن المعلم الطنجي: ((**وبالله إلا سميت لي بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية** [يقصد دعوة الموحدين] **أبسقوط الحاجب؟ أم بصالح البرغواطي؟**)).[1] ومع هذا لا سبيل إلى نكران أن بلاط ضياء الدولة يحيى ابن سقوط بسبتة احتضن ــ يوما ما ــ شاعرا مثل علي بن عبد الغني الحصري الضرير؛[2] صاحب القصيدة الذائعة الصيت التي يقول فيها:

يَا لَيْلَ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ

رَقَدَ السُّمَّارُ فَأَرَّقَهُ أَسَفٌ لِلبَيْنِ يُرَدِّدُهُ

وقد اتصل هذا الشاعر الفحل ــ أثناء مقامه بسبتة وطنجة ــ بضياء الدولة يحيى بن سقوط

من ذلك وقال: "جاهل يطلب قارئا، وعلماء يطلبون الأباطيل")). البيان المغرب، ج: 3، ص: 250.

[1] نفح الطيب، ج: 3، ص: 191.

[2] ذكره ابن بشكوال فقال: ((ذكره الحميدي وقال: " شاعر أديب رخّم الشعر؛ دخل الأندلس ولقي ملوكها؛ وشعره كثير، وأدبه موفور. وكان عالما بالقراءات وطرقها؛ وأقرأ الناس بالقرآن بسبتة وغيرها. أخبرنا عنه أبو القاسم بن صواب بقصيدته التي نظمها في قراء نافع؛ وهي مائتا بيت وتسعة أبيات. قال لقيته بمرسية سنة إحدى وثمانين وأربعمائة. وتوفي بطنجة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة)). كتاب الصلة، ج: 2، ص ص: 432 ــ 433.

البرغـواطي؛ حيـث كانـت لـه حظـوة عنـده؛ وهـذا مـا سجلـه ابـن بسـام حيـن قـال: ((**وأفضـت الدولـة البرغواطيـة إلى الحاجـب المعـز ابنـه** [أي ابـن سقـوط] **شهـاب أفلاكهـا، وخيـرة أملاكهـا. هـبَّ الأدب ريحـا، ونفخـت دولتـه في أهلـه روحـا. أعـرض بـه الشعـراء وأطالـوا، ووجـدوا بـه السبيـل إلى المقـال فقالـوا. وممـن خيـم في ذراه، ونـال مـن الحـظ الجسيـم مـن دنيـاه؛ الحصـري الضريـر؛ فـإن لـه فيـه مـا اذهـل الناظـر عـن الرقـاد، وأغـنى المسافـر عـن الـزاد؛ والحاجـب يكحـل عينيـه بزينـة دنيـاه، ويفتـق لهاتـه بمواهبـه ولهـاه. وكـان** [يحـيى] **سهـل الجانـب للقصـاد، طلـق اليـد بالمواهـب الأفـراد**)).[1] لـذا فـلا يستبعـد أن يكـون بـلاط سقـوط ــ وخاصـة ابنـه ضيـاء الدولـة ــ قـد عـرف حركـة ثقافيـة ــ ولـو متواضعـة ــ إذ يكونـان قـد أرادا بذلـك تقليـد ملـوك الأندلـس والمغـرب.

****

[1] **الذخيـرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 661 ـــ 662. أنظر أيضا مفاخـر البربـر، ص: 55.**

2)ـ دولـــة بـــني مـــدرار:

تنســـب هـــذه الدولـــة ـــ أيضـــا ـــ إلى مدينـــة سجلماســـة ذات الموقـــع القريـــب مـــن مدينـــة تافيلالـــت الحاليـــة. ويبـــدو أن هـــذه الدولـــة نشـــأت قبـــل تشييـــد مدينـــة سجلماســـة[1] المنسوبـــة إليهـــا أصـــلا؛ إذ كانـــت عبـــارة عـــن إمـــارة قبليـــة؛ ذات طابـــع بـــدوي. وقـــد سميـــت ـــ أيضـــا ـــ بدولـــة بـــني واســـول؛ وهـــو أحـــد أجـــداد بـــني مـــدرار. هـــذا وقـــد تباينـــت الأخبـــار ـــ بعـــض الـــشيء ـــ حـــول بـــدء قيامهـــا؛ غيـــر أن المهـــم ـــ هنـــا ـــ هـــو أن هـــذه الدولـــة تأسســـت في عـــام 140هـــ(757م)؛[2] بعـــد أن تجمعـــت فئـــات مـــن قبيلـــة

---

[1] أنظـر رأي ابـن خلـدون في الكيفيـة الـتي يحـدث بهـا ذلـك النشـوء؛ ضمـن "فصـل في أن الـدول أقـدم مـن المـدن والأمصـار؛ وأنهـا إنمـا توجـد ثانيـة عـن الملـك" إذ يقـول: ((وبيانـه أن البنـاء واختطـاط المنـازل إنمـا هـو مـن منـازع الحضـارة التـي يدعـو إليهـا التـرف، والدعـة كمـا قدمنـاه؛ وذلـك متأخـر عـن البـداوة ومنازعهـا. وأيضـا فالمـدن والأمصـار ذات هياكـل وأجـرام عظيمـة، وبنـاء كبيـر؛ وهي موضوعـة للعمـوم، لا للخصـوص؛ فتحتـاج إلى اجتمـاع الأيـدي، وكثـرة التعـاون؛ وليسـت مـن الأمـور الضروريـة للنـاس الـتي تعـم بهـا البلـوى؛ حـتى يكـون نزوعهـم إليهـا اضطـرارا؛ بـل لا بـد مـن إكراههـم عـلى ذلـك، وسوقهـم إليـه مضطريـن بعصـا الملـك؛ أو مرغبيـن في الثـواب والأجـر؛ الـذي لا يـفي بكثرتـه إلا الملـك والدولـة. فـلا بـد في تمصيـر الأمصـار، واختطـاط المـدن مـن الدولـة والملـك)). المقدمـة، ج: 3، ص ص: 965 ـــ 966.

[2] أمـا البكـري فقـال أنهـم شرعـوا في بنـاء سجلماسـة في عـام 104هـ؛ وهـذا لا يتطابـق مـع مـا أجمعـت عليـه بقيـة المصـادر. لـذا فالراجـح أن يكـون مـا ورد في المغـرب تحريفـا في النسـخ. المغـرب، ص: 149.

مكناسة البترية؛[1] في تلك الربوع؛ التي هي ــ في حقيقة الأمر ــ تدخل ضمن مواطن مكناسة. وذلك بعد أن التأم شعثهم في ذلك الخلاء؛ أين كانوا يرعون الأغنام وينشغلون بتتبع الكلأ خلف حيواناتهم. وعليه فقد كانت معيشتهم معيشة بداوة وانتجاع. وكانت تلك الفئات المكناسية المجتمعة صفرية المذهب. والظاهر أنهم كانوا من فلول وبقايا الصفرية؛ الثائرين مع ميسرة المطغري، وخالد بن حميد الزناتي؛ فلما عادوا إلى موطنهم؛ سعوا إلى تأسيس دولة تجمع شتاتهم، وتحافظ على مذهبهم. وعند تحقيق ذلك شرعوا في بناء مدينة سجلماسة؛ بعد أن نصبوا عليهم إماما؛ وهو المدعو عيسى بن يزيد بن سعد؛ المعروف بالأسود.[2] ولكنهم سرعان ما تنكروا له، وقتلوه شرّ قتلة.[3]

---

[1] ذكر البكري أنه لما وصل عددهم أربعين رجلا؛ قدموا على أنفسهم إماما؛ وهو عيسى بن مزيد (يزيد) الأسود. غير أن ابن الخطيب قدر عددهم بأربعة آلاف.

[2] نسبه ابن الخطيب إلى مكناسة؛ في خبر مضطرب؛ لا يتفق مع ما ورد في جل المصادر. (أنظر، أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 139 ـــ 140). بينما يتجاهل ابن خلدون والبكري ذكر انتسابه لمكناسة بشكل صريح. قال ابن خلدون: ((فلما اجتمع على هذا المذهب زهاء أربعين من رجالاتهم؛ نقضوا طاعة الخلفاء؛ وولوا عليهم عيسى بن يزيد الأسود من موالي العرب ورؤوس الخوارج)). العبر، مج: 6، ص: 267.

[3] وصف ابن الخطيب كيفية مقتله بقوله: ((ثم إن الصفرية غدروه سنة 167هـ؛ فقبضوا عليه، وشدوه وثاقا إلى أصل شجرة في أصل الجبل؛ بعد أن

وهكذا نرى كيف يتكرر بطش الصفرية بأمرائهم؛ فبعد قتل أمير الصفرية الأول (ميسرة)؛ بتدبير من أصحابه؛ يقتل أمير ثان ــ مرة أخرى ــ بواسطة أتباعه من الصفرية بسلجماسة.[1]

ــ حكومة أبي القاسم سمغون بن واسول المكناسي:

وبعد أن قتل الصفرية إمامهم عيسى بن يزيد؛ ولوا عليهم بدلا منه أبا القاسم سمغون بن واسول بن يزلان بن يزول المكناسي.[2] ويقول ابن خلدون أن أبا القاسم سمغون[3] هذا هو الذي حمل

طلوه بالعسل، وتركوه حتى قتلته الزنابير والنحل؛ فسمي ذلك الجبل جبل عيسى؛ وولوا بعده أبا الخطاب الصفري)). أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 139 ــ 140.

[1] للتوسع في موضوع دولة مكناسة بسجلماسة يستحسن الرجوع إلى: كتاب المغرب، ص ص: 148 ـــ 152. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 156 ـــ 157. والعبر، مج: 6، ص ص: 267 ـــ 273. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 139 ــ 149.

[2] وذكر ابن الخطيب أن أبا القاسم هذا هو الملقب بالمدرار. دخل جده الأندلس مع طارق ابن زياد. كما قال أنه كان حدادا من أهل الربض بقرطبة؛ فلجأ إلى سجلماسة؛ حيث تقرب من أبي الخطاب الصفري رئيس الصفرية فيها بسلاح صنعه بنفسه؛ فاستحسنه أبو الخطاب وقربه وقدمه على غيره. ولما توفي أبو الخطاب سنة 191هـ ولي مكانه.

[3] عرف ابن خلدون بأبي القاسم هذا بقوله: ((واجتمعوا بعده [أي بعد عيسى ابن يزيد الأسود] على كبيرهم أبي القاسم سمغون بن مصلات بن أبي يزول؛ كان أبوه سمغون من حملة العلم؛ ارتحل إلى المدينة؛ فأدرك التابعين؛ وأخذ عن عكرمة مولى بن عباس؛ ذكره عريب بن حميد في تاريخه. وكان صاحب ماشية؛ وهو [أبو القاسم] الذي بايع لعيسى بن يزيد؛ وحمل قومه على طاعته؛ فبايعوه من بعده)). العبر، مج: 6، ص ص: 267 ــ 268. أما البكري فيرى أن أبا القاسم هو الذي لقي عكرمة بإفريقية وسمع منه. المغرب، ص: 149.

قومه على تنصيب عيسى بن يزيد إماما. ولما ثاروا عليه وقتلوه عادوا إليه؛ فبايعوه بالإمامة.[1] أما ابن الخطيب فيرى أنهم بايعوا ــ بعد عيسى ابن يزيد ــ شخصا غامضا يسمى أبا الخطاب الصفري؛ إذ حكمهم مدة أربع وعشرين سنة؛ ومات سنة 191هـ(806م).[2] وهذا الأخير أشار إليه البكري باقتضاب؛ إذ قال أنه هو الذي حرض الصفرية على قتل عيسى؛ ولكنه لم يقل ببيعته وإمامته.[3] والغريب أن آلفرد بل يقول جازما بأنه عبد الأعلى بن السمح المعافري؛ الأمير الإباضي الذي تغلب على طرابلس والقيروان فيما بعد. غير أن آلفرد بل لم يذكر كيف استنتج هذا ؟ ولا ذكر المصدر الذي استند إليه.[4]

---

[1] قد يكون للعصبية دور في ذلك؛ خاصة إذا ما كان الوازع الديني ضعيف؛ ولا يرقى إلى ما كانت عليه العصبية من شدة وتأثير على الناس. وجاء في قول ابن خلدون أن عيسى هذا كان من موالي العرب؛ وهذا يبعث على الاعتقاد أن وجوده بين المكناسيين فرضته ظروف الصفرية؛ بعد هروبهم في أقصى البلاد.

[2] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 140.

[3] يفهم من قول البكري أنهم تسرعوا في الحكم على عيسى؛ بانفعال عجيب؛ إذ يقول: ((فأول من وليها عيسى بن مزيد (يزيد) ثم أنكر أصحابه الصفرية عليه أشياء. فقال أبو الخطاب يوما لأصحابه في مجلس عيسى: "السودان كلهم سراق حتى هذا؛ وأشار إلى عيسى؛ فأخذوه، وشدوه وثاقا إلى شجرة في رأس جبل، وتركوه كذلك حتى قتله البعوض؛ فسمي الجبل جبل عيسى إلى اليوم. ووليهم خمسة عشر عاما؛ ثم ولوا أبا القاسم سمغوا)). المغرب، ص: 149.

[4] الفرق الإسلامية، ص: 170.

المهم أن سمغون عندما تربع على سرير الحكم أعلن بالدعوة للمنصور والمهدي العباسيَّيْن؛ مع أنه صفري المذهب. وقد بقي أبو القاسم في الحكم حتى توفي أثناء صلاة العشاء، وفي آخر ركعة منها؛ وذلك سنة 168هـ(784م). أما ابن الخطيب فيقول بأنه توفي في آخر ذي القعدة سنة 199هـ(814م). كما قال أنه هو الذي أمر ببناء السور الذي يحيط بمزارع النخيل.

ـ حكومة أبي المنتصر اليسع بن سمغون المكناسي:

ولما توفي أبو القاسم سمغون خلفه ولده أبو الوزير إلياس؛ ولكن حكمه لم يدم طويلا؛ إذ قام عليه أخوه أبو المنتصر اليسع؛ فخلعه وانتصب في مكانه سنة 174هـ(790م) في رواية، أو سنة 200هـ(815م) في رواية أخرى. وكان حكم أبي المنتصر اليسع متميزا عما سبقه؛ ذلك أن هذا الأمير اتصف بشدة الوطأة، وبميل إلى العناد، وحدة الطبع، والحرص على ملكه؛ وكان شغوفا بالضبط والقهر، جبارا في سلوكه. فتمكن بحزمه وعزمه من فرض الخمس على معادن درعة، وفتك بمن حوله من القبائل الأمازيغية.

ومن أهم إنجازاته العمرانية بناء سور سجلماسة؛ الذي كان والده قد بدأه؛ ولكنه حرص أن يدخل عليه تحسينات جديدة؛ إذ أمر العاملين بأن يبنوا أساس السور بالحجارة، ثم يكملوا الجزء العلوي بطوب اللبن. وبعدها قسم مدينة سجلماسة أحياء بين القبائل المتواجدة بها.[1]

ـ حكومة مدرار بن اليسع المنتصر المكناسي:

وعندما توفي اليسع سنة 208هـ(823م)؛ خلفه ابنه المنتصر الملقب بمدرار. وقد حاز من الشهرة والصيت؛ إلى الحد الذي أصبحت هذه الدولة الصفرية تنسب إليه أصلا. كما يبدو أن تحولا مذهبيا حدث في عهد هذا الأمير المكناسي؛ حيث أضحى مذهبها الصفري يميل أكثر فأكثر إلى الاعتدال؛ وبالتحديد يميل إلى المذهب الإباضي. ويبدو أن ذلك قد تعزز أيضا بعد أن تزوج مدرار بأروى بنت عبد الرحمن بن رستم. وفي حياة هذا الأمير حدث خلاف ونزاع بين ولديه اللذين يسمى

---

[1] وعن هذا الأمير يقول ابن خلدون: ((فلم يزل أميرا عليهم. وبنى سور سجلماسة لأربع وثلاثين سنة من ولايته. وكان إباضيا صفريا. وعلى عهده استفحل ملكهم بسجلماسة. وهو الذي أتم بناءها وتشييدها؛ واختط بها المصانع والقصور؛ وانتقل إليها آخر المائة الثانية؛ ودوخ بلاد الصحراء، وأخذ الخمس من معادن درعة؛ وأصهر لعبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت بابنه مدرار في ابنته أروى فأنكحه إياها)). العبر، مج: 6، ص: 268.

كل واحد منهما باسم ميمون. لذا فلا يمكن التمييز بينهما إلا بإضافة نسبهما إلى الأم. فأحدهما هو ميمون بن تقية المعروف بالأمير؛ والآخر هو ميمون بن أروى الرستمية؛ ويرى ابن خلدون أن هذا الأخير يسمى أيضا عبد الرحمن. ودامت الفتنة بينهما على الحكم وولاية العهد مدة ثلاث سنين؛ وكان مدرار يميل إلى ابن أروى؛ الذي تمكن من إخراج أخيه ونفيه إلى درعة. ولكنه لم يحسن رد الجميل؛ فاختار سبيل العقوق ونكران الجميل؛ إذ عمل على عزل أبيه؛ طمعا في تولي سدة الحكم بدلا منه. ولكن الرعية ثارت عليه وخلعته؛ ثم استقدموا ابن تقية؛ المدعو (الأمير) من درعة لاستلام الحكم؛ ولكنه رفض القيام بذلك في حياة أبيه؛ لذا فقد اضطروا إلى إرجاع مدرار من جديد. والغريب أن مدرارا أراد ــ للمرة الثانية ــ إعادة ولده ابن أروى من منفاه بدرعة؛ فكررت الرعية ثورتها؛ وقاموا بخلعه مرة أخرى؛ ونصبوا ولده ميمون بن تقية؛ الذي اقتنع هذه المرة بوجوب ذلك المسلك؛ لقطع الطريق أمام أطماع أخيه.

هـذا ولا يعـرف ــ بالضبـط ــ سبـب ذلـك الخـلاف بيـن الأخويـن. كمـا لا يعـرف إن كـان ميـل الرعيـة إلى ابـن تقيـة مبعثـه إلى صلاحـه وتقـواه، أم إلى سبـب آخـر؛ ربمـا تعلـق بالعصبيـة القبليـة الـتي تـرى في أروى بنـت عبـد الرحمـن بـن رستـم أنهـا مـن أسـرة ليسـت مكناسيـة منهـم. هـذا ولـم يطـل الزمـن بمـدرار بعـد تلـك الأحـداث حـتى مـات سنـة 253هـ(866م)؛ وقـد دام ملكـه كلـه زهـاء خمـس وأربعيـن سنـة. أمـا ولـده ميمـون بـن تقيـة فقـد بـقي في الحكـم حـتى تـوفي سنـة 263هـ(876م).

ــ حكومـة محمـد بـن ميمـون المكنـاسي:

وبمـوت ميمـون بـن تقيـة تـولى الحكـم مـن بعـده ولـده محمـد الـذي ــ كمـا قـال ابـن خلـدون ــ كـان متمذهبـا بالإباضيـة. وهنـا تبـرز إشـارة لمـا يمكـن أنـه حـدث مـن تحـول مذهـبي في عهـد الأميـر مـدرار. ويقـول ابـن الخطيـب أن محمـدا هـذا غـزا أرض القبلـة ــ أي الجنـوب ــ حيـث تغلـب عـلى "**تافلبالـت**" [ربمـا كانـت تابلبالـت الحاليـة القريبـة مـن بشـار]. هـذا وقـد تـوفي محمـد بـن ميمـون في سنـة 270هـ(883م). ومـع ذلـك فقـد كانـت أخبـار عهـد محمـد هـذا شحيحـة، وغيـر كافيـة لتحديـد صـورة واضحـة لهـا.

ـ حكومة اليسع بن مدرار المنتصر المكناسي:

وبعد محمد تولى مهام الحكم عمه اليسع بن مدرار المنتصر. وفي عهده ظهر عبيد الله الشيعي؛ حيث لجأ ـ مع ابنه أبي القاسم ـ إلى سجلماسة. ولما تدخل الخليفة العباسي المعتضد لدى اليسع ـ الذي كان معلنا بطاعة العباسيين مثل آبائه ـ فقد لبى طلب المعتضد وقبض عليهما وحبسهما. وكان هذا التصرف هو الحافز المباشر للداعية الفاطمي أبي عبد الله الشيعي لكي يقوم بغزو سجلماسة، قصد إنقاذ سيده من محبسه؛ فتم له ذلك؛ بعد أن أطاح بحكم اليسع وقتله؛ وذلك في سنة 296هـ(908م). وقد دام حكم اليسع زهاء سبع وعشرين سنة. وعلى الرغم من طول مدة حكم اليسع؛ فإن عهده ـ بدوره ـ يكتنفه غموض كثيف.

ـ حكومة واسول الفتح بن ميمون الأمير بن مدرار المكناسي:

وقبل أن يخرج عبيد الله المهدي من سجلماسة نصب عليها واليا من قبله؛ وهو إبراهيم ابن غالب المزاتي؛ فظل مدة خمسين يوما ثم ثار عليه سكان سجلماسة سنة 298هـ(910م)؛ وقتلوه هو ومن معه من قبيلة كتامة. وبعدها نصبوا الفتح بن ميمون الأمير بن مدرار؛ وميمون هذا كما يعتقد ابن خلدون: ليس هو ابن تقية المشار إليه سابقا. وكان يلقب بواسول؛

وسماه آخرون باسم رسول؛ إن لم يكن ذلك تحريفا. ويقول ابن خلدون أنه كان إباضيا. وبقي في سدة الحكم حتى وفاته سنة 300هـ(912م).

ـ حكومة أبي العباس أحمد بن ميمون بن مدرار المكناسي:

بعد وفاة واسول تولى الأمر أخوه أبو العباس أحمد. وفي عهد هذا الأمير تغلب على سجلماسة القائد الفاطمي مصالة بن حبوس المكناسي؛ القادم إليها في جيش من كتامة ومكناسة معا. فاحتل المدينة، وقتل أميرها أحمد سنة 309هـ(921م). وهذه الحادثة تكشف ما أصاب عصبية مكناسة من خلل؛ إذ يتقاتل أبناء القبيلة الواحدة؛ لمصلحة جهة غريبة عنهم. وبالطبع لا يكون ذلك إلا في حال تغلب قوة معنوية أخرى على قوة العصبية المهزومة. ولم يتحقق ذلك سوى بالمذهب الفاطمي ذي التأثير الخطير؛ إلى جانب العصبية الكتامية المتغلبة على العصبيات الأخرى. ولم يجد المذهب الخارجي الصفري أو الإباضي نفعا لمكناسة؛ إذ لابد من العصبية القوية معه؛ لتحقيق شرط القوة والغلبة.

وذلك ما قرره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[1] حيث احتج بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم القائل: ((**ما بعث الله نبيا إلا في منعة من** قومه)). ثم يضيف: ((**وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد؛ فما ظنك بغيرهم ألا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية**)).[2] ثم أشار إلى بعض الشواهد والأمثلة في البلاد الإسلامية؛ التي فشل فيها الدعاة ورجال الدين في تحقيق أغراضهم؛ بسبب افتقارهم للعصبية النافذة المساندة لهم.

ـ عهد التبعية للفاطميين:

وعلى الرغم مما حدث؛ عندما تغلب الفاطميون على سجلماسة؛ بواسطة جيشهم الذي يقوده مصالة بن حبوس المكناسي؛ فقد بقيت بذور من العصبية دفينة في صدر ذلك القائد الفاطمي من حيث المعتقد، والمكناسي من حيث العصبية والانتماء؛ وذلك أنه ـ قبل عودته إلى إفريقية ـ أسند شئون الحكم إلى رجل آخر من العائلة المالكة المكناسية نفسها؛ إذ نصب على سجلماسة المعتز بن محمد بن بسَّاور أو (ساور) بن مدرار. وقد علل ابن الخطيب ذلك التصرف بقوله: ((**واقتضت سياسة مصالة أن يولي على سجلماسة**

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 638 ـــ 642.**

[2] **نفسه، ص: 638.**

رجلا من بني مدرار ليأمن شغبهم؛ فولى عليها المعتز بن محمد)).[1] وحتى إن كان هذا التعليل صحيحا؛ فلا يمنع أن اختيار مكناسيا؛ من البيت المالك في سجلماسة يكون قد أراحه نفسيا. هذا وقد بقي المعتز في الحكم إلى أن توفي في عام 321هـ(933م). ثم تلاه بعد مماته ولده محمد بن المعتز الذي توفي بدوره في سنة 331هـ(942م). ثم خلفه ولده الصبي المنتصر سمغون؛ فتولت جدته تدبير شئونه؛ ولكن ابن عمه محمد بن الفتح الملقب بالشاكر ثار ضده، وأخرجه من سجلماسة سنة 332هـ(943م).

ـ حكومة الشاكر محمد بن الفتح المكناسي:

انتقل محمد الشاكر ـ هذا ـ نقلة مخالفة تماما لما كان عليه أسلافه؛ إذ دعا إلى نفسه في المنابر؛ ثم تسمى بالشاكر، وتلقب بأمير المؤمنين؛ ثم سك سكة عرفت بالدراهم الشاكرية. ومع هذا فقد أبقى على الدعوة لبني العباس بغرض التمويه؛ كما يعتقد ابن خلدون؛ وأهم نقلة انتقلها هي تخليه عن المذهب الخارجي؛ حيث أخذ بالمذهب المالكي السني.[2] وتجمع المصادر أنه عرف بالعدل والصلاح؛ وذكر ابن حزم أنه:

---

[1] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 146.

[2] المغرب، ص: 151. والعبر، مج: 6، ص: 270. أنظر كتاب نقط العروس في تواريخ الخلفاء لابن حزم، ((رسائل ابن حزم الأندلسي) ج: 2، ص: 85.

((كان غاية في إظهار العدل، وتسمى الشاكر لله، وإليه تنسب المثاقيل الشاكرية)).[1] ويعتبر موقف الشاكر هذا كافيا لاستثارة الفاطميين؛ الذين شغلتهم ــ في البداية ــ فتن بني أبي العافية، وأبي يزيد مخلد ابن كيداد. ولما استتب الأمر للدولة أرسل المعز لدين الله الفاطمي جيشا من كتامة وصنهاجة إلى سجلماسة؛ ووضع على رأس ذلك الجيش جوهر الكاتب (الصقلي)؛ فتغلب عليها. وقد تمكن الشاكر ــ في بداية الأمر ــ من الإفلات واللجوء إلى حصن قريب من سجلماسة يسمى تاسكرات؛ ولكن سوء حظه أوقعه في قبضة الفاطميين؛ عندما دخل سجلماسة متنكرا؛ فعرفه رجل من قبيلة مطغرة؛ فأخبر الفاطميين عنه؛ الأمر الذي سهل القبض عليه؛ حيث نقله جوهر معه إلى القيروان في سنة 347هـ(958م). أين حبس في رقادة حتى مات في سجنه سنة 354هـ(965م). أما سجلماسة فقد أسند جوهر الكاتب ولايتها إلى مبادر بن زيري.

---

[1] رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء، ((رسائل ابن حزم الأندلسي))، ج:2، ص:85.

ـ حكومة ولدي الشاكر: المنتصر والمعتز:

ولما ضعف حال الفاطميين بالمغرب الأوسط، ومالت الكفة إلى فائدة بني أمية؛ ثار في سجلماسة أحد أبناء الشاكر؛ وتلقب بالمنتصر بالله؛ ولكن أخاه أبا محمد لم يمهله طويلا؛ إذ انتفض عليه وقتله سنة 352هـ(963م)؛ ثم استولى على الحكم وتلقب بالمعتز بالله.[1] وبقي في الحكم مدة من الزمن؛ حتى زحف إليه أمير مغراوة الزناتية خزرون بن فلفول سنة 366هـ(976م)؛ تبعا لتطور الأوضاع التي استفحل فيها أمر زناتة في المغربين الأوسط والأقصى؛ بحكم ما أصبحت عليه هذه القبيلة من قوة ونفوذ؛ بعد حلفها مع الدولة الأموية بالأندلس. وانتهت المعركة التي دارت أمام سجلماسة بين صاحبها المعتز وخزرون المغراوي بمقتل الأول واحتلال البلدة من طرف المغراويين؛ وبذلك سقطت دولة بني مدرار نهائيا؛ وغدت

---

[1] يختتم ابن خلدون حديثه عن دولة مكناسة بسجلماسة فيقول: ((وأقام على ذلك مدة [يقصد بقوله هذا أبا محمد المعتز آخر أمرائهم] وأمر مكناسة يومئذ قد تداعى إلى الانحلال؛ وأمر زناتة قد استفحل بالمغرب عليهم؛ إلى أن زحف خزرون بن فلفول؛ من ملوك مغراوة إلى سجلماسة سنة 366 هـ؛ وبرز إليه أبو محمد المعتز؛ فهزمه خزرون، وقتله، واستولى على بلده وذخيرته؛ وبعث برأسه إلى قرطبة مع كتاب الفتح... وعقد لخزرون على سجلماسة؛ فأقام دعوة هشام بأنحائها؛ فكانت أول دعوة أقيمت لهم بالأمصار في المغرب الأقصى. وانقرض أمر بني مدرار ومكناسة من المغرب أجمع؛ وأديل منهم بمغراوة وبني يفرن)). العبر، مج: 6، ص ص: 271 ـــ 272.

سجلماسة تحت حكم المغراويين؛ الداعين إلى بني أمية.

وجملة القول؛ فالشيخوخة بدأت تغزو دولة سجلماسة؛ نتيجة لما ظهر عليها من وهن؛ بعد فساد عصبية مكناسة في تلك الديار؛ حيث أخذت الخلافات تدب بين أفراد البيت المالك؛ طمعا في السلطة وتطلعا إلى مجدها. وكان لهذا السلوك مفعوله الخطير؛ الذي أضعف الدولة، وجعلها عرضة للاعتداءات؛ فسقطت أولا لقمة سائغة بين أنياب قبائل: كتامة؛ بقيادة أبي عبد الله الشيعي سنة 296هـ(908م)؛ فكانت تلك الغزوة صدمة شديدة أثرت على قوة الدولة المكناسية الصفرية. ثم جاءت الضربة الثانية من قبل أبناء العم؛ أي من قوم ينتمون إلى مكناسة نفسها؛ ولكنهم في خدمة الشيعة الكتاميين؛ فزحفوا معهم إلى مركز عصبيتهم بسجلماسة؛ وكانوا جميعا تحت قيادة مصالة بن حبوس المكناسي؛ وذلك سنة 309هـ(921م). وهنا ظهر التفكك الذي حل بعصبية مكناسة؛ إذ أضحت بعض فئاتهم تحارب إلى جانب كتامة؛ ضد أهل عصبيتها؛ أصحاب سجلماسة.

ومع هذا فثمة بعض الإيجابيات لهذه الدولة الصفرية؛ التي لا بد من ذكرها؛ من ذلك أنها استطاعت ـ قبل هرمها ـ تحقيق بعض الازدهار الاقتصادي، والاستقرار السياسي؛ بحكم تواجدها في الطريق التجاري الرابط بين غانة وشمال المغرب؛ نظرا لتوغلها جنوبا في الصحراء. وعلى الرغم من كونها صفرية المذهب، خارجية النزعة؛ فإنها ـ كسابقتها دولة برغواطة ـ كانت دولة تتبع في نظامها السياسي؛ نظاما ملكيا وراثيا. وهذا يخالف المعتقد الصفري الخارجي. أضف إلى ذلك؛ سلوك أمراء الدولة؛ الذين كانوا يخطبون على منابرهم لبني العباس، ويجاهرون بدعوتهم تلك. وهذا الأمر مخالف ـ أيضا ـ لمبادئ الصفرية، والخوارج بصفة عامة.

ـ الحضارة والحركة الثقافية:

وعلى الرغم من الازدهار الاقتصادي الذي تميزت به هذه الدولة؛ فإنها لم تتمكن من تطوير نظمها؛ إذ عجزت عن التخلص من هيمنة النظام القبلي المتشبع بروح البداوة الساذجة. ويبدو أن العصبية المكناسية لعبت ـ بعنفوانها ـ دورا هاما؛ في نشأة هذه الإمارة، كما حافظت على استمرار بقائها مدة من الزمن. وما المذهب الصفري سوى عامل إضافي؛ عزز العصبية المكناسية، ومتن روابطها. ومن هنا نستخلص بأن هذه الإمارة

الصفرية؛ تمكنت فعلا من تحقيق بعض الازدهار الاقتصادي؛ ولكنها بقيت دولة بدوية؛ ذات حضارة محدودة. وربما وقف نظامها القبلي حجر عثرة أمام تطورها الحضاري.

ومع هذا لا تخلو هذه الدولة من بعض السمات؛ التي يمكن وضعها في سياق الحركة الحضارية والثقافية. فمثلا كان لها طابعها العمراني المتأثر بالذوق البدوي. وقد ذكر البكري أن البناءين بسجلماسة كانوا من اليهود.[1] ولما توطدت العلاقات بين هذه الدولة الصفرية والدولة الرستمية ــ بدءا بعهد مدرار ــ أضحى المظهر الحضاري والثقافي في سجلماسة أكثر شبها وقربا من تلك الدولة الإباضية القائمة في تيهرت. كما شرع بعض العلماء والأدباء الإباضيين يترددون على سجلماسة؛ بغرض نشر العلم، وبث الدعوة الإباضية. وإلى جانب ذلك كان بعض الطلبة ــ المتعطشين للعلم ــ ينتقلون من إفريقية إلى سجلماسة للتعلم فيها على مشاهير العلماء الإباضيين المقيمين بها.[2]

---

[1] المغرب، ص ص: 149 ـــ 150.

[2] أنظر كتاب سير الأئمة وأخبارهم لأبي زكرياء، ص: 193 وما بعدها. وكتاب طبقات المشائخ بالمغرب للدرجيني، ج: 1، ص ص: 109 ـــ 113. ج: 2، ص: 502.

مـــن ذلـــك مـــا أشـــار إليـــه أبـــو زكريـــاء حيـــن ترجـــم لأبي الربيـــع سليمـــان بـــن زرقـــون؛ فقـــال أنـــه تعلـــم ــ مـــع أبي يزيـــد ابـــن كيـــداد ــ في سجلماســـة؛ عـــلى عالـــم مشـــرقي اسمـــه ابـــن الجمـــع؛ قـــال عنـــه أنـــه مـــن أهـــل الدعـــوة، وينتحـــل جميـــع الفـــرق؛ ويتمتـــع بعلـــم غزيـــر ومعرفـــة وافـــرة. وقـــال أنـــه قـــدم إلى بـــلاد المغـــرب كتاجـــر؛ فلازمـــه ابـــن زرقـــون؛ الـــذي رافقـــه في رحلتـــه إلى سجلماســـة؛ وبـــقي معـــه حـــتى مـــات؛ فـــأوصى بكتبـــه إلى ابـــن زرقـــون.[1] ويـــدل خبـــر كهـــذا ــ طبعـــا ــ عـــلى وجـــود حركـــة علميـــة في سجلماســـة؛ استقطبـــت بعـــض طـــلاب العلـــم مـــن بعـــض جهـــات بالمغـــرب.

****

3)ــ الدولـــة الرستميـــة:

تأسســـت هـــذه الدولـــة في أعقـــاب الاضطرابـــات الـــتي حدثـــت بيـــن قبائـــل الصفريـــة والإباضيـــة مـــن جهـــة؛ وبيـــن ولاة القيـــروان مـــن جهـــة أخـــرى. حيـــث التأمـــت القبائـــل الصفريـــة، والإباضيـــة متجمعـــة؛ ضمـــن حلـــف واحـــد. ولكنهـــا تفرقـــت ــ بعـــد ذلـــك ــ تبعـــا لتناقـــض المصالـــح القبليـــة الضيقـــة. فأخـــذت كـــل فرقـــة منهـــا تعمـــل منفـــردة؛ ساعيـــة لإقامـــة كيـــان مـــا؛ في

---

[1] **سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص: 193. أنظـــر الخبـــر نفســـه ــ أيضـــا ــ في طبقـــات المشائـــخ بالمغـــرب، ج: 1، ص ص: 109 ــ 110.**

شكل دولة أو إمارة صغيرة. وهذا ما سعت إليه القبائل الصفرية؛ بالمغرب الأقصى والأوسط؛ كبني يفرن بتلمسان، وبرغواطة بتامسنا، ومكناسة بسجلماسة. أما القبائل الإباضية؛ كـ: هوارة ونفوسة وزناتة ولواتة ولماية ومزاتة؛ فقد تمكنت هي الأخرى من إنشاء إمارة في طرابلس سنة 140هـ(757م)؛ لكنها سقطت عام 144هـ(761م)؛ تحت ضربات الجيش العباسي؛ بقيادة محمد بن الأشعث. والعلة التي عجلت بسقوط هذه الإمارة؛ هي العصبية القبلية بتناقضاتها؛ أي بعد نشوب خلافات بين قبيلتي: هوارة وزناتة. حيث اتهمت هذه الأخيرة الأمير أبا الخطاب بالتحيز لقبيلة هوارة؛ فانسحب الزناتيون من الميدان.[1] وهكذا سقطت تلك الإمارة الفتية؛ نتيجة لقوة أعدائها؛ من جهة، وعبث العصبية، والنخوة القبلية؛ من جهة أخرى.

[1] **البيان المغرب، ج: ، 1، ص: 72.**

ـ حكومة عبد الرحمن بن رستم:

وبعد فشل الإباضيين في السيطرة على القيروان، والاحتفاظ بإمارتهم في طرابلس؛ توجهوا صوب البلاد الداخلية؛ بعيدا عن نفوذ ولاة القيروان؛ فانتهى بهم المطاف عند جبل كزول؛ موطن قبيلة لماية البترية؛[1] وهناك شرعوا في وضع خطة لبناء مدينة تيهرت من جديد (تنطق تاهرت أيضا)؛ لأن مدينة تيهرت كانت منذ القدم؛ ويرجع تاريخها الأول إلى العهد الروماني؛ ولكنها اندثرت.[2] وعليه فقد بنى الإباضيون مدينة أخرى

---

[1] يقول البكري: ((في صفر سنة أربع وأربعين ومائة هرب عبد الرحمن بأهله، وما خف من ماله؛ وترك القيروان؛ فاجتمعت الإباضية، واتفقوا على تقديمه، وبنيان مدينة تجمعهم. فنزلوا موضع تاهرت اليوم؛ وهو عيصة أشبة؛ ونزل عبد الرحمن منه موضعا مربعا لاشعراء فيه؛ فقال البربر نزل تاقدمت؛ تفسيره الدّف؛ شبهوه بالدّف لتربيعه)). المغرب، ص: 68.

[2] يقول ابن عذاري في تيهرت: ((وكانت حَوْلَ تيهرت بساتينُ من أنواع الثمار، كثيرة الأشجار. وهي شديدة البَرْدِ، كثيرة الأمطار. قيل لبعض الظُّرَفاء من أهلها: "كم الشِّتَاءُ عندكم من شهر في السنة؟" قال: "ثلاثة عشر شهرا!". وقال بعضُ شعراء تيهرت من قصيدة أولها (طويل):

فَرَاغُ الهَوَى شُغْلٌ وَمَحْيَا الهَوَى قَتْلُ
وَيَوْمُ الهَوَى حَوْلٌ وَبَعْضُ الهَوَى كُلُّ
وَجُودُ الهَوَى بُخْلٌ وَرِسْلُ الهَوَى عَدَى
وَقُرْبُ الهَوَى بُعْدٌ وَسَبْقُ الهَوَى مَطْلُ
سَقَى اللَّهُ تِيهَرْتَ المُنَا وَسُوَيْقَةً
بِسَاحَتِهَا غَيْثاً يَطِيبُ بِهِ المَحْلُ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ وَالدَّارُ جَامِعَةٌ لَنَا
وَلَم يَجْتَمِعْ وَصْلٌ لَنَا لاَ وَلاَ شَمْلُ

تقــع إلى الغــرب منهــا؛ وتعــرف بتاقدمــت؛ ويفســر هــذا الاســم الصفــة الــتي كــان عليــه موقعهــا الجغــرافي؛ الــذي يظهــر في شكــل مربــع. وقــد يكــون بناؤهــا ــ حســب بعــض الروايــات ــ بــدأ بعــد قيــام الدولــة الرستميــة.[1] حيــث ترعرعــت الدولــة الرستميــة الإباضيــة ونمــت شيئــا فشيئــا داخلهــا. وقــد كانــت هــذه الإمــارة هي الدولــة المستقلــة الأولى في ربــوع المغــرب الأوســط. غيــر أنهــا لــم تظهــر في ثوبهــا الكامــل ســوى في سنــة

فَلَمَّا تَمَادَى العَيْـشُ وَانْشَقَّـتِ العَـصَى
تَدَاعَـتْ أَهَاضِيـبُ النَّوَى وَهْيَ تَنْهَـلُّ
سَـلاَمٌ عَلَى مَنْ لَمْ نُطِـقْ يَـوْمَ بَيْنِنَـا
سَلاَمـاً وَلَكِـنْ فَارَقَـتْ وَبِهَـا تُكْـلُ
وَمَـا هِيَ آمَـاق تَفِيـضُ دُمُوعُهَـا
وَلَكِنَّهَـا الأَرْوَاحُ تَجْـرِي وَتَنْسَـلُّ)).

البيــان المغــرب، ج: 1، ص ص: 198 ـــ 199.

[1] ويصــف البكــري هــذه المدينــة بقولــه: ((ومدينــة تيهــرت مســورة؛ لهــا ثلاثــة أبــواب: بــاب الصبــا وبــاب المنــازل وبــاب الأندلــس وبــاب المطاحــن وغيرهــا [عــدَّ أربعــة أبــواب بــدلا مــن ثلاثــة]. وهي في سفــح جبــل يقــال لــه جــزُّول؛ ولهــا قصبــة مشرفــة عــلى الســوق؛ تســمى المعصومــة؛ وهي عــلى نهــر يأتيهــا مــن جهــة القبلــة؛ يســمى مينــا؛ وهــو في قبليهــا، ونهــر آخــر يجــري مــن عيــون تجتمــع تســمى تاتــُش؛ ومــن تاتــش شُــرب أهلهــا، وبساتينهــا؛ وهــو في شرقيهــا. وفيهــا جميــع الثمــار؛ وسفرجلهــا يفــوق سفرجــل الآفــاق حســنا وطعمــا مشمــا؛ وسفرجلهــا يســمى بالفــارس. وهي شديــدة البــرد، كثيــرة الغيــوم والثلــج... ونظــر رجــل مــن أهــل تاهــرت إلى توقــد الشمــس بالحجــاز؛ فقــال احــرقي مــا شئــت؛ فــواللــه أنــك بتاهــرت لذليلــة. وهــذه تاهــرت الحديثــة وعــلى خمســة أميــال منهــا تاهــرت القديمــة؛ وهي حصــن لبرقجانــة؛ وهــو في شــرقي الحديثــة... وبقبليهــا لواتــة وهــوارة في قــرارات، وبغربيهــا زواغــة، وبجوفهــا مطماطــة وزناتــة ومكناســة؛ وقــد ذكرنــا أن بشرقيهــا حصــن لبرقجانة؛ وهو تاهرت القديمة)). المغرب، ص ص: 66 ــ 67.

160هـ(776م).[1] كما كانت تتمتع بنفوذ معنوي واسع في بلاد المغرب؛ إذ تخضع لها مقاطعات شاسعة في برقة وإفريقية والمغرب الأوسط؛ حيث كانت معظم القبائل الأمازيغية آنئذ تدين بالمذهب الإباضي؛ وعليه فقد أبدوا طاعة ــ ولو شكلية ــ لإمام الدولة الرستمية. ومنذ نشأة هذه الدولة تولى الإمامة فيها عبد الرحمن بن رستم بن بهرام. وكان فارسيّ الأصل، وهو من موالي عثمان بن عفان؛ وينحدر من أسرة تتصل بملوك الفرس الأكاسرة. ويقال أنه ولد في العراق؛ وقدم إلى القيروان رفقة أمه التي تزوجت ــ بعد أن مات بعلها في الحج ــ من رجل يسكن القيروان. وهكذا يكون هذا الأمير الآباضي من المشارقة الوافدين إلى المغرب؛ مثله مثل أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح؛ مع فارق السن. وبقيام هذه الدولة ــ قبل تشييد عاصمتها تيهرت ــ تكون قد توافقت مع نظرية ابن خلدون السابقة الذكر؛ والتي يرى فيها أن قيام الدولة يحدث قبل تشييد مدينتها.[2]

---

[1] ثمة من يرى أن بناء المدينة تم في سنة 161هـ تقريبا. أما قيام الدولة فقد حدث بعد شغور منصب الإمامة الإباضية؛ أي بعد مقتل أبي حاتم يعقوب ابن حبيب الملزوزي؛ الذي كان إماما لهم؛ وذلك سنة154هـ. ومع هذا فقد بقي تاريخ قيام هذه الدولة يكتنفه بعض الغموض. أنظر كتاب العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص ص: 29 ــ 30.

[2] المقدمة، ج: 3، ص ص: 965 ــ 968.

ومن الضروري التنبيه ـ هنا ـ إلى وجود فوارق واضحة بين دولة تيهرت الإباضية، وبين الدولتين السابقتين (دولة برغواطة، ودولة بني مدرار)؛ من حيث نظمها وسيادتها وسعة رقعتها وإنجازاتها الحضارية. فدولة بني رستم كانت متينة الأسس، ديمقراطية النظام والتسيير، سيدة القرار والتنفيذ، واسعة الأطراف والأقاليم، ذات إنجازات حضارية وثقافية متميزة؛ يرأسها إمام؛ يحكم الناس بمساعدة مجلس للشورى؛ أعضاؤه هم أهل الحل والعقد. وكان العامل الديني سائدا، ومهيمنا على الحياة في تلك الدولة. وينسجم هذا مع ما قرره ابن خلدون في مقدمته؛ من أن "**الدولة العامة الاستيلاء، العظيمة الملك؛ أصلها الدين؛ إما من نبوة، أو دعوة حق**". و"**أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية؛ التي كانت لها من عددها**".[1]

ومع هذا لا يسع المتأمل في تاريخ الدولة الرستمية سوى الاعتراف بما للعصبية من أثر لا ينكر في نشأتها. فعلى الرغم من العامل الديني؛ الذي هذب أخلاق ونفوس الذين أنشئوا هذه الدولة؛ إلا أنها لم تكن تخلوا من تأثيرات العصبية. إذ أن اختيار عبد الرحمن بن رستم بن بهرام الفارسي لمنصب الإمامة فيها؛ جاء نتيجة

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 636 ـ 638.**

لما كانوا يعرفونه عن نسبه وفضله؛ فدخل ــ بهذا الاعتبار ــ في إطار أصحاب النصاب الملكي؛ لأنه منسوب إلى الأكاسرة، وكان عاملا لأبي الخطاب على القيروان في الدولة الإباضية الأولى. كما أن القبائل المتعددة العصبيات ــ التي شاركت في تشييد هذه الدولة ــ تكون قد اختارته؛ لكي تتجنب الصراع على السلطة فيما بينها؛ وخوفا من تأثير النزوات الهوجاء للعصبية الغاشمة. هذا بالإضافة إلى تأثير المذهب الإباضي؛ الذي يستوجب اختيار الأمير من أهل الصلاح والفضيلة؛ دون اعتبار لعروبته أو قريشيته.[1] وبذلك يمكن القول أن دولة بني رستم تأسست بفضل العصبية التي تمثلها قبائل: لماية ولواتة ومزاتة وهوارة وزناتة؛ تلك القبائل التي تحالفت، وعززت عصبيتها بالتعاليم الدينية؛ التي ألفت بين القلوب، وأنارت العقول، ووحدت الصفوف، وأزالت علة التنافس، والحسد

---

[1] ويمكن استشفاف ذلك كله من خلال النص الذي سجله أحد علمائهم وهو أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر؛ في كتابه سير الأئمة وأخبارهم؛ إذ قال: ((أن جماعة من المسلمين ــ من أهل النظر منهم ــ وجدوا في أنفسهم قوة، وأنسوا طاقة؛ فأرادوا التولية؛ فنظروا في عامة القبائل؛ فوجدوا في كل قبيلة رأسا أو رأسين؛ كل يصلح للإمارة؛ فاشتوروا فيما بينهم. فقال بعضهم: "إن عبد الرحمن بن رستم الفارسي رضي الله عنه؛ ممن لا تجهلون فضله، وهو أحد الخمسة الحاملين للعلم، وعامل الإمام أبي الخطاب رضي الله عنه. وقد عرض عليه المسلمون الإمامة؛ قبل تولية أبي الخطاب؛ فأعرض عنها، ودفعها عن نفسه، ولم يردها؛ ولا سيما وأنه ليست له قبيلة تمنعه إذا تغير وتبدل)). ص: 82. أنظر أيضا طبقات المشائخ بالمغرب؛ للدرجيني، ج: 1، ص: 42.

بين الناس؛ فهذبت بذلك طيش العصبية، وكبحت جموحها؛ فامتلكت قوة وقدرة؛ حققت بهما استقلالها، وضمنت امتداد رقعتها، واكتسبت هيبة واحترام خصومها.

كان إمام الإباضيين عبد الرحمن بن رستم في غاية الصلاح والزهد وفي قمة المعرفة والعلم. وله بعض المؤلفات منها: تفسير للقرآن الكريم، وديوان خطب، ورسائل إخوانيات. ومن علامات زهده وفضله وتواضعه؛ أنه كان يقوم ببناء داره بنفسه، وبمعونة عبد له. كما أوردت المصادر أنه لما وصلته ــ في بداية الدولة ــ ثلاثة أحمال من المال؛ بعث بها الإباضيون في المشرق؛ استشار أصحابه في أمرها؛ فأشاروا بقبولها؛ لحاجة الدولة والرعية إليها أنئذ. فعمل بمشورتهم وقبلها، ثم فرقها أمام الوفد المشرقي على فقراء المسلمين، وفي شراء الأسلحة الضرورية. ولما وصلته عشرة أحمال أخرى من المال ــ بعد فترة ــ مع وفد آخر؛ شاور أصحابه أيضا؛ فتركوا القرار له. عندها أرجع الأحمال إلى أصحابها؛ بحجة أن أصحابها أحوج إليها من الدولة؛ نظرا لاستغنائها وما وصلت إليه من قوة.[1]

---

[1] سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 83 ــ 84. طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص: 45.

ولما أحس عبد الرحمن بن رستم بدنو أجله؛ انتخب سبعة من الأعيان؛ ثم عرضهم على الناس لاختيار خليفته منهم. وبذلك يكون قد اتبع سنة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وهؤلاء السبعة هم: مسعود الأندلسي؛ وكان فقيها من أهل الفضل والعلم والورع، ثم عمران بن مروان الأندلسي، ثم أبو الموفق بغدوس بن عطية، ثم سكر بن صالح الكتامي، ثم مصعب بن سدمان، ثم أبو قدامة يزيد بن فنديـن اليفرني، ثم عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم. وتبعا لقانون **العصبية**، وطبيعة مفعولها في الأنظمة القبلية، أو الشبيهة بالقبلية؛ فإن الفرز الحقيقي اقتصر على اثنين من السبعة؛ لما لهم من نفوذ على العصبيات الممثلة في تيهرت. وكانت المنافسة الفعالة بين ابن فنديـن اليفرني الزناتي؛ الذي انحازت إليه قبيلته، وبين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم؛ الذي اختارته القبائل الأخرى؛ كما انضم إلى صفه جماعة من الفرس؛ بحكم العصبية أيضا. وانتهى الأمر بتفوق عبد الوهاب؛ بحكم نصابه الملكي، والتنافس الخفي بين القبائل الأخرى؛ كما أن أم عبد الوهاب كانت من قبيلة بني يفرن الزناتية أيضا.

وثمة رواية أخرى تقول أن الاختيار انحصر ــ في الأول ــ بين مسعود الأندلسي، وعبد الوهاب؛ ولكن مسعود الأندلسي رفض وبايع عبد الوهاب. ولما تيقن ابن فنديـن من إصرار الناس على عبد الوهاب قال: ((**هو أقرب منا رحما من غيره؛ ولعل ذلك أن يعطفه علينا**)).[1] وهكذا تنطق العصبية، وتعبر عن ذاتها؛ دون أن يشعر ابن فنديـن بتناقضه مع المذهب الذي يتبعه. فقد رضي بعبد الوهاب لأن أمه من بني يفرن، وطمعا في أن يؤثرهم على غيرهم.[2] وهكذا فلما توفي عبد الرحمن بن رستم سنة 171هـ(787م)؛ خلفه ولده عبد الوهاب.

ــ حكومة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم:

وكان الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن متبحرا في علوم الشريعة الإسلامية، والفقه الإباضي؛ وله كتاب جمع تحت عنوان نوازل نفوسة. وكان يقضي وقته في تدبير شئون الدولة، والمطالعة وتدريس العلوم في المسجد. ولما ذهب إلى جبل نفوسة بقي به زهاء السبع سنين في التدريس بالمسجد لعامة الناس. وقد عرف بالدهاء، والحنكة البالغة، وشدة الشكيمة، والحزم، والثروة الزاخرة. وقد اختلفت الروايات حول مدة حكمه فمن قائل

---

[1] **السير، ص: 86. والطبقات، ج: 1، ص: 47.**

[2] **السير، ص: 86. والطبقات، ج:، 1، ص ص: 46 ــ 47.**

بأنها دامت نحو أربعين سنة؛ أي أنه تولى الحكم سنة 168هـ(784م) ومات سنة 208هـ(823م)، وقائل أنها لم تتجاوز التسعة عشر سنة. غير أن سليمان الباروني يقول أنه حكم من عام 171هـ إلى عام 190هـ(805م) سنة وفاته.

وفي عهد الإمام عبد الوهاب بدأت **العصبية** تتململ وتتحرك؛ استجابة لمقتضى طبيعتها المتصفة بالأنانية والغضب. وعلى الرغم من انتماء أم عبد الوهاب إلى القبيلة بني يفرن الزناتية؛ تلك القبيلة القوية النافذة؛ فإنه لم يستطع كسب ولاء كل عشائرها؛ إذ وقف في طريقه يزيد بن فندين اليفرني؛ ذلك الخصم العنيد، المتعصب لنفسه ولقبيلته. ونتيجة لهذا حدث ما يعرف لدى الإباضيين بالافتراق الأول بين الإباضيين. وقد تطور الخلاف بين الطرفين حتى وصل إلى استعمال السلاح، وسفك الدماء. وتكررت الفتن بينهما حتى اختتمت بمقتل يزيد بن فندين؛ في موقعة قتل فيها ما لا يقل عن اثني عشر ألفا.

وعرفت الجماعة المخالفة بعدة ألقاب منها: العمرية أو العمرانية؛ نسبة إلى عيسى بن عمير، والنجوية؛ لأنهم كانوا يتناجون بالإثم والعدوان، والنكارة؛ لإنكارهم إمامة عبد الوهاب، والشغبية؛ بسبب شغبهم، والملحدة؛ لإلحادهم في أسماء الله الحسنى، والنكاث؛ لنكثهم البيعة بغير حجة شرعية.[1]

ولم تكن هذه هي الثورة الوحيدة في عهد الإمام عبد الوهاب؛ بل ثارت عليه أيضا فئة أخرى من قبيلة زناتة. وعلى الرغم من تبعيتهم للدولة الإباضية؛ إلا أنهم كانوا يتمذهبون بالواصلية (وهم أتباع طائفة من المعتزلة؛ ممن اعتنق مذهب واصل بن عطاء الغزال).[2] كما وضع أبو زكرياء في كتابه فصلا خصصه لهذه الفرقة؛ ولدورها في إثارة الفتنة وسط دولة بني رستم؛ وسرد الكيفية التي استطاعت بها هذه الفئة من زناتة الزج بالدولة في دوامة من الاضطرابات والفتن ــ مدة طويلة ــ قبل أن تتمكن من التغلب

---

[1] السير، ص ص: 88 ــ 100. والطبقات، ج: 1 ص ص: 47 ــ 56.

[2] وقد أشار البكري لهذه الفئة من الواصلية؛ المتواجدة بالقرب من تيهرت فقال: ((وكان مجمع الواصلية قريبا من تاهرت؛ وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا؛ في بيوت كبيوت الأعراب؛ يحملونها)). المغرب، ص: 67. أنظر أيضا معجم البلدان لياقوت الحموي، مادة تاهرت: 2، ص: 8.

عليهم؛ بمساعدة جماعة من نفوسة.[1] والقصة طويلة؛ ولكن خلاصتها في النهاية؛ انتهت بهزيمة الواصلية في مجالات الحرب، والمجادلات الكلامية. وعندها اختار أصحابها مهادنة الدولة. وثمة من يعتقد بأن محرك هذه الجماعة هو شيخ أوربة بأوليلي إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي؛ المبايع لإدريس بن عبد الله؛ وكان ــ كما قال البكري ــ معتزليا. ومن جهة أخرى فقد ذكر الشهرستاني ــ في فصل الواصلية ــ أن فئة منهم

---

[1] وعن هذا يقول أبو زكرياء: ((وهم قوم من البربر؛ أكثرهم من قبائل زناتة؛ وذلك حين أحسوا ببعض الفرقة في الإباضية؛ وأرادوا أن ينتهزوا بعض الفرصة؛ فبلغ الإمام ذلك؛ فاعتذر إليهم مرة بعد مرة؛ وقد نشأ إذ ذاك من الواصلية شاب حدث السن، شجاع، عظيم، بطل لا يقاوم له شيء؛ وهو ابن سيدهم، وعمدتهم. وفيهم رجل منتحل للمناظرة؛ يذب من مذهبه؛ وقد جرت بينه وبين الإمام مناظرات كثيرة؛ وكان شديد المعارضة، حديد العارضة. فتكاثفت كلمة الواصلية، واجتمعوا من كل نقب، وجازوا من كل أوب؛ فانحازوا عن تاهرت، وأخذوا جبالها؛ وهم أصحاب العمود؛ وأظهروا مخالفة الإمام ــ رضي الله عنه ــ فاعتذر إليهم؛ وخرج إليهم بعساكر كثيرة؛ فقاتلهم مرة بعد مرة. وكان الفتى المعروف بالنجدة والشجاعة؛ لا يدرك أحدا إلا قتله... فلما رأى الإمام ــ رضي الله عنه ــ ذلك، وأن حربهم جد؛ أرسل إلى جبل نفوسة يستمدهم؛ أن يبعثوا إليه جيشا نجيبا؛ يكون فيه رجل ذو علم بفنون الرد على المخالفين، ورجل عالم بفنون التفسير، ورجل شجاع بطل نجد يبارز الفتى المعتزلي الموصوف بالشجاعة... واتفق رأيهم على أن يبعثوا له بأربعة نفر: أحدهم مهدي [النفوسي الويغوي]، والآخر أيوب بن عباس، والثالث محمد بن ياتس، والرابع لم يبلغنا اسمه؛ وقد قيل أن اسمه أبو محمد فارس...)). السير، ص:**102**.

متواجدة في بلد إدريس بن عبد الله الحسني.[1] وإذا صح هذا فمعناه أن الواصلية تكون قد انتشرت انتشارا واسعا في المغرب الأوسط؛ ووصلت إلى أجزاء من المغرب الأقصى.

ولم تكن هزيمة ابن فندين اليفرني والزناتيين التابعين للواصلية ــ من بعده ــ هي خاتمة الثورات؛ بل انتفضت قبيلة هوارة إثرهما؛ بفعل الغيرة والنخوة وتأثير العصبية؛ إذ استفزهم تصرف الإمام عبد الوهاب؛ من أجل ابنة شيخ قبيلة لواتة؛ التي تقدم إلى خطبتها أحد شيوخ هوارة؛ فخاف الإمام عبد الوهاب عاقبة تمتين أواصر القربى بين القبيلتين: (هوارة ولواتة) فسارع إلى مزاحمة شيخ هوارة؛ وعرض نفسه بديلا وخطيبا منافسا.[2] وبالطبع دخلت في الاعتبار المغريات المالية، والوعود الملوكية؛ فانتهت المنافسة بزواج الأمير عبد الوهاب من الفتاة. وكان هذا بمثابة إعلان حرب بين هوارة والإمام عبد الوهاب. وحدثت أيضا في عهد هذا الإمام فتن أخرى؛ قامت بها بعض العشائر البدوية من مزاتة وسدراتة وعشائر أخرى.

---

[1] **الملل والنحل، ج: 1، ص: 46.**

[2] **سيرة الأئمة الرستميين، ص: 22. الأزهار الرياضية، ج: 2، ص: 137. وتاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص: 457. وتاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص: 169. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 420 ــ 421. 430 ــ 431. 491. والعلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص: 56.**

والسبب ــ على ما يبدو ــ أنهم طالبوا الإمام بعزل بعض الموظفين؛ كالقاضي، وصاحب بيت المال، وصاحب الشرطة؛ فأبى عليهم ذلك ــ في قصة طويلة ــ فثاروا عليه؛ فما كان منه إلا أنه جرد قوة لتأديبهم وإخضاعهم؛ وتم له ذلك بعد جهد.[1]

ــ حكومة أفلح بن عبد الوهاب:

وبعد وفاة الإمام عبد الوهاب خلفه ولده أفلح ابن عبد الوهاب؛ الذي احتل مركزا ممتازا بين أئمة الإباضيين. وقد دام حكمه ما يقارب الخمسين سنة في قول، وستين سنة؛ في قول آخر. وسبب هذا الاختلاف يعود ــ كما يبدو ــ إلى ما ظهر من اضطراب حول السنة التي توفي فيها والده الإمام عبد الوهاب. وبهذا تكون السنة الذي تولى فيها الأمير أفلح غير محققة. ربما حدثت في سنة 188هـ(803م) أو 190هـ(805م) أو 208هـ(823م). ومع ذلك فقد اتفقت المصادر كلها على أن سنة وفاة الإمام أفلح هي 240هـ(854م). ولما تولى هذا الإمام الحكم كانت ثورة خلف بن السمح بن أبي الخطاب عبد الأعلى؛ التي اندلعت في نواحي طرابلس؛ أيام حكم والده ما زالت مشتعلة؛

---

[1] تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص: 457. وتاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص: 169. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 420 ــ 421. 431. 491 ــ 495. والعلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص: 56.

فواصل جهود والده لإخمادها. هذا وقد وصفت المصادر أفلح بالشجاعة والنجدة والعدل وحب العلم والتبحر فيه؛ وله بعض المؤلفات والرسائل في: الأجوبة والنصائح والمواعظ. وكانت له مشاركة في الآداب ونظم الشعر. وفي عهده ازدهر النشاط الاقتصادي والتجاري في تيهرت، وتوسعت التجارة مع بلاد السودان؛ خاصة مملكة **كوكو**؛ التي يقدر بعدها عن تيهرت بثلاثة أشهر سيرا بالقوافل؛ عبر وارجلان؛ كما كانت لهذه الدولة علاقات طيبة مع الدولة الأموية بالأندلس.

ويبدو أن الإمام عبد الوهاب استطاع بدهائه وحنكته تمهيد الدولة، وتيسير أمر انتقال الحكم فيها إلى أبنائه؛ دون حدوث مشاكل؛ مثلما حدث عند توليه الحكم بعد أبيه عبد الرحمن؛ وعليه لم تتكلم المصادر الإباضية ــ بدقة ــ عن الطريقة التي تمت بها بيعة ولده أفلح. مما يبعث على الاعتقاد أنها حدثت كما كان يحدث في الممالك السنية الأخرى؛ إذ رسخت لدى الرعية فكرة أحقية الإرث الملكي للأسرة المالكة؛ كما أقروا بصحة العمل بمبدأ ولاية العهد.

ومع هذا فقد نشبت في عهد الإمام أفلح بعض التيارات المعارضة؛ مثل: الحركة التي سماها الإباضيون بالافتراق الثالث؛ وهي ــ في الحقيقة ــ معارضة مذهبية سلمية؛ قادها نفاث ابن نصر النفوسي؛ وإن كانت المصادر الإباضية ترجع أسبابها إلى عوامل سياسية؛ وإلى الغيرة والحسد نتيجة لاستحواذ بعضهم على المناصب في الدولة دون الآخرين.[1]

ــ حكومة أبي بكر بن أفلح:

وبعد وفاة الإمام أفلح سنة 140هـ تولى ولده أبو بكر الإمامة. وكانت مدة ولايته قصيرة جدا؛ إذ لم يكمل حكمه السنتين. وفي عهد هذا الإمام عرفت دولة بني رستم تحولا ملحوظا في مسارها السياسي. إذ أصبحت الدولة في قمة الثراء والازدهار؛ مما ساق أصحابها إلى الدخول في عهد جديد يتميز بالترف الفائض والنعيم الواسع. ومن الأمثلة على ذلك الثراء الذي كان متفشيا بين رعايا الدولة أن أحدهم؛ وهو يبيب بن زغلين المزاتي كان يمتلك من الإبل ثلاثين ألفا، ومن الغنم ثلاثمائة ألفا، ومن الحمير اثني عشر ألفا. أما ثروة الإمام أبي بكر بن أفلح فلا حصر لها.

---

[1] **سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 138 ــ 146. طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 77 ــ 82.**

وعليه فقد أصيبت الدولة بالأعراض الطبيعية للترف والنعيم الفائضين عن الضروري؛ لذا فقد ابتلي الإمام أبو بكر بالداء الذي ينتج عن الترف وتوابعه؛ وهكذا فقد ركن إلى الدعة والسكون؛ وترك شئون الدولة في يد صهره محمد بن عرفة؛ وهو من أعيان البلد ذوي النفوذ والسمعة الطيبة؛ وينتمي إلى أسرة عربية؛ ولكنه مال إلى الاستبداد بالأمر؛ مما أغضب أهل البيت المالك؛ فأوغروا صدر أبي بكر ضد صهره؛ فقتله غيلة؛ الأمر الذي أشعل في المدينة ثورة أكلت الأخضر واليابس. وما حدث هنا لا يخرج عن المفهوم الذي وضعه ابن خلدون في مقدمته ضمن: "**فصل في أن من طبيعة الملك الدعة والسكون**". و"**فصل في أطوار الدولة، واختلاف أحوالها، وخلق أهلها باختلاف الأطوار**".[1]

---

[1] فـفي المثال الأول يقول ابن خلدون: ((وذلك أن الأمة لا يحصل لها الملك إلا بالمطالبة. والمطالبة غايتها الغلب والملك؛ وإذا حصلت الغلبة انقضى السعي إليها... فإذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه؛ وآثروا الراحة والسكون والدعة؛ ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس؛ فيبنون القصور، ويجرون المياه، ويغرسون الرياض، ويستمتعون بأحوال الدنيا، ويؤثرون الراحة على المتاعب)). أما المثال الثاني فيقول فيه: ((اعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة، وحالات متجددة؛ ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقا من أحوال ذلك الطور؛ لا يكون مثله في الطور الآخر؛ لأن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه. وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغلب خمسة أطوار: <u>الطور الأول:</u> طور الظفر بالبغية... فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسْوَة قومه في

وهذا هو الذي حصل للرستميين؛ إذ وصل مؤسس دولتهم عبد الرحمن بن رستم إلى إقامة دولته بالكدِّ والجهد والمطالبة المضنية؛ فاقتصر ــ في حياته إذ ذاك ــ على الضروري من العيش. ولم يهنأ له بال، ولا استسلم للراحة ولا للدعة أو السكينة؛ حتى حقق أهدافه. ولما خلفه ابنه عبد الوهاب ضبط أمره، وحافظ على توازن ملكه؛ على الرغم من الثراء الذي بدأ يظهر عليه؛ ونظرا لكونه قد عاش في عهد والده؛ وعرف قيمة الجهود التي بذلها أبوه للوصول إلى ما هم عليه؛ فقد توازنت حياته، ولم يترك لنفسه العنان.

اكتساب المجد، وجباية المال، والمدافعة عن الحوزة والحماية... الطور الثاني: طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك، وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال، واتخاذ الموالي والصنائع، والاستكثار من ذلك؛ لجدع أنوف أهل عصبيته...الطور الثالث: طور الفراغ والدَّعَةِ؛ لتحصيل ثمرات الملك؛ مما تَنْزِع طباع البشر إليه؛ من تحصل المال، وتخليد الآثار، وبعد الصيت... الطور الرابع: طور القنوع والمسالمة. ويكون صاحب الدولة في هذا قانعا بما بَنَى أوَّلُوه، سلماً لأنظاره من الملوك وأقتاله، مقلدا للماضين من سلفه... الطور الخامس: طور الإسراف والتبذير. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفا لما جمع أوَّلُوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته... وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهَرَم، ويستولي عليها المرض المزمن؛ الذي لا تكاد تخلص منه، ولا يكون لها معه بُرْءٌ؛ إلى أن تنقرض)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 651. 663 ــ 666.

ولما تولى ابنه أفلح بدأت بوادر الترف تدخل بيته؛ وإن كان ــ هو في ذاته ــ بقي متمسكا ببعض عادات أبيه؛ غير أن ذلك كان نسبيا. أما ولده أبو بكر فقد بعد به الزمن عن مبدأ قيام الدولة، ولم يعرف للتقشف طريقا؛ ولم يعايش حال الأولين؛ لذا فقد طغت عليه طبيعة الملك؛ المتميزة برخاء العيش؛ فانساق وراء الترف والملذات والمغريات؛ تاركا معاناة الحكم، ومشاق السياسة إلى وزيره ابن عرفة؛ فحدث ــ نتيجة لذلك ــ شرط الاستبداد عليه؛ من طرف صهره ابن عرفة؛ ولكن عصبية البيت المالك أبت عليه تراخيه، وعابت عليه ترك شئون الدولة بين يدي وزير من قبيلة أخرى؛ ليس بينهم وبينها روابط؛ سوى روابط المصاهرة؛ لذا فقد استعملوا سلاح الفتنة والخداع للتفريق بينهما؛ فكانت النتيجة هي ما حدث من مآسي وسفك للدماء. وما تلاها من انتفاضات للعامة، وثورات قام بها: بنو مسالة الهواريين أصحاب قلعة تاسفدالت، وفئة من الفرس المناوئين لبني رستم.

ويبدو أنه تم ــ وفي عهد أبي بكر هذا ــ إلحاق بعض الجماعات من الفرس والعرب بالدولة الرستمية؛ وقد قدم هؤلاء الفرس والعرب من المشرق مباشرة، أو من القيروان.[1] ويدل هذا طبعا على التوجه الجديد للدولة الرستمية ــ في أواخرها ــ نحو استخدام المصطنعين من الجند والموظفين؛ لتعويض فئات أخرى من القبائل؛ التي قامت الدولة على كاهل أبنائها. وهذا كما سبق شرحه يفسر ظاهرة الشيخوخة التي ابتليت بها الدولة في هذا الطور من حياتها.

وجملة القول فقد شرعت الدولة الرستمية ــ بدءا بعهد أبي بكر هذا ــ في الانزلاق عبر منحدرات السقوط والاندثار. وانتهى الأمر بإمامها أبي بكر إلى أسلوب في الحكم لم تعهده الدولة من قبل؛ إذ انغمس في مستنقع الشهوات، تاركا شئون الدولة في يد وزيره؛ الأمر الذي شجعه على الاستبداد؛ وهنا استيقظت في أبي بكر غرائز الغيرة والانتقام؛ فاغتال وزيره ووضع دولته على حافة الهاوية. وكاد الأمر أن يخرج تماما من أيدي بني رستم؛ لولا ظهور أبي اليقظان بن أفلح؛ محفوفا بأنصاره من النفوسيين سنة 241هـ(855م).

---

[1] وفي هذا يقول ابن الصغير: ((وكانت العجم قد ابتنت القصور، ونفوسة قد ابتنت العدوة، والجند القادمون من إفريقية قد بنوا المدينة العامرة اليوم)). سيرة الأئمة الرستميين، ص: 26.

ـ حكومة أبي اليقظان محمد بن أفلح:

بويع أبو اليقظان بالإمامة سنة 241هـ خارج تيهرت؛ أثناء الفتنة التي تسبب فيها أخوه أبو بكر. حدث ذلك بعد لجوئه إلى حصن لواتة المحاذي لتسلونت؛ أين ينبع نهر مينا. ولما ولي شئون الدولة عمل من فوره إلى إخماد الفتنة، وعقد صلحا مع بني مسالة الهواريين الذين تغلبوا على تيهرت. هذا وقد لعبت نفوسة دورا هاما في إعادة المياه إلى مجاريها، وتمهيد الأمر لعودة الدولة بقيادة أبي اليقظان. وبالفعل دخل إمام الإباضية من جديد إلى تيهرت؛ بغرض إصلاح ما تصدع، وعلاج ما أفسده الدهر والعباد.

ومع ذلك لم تجد إصلاحات أبي اليقظان في إنعاش هذه الدولة؛ لأن الداء أصبح مزمنا والعلاج مستحيلا. خاصة عندما اتضح أن العامل الديني ـ هو بدوره ـ أخذ مفعوله يتلاشى ويضعف في حياة تلك الدولة. كما أصبحت عصبية البيت المالك فاقدة لتلاحمها وفاعليتها. عندئذ برز الوجه الآخر للعصبية؛ كاشفا عن العيوب، والسلبيات التي كبحها الدين وضبط مفعولها ومؤثراتها من قبل. غير أن بوادر هذا الأمر السلبي بدأت ـ في الحقيقة ـ تظهر منذ عهد الأمير الثاني؛ ولكن الدولة كانت مازالت قوية بعصبيتها، وبمذهبها الديني. ولما حل عهد أبي بكر أخذ التنافس، والتحاسد يهيمنان على كيان التحالف القبلي المساند للدولة.

وهكذا؛ أضحت الخلافات والمؤامرات تحجب ضوء الشمس؛ في سماء الدولة الرستمية؛ وشرع أفراد العائلة المالكة في حبك المؤامرات ضد بعضهم بعضا. ووصل بهم الحال إلى سفك دماء قرابتهم وأهاليهم. وبذلك كتب لهذه الدولة صك فنائها واندثارها.

ـ حكومة أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان:

لما توفي أبو اليقظان سنة 281هـ(894م) ولي بعده في منصب الإمامة ولده أبو حاتم يوسف. وكان ـ حين توفي والده ـ خارج تيهرت في مهمة أسندت إليه مع جماعة من قبيلة زناتة؛ تهدف إلى حماية القوافل التجارية. وعلى الرغم من غيابه فقد خرجت العامة في شوارع تيهرت هاتفة باسمه؛ نظرا لما تخصه به من حب وإجلال. ولكنه لم يبق في منصبه أكثر من عام حتى بدأت المصاعب تظهر بوجهها القبيح؛ إذ تحركت بعض المؤامرات التي حاكها جماعة من أصحاب المصالح؛ حيث حرضوا عليه عمه يعقوب بن أفلح. فأغروه بالملك وواعدوه بالوقوف إلى جانبه إن هو ثار على ابن أخيه. وبالفعل تحرك يعقوب محاولا الاستيلاء على سدة الحكم. وظل الصراع بينهما يتصاعد؛ وكان النجاح سجالا بينهما؛ إلى أن قتل أبي حاتم غيلة بأيدي طرف ثالث في الأسرة المالكة؛ وهم أبناء اليقظان أخيه من الأب في سنة

294هـ(1003م). وبعد أن قتلوه ولوا مكانه أخا لهم اسمه اليقظان أيضا. وهكذا أصبحت حال الأسرة الرستمية؛ حيث انحدرت في مهاوي الصراعات والمؤامرات الدنيئة؛ وذلك من علامات فساد عصبيتهم، وانهيار قيمهم.

ـ حكومة اليقظان بن أبي اليقظان:

غدت الدولة الرستمية بعد مقتل أبي حاتم في مهب الريح؛ فلم يعد حاكمها يحظى بالاحترام والتقدير الذي تحلى به الأسلاف. وهكذا بقي اليقظان في الحكم زهاء العامين؛ إلى أن حانت ساعة سقطته المحتومة على يد أبي عبد الله الشيعي سنة 296هـ(908م). والذي سهل في الإطاحة بهذه الدولة هو ذلك الانقسام الحاصل بين أبناء الأسرة المالكة. وقد ظهر هذا من خلال تحريض الأميرة الرستمية؛ دواسر أو (دوسرة) بنت أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان؛ أبو عبد الله الشيعي على قتل اليقظان واخوته؛ ثأرا لأبيها الإمام الرستمي الذين اغتالوه في سنة 294هـ.[1]

---

[1] **سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 169 ـ 170. مختصر تاريخ الإباضية، ص ص: 44 ـ 45. 47 ـ 49. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 562 ـــ 568. 609. 615. العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص ص: 66 67.**

ـ الحضـــارة والحركـــة الثقافيـــة:

هـــذا عـــن الأوضـــاع السياسيـــة لهـــذه الدولـــة أمـــا بخصـــوص إنجازاتهـــا الحضاريـــة والثقافيـــة؛ فـــهي ـــ خلافـــا للدولتيـــن السابقتيـــن ـــ قـــد تميـــزت بالمآثـــر الحضاريـــة، والإنجـــازات الثقافيـــة والعمرانيـــة؛ الـــتي عرفـــت تطـــورا ملحوظـــا؛ بالإضافـــة إلى الازدهـــار الاقتصـــادي، والاستقـــرار السيـــاسي. وقـــد نافســـت تيهـــرت ـــ في عهدهـــا ـــ حاضـــرة القيـــروان؛ في ميـــدان العلـــوم والعمـــران. حيـــث كانـــت ـــ في ذلـــك الوقـــت ـــ مركـــز إشعـــاع ثقـــافي، وحضـــاري انتشـــر نـــوره في ربـــوع المغـــرب كلهـــا. ووصـــل أثـــره إلى عواصـــم الـــدول الإسلاميـــة الأخـــرى؛ كبغـــداد، وقرطبـــة.[1]

---

[1] وفي هـذا يقـول ألفـرد بـل: ((وكانـت عاصمتهـا تاهـرت مركـزا مهمـا للدراسـات الإسلاميـة؛ وفقـا لمذهـب الخـوارج الإباضيـة. وبفضـل تسامـح الأئمـة استطـاع علمـاء أهـل السنـة القـدوم لجـدال علمـاء الإباضيـة في مسائـل العقيـدة والشريعـة؛ وربمـا راود هـؤلاء الأخيريـن الأمـل في أن يقتعـوا علمـاء أهـل السنـة باعتنـاق نحلـة الإباضيـة. ومـن هـذه الناحيـة كانـت تاهـرت ـ شأنهـا شـأن القيـروان وتونـس، حاضـرتي العلـم عـلى مذهـب أهـل السنـة ـ مدرسـة لشحـذ روح الجـدل وحـب المناقشـة والتدقيقـات. وأخـذ شيـوخ البربـر في تلـقي العلـم بحماسـة، وأسسـوا مدرسـة هـم بدورهـم. هنالـك صـارت تيهـرت ـ بفضـل حسـن موقعهـا مـن الناحيـة الاقتصاديـة، وبفضـل تسامـح أئمتهـا ـ مدينـة مزدهـرة. وبفضـل الزراعـة، والتبـادل التجـاري خصوصـا؛ صـارت مـن أكبـر أسـواق المغـرب... ووسـط الرخـاء الـذي سـاد حولهـم، وفي هـدوء علـوم الديـن الأثيـرة لديهـم؛ لـم يعـد الأئمـة الرستميـون في تاهـرت يفكـرون في الحـرب، وفي النضـال الـذي أتى في هـذه النـواحي بالمؤسـس الكبيـر لدولتهـم؛ وهـو ابـن رستـم وأهملـوا العنايـة بإعـداد جيـش يقـدر ولـو عـلى الدفـاع عـن بلادهـم وعاصمتهـم. ولهـذا انهـارت

وقد برز في تربة تيهرت علماء وأدباء أجلاء؛ منهم من بقي فيها ومنهم من هاجر إلى القيروان وقرطبة؛ مثل: عبد الرحمن بن عبد الله ابن محمد التميمي التاهرتي؛ فقيه سني في تيهرت أيام الدولة الرستمية؛ وهو والد الفقيه المحدث قاسم الذي هاجر مع ابنه إلى الأندلس. ثم ولده الفقيه قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التميمي التاهرتي؛ وهو من فقهاء السنة في تيهرت؛ كان قد أخذ عن بكر بن حماد؛ وهاجر إلى الأندلس مع ابنه سنة 317هـ(929م). ثم ولده الفقيه المحدث أبي الفضل أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التميمي التاهرتي المعروف بالبزاز؛ الذي ولد في تيهرت سنة 309هـ(921م)، وهاجر مع أبيه إلى الأندلس، حيث توفي بقرطبة سنة 396هـ(1005م). ثم الأديب الشاعر أحمد بن فتح التاهرتي؛ وهو الذي وفد إلى أبي العيش عيسى بن إبراهيم بن القاسم بن إدريس في بصرة، ومدحه بقصيدة ذكرنا بعض أبياتها عند التطرق للحضارة والحركة الثقافية بدولة الأدارسة. ثم الفقيه المتكلم عبد الله بن اللمطي التاهرتي، صنفه الشماخي من بين علماء الإباضية في القرن الثالث الهجري، وقال فيه: ((**كان غاية**

هذه في سنة 909م؛ حين هاجمتها جيوش الشيعة المبتدعة بزعامة الداعي أبي عبد الله الشيعي)). الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص ص: 149 ــ 150.

في علم الكلام، يرد على الفرق، وينقض كلام المبتدعة، وألف كتبا في ذلك)). ثم الفقيه الإباضي محمود بن بكر التاهرتي؛ الذي كان من المقربين من أبي اليقظان محمد بن أفلح؛ وكان بدوره من المهتمين بعلم الكلام، وله فيه تآليف. ثم يهوذا ابن قريش التاهرتي؛ عاش في القرن الرابع الهجري بتيهرت؛ وهو لغوي مدقق؛ تعمق في المقارنة بين اللغات: العربية، والعبرية، والآرامية، والبربرية؛ وقد ألف في ذلك كتابا توجد مخطوطة منه في مكتبة "أوكسفورد" البريطانية؛ وقد اعتبر يهوذا بن قريش بهذا العمل أول من وضع أساس النحو التنظيري. ثم المؤرخ ابن الصغير المالكي؛ ذلك المثقف السني الذي وضع كتابا عن تاريخ الدولة الرستمية. ثم أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهل (أو سهر) الزناتي التاهرتي. ويعتبر هذا الأخير من كبار العلماء والمحدثين السنيين، ومن فحول الشعراء والأدباء الممتازين. وقد عاش في عهد أبي حاتم يوسف بن محمد أبي اليقظان؛ وهو القائل له معتذرا على ما بدر منه خلال الثورة التي قامت ضده؛ وما كان منه عندما انساق وراء المخالفين والثائرين على أبي حاتم:

ومؤنسة لي بالعراق تركتها

وغصن شبابي في الغصون نضير

فقلــت كمــا قــال النــواسي قبلهــا

((عزيــز علينــا أن نــراك تســيــر))

فقلــت جفــاني يوســف بن محمــد

فطــال عــلي الليــل وهــو قــصيــر

أبا حاتــم ما كان ما كــان بغضــة

ولكــن أتــت بعــد الأمــور أمـــور

فأكرهــني قــوم خشيــت عقابــهــم

فداريتهــم، والدائــرات تـــدور

وأكــرم عفــو يؤثــر الناس أمــره

إذا مــا عفــا الإنســان وهــو قديــر

كمــا قــال لــه لمــا مثــل بيــن يديــه:

مــاذَا يُدَبــرُ رَبنــا فِي أمْــرِهِ

سُبحانــهُ فِي أرْضــهِ وَسمائِــهِ

رَدَّ المُلــوكَ إلَى مَحــلِّ قرَارِهِــمْ

مُسْتَبْشِرِيــنَ بِفضلِــهِ وَعَطائِــهِ

فتبَــارَكَ اللــهُ اللطِيــفُ بِصُنعِــهِ

مَا أغفــلَ الثقليْــنِ عَــنْ نِعمَائِــهِ

رَفــعَ السمــاءَ بــلاَ عِمَــادٍ بَيــنٍ
وَالبَحــر أمْسَكــهُ عَلَى أرْجائــهِ
لــوْلاَهُ فاضَ عَلَى العِبَــادِ بمَوْجــهِ
وَعَلى الجبَــالِ الرَّاسِيَاتِ بمَائــهِ
أخــذَ البــلاَدَ بِسَيفِــهِ فاسْتسْلمَــتْ
وَبعَدْلــهِ وَبفضْلِــهِ وَسَخائــــهِ

ومــن شعــر أبي عبــد الرحمــن بكــر بــن حمــاد الزنــاتي في وصــف البــرد بتاهــرت قولــه:
مَــا أخْشَــنَ البَــرْدَ وَرَيعَانــهُ
وَأطــرَفَ الشمْــــسَ بتاهَــرْتِ
تَبــــدُو مِنَ الغيــمِ إذا مَا بَــدَتْ
كأنهَــا تنشَــــرُ مِــن تخــــتِ
نَحْــنُ فِي بَحْــرٍ بَــلاَ لجَّــــةٍ
تَجْــرِي بِنَا الرِّيــحُ عَلَى السَّمْــتِ
نفــرَحُ بِالشَّمْــسِ إذا مَــا بَــدَتْ
كفرْحَــةِ الــذمِّي بِالسَّــبْــــتِ

ويقول في تيهرت بعد تخريبها من طرف الفاطميين سنة 296هـ(908م)؛ وهي السنة نفسها التي توفي فيها ابن حماد. فقال:

زُرنا مَنازِلَ قوْمٍ لمْ يَزُورُونا
إنا لفِي غفلةٍ عَما يُقاسونا
لو يَنطِقونَ لقالوا: الزَّاد وَيحَكمُ
حَلَّ الرَّحِيلُ فمَا يَرْجُو المُقِيمِينا
الموْتُ أجْحَفَ بِالدُّنيا فخرَّبهَا
وَفعَلنا فِعْلَ قوْمٍ لاَ يَمُوتونا
فالآنَ فابكوا فقدْ حَقَّ البُكاءُ لكمْ
فالحامِلونَ لِعَرشِ اللهِ باكونا
مَاذَا عَسَى تنفعُ الدُّنيا مُجَمِّعِهَا
لوْ كانَ جَمعَ فِيهَا كنزَ قارُونا

ثم ولده أبو زيد عبد الرحمن بن بكر بن حماد؛ قال فيه ابن الفرضي: ((**عبد الرحمن بن بكر بن حماد التيهرتي الشاعر؛ من أهل القيروان؛ يكنى أبا زيد؛ قدم الأندلس. حدث عن أبيه، وكتب عنه غير واحد من شعر أبيه وحديثه**)).[1] ويقول ابن الفرضي أنه توفي بقرطبة؛

[1] **تاريخ علماء الأندلس، ص: 268.**

بينما تذكر مصادر أخرى بأنه توفي سنة 296هـ(908م)؛ أثناء عودته مع والده إلى تيهرت؛ في كمين نصبه لهما بعض اللصوص الأشرار. وقد رثاه والده بكر بن حماد بقصيدة جاء فيها:

بَكيْتُ عَلَى الأحِبةِ إذْ تولَوْا
ولَوْ أنِّي هَلكتُ بَكوْا عَليا
فيا نسْلي بَقاؤُكَ كانَ ذُخراً
وَفقدِكَ قدْ كوَى الأكبادَ كيا
كفَى حُزناً بِأنِي مِنكَ خلوٌ
وَأنكَ ميتٌ وَبقيتُ حيا
ولَمْ أكُ آيساً فيئسْتُ لمَّا
رَميتُ الترَابَ فوقكَ مِنْ يَدَيا
فليْتَ الخلقُ إذَ خلِقوا أطاعُوا
وَليتكَ لمْ تكُ يَا بَكرُ شيا
تسرُّ بِأشهرٍ تمْضِي سِرَاعاً
وَتطوَي فِي لياليهنَّ طيا
فلاَ تفرَحْ بدنيا ليسَ تبقَى
وَلاَ تأسفْ عَليهَا يَا بُنيا
فقدْ قطعَ البَقاءَ غرُوبَ شمسٍ
وَمَطلعها عَلِيٌّ يَا أخيا

وَلَيــسَ الهــمُّ يجلــوهُ نهـــارٌ
تــدُورُ لـــهُ الفرَاقــدُ وَالثرَيـــا

ورثــاه بقصيــدة أخــرى أيضــا فقــال:

وَهــوَّنَ وَجــدِي أننِي بكَ لاَحِــقٌ
وَأنَّ بَقــائِي فِي الحيــاةِ قليــلُ
وَأنْ ليــسَ يَبــقَى لِلحَبيبُ حَبيبــهُ
وَلَيــسَ ببــاقٍ لِلخلِيــلُ خلِيــلُ
وَلوْ أنَّ طولَ الحــزْنِ مِما يَــرُدُّهُ
للاَزَمــنِي حــزْنٌ عليــهِ طوِيــلُ
بلى رُبما دَارَتْ عَلَى القلبِ لوْعَــة
فيرجعُهــا صَبَــرٌ هنــاكَ جمِيــلٌ
تبــدَّدَ مَا قدْ كــانَ مِنــكَ مُجمعــاً
وَجللــهُ رَمــلٌ عليــك مهيـــلُ
فــلاَ عَلَــمٌ يُنبيــكَ أيــنَ مَحلــهُ
وَلاَ جَــدَثٌ يُشــفَى عليــهِ غلِيــلُ
خلاَ أعْظــمٍ قدْ بــدِّدَتْ وَمَفاصِــلٍ
تمِيــلُ بها الأرْيــاحُ حَيثُ تمِيــلُ

وممن ينسب ـ أيضا ـ إلى تيهرت من العلماء والأدباء: أبو العباس الفضل بن نصر التاهرتي؛ وكان من علماء الشافعية؛ وتوفي بالقيروان سنة 344هـ(955م)؛ وهو من الشعراء كذلك؛ ومن شعره:

بلغَ الوُشاةُ عَلَيَّ حَيثُ أرَادُوا
وَاللهُ يَسْألهمْ وَمَا قدْ كادُوا
وَاللهُ يَعلمُ أنني مَا قلتُ مَا
قالَ الوُشاةُ تأفكاً وَأعادُوا
فهبِ الوُشاةُ أتوْا بأمرٍ بَينٍ
أينَ الكِرَامُ أبدَّلوا أمْ بادُوا
عفوُ الملوكِ عَنِ الذُّنوبِ مدَائحٌ
مَدَحوا نفوسَهمُ بها فأجادُوا

ولما وصل إليه خبر ـ غير مؤكد ـ بوفاة ابنه في جزيرة شقر؛ قال:

فلوْ كَافتقادِ الناسِ قبلِي بَيْنهمْ
أتِيحَ لهُ مُوْتٌ وَأضمَرَهُ قبرُ

إذَنْ لصَبرْتُ النفسَ ثمَّ احتسبتهُ
لِيعظمَ لِي مِنْ بَعدِ ميتتِهِ الأجرُ
ولَكِنْ طوَتْ عنِّي المَقادِيرُ أمرَهُ
فمالِي بهِ مِنذُ انتآى شخصُهُ خبرُ
فرَحْمتكَ اللهمَّ قدْ بَلغَ الأسَى
نِهاية مَجهودِي وَقدْ غلِبَ الصَّبرُ

كما كان جل أئمة الدولة ـ أنفسهم ـ من العلماء والأدباء. فمؤسس الدولة عبد الرحمن بن رستم؛ يعتبر من كبار علماء الإباضية، كما كان ولوعا بأشغال العمارة، ويباشرها بنفسه؛ وإن اعتبر ما ينجزه منها بسيط المظهر. أما ولده عبد الوهاب فقد عرف بتبحره في العلوم، وولعه الشديد بالكتب؛ إذ تقول المصادر أنه بعث إلى المشرق ألف دينار لشراء الكتب؛ فأرسلت إليه الكتب التي قدرت بأربعين حملا. ويقال أنه كان ضليعا في العلوم الشرعية وعلم الفرائض والتنجيم. أما ولده الإمام أبو سعيد أفلح فكان ـ بدوره ـ عالما جليلا في علوم وفنون شتى؛ ومن شعره قصيدة في مدح العلم تصل أبياتها إلى الأربعين؛ منها:

العلــم أبقى لأهــل العلــم آثــارا
يريــك أشخاصهم روحا وأبكــارا
حي وإن مات ذو علــم وذو ورع
ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا
وذو حيــاة على جهل ومنقصــة
كمَيِّت قد ثوى في الرمس أعصارا
للــه عصبة أهل العلــم إن لهــم
فضلا على الناس غيابا وحضــارا

وتقــول المصــادر أنــه كــان بتيهــرت الرستميــة مكتبــة أسمهــا المعصومــة؛ تشتمــل عــلى أزيــد مــن ثلاثمائــة ألــف مجلــد؛ انتــهى مصيرهــا إلى النــار الــتي أشعلهــا في معظــم مجلداتهــا عبــد اللــه الشيــعي؛ عندمــا افتتــح تيهــرت؛ ولــم يأخــذ منهــا ســوى مــا يناســب مذهبــه؛ ومــا وجــد بهــا مــن كتــب الرياضــة والصنائــع والفنــون.[1] ولــو بقيــت هــذه المكتبــة لقدمــت للباحثيــن معلومــات وافيــة عــن هــذه الدولــة الإباضيــة.

---

[1] وعــن الآثــار العمرانيــة لــدى الرستمييــن؛ يقــول شــارل أندريــه جوليــان: ((واقتصــر الباحثــون ــ زمنــا طويــلا عنــد تقييــم فــن بــني رستــم المعمــاري ــ عــلى آثــار سدراتــة (قــرب ورقلــة) وهي المدينــة الــتي التجــأ إليهــا أهــل تاهــرت عندمــا استــولى الفاطميــون عــلى عاصمتهــم سنــة 911م. وتدلنــا هــذه الآثــار عــلى أن فنهــا المعمــاري متصــل بفــن إفريقيــة، وأن زخرفهــا ينتســب إلى زخــرف أديــرة الأقبــاط، وان لهــا عناصــر معماريــة متأثــرة بالمبــاني المصريــة المعاصــرة لهــا؛

وإلى جانب كل هذا لا بد من الإشارة أيضا إلى إمارتين إباضيتين صغيرتين؛ كانتا ــ حسبما يبدو ــ في طاعة الدولة الرستمية؛ ولم تصل بهما الأهمية إلى البروز كدولتين مستقلتين. وهاتان الإمارتان هما:

ــ أولا: **إمارة بني دمر**: وهم بطن من قبيلة زناتة. وهذه الإمارة ــ في الحقيقة ــ لا تعدو أن تكون مجرد إمارة قبلية بدوية؛ كانت تنتجع في السهول الجنوبية لمتيجة؛ وبالتحديد في الجهة الغربية من بلدة **هاز** وفي الجنوب الشرقي من **سوق كرام**. وقد أشار إليهم البكري حين ذكر بأن جماعة من بني دمر؛ وهم من الإباضيين؛ كانوا

وربما بقصور العراق. وكانت الدور ذات الزخرف الثمين المقامة هناك تذكر بمنازل سكان تاهرت المشارقة التي كان ابن الصغير معجبا بها. وفي سنة 1941م قام جورج مارسي ودوسي لامار بزيارة استطلاعية لمعالم تاهرت، وأجريا تنقيبا على آثارها. والذي زاد في صعوبة مهمتهما هو أن الأمير عبد القادر نزل في سنتي: 1835 و 1841م بموقع عاصمة بني رستم العتيقة، وترك فيها أطلالا بعد رحيله. ورغم هذا فإنهما تمكنا من أن يكشفا بصورة قطعية عن جزء من سور بني رستم، وعن مخازن عظيمة للماء، وبقايا من الفخار؛ كما أنهما ضبطا موقع القصبة؛ مقر أمراء بني رستم؛ وانتهيا بعد البحث إلى أن تاهرت كانت قبل كل شيء قلعة حصينة، مهيأة للصمود عند الحصار الطويل؛ وأن فن القصبة المعماري يذكر بقصور الشام من القرن الثامن. ومن جهة أخرى فإن ما وجداه من بقايا الفخار مكنهما من الجزم بأن فن الزخرف بتاهرت كان بدائيا بسيطا)). تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 2، ص ص: 43 ــ 44.

يقيمون بحصن **تامغيلت** الرابض في الطريق بين المسيلة وتيهرت. ويستدل من خلال النصوص أن هؤلاء الدمريين لا علاقة لهم ــ مذهبياً ــ ببني نوح الدمريين؛ أصحاب الدولة بمورور في الأندلس؛ لأن هؤلاء الأخيرين كانوا ــ كما يبدو ــ من أهل السنة. وسيأتي الكلام عن دولتهم ضمن دول زناتة.
أما الإمارة الإباضية الثانية:
ــ فهي **إمارة بني مسالة الهواريين**: وقد سبقت الإشارة إليهم عند الحديث عن الإمام عبد الوهاب؛ وكيف حاربوه لأنه نافس أميرهم في الزواج من فتاة لواتية. كما ورد الكلام عنهم ــ أيضا ــ عند الحديث عن الفتنة التي وقعت في أواخر عهد أبي بكر؛ حيث احتل أمير مسالة محمد بن مسالة الهواري مدينة تيهرت بعض الوقت. وكان بنو مسالة هؤلاء متمركزين في قلعتهم المحاذية لنهر سيرات والرابضة في الجنوب الغربي من مدينة مستغانم؛ وهي المعروفة في هذه الأيام ــ بالقرب من بلدة **يلل ــ بقلعة هوارة**. وقد تكلم البكري عنها حين أشار إلى قلعة هوارة المسماة **تسقدالت** أو تاسفدالت. بالطبع فلا ترقى هاتان الإمارتان إلى مصاف الدول وإن كانت تتمتع بشيء من الاستقلال في حدود تلك القبيلة الصغير. وبقي الآن الكلام عن دولة بني برزال؛ التي لم يتمكن أصحابها من إقامة دولتهم في مواطنهم الأولى بالقرب من المسيلة؛

بينما ساعدتهم الظروف على إقامتها ببلاد الأندلس؛ خلال الفتنة التي أطاحت بالدولة الأموية.

****

4)ـ دولة بني برزال:

قامت هذه الدولة في بلاد الأندلس؛ وذلك بعد أن أعلن البرزاليون قيامها في بلدة **قرمونة**؛ التي اتخذوها عاصمة لهم. هذا وقد نشأت هذه الإمارة الأمازيغية ـ ذات المذهب الخارجي ـ بعد انهيار الدولة الأموية، وانقسام بلاد الأندلس بين شلة من الأمراء، وبعض القبائل العربية والأمازيغية، وجماعات مختلفة من المولي والمماليك؛ وذلك في الفترة المعروفة بعصر الطوائف. وكانت هذه الدولة إباضية المذهب؛ حسبما ذكر كل من: ابن حيان وابن الخطيب.

ويرجع وجود بني برزال في بلاد الأندلس إلى عهد المستنصر الحكم بن عبد الرحمن الأموي ـ تولى من عام 350هـ (961م) إلى عام 366هـ(976م) ـ . وحدث ذلك بسبب وساطة قام بها حليفهم؛ عامل الفاطميين على المسيلة جعفر ابن علي بن حمدون؛ بعد تمرده وهروبه إلى الأندلس؛ فاستأذن لهم من الخليفة الأموي في الانتقال إلى الأندلس؛ فأذن لهم مرحبا بمقدمهم؛

بغـرض الاستعانـة بهـم في حروبـه. ويبـدو أن السبـب الرئيـس في ترحيـب المستنصـر بهـم؛ هـو مـا عـرف عنهـم مـن عـداوة وبغضـاء يكنانهمـا للشيعـة الفاطميين. وكمـا هـو معـروف؛ فهـؤلاء الفاطميين هـم أخطـر المنافسيـن وأشدهـم شراسـة للدولـة الأمويـة في تلـك الأنحـاء. ومنـذ ذلـك التاريـخ أضـحى البرزاليـون جنـدا في خدمـة الدولـة الأمويـة. بـل أصبحـوا مـن أقـرب المقربيـن إلى الخليفـة؛ إذ كانـت لهـم حظـوة خاصـة، نظـرا للثقـة الـتي خصهـم بهـا. ولمـا استبـد المنصـور ابـن أبي عامـر عـلى الخليفـة هشـام؛ بالـغ في تكريـم البرزاليين مـع الوافديـن مـن أمـراء القبائـل الأمازيغيـة الأخـرى؛ إذ قربهـم إليـه وخصهـم بالإقطاعيـات والقيـادات.[1]

[1] يقـول ابـن خلـدون: ((ولمـا أراد المنصـور بـن أبي عامـر الاستبـداد عـلى الخليفـة هشـام؛ وتوقـع النكيـر مـن رجـالات الدولـة، ومـوالي الحكـم؛ استكثـر ببـني بـرزال وغيرهـم مـن البربـر، وأفـاض عليهـم الإحسـان؛ فاعتـز أمـره واشتـد أزره؛ حـتى أسقـط رجـال الدولـة، ومحـا رسومهـا، وأثبـت أركـان سلطانـه... فأضحـوا لـه عصبـة؛ وكـان يستعملهـم في الولايـات النبيهـة والأعمـال الرفيعـة وكـان مـن أعيـان بـني بـرزال هـؤلاء إسحـاق بـن...؛ فـولاه قرمونـة وأعمالهـا؛ فلـم يـزل واليـا عليهـا أيـام بـني أبي عامـر. وجـدد لـه العقـد عليهـا المستعيـن في فتنـة البرابـرة؛ ووليهـا مـن بعـده ابنـه عبـد اللـه)). العبـر، مج: 7 ص: 112.

وفي هذه الأثناء أسند ولاية قرمونة إلى إسحاق البرزالي[1] وهو أحد أمرائهم الأول في الأندلس. وظل البرزاليون ــ بعدئذ ــ محتفظين بولايتهم على قرمونة؛ في عهد أبناء المنصور بن أبي عامر أيضا.

ويبدو أن المصادر التاريخية تجاهلت ذكر ما حدث في ولاية البرزاليين؛ طوال الفترة الممتدة ما بين عهد المنصور بن أبي عامر، إلى عهد المستعين بالله سليمان بن الحكم. على أنهم شرعوا في الحديث عن عبد الله البرزالي في بعض المصادر، أو محمد بن عبد الله البرزالي؛ في مصادر أخرى في أيام المستعين بالله؛ وبالتحديد في سنة 403هـ(1012م)؛ إذ كان الأمير البرزالي طرفا هاما وخطير في إشعال الفتنة الكبرى؛ التي كانت سببا في إزالة الدولة الأموية نهائيا من الأندلس. ويقال أن المستعين بالله عقد في سنة 403هـ لستة

---

[1] ورد الاسم في العبر هكذا: ((إسحاق بن)). وربما يكون الناسخون قد أسقطوا اسم الأب. وهنا لابد من الإشارة إلى أن جل المؤرخين أكثروا من الخلط في أسماء أمراء بني برزال؛ وترتيبها زمنيا؛ حسب الفترات التاريخية التي مرت بهم في الأندلس. فحين الحديث عنهم مثلا أيام المستعين سليمان ابن الحكم؛ يذكرون أحيانا اسم عبد الله البرزالي، وأحيانا أخرى محمد بن عبد الله البرزالي. كما أن اسم إسحاق ورد في كثير من المصادر كحفيد لعبد الله البرزالي؛ بينما يذكر ابن خلدون هذا الاسم كجد للأمراء البرزاليين؛ يكون قد عاش في عهد المنصور بن أبي عامر. أنظر البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 202 .203 . 206. 235. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 236 ــ 238. والعبر، 4، ص ص: 324. 327. 337. 338. مج: 7، ص ص: 112 ــ 113.

من أمراء العرب والأمازيغ على مقاطعات عديدة بالأندلس.[1] فكان نصيب عبد الله البرزالي في قول، أو محمد بن عبد الله البرزالي في قول أخر؛ هو تثبيته والإقرار له بإمارته السابقة؛ وبذلك ترك له ما كان في يده من مقاطعات من قبل. وهي المقاطعات التي سبق أن عين ابن أبي عامر عليها آباءه منذ مدة.

ولما استفحلت الفتنة داخل الدولة الأموية، ومال حالها إلى السقوط والانهيار؛ بادر بنو برزال إلى الاستبداد بما كان في حوزتهم أصلا. متبعين نهج غيرهم ممن استبد على الدولة من القبائل والطوائف المختلفة الأخرى. وعليه يكون البرزاليون قد أعلنوا ــ منذ تلك الفترة ــ قيام إمارتهم في كل من: **قرمونة وأستجة وحصن المدور**؛ أين تحصنوا في تلك الديار مستقلين بها؛ أسوة ببني جلدتهم: كـ: بني زيري وبني يفرن وبني دمر وبني ذي النون وبني خزرون.

---

[1] قال ابن الخطيب: ((وقسم بعض كور الأندلس بين رؤساء القبائل البربرية؛ [تكلم ابن الخطيب هنا أيضا عن رؤساء من غير الأمازيغ] وكانوا ستة: فأعطى صنهاجة منهم بني زيري بن مناد إلبيرة؛ وأعطى مغراوة جوفي البلاد؛ ومنذر بن يحيى سرقسطة؛ وبني برزال وبني يفرن جيان وذواتها؛ والمغاربة من دمر وأزداجة شذونة ومورور. وولى علي بن حمود على سبتة، والقاسم بن حمود على مدينة طنجة وأصيلا والخضراء)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 119. أنظر ذلك أيضا في البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 113 ــ 114. وهذا الخبر منقول عن ابن حمادة؛ كما أشار ابن عذاري.

هـذا حـال بـني بـرزال يـوم ظهورهـم بالأندلـس. أمـا فيمـا يخـص أصولهـم؛ فالمصـادر تتفـق كلهـا عـلى أنهـم بطـن مـن بطـون بـني دمـر الزناتييـن. وكانـت مواطنهـم الأولى في جبـل سـالات؛ بجهـات المسيلـة حاضـرة الـزاب آنئـذ. وكانـت أعدادهـم وافـرة، وسطوتهـم قاطعـة؛ ونفوذهـم واسعـا في تلـك الجهـات. كمـا كانـوا ــ كمـا يقـول ابـن خلـدون ــ نكاريـة مـن الخـوارج. ومـن أتبـاع أبي يزيـد مخلـد بـن كيـداد؛ حيـث ناصـروه وحمـوه حيـن ثـار عـلى الدولـة الفاطميـة. ولمـا ضاقـت بـه الحـال هـرب إليهـم في جبـل سـالات؛ فوفـروا لـه المـأوى والحمايـة بعـض الوقـت. ولكنهـم عـادوا إلى طاعـة الدولـة الفاطميـة عندمـا فشلـت مقاومتهـم، ويئسـوا مـن جـدوى المدافعـة؛ خاصـة بعـد مـوت أبـي يزيـد. ومنـذ ذلـك التاريـخ أضحـوا في خدمـة جعفـر بـن عـلي والي المسيلـة. ولمـا سـاءت علاقـة جعفـر بالدولـة الفاطميـة سنـة 360هـ(970م) انحـاز بنـو بـرزال إليـه وحالفـوه. لذلـك تكلـم في أمرهـم إلى الحكـم المستنصـر؛ فوافـق عـلى استدعائهـم إلى بـلاد الأندلـس؛ أيـن ألحقهـم بجنـده؛ مثلهـم مثـل بقيـة القبائـل الأمازيغيـة الـتي التحقـت بالدولـة الأمويـة.

وقد اشتهر من أمراء دولة بني برزال بالأندلس محمد بن عبد الله الوردسني البرزالي.[1] ثم خلفه ــ في بعض الأقوال ــ ابنه إسحاق؛ الذي يقال أنه كان عظيم الشأن، عزيز الجانب، شديد الدهاء، حاد الذكاء.[2] أما تاريخ نشأة هذه الإمارة واستبداد أمرائها ــ بصفة نهائية ــ فيعود حسب جل المصادر إلى سنة 404هـ(1013م)؛ إذ تم ذلك بفضل العزيمة التي كان يتحلى بها كل فرد من

---

[1] وفيه أقوال كما سبق ذكره. أما ابن الخطيب فيقوا: ((وكان هذا الرئيس يلي باديس ــ من ملوك البرابرة ــ في جلالة الشأن، وقوة السلطان؛ بقية أمراء البرابر المسلطين في هذه الفتنة، وأعظم شأنا في الدهاء والرجولة، وأبصرهم بتدبير العساكر، وأربطهم جاشا على الخطوب المقلقة. وكان مشهورا بذخيرة عتيدة من صامت المال؛ لم يزل يجمعها؛ حائطا لها بالبخل الشديد، واستظهارا بها على الخطب العتيد... وتوفي رئيسهم [رئيس بني برزال] محمد بن عبد الله عن جمع ضخم من قبيل نجيب، وخزين من الطعام؛ لم يجمعه أمير قبله في الفتنة. وصار أمره إلى ولده إسحاق)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 236 ــ 237.

[2] وهو كما يقول ابن الخطيب نقلا عن ابن حيان: ((ورأس إسحاق بعد مهلك أبيه؛ وهو في حد الكهولة. كان مشهورا بالحزم والكفاية والبأس والفروسية؛ يتحلى بشعبة من شعب الكتابة، ويضبط شيئا من الحساب، ويقرأ الدفاتر القريبة. وهو دون أبيه محمد في القسوة والفظاظة، وأذهَبُ منه في فرط العصبية. وكلاهما على ذلك موصوف بالعفة والنزاهة، والبعد عن آفات الملوك الشائنة؛ مع اشتهارهما بالنكوب عن الجماعة، واعتقادهما بمذهب النكاريين من فرق الإباضية الخوارج؛ يستأثران بذلك هما وقومهما من بني برزال؛ أعمالهم وأقوالهم في ذلك معروفة)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 237. وللتوسع أنظر أيضا البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 237 ــ 239. ودول الطوائف، ص ص: 146 ــ 149.

قبيلة بني برزال؛ الذين ظلوا طوال مدة إقامتهم ببلاد الأندلس؛ متضامنين ومتجمعين ضمن كتلتهم القبلية المتماسكة والمتلاحمة مع بعضها بعضا. أما إدراج إمارتهم ــ في سياق هذا الفصل المخصص لدول الخوارج ــ فيرجع لما أشيع عن بقائهم على مذهبهم الخارجي في مدة إقامتهم بالأندلس.

وكانت لهذه الإمارة أيام وفتن كثيرة مع القبائل والإمارات المجاورة كـ: بني دمر في مورور، والأدارسة بمالقة أحيانا، وبني عباد في إشبيلية. وثالث أمراء الدولة البرزالية المستبدين هو العزيز بن إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي.[1] إذ يقال أنه عرض على بن ذي النون أن يتنازل له عن قرمونة؛ في مقابل تعويضه بمقاطعة في بلاد ذي النون الجوفية؛ وذلك نكاية في عدوه المعتضد بن عباد؛ المتكالب عليه.[2]

---

[1] يقول ابن خلدون أن العزيز هو ابن محمد وليس ابن إسحاق؛ لأنه يرى في إسحاق جدا لهم، وأبا لعبد الله البرزالي. أنظر العبر، مج: 7، ص ص: 112 ــ 113.

[2] يقول ابن الخطيب: ((ولم تزل الحروب بينهم وبين جيرانهم من قبائل بني دمر وكورة مورور، والمعتضد بن عباد؛ إلى أن ضاقت أحوالهم بقرمونة؛ واضطروا؛ فكتب رئيسهم العزيز بن إسحاق؛ في خبر طويل؛ إلى ابن دنون أن يعطيه قرمونة وأنظارها ليتمكن من نكاية عدوه ابن عباد منها؛ على أن يعطيه المأمون بن دنون عوضا في بلاده الجوفية. فاتفقا على ذلك؛ وخرج العزيز بن إسحاق من قرمونة إلى حصن المدور؛ وقبض رجال ابن دنون ما في المدينة)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 237 ــ 238.

وثمة قول آخر يقولون فيه أنه تنازل عن قرمونة إلى ابن عباد نفسه.[1] ومن ذلك التاريخ المحدد بـ459 هـ(1066م)؛ انقرض ملك بني برزال من الأندلس. كما زال ذكرهم ـ كقبيلة ـ نهائيا في المغرب الأوسط. وبذلك يكون سقوط هذه الإمارة قد تم بفعل التطاحن بين القبائل، والطوائف المتكالبة على السلطان والملك في بلاد الأندلس. حيث ظل أمراء هذه الدولة في حروب وفتن؛ دارت بينهم وبين أبناء عمومتهم الأمازيغ وغيرهم؛ من المنافسين والطامعين؛ كـ: بني دمر في مورور، وبني عباد بإشبيلية؛ وبني حمود بمالقة، وبني الأفطس ببطليوس.

وجملة القول فقد جاءت نهاية الدولة البرزالية؛ كما تحل نهاية أي كيان اعتمد في حياته على المغامرات، والفتن، والمؤامرات. وهكذا انتهت بعد حروب ومعاناة وتقلبات. هذا وقد اندثرت تلك الإمارة دون أن تخلف وراءها أية مآثر حضارية تذكر؛ ولم تترك من التراث الثقافي ما يمكن نقله أو الحديث عنه. وعلى الرغم من وجود هذه الإمارة في بيئة تزخر بالمآثر الثقافية، والإنجازات الحضارية؛ فقد شحت تربتها من ثمرات الحضارة. لأنها لم تكن سوى إمارة قبلية؛ ذات طابع

---

[1] **العبر، مج: 7، ص: 113.**

عسكري بحت. ودامت على ذلك الحال حتى سقطت.

هذا ما أمكن ذكره عن الدول الإباضية؛ بدءا بالدولة الرستمية العظيمة؛ التي كانت متفوقة بقيمها الإنسانية، ومزدهرة بعلومها الدينية والدنيوية، ومتقدمة بتسامحها وتفتحها. كما تم التطرق ـ هنا ـ إلى بعض الإمارات القبلية الإباضية الصغرى المنضوية تحت مظلة الدولة الرستمية. بالإضافة إلى ذلك تم الحديث عن دولة بني برزال الإباضية بالأندلس. وهكذا.. فما بقي الآن سوى الانتقال إلى موضوع آخر تابع لهذا السياق مع بعض الاختلاف؛ وذلك بالإشارة ـ في إيجاز ـ للكيانات الخارجية الأخرى؛ التي لم ترق إلى مستوى الدولة ذات المؤسسات. وإن كانت تشكل شكلا من أشكال الإمارات ذات طابع القبلي حربي.

****

أمراء الحرب والثورة من الخوارج

لا بد من الإشارة ـ في هذا المجال؛ ولو باقتضاب ـ إلى الكيانات الصفرية التي ترأسها بعض القادة الصفرية الثائرين؛ منهم: ميسرة المطغري، وخالد بن حميد الهتوري الزناتي، وعكاشة بن أيوب الفزاري، وعبد الواحد بن يزيد الهوارى، وأبو قرة اليفرني، وعاصم بن جميل الورفجومي، وثابت بن وزيدون الصنهاجي، وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي؛ وغيرهم. ثم الحديث ـ أيضا ـ عن الكيانات الإباضية برئاسة: عبد الله بن مسعود التجيبي، والحارث بن تليد الحضرمي، وعبد الجبار بن قيس المرادي، وإسماعيل بن زياد النفوسي، وأبي الخطاب عبد الأعلى المعافري، وأبي حاتم الملزوزي وآخرون. بالإضافة إلى الكيان الذي تزعمه أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني؛ المنحرف عن المذهب الإباضي.

على أنه من الضروري الإفادة بأن تلك الكيانات لا تخرج عن كونها تجمعات قبلية ذات توجهات مذهبية؛ يرأسها بعض الشيوخ والرؤساء؛ الذين توصلوا إلى مرتبة الرئاسة ضمن كتل قبلية ــ بعض الوقت ــ بحكم الحلف المعقود بينها في إطار مذهب معين؛ بغرض مواجهة ولاة القيروان أتباع الخلافة الأموية، ثم العباسية بعدها. وعلى هذا فتلك الكيانات الخارجية؛ لم تكن سوى هياكل ظرفية لأحلاف قبلية أمازيغية؛ انتهجت سبيل المذهب الخارجي. وبذلك لا يمكن وضعها في مصاف الدول؛ ذات المؤسسات الدائمة والمستقرة؛ لأنها ــ كما يبدو ــ لم تتوصل إلى مرتبة الدولة وشروطها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فلا يمكن اعتبار تلك التجمعات القبلية تجمعات زناتية أو هوارية أو صنهاجية لا غير؛ لأنها كانت تشتمل على خليط متنوع من الانتماءات القبلية؛ وحتى زعماء تلك الأحلاف لم يكونوا ــ بالضرورة ــ من الأمازيغ؛ إذ كان فيهم من هو عربي النسب.

هذا وتعود أسباب ظهور تلك الأحلاف القبلية الثائرة ضد الحكم الأموي؛ إلى الانحرافات التي بدأت تميز سلوك ولاة المغرب. وقد انطلقت البوادر الأولى للثورة خلال ولاية يزيد بن مسلم؛ مولى الحجاج بن يوسف الثقفي وصاحب شرطته؛ الذي كان موصوفا بالظلم والطغيان؛ لذا فقد حاول تقليد

سيده، وتطبيق سياسته في بلاد المغرب.[1] إذ أنه كان إلى جانب احتقاره لحراسه من الأمازيغ ــ الذين كانوا؛ كما يقول ابن عبد الحكم: **((من البتر خاصة؛ وليس فيهم من البرانس أحد))**[2] كما حاول أيضا أن يفرض الجزية على السكان الأصليين؛ على الرغم من دخولهم في الإسلام. ونتيجة لسياسته الجائرة؛ ثار عليه حراسه البتر وقتلوه. فلم يجد الخليفة الأموي ــ يزيد بن عبد الملك ــ بُدّا من تجاوز الأمر، والسكوت عن الحادث.[3]

---

[1] **قال ابن خلدون في هذا: ((ولما تولى يزيد بن عبد الملك؛ ولى على إفريقية يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وكاتبه؛ فقدم سنة إحدى ومائة، وأساء السيرة في البربر، ووضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة منهم؛ تأسيا بما فعله الحجاج بالعراق؛ فقتله البربر لشهر من ولايته)). العبر، مج: 4، ص: 403.**

[2] **قال ابن عذاري: ((وفي سنة 102هـ قدم على إفريقية ــ واليا عليها ــ يزيد بن أبي مسلم. وكان ظلوما غشوما. وكان البربر يحرسونه. فقام على المنبر خطيبا؛ فقال: "إني رأيت أن أرسم اسم حرسي في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها. فأرسم في يمين الرجل اسمه، وفي يساره ((حرسي))؛ ليعرفوا بذلك بين سائر الناس؛ فإذا وقفوا على أحد؛ أسرع لما أمرت به". فلما سمعوا ذلك منه ــ أعني حرسه ــ اتفقوا على قتله؛ وقالوا: "جعلنا بمنزلة النصارى!"؛ فلما خرج من داره إلى المسجد ــ لصلاة الصبح ــ قتلوه في مصلاه)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 48. أنظر أيضا فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم، ص: 289. وتاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني، ص ص: 99 ــ 100.**

[3] **قال الطبري: ((وكان سبب ذلك أنه كان ــ فيما ذكر ــ عزم أن يسير بهم بسيرة الحجاج بن يوسف في أهل العراق؛ ممن ردهم إلى قراهم**

ونتيجة لذلك استقام الحال ــ بعض الوقت ــ وانطفأت جذوة الثورة في النفوس. غير أن هذا الهدوء لم يدم طويلا؛ إذ كان بمثابة الهدوء الذي يسبق العاصفة. حيث اندلعت ــ بعد ذاك ــ ثورة أمازيغية عظيمة؛ كادت أن تقضي على حكم الأمويين ــ نهائيا ــ في بلاد المغرب. حدث ذلك خلال ولاية عبيد الله بن الحبحاب ــ الذي ولي على إفريقية سنة 116هـ(734م) ــ حدث ذلك تبعا لسوء تدبير عامله على طنجة؛ عمر بن عبد الله المرادي؛ الذي اتسم حكمه بالتعسف والتعصب واحتقار السكان من الأمازيغ؛ الأمر الذي أغراه باتخاذ قرار مخالف للشرع؛ إذ فرض الجزية على المسلمين من الأمازيغ؛ مما تسبب في تفجير ما بالنفوس من ضغائن مكبوتة، وضغوط مكتومة؛ فانفلت ما كانت تنطوي عليه صدور سكان

ورساتيقهم، ووضع الجزية على رقابهم؛ على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم؛ فلما عزم على ذلك؛ تآمروا في أمره؛ فأجمع رأيهم فيما ذكر على قتله؛ فقتلوه؛ وولوا على أنفسهم الوالي الذي كان عليهم قبل يزيد بن أبي مسلم؛ وهو محمد بن يزيد مولى الأنصار؛ وكان في جيش يزيد بن أبي مسلم. وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك: "إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة؛ ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى [به] الله والمسلمون؛ فقتلناه، وأعدنا عاملك". فكتب إليهم يزيد ابن عبد الملك: "إني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم؛ وأقر محمد بن يزيد على إفريقية")). تاريخ الأمم والملوك، ج: 8، ص: 167.

المغـرب مـن شحنـات مدمـرة.[1] ويبـدو أن الأوضـاع العامـة كانـت جاهـزة للانفجـار؛ ولـم يبـق سـوى الشـرارة الـتي ستشعـل الفتيـل.[2]

ونتيجـة لهـذا فقـد دخلـت بـلاد المغـرب عهـدا جديـدا قاتمـا؛ سـادت فيـه الثـورات، الـتي تسببـت في تقلـص نفـوذ الخلافـة الأمويـة، وتراجعـه. وأصبحـت البـلاد ــ منـذ ذلـك التاريـخ ــ مقسمـة بيـن القبائـل الأمازيغيـة المختلفـة؛ الـتي استطاعـت ــ في ظـل الوضـع المتـردي ــ الخـروج عـن نفـوذ الدولـة الأم؛

---

[1] وفيـه يقـول ابـن عـذاري: ((ثـم إن عمـر بـن عبـد اللـه المـرادي ــ عامـل طنجـة ومـا والاهـا ــ أسـاء السيـرة، وتعـدى في الصدقـات والعشـر؛ وأراد تخميـس البربـر. وزعـم أنهـم فيء المسلميـن؛ وذلـك مـا لـم يرتكبـه عامـل قبلـه؛ وإنمـا كـان الـولاة يخمسـون مـن لـم يجـب للإسـلام. فكـان فعلـه الذميـم هـذا سببـا لنقـض البـلاد، ووقـوع الفتـن العظيمـة المؤديـة إلى كثيـر القتـل في العبـاد. نعـوذ باللـه مـن الظلـم؛ الـذي هـو وبـال عـلى أهلـه)). البيـان المغـرب، ج: 1، ص ص: 51 ــ 52. أنظـر عـن هـذا ــ أيضـا ـــ تاريـخ إفريقيـة والمغـرب، ص: 100. والكامـل لابـن الأثيـر، ج: 4، ص: 222. والعبـر، مج: 4، ص: 405.

[2] وقـد أشـار ابـن خلـدون إلى بعـض الأسبـاب الـتي شحنـت النفـوس، وأغضبـت النـاس مـن ولاة الدولـة الأمويـة؛ إذ قـال: ((ولمـا ولي عبيـد اللـه بـن الحبحـاب عـلى إفريقيـة؛ مـن قبـل هشـام بـن عبـد الملـك... استعمـل عمـر بـن عبـد اللـه المـرادي عـلى طنجـة والمغـرب الأقـصى، وابنـه إسماعيـل عـلى السـوس ومـا وراءه. واتصـل أمـر ولايتهـم، وسـاءت سيرتهـم في البربـر، ونقمـوا عليهـم أحوالهـم، ومـا كانـوا يطالبونهـم بـه مـن الوصائـف البربريـات، والأفريـة العسليـة الألـوان، وأنـواع طُـرف المغـرب؛ فكانـوا يتغالـون في جمعهـم ذلـك وانتحالـه. حـتى كانـت الصرمـة مـن الغنـم تستهلـك في الذبـح؛ لاتخـاذ الجلـود العسليـة مـن سخالهـا؛ ولا يوجـد فيهـا مـع ذلـك إلا الواحـد ومـا قـرب منـه. فكثـر عيثهـم بذلـك في أمـوال البربـر وجورهـم عليهـم)). العبـر، مج: 6، ص ص: 239 ــ 240.

وحتى إن قامت بعض الدول والإمارات في تلك الربوع؛ فقد كانت خاضعة لسلطان العصبيات والقبائل المتباينة والمتنافرة بهذه الديار. وهكذا غدت بلاد المغرب مسرحا واسعا ترتع فيه كيانات فوضوية؛ لا هدف لها سوى المكاسب المؤقتة؛ التي تأتي عن طريق المغامرات الجنونية، والفتن المدمرة. وعليه فقد انتشرت ثورات الصفرية بشكل واسع؛ بقيادة بعض الثائرين؛ الذين ترأسوا ما يمكن تسميته ــ مجازا ــ إمارة مثل:

ــ إمارة ميسرة الخفير المطغري الصفري: يعود ظهور ميسرة المطغري في مسرح الأحداث؛ كنتيجة حتمية لما أبداه ولاة الدولة الأموية من نهب وعسف واستهانة بأهل البلاد من المسلمين[1]. فبسبب كل ذلك انطلقت ثورة عارمة في سنة 122هـ(739م) بدءا بطنجة؛ حيث قتل فيها عمر ابن عبد الله المرادي؛ العامل الذي عينه ابن الحبحاب فيها؛ ثم انتشر لهيب الثورة ــ بعد

---

[1] قال ابن عذاري: ((وكان السبب في ثورة البربر بالمغرب، وقيام ميسرة؛ أنها أنكرت على عامل ابن الحبحاب سوء سيرته كما ذكرنا. وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية؛ فيبعثون لهم البربريات السنيات. فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب؛ مناهم بالكثير، وتكلف لهم ــ أو كلفوه ــ أكثر مما كان. فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة؛ فحينئذ عدت البرابر على عاملهم؛ فقتلوه وثاروا بأجمعهم على ابن الحبحاب)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 52.

ذلك ــ إلى أماكن أخرى في بلاد المغرب. وكانت الفكرة السائدة التي فجرت هذه الثورة مستمدة من عقيدة خارجية، وصفرية بالذات كما يقال.

وانتصب ميسرة المطغري الصفري قائدا للقبائل الأمازيغية الثائرة؛ بل يقال أنه بويع بالخلافة؛ ولكن أنصاره انتفضوا عليه، ثم قتلوه بعد فترة قصيرة؛ ربما حدث له ذلك العزل، ثم القتل؛ بسبب خروجه عن الضوابط المتفق عليها في تسيير شئونهم؛ أو لعجزه وضعف كفاءته الحربية؛ خاصة وأن انسحابه أمام جيش القيروان بالقرب من طنجة؛ دون سبب مقنع؛ قد يجيز ما تعرض له من عزل. أما ما تذكره المصادر التاريخية ــ دون تفسير أيضا ــ عن قتل الصفرية لميسرة؛ فربما حدث ذلك بسبب رفضه ترك منصب القيادة. ويبدو أن ضعف موقفه ــ أيضا ــ جاء من كون قبيلته مطغرة؛ لم تكن تمثل القوة الرئيسية الضاربة في ذلك الحلف القبلي الصفري. وهذا يتفق مع نظرية ابن خلدون التي فسرها ضمن: "**فصل في أن الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية**".[1]

---

[1] ويقول فيها: ((أعلم أن كل حي أو بطن من القبائل ــ وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام لهم ــ ففيهم أيضا عصبيات أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاما من النسب العام لهم... والرياسة فيهم إنما تكون في نصاب واحد منهم؛ ولا تكون في الكل. ولما كانت الرياسة إنما بالغلب؛ وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب؛ ليقع الغلب بها وتتم

ـ إمـارة خالـد بـن حميـد الهتـوري الزنـاتي الصفـري:
وبعـد أن قتـل ثـوار الصفريـة قائدهـم ميسـرة المطغـري في سنـة 122هـ(739م)؛ أسنـدوا قيادتهـم إلى خالـد بـن حميـد الزنـاتي؛ الـذي ينتـمي إلى بطـن مـن زناتـة يسـمى هتـورة. فتـولى أمرهـم بجـدارة واقتـدار؛ إذ قادهـم في معـارك ضـد الأمويـين؛ برهـن فيهـا عـلى قـدرات عسكريـة كبيـرة. افتتـح انتصاراتـه بالهزيمـة الـتي ألحقهـا بجيـش الأمويـين في الموقعـة المسمـاة غـزوة الأشـراف.[1] وكانـت تلـك الهزيمـة ضربـة شديـدة المفعـول؛ بحيـث هـزت الخليفـة الأمـوي هشـام بـن عبـد الملـك وأغضبتـه إلى أبعـد الحـدود؛ فلـم يتمالـك نفسـه حيـن قـال بعصبيـة عربيـة واضحـة: **((واللـه لأغضبـن لهـم غضبـة عربيـة، ولأبعثـن لهـم جيشـا**

الرياسـة لأهلهـا... ولا تنتقـل إلا إلى الأقـوى مـن فروعـه؛ لمـا قلنـاه مـن سـر الغلـب؛ لأن الاجتمـاع والعصبيـة بمثابـة المـزاج في المتكـون والمـزاج في المتكـون لا يصلـح إذا تكافـأت العناصـر؛ فـلا بـد مـن غلبـة أحدهـا؛ وإلا لـم يتـم التكويـن. فهـذا هـو سـر اشتـراط الغلـب في العصبيـة)). المقدمـة، ج: 2، ص ص: 598 ـ 599.

[1] قـال ابـن الأثيـر في ذلـك: ((ثـم التـقى خالـد بـن حميـد [الزنـاتي] ـ ومعـه البربـر ـ خالـد بـن حبيـب [الفهـري] ـ ومعـه العـرب وعسكـر هشـام ـ وكـان بينهـم قتـال شديـد صبـرت فيـه العـرب؛ وظهـر عليهـم كميـن مـن البربـر؛ فانهزمـوا؛ وكـره خالـد بـن حبيـب [الفهـري] أن ينهـزم مـن البربـر؛ فصبـروا معـه؛ فقتلـوا جميعهـم؛ وقتـل في هـذه الوقعـة حمـاة العـرب وفرسانهـا؛ فسميـت وقعـة الأشـراف؛ فاتقضـت البـلاد، ومـرج أمـر النـاس؛ وبلـغ أهـل الأندلـس الخبـر؛ فثـاروا بأميرهـم عقبـة بـن الحجـاج؛ فعزلـوه وولـوا عبـد الملـك بـن قطـن؛ فاختلطـت الأمـور عـلى ابـن الحبحـاب)). الكامـل في التاريـخ، ج: 4، ص: 223. أنظـر أيضـا تاريـخ إفريقيـة والمغـرب للقيـرواني، ص ص: 100 ـــ 101.

أولــه عندهــم وآخــره عنــدي. ثــم لا تركــت حصــنَ بربــري إلا جعلــت إلى جانبــه خيمــة قيــسي أو تميــمي)).[1]
وهكــذا لا تخلــو قولتــه هــذه ــ طبعــا مــن عاطفــة ونزعــة مفعمــة برواســب العصبيــة العربيــة المعهــودة في بــني أميــة:

وكانــت معركــة الأشــراف إشــارة خطيــرة لبــني أميــة؛ كــان مــن المفــروض تداركهــا بعــلاج سليــم يسمــح بــلأم الجــراح وشفــاء النفــوس العليلــة؛ ولكــن غضــب الخليفــة لــم يتــرك لــه مجــالا لإصــلاح مــا فســد. وعليــه فيمكــن اعتبــار ردود أفعــال الخليفــة هشــام بمثابــة الخطــوة الخطيــرة؛ الــتي أدت إلى خــروج مناطــق كثيــرة مــن بــلاد المغــرب ــ الأقــصى والأوســط ــ عــن النفــوذ الأمــوي نهائيــا. هــذا بالإضافــة إلى مــا حــدث مــن عصيــان في بــلاد الأندلــس. تلــك الديــار الــتي ثــار بهــا ــ أيضــا ــ جمــع مــن الأمازيــغ ومــن العــرب كذلــك؛ أولئــك العــرب الذيــن كانــت تتقاذفهــم الصراعــات القبليــة؛ بيــن يمنيــة وقيسيــة. الأمــر الــذي حــال دون أن تتمكــن أي عصبيــة مــن التغلــب عــلى العصبيــات والقبائــل الأخــرى المنتشــرة في ربــوع الأندلــس الواسعــة.

---

[1] **تاريــخ إفريقيــة والمغــرب، ص: 111. والكامــل في التاريــخ، ج: 4، ص: 223. والبيــان المغــرب، ج: 1، ص: 54.**

وهـذا يؤكـد مـا فسـره ابـن خلـدون في الفقـرات السابقـة؛ الـتي تتكلـم عـن ضـرورة تغلـب أحـد العناصـر عـلى بقيـة العناصـر لـكي يتحقـق المـزاج في المتكـون.[1]

وحـتى الجيـش الـذي بعـث بـه الخليفـة الأمـوي هشـام بـن عبـد الملـك ــ بقيـادة كلثـوم بـن عيـاض القشيـري ــ سنـة 123هـ (740م)؛ بهـدف تأديـب الأمازيـغ؛ أضـحى ــ في حـد ذاتـه ــ عامـل فرقـة لصفـوف العـرب؛ أكثـر مـن أن يكـون عامـل وحـدة والتحـام. إذ بمجـرد وصـول طليعـة ذلـك الجيـش العـربي ــ الـتي كـان عـلى رأسهـا بلـج بـن بشـر القشيـري (ابـن عـم الوالي الجديـد كلثـوم بـن عيـاض القشيـري) ــ إلى القيـروان؛ حـتى انقسـم النـاس بيـن عـرب استوطنـوا القيـروان مـن قبـل؛ وعـرب وفـدوا إليهـا حديثـا. فهـا هـو بلـج بـن بشـر يستفـز النـاس بعنجهيتـه، وبعصبيتـه القيسيـة الحمقـاء؛ حيـن أراد ــ بكـل صفاقـة وغـرور ــ إنـزال عساكـره في منـازل أهـل المدينـة. حيـث تفـوه بكـلام أغضبهـم ــ كمـا جـاء في المصـادر ــ فبعثـوا شكواهـم إلى حبيـب بـن أبي عبيـدة بـن عقبـة بـن نافـع الفهـري؛ الـذي كـان مرابطـا في مواجهـة الأمازيـغ بتلمسـان. فكتـب إلى كلثـوم بـن عيـاض يقـول لـه: ((**إن ابـن عمـك السفيـه قـال كـذا وكـذا. فارحـل بعسكـرك عنهـم؛ وإلا حولنـا**

---

[1] أنظـر المقدمـة، ج: 2، ص ص: **598 ــ 599**.

أعنة الخيل إليك)).[1] فسارع كلثوم بن عياض إلى الاعتذار لحبيب؛ وضرب له موعدا في شلف. غير أن كلثوم بن عياض تمادى في سلوكه الخاطئ؛ إذ أن سكوته عن حماقة بلج؛ شجعه على معاودة تهوره؛ حين اشتبك ــ أيضا ــ مع حبيب عند التقائهما بشلف.[2] هذه هي العصبية عندما تصبح قاتلة ومدمرة. إذ انتهى الحال بالعرب إلى هزيمة أفظع من الأولى؛ حيث كان الخلاف بينهم شديدا، والشنآن يقسم صفوفهم؛ فلا يتفقون على خطة، ولا يجتمعون على رأي سليم.[3]

---

[1] **البيان المغرب، ج: 1، ص: 54. أنظر أيضا الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 123. والعبر، مج: 4، ص: 406.**

[2] **وقد أورد ابن عذاري نصا مهما يشرح ما دار بين الطرفين. وهذا النص التاريخي يفسر الحال المزرية؛ التي أضحى عليها العرب في ديار المغرب. فمما قاله: ((فاستخلف كلثوم على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري؛ وسار حتى وصل عسكر حبيب فرفضه، واستهان به؛ وسب بلج بن بشر لحبيب وتنقصه؛ وقال: "هذا الذي يحول أعنة الخيل إلينا"؛ فقام إليه عبد الرحمن بن حبيب؛ وقال: "يا بلج! هذا حبيب! فإذا شئت؛ فأعرض له للمقابلة!" وصاح الناس: "السلاح! السلاح!" فمال أهل إفريقية إلى ناحية، ومعهم أهل مصر. ثم سعى بينهم في الصلح. فكان هذا الاختلاف سبب هلاكهم؛ مع سوء رأي كلثوم وبلج)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 54 ــ 55. أنظر أيضا تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 113.**

[3] **شرح ابن الأثير ما جرى بقوله: ((وتقدم إليهم البربر من طنجة؛ فقال لهم حبيب: "اجعلوا الرجالة للرجالة، والخيالة للخيالة؛ فلم يقبلوا منه؛ وتقدم كلثوم بالخيل؛ فقاتله رجالة البربر فهزموه؛ فعاد كلثوم منهزما؛ ووهن الناس ذلك؛ ونشب القتال، وانكشفت خيالة البربر، وثبتت رجالتها؛ واشتد القتال، وكثر البربر عليهم؛ فقتل كلثوم بن عياض، وحبيب بن أبي عبيدة،**

وكانت النتيجة هي قتل كلثوم وأكثر قادة جيشه وفرسانه؛ بينما فر بلج ابن بشر ومن لحق به من أهل الشام إلى سبتة؛ حيث بقي بها محاصرا إلى سنة 124هـ(741م)؛ أين تمكن مع أتباعه من الالتحاق بأرض الأندلس.

وغدا ــ بعد ذاك ــ المغرب كله مسرحا واسعا ترتع فيه مختلف القبائل والفرق الخارجية: من صفرية وإباضية. وقد يعتبر هذا التاريخ؛ هو نهاية العهد الذي كانت فيه الخلافة العربية ــ في الشام ثم بغداد بعدئذ ــ هي السلطة المركزية؛ المهيمنة بنفوذها وسلطانها على تلك الأنحاء؛ إذ غدت ديار المغرب ــ منذئذ ــ أقطارا خارجة عن حكم الخلافة؛ تلك الخلافة التي لم يبق لها سوى ربوع إفريقية بقاعدتها القيروان. وحتى هذه الأخيرة أصبحت في أيدي بعض الولاة المستبدين بالبلاد دونها.

وبهذا أصبح العرب منشغلين بحماية القيروان نفسها؛ ضد هجمات الأمازيغ؛ سواء كانوا من أتباع المذهب الصفري، أو من أصحاب المذهب الإباضي. ولم تعد الغزوات البعيدة تستهويهم؛ بسبب تغلب الخوارج ــ من صفرية وإباضية ــ على تلك المناطق النائية. وهكذا.. فقد أذهلتهم الهزيمة

ووجوه العرب؛ وانهزمت العرب وتفرقوا؛ فمضى أهل الشام إلى الأندلس ومعهم بلج بن بشر، وعبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة، وعاد بعضهم إلى القيروان)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 223.

الأخيرة؛ التي لحقت بالجيش العربي؛ وانكشف للناس ما أضحى عليه العرب من ضعف وتفكك بسبب العصبية الهوجاء. كما ظهرت لهم عيوب الوالي الجديد كلثوم بن عياض؛ الذي لا رأي له ولا حكمة. وعليه فقد وجدوا أنفسهم ــ فجأة ــ بدون قائد عام؛ ينسق بين القيادات، ويرعى شئون العامة.

ــ إمارة عكاشة بن أيوب الفزاري الصفري:
ينتسب هذا الثائر الصفري إلى قبيلة عربية[1] ــ كما يظهر من اسمه ــ وهي قبيلة فزارة العدنانية القيسية. وكان في البداية أحد القادة الفرسان في جيش عبيد الله بن الحبحاب؛ إذ قدم معه إلى المغرب؛ ضمن جند الشام.[2] ولكنه انضم ــ رفقة أخيه ــ إلى الصفرية، ولا يعرف حتى الآن متى اعتنق مذهبهم؛ هل حدث ذلك بعد وصوله إلى إفريقية؛ أم جاء من المشرق بقناعاته الخارجية. المهم أنه أصبح بسهولة ــ في ظروف غامضة ــ قائدا وزعيما لفئة من الثوار الأمازيغ الصفرية. ومع هذا يبدو أنه كان أضعف من بقية الثوار الأمازيغ.

---

[1] أخطأ كثير من المؤرخين المحدثين حين نسبوه إلى زناتة؛ نظرا لقيادته لجماعة من زناتة.

[2] أنظر تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني، ص: 114.

وربما رجع السبب إلى ما تفرضه سنن العصبية؛ التي لا يستهويها سوى الانتساب المطلق إليها؛[1] ولما كان عكاشة من المنتسبين إلى العرب فقد قل أنصاره، وضعفت شوكته. غير أن عاملي: الدين والمذهب ساعداه ــ شيئا ما ــ في جمع بعض الفئات الزناتية الساخطة على الحكم الأموي. ومع ذلك لا يكفي العامل الديني والمذهبي وحده؛ إذ لا بد من توفر شرط العصبية؛ كما قال ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[2] المهم أنه انطلق بثورته في جهات قابس؛ منتهزا فرصة خروج كلثوم بن عياض بالجند إلى طنجة. وكان كلثوم قد استخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري، وعقد لمسلمة بن سوادة القرشي لواء الحرب فيها. فبدأ عكاشة حركته بإرسال أخيه إلى (صبرة) قصد تعبئة عشائر زناتة ــ في تلك الجهات ــ والعمل على التغلب عليها.

---

[1] يقول ابن خلدون ضمن: "فصل في أن الرياسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم" ((والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب؛ إنما هو ملصق لزيق؛ وغاية التعصب له بالولاء والحلف؛ وذلك لا يوجب له غلبا عليهم ألبته)). المقدمة، ج: 2، ص: 599.

[2] أنظر المقدمة، ج: 2، ص ص: 638 ــ 642.

وبالفعل تمكن أخو عكاشة من جمع أعداد كبيرة من الزناتيين؛ الذين حاصر **(صبرة)** بهم؛ إلا أن عامل طرابلس صفوان بن مالك تفطن للخطر المداهم؛ فسارع إلى الخروج إليه؛ أين تمكن من التغلب عليه؛ وأجبره على الانهزام إلى حيث أخيه في جهات قابس. وكرد فعل غير مدروس خرج مسلمة بن سوادة في جيش من القيروان؛ قصد تأديب عكاشة الفزاري في قابس؛ ولما التقى الجمعان حلت الهزيمة بمسلمة بن سوادة؛ حيث قتل من أتباعه عدد كبير؛ فعاد إلى القيروان منهزما؛ وهناك عزله عبد الرحمن بن عقبة الغفاري، وكلف بدلا منه سعيد بن بجرة الغساني؛ فاختاروا التحصن خلف أسوار القيروان خوفا من عكاشة.[1]

وبقيت الحال ــ بين عكاشة وعمال الدولة الأموية في القيروان وطرابلس ــ متشنجة ومضطربة؛ اضطر فيها عكاشة إلى شن حرب عصابات عليهم ــ انتصر فيها حينا وانهزم حينا آخر ــ ومن نتائجها قتل عبد الرحمن بن عقبة الغفاري؛ الذي وجهه لقتال عكاشة والي إفريقية الجديد حنظلة بن صفوان الكلبي؛ الذي قدم إليها في سنة 124هـ(741م).[2]

---

[1] **فتوح مصر والمغرب، ص ص: 294 ـــ 295.**

[2] **نفسه، ص: 298.**

وكان حنظلة بن صفوان يختلف كثيرا عن سابقه كلثوم بن عياض؛ حيث اتصف بالحنكة والذكاء والدهاء. وفي خضم هذه الأحداث؛ ظهر ـ في الأفق ـ قائد صفري آخر؛ وهو عبد الواحد ابن يزيد الهواري ـ سيأتي الحديث عنه لاحقا ـ حيث اتفق معه عكاشة على التعاون والتنسيق بهدف احتلال القيروان؛ فزحف عكاشة من جنوبها؛ بينما أتاها عبد الواحد من الشمال.

ويبدو أن منافسة خفية كانت بين القائدين الصفريين؛ فعلى الرغم من مظهر التنسيق بينهما؛ إلا أن عكاشة تسرع في زحفه نحو القيروان قبل وصول عبد الواحد إليها.[1] وقد يكون ذلك تعبيرا عما في نفسه من أطماع؛ أغرته بمحاولة احتلال القيروان قبل وصول حليفه عبد الواحد الهواري. الأمر الذي سيعزز مركزه أمامه.

---

[1] قال في هذا ابن عبد الحكم: ((ثم مضى عبد الواحد بن يزيد؛ فأخذ تونس واستولى عليها؛ وسلم عليه بالخلافة، ثم تقدم إلى القيروان؛ وانتبذ الفزاري بعسكره ناحية؛ وكلاهما يريد القيروان؛ يتبادران إليها؛ أيهما يسبق صاحبه فيغنم)). فتوح مصر والمغرب، ص ص: 298 ـــ 299.

وبالفعل فقد التقى عكاشة مع الوالي الجديد ـ حنظلة بن صفوان ـ في موضع قريب من القيروان يسمى (القرن)؛ وانتهت المعركة بهزيمة كاسحة لجيش عكاشة؛ الذي فرّ؛ ولكن أدركه من ساقه أسيرا إلى حنظلة؛ حيث أمر بقتله في سنة 125هـ(742م).[1] وهكذا ارتكب عكاشة خطأ فادحا؛ بمخالفته الخطة التي اتفق عليها مع حليفه عبد الواحد بن يزيد؛ إذ تعجل في القدوم إلى مشارف القيروان؛ قبل أن يصل إليه جيش عبد الواحد؛ الأمر الذي جعل حنظلة بن صفوان يسارع إلى انتهاز الفرصة؛ قبل اجتماع الجيشين عليه؛ فبدأ بالهجوم على عكاشة؛ الذي ظهر لحنظلة أنه يشكل الطرف الضعيف بين خصميه. وهكذا استغل والي القيروان المحنك هذا النصر في رفع معنويات جنوده، وشحذ هممهم؛ استعدادا للمعركة القادمة.

---

[1] اختلفت رواية ابن عبد الحكم عن روايات: الرقيق القيرواني، وابن الأثير وابن عذاري؛ حيث ذكر ابن عبد الحكم أن أول من التقى به جيش حنظلة هو عبد الواحد؛ ثم توجه بعده إلى عكاشة. بينما يخالفه في ذلك الرقيق وابن الأثير وابن عذاري الذي يقول: ((فرأى حنظلة أن يعجل قتال عكاشة؛ قبل أن يجتمعا عليه. فزحف إليه بجماعة أهل القيروان. فالتقوا بـ(القرن)؛ وكان بينهم قتال شديد. فهزم الله عكاشة ومن معه؛ وقتل من البربر ما لا يحصى كثرة)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 58. وتاريخ إفريقية والمغرب، ص: 116. والكامل، ج: 4، ص: 223.

ـ إمـارة عبـد الواحـد بـن يزيـد الهـواري الصفـري:
كـان ظهـوره الأول في شـرق طرابلـس؛ حيـث استنجـد بـه عكاشـة؛ في قتالـه ضـد عبـد الرحمـن بـن عقبـة. ولمـا انتصـرا في الموقعـة الـتي قتـل فيهـا عبـد الرحمـن؛ اتفـق الاثنـان عـلى الذهـاب إلى المغـرب الأوسـط؛ لـكي يبحثـا عـن أنصـار جـدد، ويحرضـا الصفريـة فيـه عـلى احتـلال مركـز الولايـة الأمويـة بالقيـروان. وبالفعـل تمكـن الاثنـان مـن جمـع أعـداد كبيـرة مـن المتحمسيـن للقضـاء عـلى الحكـم الأمـوي وإزالتـه مـن ديـار المغـرب. وقبـل انطـلاق المتحالفيـن مـن منطلقهـم في ناحيـة مـن نـواحي الـزاب؛ وضعـوا خطـة محكمـة؛ ربمـا كانـت كفيلـة بنجـاح مسعاهـم ـ لـو طبقـت بدقـة ـ إذ تقتـضي الخطـة أن يزحـف جيشـان إلى القيـروان: الأول بقيـادة عكاشـة؛ مـن جهـة الجنـوب؛ والثـاني بقيـادة عبـد الواحـد؛ مـن الشمـال؛ عـلى أن يلتقيـا في وقـت واحـد حـول القيـروان؛ وبذلـك يكونـان كماشـة تنقـض عـلى عدوهمـا؛ فيعجـز عـن المقاومـة ويسقـط فريسـة بيـن أيديهـم.

وبالفعـل انطلـق عكاشـة عبـر السهـول الممتـدة جنـوب الأوراس؛ في اتجـاه تبسـة وباجـة ثـم القيـروان. أمـا عبـد الواحـد فقـد زحـف مـن الشمـال؛ عبـر المناطـق الجبليـة[1] الصعبـة؛ الـتي كانـت كفيلـة بتعطيـل حركتـه؛ كمـا أنـه ـ بسعيـه لجمـع متطوعيـن جـدد

[1] **تاريـخ إفريقيـة والمغـرب، ص: 116. والبيـان المغـرب، ج: 1، ص: 58.**

من القبائل الأمازيغية ـ زاد في ثقل حركته وبطء سيره. ولكنه استفاد إذ حقق نجاحات معتبرة؛ عندما التحق به عدد كبير من أبناء تلك القبائل. وقد ـ تمكن في خط سيره ـ من احتلال مدينة باجة؛ أين اشتبك ـ هناك ـ مع جيش القيروان مرات عديدة؛ حالف النصر فيها عبد الواحد. وبعدها انتقل عبد الواحد إلى تونس فدخلها منتصرا. وفي الأخير زحف إلى القيروان؛ حيث وصله خبر هزيمة حليفه عكاشة؛ بعد أن خالف الخطة المتفق عليها؛ إذ انتهز فرصة تعطل عبد الواحد؛ فسولت له نفسه الانفراد باحتلال القيروان؛ الأمر الذي سيساعده على التفوق عليه؛ وبذلك يمكنه تعديل الكفة؛ التي مالت إلى صالح حليفه ومنافسه عبد الواحد؛ بحكم امتلاكه لعامل العصبية الأمازيغية؛ تلك العصبية التي يفتقر إليها عكاشة.

وبعد سماع عبد الواحد بهزيمة عكاشة، والتأكد من مقتله؛ اضطر إلى خوض المعركة بجيشه منفردا. وبالفعل حدثت المعركة الكبرى الفاصلة؛ في موضع يبعد عن القيروان بثلاثة أميال تقريبا؛ يسمى (الأصنام). وكانت معركة مهولة؛ حالف النصر فيها حنظلة بن صفوان؛ حيث تمكن جيشه من قتل آلاف من الصفرية؛ بما فيهم عبد الواحد بن يزيد نفسه؛ وذلك في سنة 125هـ(742م).

هـذا وتجـدر الإشـارة أن أهـل القيـروان تمكنـوا مـن النصـر؛ بفضـل شعورهـم بوحـدة المصيـر، وبفضـل المجهـودات الـتي بذلهـا علمـاء المدينـة؛ حيـث كثفـوا نشاطهـم في الدعـوة إلى القتـال، وحـث النـاس عـلى المقاومـة، إذ حذروهـم مـن مغبـة الفرقـة أو التهـاون والخـذلان؛ كمـا ذكروهـم بمـا قـد يلحـق بهـم وبنسائهـم مـن طـرف الصفريـة؛ الذيـن يستحلـون سـبي المسلمـات، ويجيـزون استعبـاد الأبنـاء؛ كمـا يبيحـون سفـك دمـاء المسلميـن مـن أطفـال وشيـوخ. وبالفعـل حققـت دعوتهـم نجاحـات كبيـرة؛ إذ حميـت همـم النـاس؛ فكسـروا أجفـان سيوفهـم؛ وخرجـوا للقتـال ومعهـم نساؤهـم يحرضـنهـم ويشحـذن هممهـم. ونتيجـة لتلـك العوامـل النفسيـة؛ تمكنـوا[1] مـن التغلـب عـلى الصفريـة؛ وفتكـوا بهـم فتكـا عظيمـا؛ عـلى الرغـم مـن قلـة عددهـم؛ وكثـرة أعـداد أعدائهـم.

ـ إمـارة ثابـت بـن وازيـدون الصنهـاجي الصفـري: لا يعـرف عـن هـذا الرجـل مـا يمكـن بـه تكويـن فكـرة واضحـة عنـه؛ إذ يكتنـف أخبـاره غمـوض كثيـف؛ ويبـدو أنـه كـان مـن أتبـاع عبـد الواحـد بـن يزيـد الهـواري الصفـري؛ ولـم تذكـر المصـادر التاريخيـة عنـه سـوى خبـر ثورتـه في باجـة، وتغلبـه عليهـا سنـة 130هـ(747م)؛ في أيـام عبـد الرحمـن بـن حبيـب

---

[1] **تاريـخ إفريقيـة والمغـرب، ص: 119 ـ 122.**

الفهـري ـ الـذي عـزل حنظلـة وافتـك منـه القيـروان ـ وبعدهـا صمتـت المصـادر ـ نهائيـا ـ عـن الحديـث في شـأن ثابـت الصنهـاجي هـذا؛ ولـم تشـر إن كـان قـد فـر حيـا أم قتـل.

ـ إمـارة عاصم بن جميل الورفجومي الولهـاصي الصفـري: لقـد تـرك هـذا الرجـل ـ وأخـوه المدعـو مكـرم ـ أثـرا سيئـا في تاريـخ إفريقيـة والمغـرب؛ نتيجـة للفظائـع وللوحشيـة الـتي ارتكبهـا هـو وأتباعـه مـن صفريـة ورفجومـة في القيـروان سنـة 138هـ(755م). ويقـول فيـه ابـن الأثيـر: ((**وكـان مقـدم ورفجومـة رجـلا اسمـه عاصـم بـن جميـل؛ وكـان قـد ادعى النبـوة والكهانـة؛ فبـدل الديـن، وزاد الصـلاة، وأسقـط ذكـر النـبي صـلى اللـه عليـه وسلـم مـن الأذان... ودخـل عاصـم ومـن معـه القيـروان. فاستحلـت ورفجومـة المحرمـات؛ وسبـوا النسـاء والصبيـان؛ وربطـوا دوابهـم في الجامـع وأفسـدوا فيـه**)).[1] وذكـر ابـن خلـدون؛ اسـم رجـل آخـر كـان بيـن المرافقيـن لعاصـم بـن جميـل ـ في

---

[1] **الكامـل في التاريـخ، ج: 4، ص: 280. أمـا القيـرواني فيقـول: ((ودخلـت ورفجومـة القيـروان؛ فاستحلـوا المحـارم، وارتكبـوا العظائـم؛ نـزل عاصـم ـ بعسكـره ـ في الموضـع الـذي يسـمى (مصـلى روح) واستخلـف عـلى القيـروان عبـد الملـك بـن أبي الجعـد النفـزي... ولمـا حكمـت ورفجومـة عـلى القيـروان؛ قتلـوا مـن كـان بهـا مـن قريـش، وساموهـم العـذاب؛ وربطـوا دوابهـم في المسجـد الجامـع)). تاريـخ إفريقيـة والمغـرب، ص: 141.**

زحفه إلى القيروان. وقال أنه: يزيد بن سكوم الولهاصي.

ـ أمير ولهاصة يزيد بن سكوم الولهاصي النفزاوي. ولا يوجد ما يفيد عن هذا الرجل؛ سوى ما ذكره ابن خلدون؛ إذ قال أنه كان يرافق رئيس ورفجومة عاصم بن جميل؛ حين غزا القيروان سنة 138هـ.

ـ إمارة عبد الملك بن أبي الجعد النفزي الصفري: قدم هذا الرجل مع عاصم بن جميل إلى القيروان أيضا في سنة 138هـ؛ حيث ولاه عليها؛ عند خروجه لمطاردة أعدائه. ولما قتل عاصم أصبح أمر ورفجومة بين يدي عبد الملك بن أبي الجعد؛ فحكم القيروان بيد من نار وحديد؛ وسار على نهج عاصم في العيث والفساد وارتكاب المحرمات. وكانت نهايته بواسطة أبي الخطاب عبد الأعلى الإباضي؛ الذي استاء مما سمعه عن عيث ورفجومة؛ وما قامت به من فساد في القيروان؛ فزحف إليها، حيث تغلب على القيروان، وأخرج ورفجومة منها؛ بعد أن قتل عبد الملك بن الجعد، وفتك بأتباعه؛ من تلك الفئة الباغية سنة 140هـ(757م).

ـ إمـارة عبـد الملـك بن سكرديـد الصنهـاجي الصفـري: هكـذا سمـاه ابـن عـذاري؛ ولا يعـرف عـن هـذا القائـد الصفـري؛ سـوى أنـه كـان يقـود ألفيـن مـن الصفريـة؛ خـلال حصارهـم ـ ضمـن الحلـف الصفـري الإبـاضي ـ لعمـر بـن حفـص بـن قبيصـة والي إفريقيـة؛ بمدينـة طبنـة حاضـرة الـزاب في سنـة 153هـ(770م). غيـر أن ابـن خلـدون سمـاه عبـد اللـه بـن سكرديـد؛ وقـال أنـه أحـد أمـراء الصفريـة الصنهاجييـن؛ ومـن أتبـاع ثابـت ابـن وازيـدون الصنهـاجي المذكـور آنفـا.

ـ إمـارة أبي قـرة بـن دونـاس اليفـرني الصفـري: ينسبـه بعضهـم إلى مغيلـة؛ غيـر أن المحققيـن مـن المؤرخيـن ينسبونـه إلى بـني يفـرن.[1] وكـان أول ظهـور لهـذا الرجـل ـ في مسـرح الأحـداث بشكـل واضـح ـ أثنـاء زحـف عبـد الواحـد بـن يزيـد الهـوري إلى القيـروان؛ حيـث ذكـرت الأخبـار أن عبـد الواحـد جعلـه عـلى رأس مقدمـة جيشـه.[2] وإن كـان ـ في الحقيقـة ـ مـن بيـن زعمـاء الصفريـة؛ المتحالفيـن في السابـق مـع ميسـرة المطغـري؛ إلا أنـه لـم يلفـت نظـر المؤرخيـن.

---

[1] **العبـر، مج: 7، ص: 24.**

[2] **فتـوح مصـر والمغـرب، ص: 299. والبيـان المغـرب، ج: 1، ص: 58.**

ولما قدم عبد الواحد بن يزيد الهواري ـ مع عكاشة ـ إلى المغرب الأوسط طالبين المؤازرة والدعم؛ بغرض الهجوم على القيروان؛ كان أبو قرة هذا من الملبين لدعوتهما. فانضم إلى عبد الواحد؛ حيث تولى أمر مقدمة جيشه.

ولما حلت الهزيمة بالصفرية، وقتل قائدهم عبد الواحد بن يزيد؛ عاد أبو قرة إلى المغرب الأوسط؛ حيث لعب ـ مرة أخرى ـ دور المشاغب في سنة 150هـ(767م)؛ خلال ولاية الأغلب بن سالم التميمي على القيروان. إذ عمل على استفزاز الأغلب في جهات طبنة؛ وتظاهر بالانسحاب والتراجع إلى داخل البلاد؛ محاولا استدراج الأغلب، وإبعاده عن مركز قيادته في القيروان؛ إلا أن بعض القادة في جيش القيروان؛ تخوفوا من تلك المغامرة؛ وتفرقوا عن الأغلب؛ عائدين إلى القيروان؛ فعاد ـ عند ذلك ـ عما كان قد عزم عليه. وتقول المصادر التاريخية أن أبا قرة بويع بالإمامة ـ أو الخلافة ـ من طرف أنصاره من الصفرية. وقد دامت قيادته عليهم أربعين سنة كما يقال.

كما كانت لأبي قرة بن دوناس ــ بجيشه المقدر بأربعين ألفا ــ مشاركة رئيسية في حصار والي إفريقية عمر بن حفص بن قبيصة؛ بين جدران حاضرة الزاب طبنة سنة 153هـ(770م)؛ ولكن أخاه أفشل حصار الصفرية والاباضية؛[1] بعد أن استسلم لأطماعه؛ عندما عرض عليه عمر بن حفص ــ بوساطة إسماعيل بن يعقوب المكناسي ــ مبلغا من المال قدر بأربعين ألف درهم؛ على أن يسعى لفك الحصار، وانفضاض جموع الثوار عن طبنة. وبالفعل تمكن من ذلك؛ حينما أغرى قادة جيش أخيه ــ أبي قرة ــ بالعودة إلى ديارهم في جهات تلمسان؛ إذ تقول المصادر أن أبا قرة لم يشعر إلا وجموع جيشه تعمل على الرحيل؛ فاضطر إلى مسايرتهم. وهكذا تكون سلطة رؤساء القبائل؛ التي تفتقد لشروط سلطة ملك الدولة؛ تلك السلطة التي تتطلب حكما قاهرا متغلبا؛ حسبما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك**".[2]

---

[1] اتفق القيرواني، وابن خلدون على أنه ابن أبي قرة؛ بينما اتفق ابن الأثير وابن عذاري على انه أخوه. أنظر تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 143. والعبر، مج: 6، ص: 226. ومج: 7، ص: 25. ثم الكامل في التاريخ، م: 5، ص: 32. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 76.

[2] إذ يقول: ((وقدمنا أن الآدميين ــ بالطبيعة الإنسانية ــ يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع يزع بعضهم عن بعض؛ فلا بد أن يكون متغلبا عليهم بتلك العصبية؛ وإلا لم تتم قدرته على ذلك. وهذا التغلب هو الملك؛ وهو أمر زائد على الرياسة؛ لأن الرياسة إنما هي سؤدد وصاحبه متبوع؛ وليس له

ومع هذا ذكرت المصادر التاريخية ـ أيضا ـ بأن أبا قرة عاد إلى مواصلة الحصار بمن تبقى معه من الأنصار ـ بعد خروج عمر بن حفص من طبنة ـ بهدف ابتزاز عامل عمر بن حفص على طبنة؛ المهنأ بن مخارق بن عفان الطائي؛[1] ولكنه هزم مدحورا. ومنذ تاريخ هذه الموقعة لم تعد جل المصادر التاريخية تذكر أباقرة بشيء؛ ما عدا الإشارة الخاطفة التي ذكرها الطبري؛[2] ـ ثم نقلها عنه ابن عذاري ـ مع ما فيها من خلط. إذ يبدو أنه التبس عليه الأمر؛ وخلط بين ما

عليهم قهر في أحكامه؛ ،وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر. وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها؛ فإذا بلغ رتبة السؤدد والإتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه؛ لأنه مطلوب للنفس. ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعا. فالتغلب الملكي غاية للعصبية كما رأيت)). المقدمة، ج: 2، ص 609.

[1] إذ يقول القيرواني: ((فلما بلغ أبو قرة مسير عمر بن حفص؛ أقبل في جمع كثير حتى حصر المهنأ؛ فأرسل إلى أبي قرة يسأله الانصراف عنه؛ فأرسل أبو قرة إليه:"تصيبي منك ومن قبلك أحرار؛ ولكن لا سبيل إلى ترك غنيمة المسلمين". فلما قال له ذلك تحمّلوا عليه؛ فانهزم أبو قرة، واستباحوا عسكره)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 143.

[2] حين قال: ((وفي هذه السنة [أي سنة 153هـ] قتل عمر بن حفص بن عثمان بن أبي صفرة بإفريقية؛ قتله أبو حاتم الإباضي، وأبو عادٍ [أبو قادم كما يبدو لأنه لقب أبي حاتم]، ومن كان معهما من البربر؛ وكانوا فيما ذكر ثلاثمائة ألف وخمسين ألفا؛ الخيل منها خمسة وثلاثون ألفا؛ ومعهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفا؛ وكان يسلم عليه ـ قبل ذلك ـ بالخلافة أربعين يوما. [ربما قصد أربعين سنة. وهي الفترة الزمنية التي أجمعت المصادر أنها مدة حكمه])). تاريخ الأمم والملوك، ج: 9، ص: 284.

حدث في حصار طبنة؛ وما يمكن أن يكون حصل في القيروان. لأن أبا قرة ــ كما يبدو ــ قد اضطرته الظروف للعودة إلى نواحي تلمسان؛ بعد حصار طبنة.

ــ إمارة جرير بن مسعود المديوني الصفري:[1]
كان ظهوره الأول في سنة 153هـ(770م)؛ أثناء الحصار المضروب على عمر بن حفص بطبنة. ولما انفضت الجيوش المحاصرة لطبنة؛ انضم إلى صفوف أبي حاتم الملزوزي؛ في حربه ضد والي إفريقية بالقيروان. وعلى هذا ظهر من جديد في أيام أبي حاتم الملزوزي الإباضي؛ حيث استعان به هذا الأخير في مطاردة بعض القادة الثائرين ضد الإباضيين المتغلبين على القيروان؛ منهم: عمر بن عثمان والمخارق بن غفار الطائي. وكان أولئك الهاربون قد التحقوا بجيجل؛ حيث احتموا ببعض العشائر من كتامة. فانتصروا لهم؛ وتصدوا لجرير ابن مسعود الصفري؛ فهزموه وقتلوه في سنة 154هـ(770م).

---

[1] **سماه الرقيق القيرواني: حريز بن مسعود المديوني. تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 148. أما ابن الأثير فسماه: مسعود الزناتي الإباضي. الكامل في التاريخ، ج" 5، ص: 32. أما ابن خلدون فسماه جرير بن مسعود؛ العبر، مج: 6، ص: 226. وفي موضع آخر قال: ((وكان من رجالاتهم المذكورين جرير بن مسعود؛ كان أميرا عليهم؛ وكان مع أبي حاتم وأبي قرة في فتنتهم)). العبر، مج: 6، ص ص: 256.**

ـ إمـارة أبـو زرجونـة الورفجـومي الصفـري:
ظهـر في عهـد والي إفرقيـة يزيـد بـن حاتـم بـن المهلـب؛ حيـث ثـار مـع عشيرتـه ورفجومـة ضـد السلطـة المركزيـة؛ فأرسـل إليهـم يزيـد بـن حاتـم ـ والي إفريقيـة ـ قـوة بقيـادة ابـن مجـزأ المهلـبي؛ ففشـل في مواجهتهـم؛ وقتـل في المعركـة عـدد مـن جنـد القيـروان. فعـاود يزيـد بـن المهلـب ـ في سنـة 156هـ(772م) ـ إرسـال قـوة أخـرى؛ عـلى رأسهـا ولـده المهلـب، ويزيـد بـن العـلاء بـن سعيـد بـن مـروان المهلـبي؛ فتغلـب عـلى ورفجومـة واجتثهـم، وطـارد مقاتليهـم في كـل جهـة.[1] هـذا ولـم يعـرف مصيـر أبي زرجونـة الورفجـومي بعـد هـذه الموقعـة.

ـ إمـارة عبـد الـرزاق الفهـري الخـارجي الصفـري:
ظهـر هـذا الرجـل في جبـال ويـلان بعمالـة فـاس؛ في العقـد الأخيـر مـن القـرن الثالـث للهجـرة. وبذلـك تكـون الصفريـة قـد حولـت ثوراتهـا وحروبهـا مـن إفريقيـة والقيـروان؛ إلى ديـار المغـرب الأقـصى؛ حيـث توجـد الدولـة الإدريسيـة. ولـم تـأت المصـادر بمـا يفيـد عـن هـذا الثائـر شيئـا كافيـا؛ أكثـر مـن اسمـه المقتضـب، ومنطلـق ثورتـه. حيـث اكتفـت معظـم المصـادر بالقـول عنهـا: أنهـا انطلقـت مـن جبـل

[1] تاريـخ إفريقيـة والمغـرب، ص ص: 161 ـــ 162.

مديونة.[1] ويبدو أن الذي توسع في الحديث عنه ـ ولو باحتشام ـ هو على بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي؛ حيث ذكر بأن اسمه هو عبد الرزاق الفهري ـ الأمر الذي يفهم منه أنه ينحدر عن أسرة الفهريين؛ إن لم يكن قد اكتسب هذا الاسم بواسطة الولاء ـ ثم قال إنه من مدينة وشقة بالأندلس؛ قدم إلى العدوة المغربية؛ حيث ثار في جبال ويلان؛ التي تبعد عن مدينة فاس بمسافة تقدر بمسيرة يوم ونصف يوم. وهناك التحق به عدد كبير من الأمازيغ؛ التابعين لقبائل عديدة؛ منها: مديونة وغياتة وغيرهم. وقام عبد الرزاق هذا ببناء قلعة حصينة في جبل سلا ـ بنواحي مديونة ـ سماها وشقة؛ تيمنا بمدينته في الأندلس.

ويقول ابن زرع أنه اتجه نحو قرية صفراو؛ حيث دخلها، وبايعه فيها الصفرية من الأمازيغ بكاملهم؛ فانطلق بهم جميعا إلى مدينة فاس ـ عاصمة الدولة الإدريسية آنذاك ـ فتصدى له سلطان الدولة الإدريسية علي بن عمر بن إدريس الحسني؛ إذ حدثت بينهم حرب عظيمة؛ انتهت بتغلب عبد الرزاق الخارجي؛ وانهزام علي بن عمر وتقهقره إلى بلاد أوربة. ولما انهزم سلطان الأدارسة تمكن عبد الرزاق من دخول عدوة

---

[1] أنظر المغرب، ص: 125. والأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص:47 ـ 48. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 212. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص ص: 208 ـ 209. والعبر، مج: 4، ص: 30.

الأندلسيين من فاس؛ بينما امتنعت عنه عدوة القرويين. وبقي على ذلك إلى أن قدم يحيى بن القاسم بن إدريس الحسني؛ الذي زحف نحو فاس من الريف؛ أين اشتبك مع جيش عبد الرزاق؛ وأخرجه من عدوة الأندلسيين وطرده منها. وهنا توقف ابن أبي زرع عن مواصلة الحديث عن كل ما كان يعرفه عن هذا الثائر الخارجي الصفري. وحتى ابن عذاري فقد تعمد الإشارة إليه بجملتين خاطفتين؛ مع أنه يعترف بأن خبر تلك الحوادث كان طويلا.[1] وكما هو واضح من النص الذي كتبناه؛ لم نتمكن من تحديد تاريخ ظهور عبد الرزاق هذا بدقة؛ نظرا للغموض الذي غلف أحداث تلك الفترة بمدينة فاس.

المهم هنا؛ أنه يمكن اعتبار ثورة عبد الرزاق الصفري؛ هي آخر ثورة هامة لهذه الفئة المتطرفة؛ من الخوارج بإفريقية وبلاد المغرب: الأوسط والأقصى. حيث لوحظ ــ بعد ذلك ــ انتقال مركز القوة إلى فئة أخرى؛ صنفها المؤرخون السنيون ضمن الخوارج. وتلك الفئة الصاعدة كانت تتشكل من الإباضيين؛ الذين

---

[1] قال ابن عذاري: ((ثم قام عليه [أي علي بن عمر الحسيني] عبد الرزاق الخارجي الصفري من مديونة؛ فدارت بين علي وعبد الرزاق حروب كثيرة؛ إلى أن هزمه الخارجي)). ((ثم ملك [أي يحيى بن القاسم] بعد ذلك عدوة الأندلسيين؛ وأخرج منها عبد الرزاق؛ في خبر طويل)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 212.

استطاعوا ــ باعتدالهم وثباتهم ــ استقطاب عدد كبير من الأتباع والأنصار؛ المنتمين إلى مختلف القبائل في تلك الجهات. الأمر الذي ساعدهم على تحقيق شروط الاستمرار والدوام؛ بفضل بساطة مذهبهم الديني والسياسي، وبفضل ما يدعوا إليه من مساواة بين الناس كافة؛ سواء كانوا من العرب أو من الأمازيغ أو أجناس أخرى. وعليه فقد أضحت المناطق الجنوبية من إفريقية والمغرب الأوسط؛ مناطق نفوذ للإباضيين؛ حيث خضعت ــ فيما بعد ــ لنفوذ الدولة الإباضية التي قامت بتيهرت؛ نتيجة لثورات الإباضيين المتتالية. وقد تحقق ذلك كله بجهود متواصلة شارك فيها عدد من القادة الإباضيين، ومن رؤسائهم الثوار. وتم ذلك خلال فترة زمنية بدأت بالعقد الثالث من القرن الثاني للهجرة، وحتى سنة 160هـ(776م) سنة قيام الدولة الرستمية.

***

ــ إمارة عبد الله بن مسعود التجيبي الإباضي:
ظهر ــ لأول مرة ــ اسم هذا الرجل في مسرح الأحداث بالمغرب؛ خلال الفترة التي اغتصب فيها عبد الرحمن بن حبيب ولاية القيروان؛ بعد انقلابه على والي إفريقية حنظلة بن صفوان سنة

126هـ(743م). وتم ذلك عندما بايع الإباضيون من قبيلة هوارة بطرابلس عبد الله بن مسعود هذا إماما عليهم؛ ولكن عبد الرحمن بن حبيب لم يمهله طويلا؛ إذ سارع إلى إرسال أخيه إلياس؛ لاجتثاث بوادر الثورة والانفصال. وبالفعل فقد قضى إلياس على تلك الحركة بعنف شديد؛ ثم قبض على عبد الله بن مسعود التجيبي وقتله. والمعلومات عن شخصية هذا الرجل شحيحة للغاية، وغير كافية تماما. وكل ما يستحق الذكر أن ابن عبد الحكم هو أول من ذكره؛ إذ سماه بهذا الاسم منسوبا إلى تجيب اليمنية؛[1] بينما تجاهل ذكره كل من: القيرواني وابن الأثير وابن عذاري وابن خلدون. وحتى المراجع الإباضية تجنبت الحديث عنه في غالب الأحيان.[2] بينما ذكره علي يحيى معمر في سياق رده على الطاهر الزاوي؛ بما يفهم أنه أمازيغي الأصل.[3] فإن كان عبد الله بن مسعود التجيبي هذا حقيقة أمازيغيا؛ يمكن في هذه

---

[1] إذ قال: ((ثم بعث عبد الرحمن أخاه ابن حبيب عاملا على أطرابلس؛ فأخذ عبد الله بن مسعود التُجيبي؛ وكان إباضيا ورئيسا فيهم؛ فضرب عنقه؛ واجتمعت الإباضية بأطرابلس)). فتوح مصر والمغرب، ص: 301.

[2] لم يتكلم عنه أبو زكرياء صاحب كتاب سير الأئمة وأخبارهم، كما تجاهل أمره الدرجيني في طبقات المشائخ بالمغرب، وكذلك سليمان الباروني صاحب كتاب مختصر تاريخ الإباضية؛ بينما أشار إليه بسطحية وغموض محمد علي دبوز.

[3] الإباضية في موكب التاريخ (الحلقة الثانية القسم الأول)، ص: 33.

الحال اعتباره من بين الذين نسبوا إلى قبيلة تُجيب الحضرموتية اليمنية بواسطة الولاء والالتحاق.

ـ إمارة الحارث بن تليد الحضرمي الإباضي:[1] أقامه الإباضيون من هوارة في طرابلس إماما عليهم؛ بعد مقتل عبد الله بن مسعود. هذا وقد شاركه في شئون الحكم **عبد الجبار بن قيس المرادي**؛ الذي كان بمثابة الوزير أو القاضي داخل هذا الكيان الإباضي؛ غير أن ابن عبد الحكم جعل عبد الجبار بن قيس المرادي هو الإمام؛ بينما وضع الحارث بن تليد الحضرمي في مرتبة المساعد له. وقد خالفته المراجع الإباضية في هذا الرأي.[2] أما القيرواني وابن الأثير وابن خلدون

---

[1] يكتفي ابن الأثير وابن خلدون باسم مفرد له؛ وهو الحرث بدون الألف بعد الحاء.

[2] إذ يقول: ((وكان على الإباضية ـ حين اجتمعت ـ عبد الجبار بن قيس المرادي؛ ومعه الحارث بن تليد الحضرمي... واستولى عبد الجبار على زناتة وأرضها)). فتوح مصر والمغرب، ص: 301. وفي هذا يقول سليمان الباروني: ((والظاهر أن عبد الجبار هو الإمام والحارث وزيره أو قاضيه)). مختصر تاريخ الإباضية، ص: 33. ويقول علي يحيى معمر معلقا على رأي طاهر الزاوي: ((بويع الحارث بن تليد إماما؛ وعين زميله وصديقه عبد الجبار المرادي قاضيا؛ خلافا لما ضنه الزاوي)). الإباضية في موكب التاريخ، (الحلقة الثانية ـ القسم الأول)، ص: 34. ويؤكد هذا أيضا محمد علي دبوز حين قال: ((وبايعوا الحارث؛ فطهر طرابلس من ظلم الملوكيين وجبروتهم. وكان إنشاء هذه الإمامة في سنة ثلاثين ومائة. وكان الحارث بن تليد الحضرمي، ووزيره عبد الجبار بن قيس المرادي)).تاريخ المغرب الكبير، ج: 2، ص: 411.

فيفهم من رواياتهم أن الحارث وعبد الجبار كانا يحكمان الناس حكما جماعيا. ومع هذا فهم يقدمون اسم الحارث على اسم عبد الجبار؛ إذ يكتبون في سياق الحديث: ((**الحارث وعبد الجبار**)).

أما نسبهما فيكتنفه بعض الغموض أيضا؛ لأن كلمتي: حضرمي، ومرادي؛ لا تعنيان ــ بالضرورة ــ الانتساب إلى حضرموت أو لقبيلة مراد اليمنية؛ إذ ربما كانت الكلمتان ترميان إلى الانتماء بالولاء لقبيلة من قبائل حضرموت أو لقبيلة مراد. المهم أن القيرواني يصرح بأنهما من الأمازيغ؛[1] ويسايره في ذلك ابن خلدون الذي يقول أنهما من هوارة.[2] أما سليمان الباروني فيقول: ((**والظاهر أن عبد الجبار هو الإمام والحارث وزيره أو قاضيه. وهما إخوان لأم أو أبنا خالة؛ وقبيلتهما هوارة**)).[3]

---

[1] يقول القيرواني: ((وخرج بناحية طرابلس رجلان؛ يقال لأحدهما عبد الجبار، والآخر الحارث؛ وهما من البربر؛ يدينان بدين الخوارج)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 128.

[2] يقول: ((وثار بطرابلس عبد الجبار والحرث؛ من هوارة؛ وكانا يدينان برأي الإباضية... ثم زحف إليهم عبد الرحمن بن حبيب سنة إحدى وثلاثين [ومائة] فقتل عبد الجبار والحارث، وأوعب في قتل البربر، وأثخن فيهم)). العبر، مج: 6، ص: 223.

[3] مختصر تاريخ الإباضية، ص: 33.

ويتفق ـ أيضا ـ القيرواني وابن خلدون حول رواية مقتلهما؛ إذ يقولان أن عبد الرحمن بن حبيب هو الذي قتلهما في سنة 131هـ(748م)؛ دون شرح للكيفية التي تم بها القتل.[1] وهذا الرأي يخالف رواية ابن عبد الحكم الذي يرى أنهما اقتتلا؛ فقتل بعضهما بعضا؛ بعد الفتنة التي نشبت بينهما.[2] أما بعض المراجع الإباضية؛ فتشير إلى دسيسة؛ قد يكون حبكها عبد الرحمن بن حبيب؛ فنجح فيها بتمكنه من قتل الأميرين غيلة.[3] ويبدو أن هذا الرأي يمكن تأييده؛ خاصة إذا اعتمد على ما أورده ابن عبد الحكم؛ حين ذكر أن عبد الرحمن بن حبيب أرسل مجاهد بن مسلم الهواري إلى قبيلة هوارة؛ لكسب أنصار في القبيلة التي

---

[1] تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 128 ـــ 129. والعبر، مج: 6، ص: 223.

[2] يقوا ابن عبد الحكم: ((واستفحل أمر عبد الجبار والحارث؛ ثم اختلف أمرهما؛ وتفاقم ما بينهما؛ فاقتتلا؛ فقتل عبد الجبار والحارث جميعا)). فتوح مصر والمغرب، ص: 302. أنظر أيضا كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 57. ومختصر تاريخ الإباضية، ص: 33.

[3] إذ يقول محمد علي دبوز: ((وكانت العصابة التي دسها عبد الرحمن بن حبيب في طرابلس ترقب الحارث وعبد الجبار، وتتحين الفرصة فيهما؛ حتى كانا ذات يوم وحدهما في دار الندوة والحكم؛ والمكان خال؛ فتظاهروا بأنهم من ذوي الحاجات؛ فدخلوا عليهما فقتلوهما؛ ثم أدخلوا في كل واحد منهما سيفا، وجعلوا مقبضه إلى جهة الآخر؛ ليتوهم الناس أنهما تنازعا فتقاتلا؛ فقتل كل منهما صاحبه)). تاريخ المغرب الكبير، ج: 2، ص: 413. وقد أورد الرواية نفسها صاحب كتاب الإباضية في موكب التاريخ، (الحلقة: 2، القسم: 1). ص ص: 46 ـ 47.

ينتمي إليها؛ طمعا في تحريك سنن العصبية فيهم؛ ولكنه ــ كما يقول ابن عبد الحكم ــ فشل؛ حيث طردته هوارة؛ بعد أن أقام بينهم أشهرا عديدة.

وهنا يمكن التساؤل: ألا يكون قتل الحارث وعبد الجبار حدث بتدبير من مجاهد بن مسلم هذا؟ خاصة إذا أخذ بعين الاعتبار الفشل الذي لحق بحملات عبد الرحمن بن حبيب العسكرية؛ ضد الحارث وعبد الجبار. إذ يقول ابن عبد الحكم أنهما تصديا لقوة يقودها محمد بن مقرون، مرفوقا بعامل طرابلس يزيد بن صفوان، ومجاهد بن مسلم الهواري؛ وكانت النهاية هي مقتل محمد بن مفروق ويزيد بن صفوان؛ بينما انهزم مجاهد مع من بقي معه من الأحياء. ولما أعاد عبد الرحمن الكرة؛ بإرسال عمر بن عثمان؛ انهزم هو أيضا أمامهما في طرابلس. وعاود المحاولة عمر ابن عثمان مرفوقا بمجاهد بن مسلم الهواري في دَغُوغَا؛ ولكنهما هزما، وجرح عمر بن عثمان.[1]

ــ إمارة إسماعيل بن زياد النفوسي الإباضي:

ذكره ابن عبد الحكم وابن خلدون؛ بينما تجاهل ذكره القيرواني وابن الأثير وابن عذاري. وحتى بعض المصادر والمراجع الإباضية أغفلت ــ هي الأخرى ــ أمر هذا الأمير الثائر. لعل سبب ذلك

---

[1] أنظر فتوح مصر والمغرب، ص ص: **301 ــ 302**.

يكمن في قصر الفترة الزمنية التي تولى فيها. المهم فقد ولي الإمامة في سنة 132هـ(749م)؛ أي بعد مقتل الحارث وعبد الجبار. ولم يمهله عبد الرحمن بن حبيب؛ حيث زحف نحوه؛ فالتقيا بجهات قابس؛ أين جرت موقعة بين إسماعيل بن زياد النفوسي؛ وجيش القيروان بقيادة شعيب بن عثمان؛[1] وانتهت المعركة بمقتل إسماعيل وهزيمة أنصاره الإباضيين. كان ذلك في سنة 132هـ؛ حيث لم تتجاوز فترة حكم إسماعيل بن زياد النفوسي أشهرا قليلة. وبعد ذلك تحول عبد الرحمن بن حبيب نحو سكان طرابلس؛ ففتك بهم، وسلط عليهم آلة القتل والانتقام بشكل فظيع.[2]

---

[1] قال ابن عبد الحكم أن عبد الرحمن بقي في المعسكر ولم يشهد الموقعة. فتوح مصر والمغرب، ص: 302.

[2] وفي ذلك يقول ابن خلدون: ((وثار إسماعيل بن زياد فيمن معه من نفوسة؛ وتغلب على قابس. ثم زحف إليهم عبد الرحمن بن حبيب سنه إحدى وثلاثين؛ فقتل عبد الجبار والحارث، وأوعب في قتل البربر، وأثخن فيهم)). أما القيرواني فتكلم عن فتك عبد الرحمن بالخوارج دون ذكر إسماعيل بن زياد؛ حيث قال: ((وأوعب عبد الرحمن في قتل البربر؛ وامتحن الناس بهم وابتلاهم بقتل الرجال صبرا: يؤتى بالأسير من البربر؛ فيأمر من يتهمه بتحريم دمه بقتله. فابتلى جماعة من الناس؛ فما سلم منهم غير عبد الرحمن بن زياد بن أنعم؛ أبى ذلك؛ وعصمه الله منه)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 129. وقد أشار ابن عذاري لهذه المجزرة؛ بأسلوب القيرواني نفسه، البيان المغرب، ج: 1، ص: 61.

ـ إمـــارة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافـــري الإبـــاضي: ينســـب هـــذا الرجـــل إلى قبيلـــة معافـــر الكهلانيـــة اليمنيـــة. نشـــأ في المشـــرق وكـــان مـــن دعـــاة الإباضيـــة بالشـــام قبـــل مجيئـــه إلى المغـــرب.[1] وقـــد كـــان مـــن بيـــن طلبـــة العلـــم الخمســـة؛ الذيـــن بعثـــوا في ســـنـــة 132هـــ(749م)؛ مـــن طـــرف الإباضييـــن في بـــلاد المغـــرب؛ بغـــرض تلـــقي العلـــم في البصـــرة؛ عـــلى يـــد شيـــخ الإباضيـــة في المشـــرق أبي عبيـــدة مسلـــم بـــن أبي كريمـــة.[2] ولمـــا عـــادوا في سنـــة 139هـــ(756م)؛ محمليـــن بعلـــوم المذهـــب الإبـــاضي؛ بـــادروا بإنشـــاء دولتهـــم الإباضيـــة؛ حيـــث بايعـــوا أبـــا الخطـــاب عبـــد الأعـــلى إمامـــا عـــلى الإباضييـــن في ديـــار المغـــرب. وكـــان الإعـــلان عـــن هـــذه الدولـــة في سنـــة 140هـــ(757م)؛ خـــارج طرابلـــس ــ في بدايـــة الأمـــر ــ[3] في موضـــع غـــربي طرابلـــس يقـــال لـــه (صيـــاد). وقـــد أشاعـــوا أنهـــم ينظـــرون في خـــلاف بيـــن جماعتيـــن عـــلى قطعـــة أرض. ويبـــدو ــ مـــن كـــلام الرقيـــق القيـــرواني وابـــن الأثيـــر ــ أن منشـــأ هـــذه الدولـــة تـــم أيـــام احتـــلال ورفجومـــة للقيـــروان.[4]

---

[1] **سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص: 57. والفـــرق الإسلاميـــة لآلفـــرد بـــل، ص: 170.**

[2] **طلبـــة العلـــم الخمســـة هـــم: أبـــو الخطـــاب عبـــد الأعـــلى بـــن السمـــح المعافـــري، وعبـــد الرحمـــن بـــن رستـــم الفـــارسي، وعاصـــم الســـدراتي، وإسماعيـــل بـــن درار الغدامـــسي، وأبـــو داود القبـــلي النفـــزاوي.**

[3] **أنظـــر كتـــاب سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص: 57. وكتـــاب طبقـــات المشائـــخ بالمغـــرب، ج:، 1، ص ص: 22 ـــ 23. ومختصـــر تاريـــخ الإباضيـــة، ص: 33.**

[4] **وقـــد كـــان نـــص ابـــن الأثيـــر أكثـــر وضوحـــا إذ قـــال: ((فاتفـــق أن رجـــلا مـــن الإباضيـــة دخـــل القيـــروان؛ لحاجـــة لـــه؛ فـــرأى ناســـا مـــن الورفجومييـــن قـــد أخـــذوا**

وقد تمكن هذا الأمير الإباضي من الاستيلاء على أجزاء كبيرة من إفريقية وبرقة؛ ثم امتد سلطانه جنوبا حتى فزان. وأهم إنجاز حققه لدولته هو احتلال القيروان؛ التي كانت تعتبر بمثابة مركز السلطة العامة، وعاصمة شرعية لبلاد المغرب كله؛ ولو كان ذلك بصورة نظرية؛ وذلك على الرغم مما كان يحدث من تقلص نفوذها بين الحين والآخر. كما أن أبا الخطاب قد اكتسب احتراما وتقديرا عظيمين؛ من قبل المسلمين كافة؛ نتيجة لما قام به من تطهير للقيروان، وما حققه في القضاء على فساد وعيث الصفرية من قبيلة ورفجومة. وقد اشتهر عن أبي الخطاب تدينه وورعه وصلاح حكمه.

امرأة قهرا ــ والناس ينظرون ــ فأدخلوها الجامع. فترك الإباضي حاجته، وقصد أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري فأعلمه ذلك؛ فخرج أبو الخطاب وهو يقول: "بيتك اللهم بيتك"؛ فاجتمع إليه أصحابه من كل مكان، وقصدوا طرابلس الغرب، واجتمع إليه الناس من الإباضية والخوارج وغيرهم. وسير إليهم عبد الملك ــ مقدم ورفجومة ــ جيشا فهزموه، وساروا إلى القيروان؛ فخرجت إليهم ورفجومة واقتتلوا واشتد القتال؛ فانهزم أهل القيروان الذين مع ورفجومة وخذلوهم؛ فتبعهم ورفجومة في الهزيمة، وكثر القتل فيهم؛ وقتل عبد الملك الورفجومي، وتبعهم أبو الخطاب يقتلهم حتى أسرف فيهم؛ وعاد إلى طرابلس؛ واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن رستم الفارسي؛ وكان قتل ورفجومة في صفر سنة إحدى وأربعين)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 281.

ومع هذا لم يهنأ بشيء من الاستقرار والأمن؛ إذ تعرض مرارا عديدة لهجمات العباسيين القادمين من مصر. وكان النصر حليفه في كل مرة؛ حتى حلول عام 144هـ(761م)؛ العام الذي اشتبك فيه مع جيش العباسيين بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي. وكانت هذه المعركة هي الفاصلة؛ حيث تمكن ابن الأشعث ــ بفضل خدعة بارعة ــ من إيهام الإباضيين بأنه امتثل لأمر الخليفة العباسي بالعودة إلى مصر؛ فعاد؛ ولكنه بقي على مسافة أيام؛ ثم رجع مسرعا إلى جيش أبي الخطاب؛ الذي تفرق عنه عدد كبير من أنصاره. وكانت المعركة النهائية في صالح العباسيين؛ حيث قتل فيها أمير الإباضيين أبو الخطاب، وانكسر جيشه، وتشتت أنصاره.

حدث ذلك جراء العقلية القبلية البدوية، وتبعا لسلبيات العصبية القبلية المميتة؛ إذ تقول المصادر أن فئة كبيرة من جيش أبي الخطاب تفرقت عنه قبل وصول ابن الأشعث إلى برقة؛ وذلك عندما حل وقت حصاد الزرع؛ إذ فضل هؤلاء المقاتلون حصاد زرعهم على البقاء في الميدان؛ منتظرين موعد المعركة.[1] وثمة فئة أخرى انفضت وانسحبت

---

[1] يقول الدرجيني: ((فلما وصلت عيون أبي الخطاب إليه من عسكر ابن الأشعث تخبره برجوعه ــ وقد اجتمع على أبي الخطاب زهاء تسعين ألفا ــ ابتدرت الناس إلى مواطنهم؛ وذلك في زمان الحصاد؛ فقال لهم أبو الخطاب: يا قوم إن العرب أهل مكر وغدر؛ فلا تتفرقوا عن ملككم؛ حتى تستيقنوا

من الميدان بفعل النعرة الهوجاء والعصبية القبلية؛ وذلك عندما اختلفت قبيلة زناتة مع قبيلة هوارة؛ بسبب قتيل سقط بينهما. فاتهمت زناتة أبا الخطاب بالتحيز لهوارة؛ فانفضوا عنه. ولم يبق مع أبي الخطاب العدد الكافي من المقاتلين؛ كي يتصدى بهم للجيش العباسي؛ فكانت الهزيمة الكبرى التي أسقطت إمارة الإباضيين بطرابلس والقيروان نهائيا.[1]

برجوع القوم؛ وغلبت عليه العامة؛ فأذن لهم باللحاق بأهليهم؛ فساروا وتفرقوا عنه)). طبقات علماء المغرب، ج: 1، ص: 33. أنظر ـ أيضا ـ كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 68.

[1] شرح ابن الأثير ما جرى بقوله: ((ثم إن جماعة كثيرة من المسودة سيرهم محمد بن الأشعث الخزاعي ـ أمير مصر للمنصور ـ إلى طرابلس؛ لقتال أبي الخطاب؛ وعليهم أبو الأحوص عمر بن الأحوص العجلي؛ فخرج إليهم أبو الخطاب، وقاتلهم وهزمهم سنة اثنين وأربعين؛ فعادوا إلى مصر؛ واستولى أبو الخطاب على سائر إفريقية. فسير إليه المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي أميرا على إفريقية؛ فسار من مصر سنة ثلاث وأربعين؛ فوصل إليها في خمسين ألفا؛ ووجه معه الأغلب بن سالم التميمي. وبلغ أبا الخطاب مسيره؛ فجمع أصحابه من كل ناحية؛ فكثر جمعه وخافه ابن الأشعث لكثرة جموعه؛ فتنازعت زناتة وهوارة بسبب قتيل من زناتة؛ فاتهمت زناتة أبا الخطاب بالميل إليهم؛ ففارقه جماعة منهم؛ فقوي جنان ابن الأشعث، وسار سيرا رويدا؛ ثم أظهر أن المنصور قد أمره بالعود، وعاد إلى ورائه ثلاثة أيام سيرا بطيئا؛ فوصلت عيون أبي الخطاب؛ وأخبرته بعوده؛ فتفرق عنه كثير من أصحابه، وأمن الباقون؛ فعاد ابن الأشعث وشجعان عسكره مجدا؛ فصبح أبا الخطاب وهو غير متأهب للحرب؛ فوضعوا السيف في الخوارج؛ واشتد القتال؛ فقتل أبو الخطاب وعامة أصحابه في صفر سنة أربع وأربعين ومائة)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 281. ويتفق ابن عذاري مع ابن الأثير في هذه الرواية، أنظر البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 71 ـ 73.

ولما وصل خبر الهزيمة إلى عبد الرحمن بن رستم ــ وهو بالقيروان ــ سارع إلى الخروج؛ طلبا للنجاة.[1] وقد نتج عن حركته هذه قيام الدولة الإباضية الثانية بالمغرب؛ وهي الدولة الرستمية.

ــ **إمارة عاصم السدراتي الإباضي**: وهو من بين طلبة العلم الخمسة؛ الذين أرسلهم إباضيو المغرب إلى البصرة؛ لأخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم. وقد ذكره ابن عذاري ضمن قادة الجيوش الصفرية والإباضية؛ الذين حاصروا عمر بن حفص في طبنة سنة 153هـ(770م)؛ حيث قال أنه كان يقود زهاء ستة آلاف مقاتل.[2] مع العلم أن بقية المصادر لم تذكره في هذا الحصار. وبهذا يفهم أنه يكون قد انضم إلى صفوف أبي حاتم. ومما يؤكد الالتباس الذي وقع فيه ابن عذاري؛ أن المصادر الإباضية تقول أنه توفي مسموما بقثاء؛ أثناء حصار الإباضيين للقيروان؛ بقيادة أبي الخطاب عبد الأعلى ابن السمح في سنة 140هـ(757م). فإذا كان ما

---

[1] **تقول رواية أخرى لبعض الإباضيين؛ أن عبد الرحمن بن رستم عندما سمع بقدوم ابن الأشعث؛ خرج في قوة عسكرية لدعم أبي الخطاب؛ ولما وصل إلى قابس علم بمقتل أبي الخطاب وهزيمة جيشه؛ فافترقت عنه القوة التي جاءت معه؛ فقرر العودة إلى القيروان؛ ولكنه فوجئ بثورة أهل القيروان عليه؛ فخرج منها خائفا مع ابنه عبد الوهاب وعبد لهما. أنظر كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 70. وطبقات علماء المغرب، ج: 1، ص: 35.**

[2] **البيان المغرب، ج: 1، ص: 75.**

ذكرتــه تلــك المصــادر صحيحــا؛ فكيــف ــ إذن ــ يكــون مــن بيــن قــادة الإباضيــة الذيــن حاصــروا عمــر بــن حفــص سنــة 153هــ(770م)؟[1]

ــ **إمــارة أبي هريــرة الزنــاتي الإبــاضي**: هكــذا ورد اسمــه دون تفصيــل. ويبــدو أنــه كــان زعيمــا لبطــن مــن بطــون زناتــة في جهــات طرابلــس؛ ولمــا قتــل أبي الخطــاب؛ انتهــز غفلــة مــن ابــن الأشعــث؛ وهجــم عليــه؛ في ستــة عشــر ألفــا؛ ولكــن ابــن الأشعــث تــدارك الأمــر؛ وتمكــن مــن صــد هــذه القــوة، وقتــل قائدهــا أبي هريــرة الزنــاتي. وتــم ذلــك في السنــة الــتي قتــل فيهــا أبي الخطــاب؛ وهي سنــة 144هــ(761م). والــذي يلفــت النظــر ــ هنــا ــ أن المصــادر الإباضيــة أغفلــت ذكــر أخبــار أبي هريــرة؛ ولــم يشــر إليــه ســوى محمــد عــلى دبــوز في جملــة مقتضبــة.[2] وكذلــك الحــال بالنسبــة للمؤرخيــن السنييــن؛ إذ تجاهــل ذكــره أكثرهــم؛ ولــم يتكلــم عنــه ســوى: ابــن الأثيــر، وابــن عــذاري؛

---

[1] **قــال أبــو زكريــاء يحــيى بــن أبي بكــر: ((ثــم إن عاصمــا الســدراتي مــرض مرضــا شديــدا؛ وكــان مــن خيــار العسكــر؛ وهــو أحــد الخمســة الحملــة للعلــم؛ وأشــد شوكــة عــلى أهــل القيــروان. فسمــع أهــل القيــروان بمرضــه؛ وأنــه اشتــهى قثــاة؛ فبعــث أهــل القيــروان رجــلا بياعــا يبيــع القثــاء؛ فسمــوا منهــا قثــاة، وأمــروه أن لا يبيعهــا إلا لعاصــم الســدراتي... واشتــرى لعاصــم أصحابــه القثــاة المسمومــة وأتــوه بهــا فأكلهــا؛ فقطعــه الســم فمــات،؛ وهــرب البيــاع حيــن باعهــا لهــم)). كتــاب سيــر الأئمــة وأخبارهــم، ص: 62.**

[2] **تاريــخ المغــرب الكبيــر، ج: 3، ص: 19.**

في جملة قصيرة أيضا.[1] وقد يكون هذا القائد من بين الزناتيين الذين انسحبوا غاضبين على أبي الخطاب من قبل؛ ولما سمعوا بهجوم أبي الأشعث عادوا إلى المعركة؛ فوجدوا أن المبادرة خرجت من أيديهم.

ـ إمارة عبد الله بن حيان الزويلي الإباضي: وهو ـ كما يبدو ـ هواري النسب. وكان في زمن أبي الخطاب رئيسا في زويلة؛ فبعث ابن الأشعث جيشا إلى تلك الجهات سنة 145هـ(762م)؛ حيث افتتح ودان وزويلة؛ أين قتل من بهما من الإباضيين؛ ومن جملتهم عبد الله بن حيان هذا.

ـ إمارة المسور بن هانئ الزناتي الإباضي[2]: ذكره بعض المؤرخين ضمن جيوش الصفرية والإباضية؛ الذين كانوا محاصرين لعمر بن حفص بطبنة في سنة 153هـ(770م)؛ إذ قالوا أنه كان يقود عشرة آلاف مقاتل من زناتة؛ قدموا معه من شمال تيهرت. وما عدا هذا؛ لا يوجد ما يمكن إضافته من أخباره.

---

[1] **الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 281. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 72.**

[2] **سماه ابن عذاري: المصور ـ بالصاد ـ الزناتي؛ دون الإشارة إلى مذهبه هل هو صفري أم إباضي. البيان المغرب، ج: 1، ص: 75. أما ابن خلدون فقد سماه المسور ـ بالسين ـ الزناتي؛ ثم ذكر أنه إباضي المذهب. العبر، مج: 4، ص: 413. أما في مج: 4، ص: 226؛ فسماه المسور بن هانئ.**

ـ إمـــارة أبي حاتـــم يعقـــوب بن حبيب بن مُدين بن يطوفـــت الملزوزي المغيـــلي المعروف بأبي قـــادم:[1]

هكـــذا سمـــاه ابـــن خلـــدون؛ إذ نسبـــه إلى قبيلـــة ملـــزوزة المنحـــدرة عـــن قبيلـــة مغيلـــة. أمـــا المصـــادر الأخـــرى فقـــد اكتفـــت بالقليـــل عنـــد ســـرد اسمـــه؛ عـــلى أن بعضهـــم ينسبـــه ـــ بالـــولاء ـــ إلى قبيلـــة كنـــدة العربيـــة.[2] ويقـــول محمـــد عـــلي دبـــوز أن أبـــاه ـــ أو أحـــد أجـــداده ـــ انتقـــل إلى طرابلـــس؛ فانتســـب إلى قبيلـــة هـــوارة بالالتحـــاق. المهـــم أن بعـــض الآراء تقـــول أن أبـــا حاتـــم هـــذا تـــولى أمـــر الإباضييـــن في سنـــة 145هـــ(762م).[3] أي بعـــد فتـــرة مـــن مقتـــل أبي الخطـــاب. إذ كـــان يجمـــع الصدقـــات، ويبعـــث بهـــا إلى عبـــد الرحمـــن بـــن رستـــم؛ قبـــل أن يتـــولى ولايـــة الظهـــور؛ أي الولايـــة المعلنـــة للمـــلأ. وهـــذا يبعـــث عـــلى الاعتقـــاد أنـــه قـــد ولي أمـــر الإباضييـــن ســـرا في سنـــة 151هـــ(768م) أو قبلهـــا.

---

[1] **سمـــاه أبـــو زكريـــاء يحـــيى بـــن أبي بكـــر: أبـــا حاتـــم يعقـــوب بـــن لبيـــب الملـــزوزي. كتـــاب سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص: 73. أمـــا الدرجيـــني فسمـــاه: أبـــا حاتـــم يعقـــوب بـــن لبيـــب الملـــزوزي الهـــواري، ج: 1، ص: 36. أمـــا سليمـــان البـــاروني فسمـــاه: أبـــا حاتـــم يعقـــوب بـــن حبيـــب، مختصر تاريخ الإباضيـــة، ص: 34.**

[2] **الكامـــل في التاريـــخ، ج: 5، ص: 32. والعبـــر، مج: 4، ص: 412.**

[3] **كتـــاب سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص: 73. وفي كتـــاب طبقـــات المشائـــخ بالمغـــرب: ولي سنـــة 154هـــ. وفي مختصـــر تاريـــخ الإباضيـــة في سنـــة 154هـــ.**

هذا وقد سمى أبو زكرياء ولاية أبي حاتم بولاية الدفاع. وذكر أنه بويع خارج طرابلس؛ بالطريقة السرية ذاتها؛ التي تمت في بيعة أبي الخطاب من قبل. إذ تظاهروا أنهم مجتمعون من أجل إصلاح بين زوج وامرأته؛ بينما هم ــ في الحقيقة ــ يأتمرون فيما بينهم لإعلان الإمامة، والبيعة للإمام. ولكن عيون عامل طرابلس كشفت أمرهم؛ فحاول إفساد ما اجتمعوا عليه؛ عندها لم يجدوا أمامهم بدا من إعلان العصيان؛ وانطلقوا إلى طرابلس فاحتلوها وقتلوا من بها من الجند. ثم أمر أبو حاتم أتباعه بالزحف نحو إفريقية؛ وفي الطريق التقوا بجيش القيروان؛ زاحفا في اتجاههم؛ فاشتبكوا معه وهزموه.

وحسب ما يبدو فهذا الأمر يكون قد تم بعد سنوات من التاريخ الذي اتفق فيه الإباضيون على إمامة أبي حاتم. لأن ظهوره بشكل علني ربما حدث في سنة 153هـ(770م)؛ وهي السنة التي تحرك فيها لحصار القيروان؛ منتهزا فرصة غياب الجند عنها؛ أي عندما لاحظ أنهم خرجوا مع والي إفريقية عمر بن حفص؛ بهدف بناء وتحصين عاصمة الزاب طبنة.

ويظهر أن الفترة الزمنية الفاصلة بين مقتل أبي الخطاب، ومقتل أبي حاتم يكتنفها غموض كثيف. وهذا ما جعل المؤرخين يخلطون في السنوات التي تؤرخ للأحداث. وقد اعترف ابن عذاري بالخلل الحاصل في التحقق من الأحداث.[1]

والواقع أن الفترة الممتدة من 144هـ (761م) إلى 154هـ (770م)؛ كلها تحمل أخبارا مضطربة ومتناقضة. فهذا على سبيل المثال صاحب كتاب سير الأئمة وأخبارهم ــ حين تكلم عن بدء ولاية أبي حاتم ــ يقول أنها تمت في رجب من سنة 145هـ (762م)؛ ثم يضيف أن أبا حاتم بقي في طرابلس أربع سنين؛ وبعدها سكت عن ذكر التواريخ؛ حتى أن مقتل أبي حاتم لم يذكر تاريخه. أما صاحب كتاب طبقات المشائخ بالمغرب فقد اختلف مع أبي زكرياء في تاريخ بدء الولاية؛ الذي قال أنها تمت في رجب من سنة 154هـ(770م). أما باقي الأخبار فيبدو أنه نقلها عنه؛ دون إضافة شيء جديد. أما سليمان الباروني فيجعل تاريخ بدء الولاية في سنة 154هـ؛ ثم يحدد وفاة أبي حاتم بسنة 155هـ(771م).

---

[1] إذ قال: ((ولم يعط الحال تفصيل هذه السنين من سنة 151 إلى 153 بعدها سنة سنة: فأجملت أمرها هنا إجمالا مختصرا؛ يغني عن إعادتها في كل واحدة منها)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 76.

ولكنه يعود فيشكك في صحة ما أورده.[1] ومع هذا يمكن اعتبار إعلان خبر ولاية أبي حاتم، وخروجه من العمل السري؛ قد تم في سنة 153هـ(770م)؛ وهي السنة التي استفحل فيها أمره. حيث ذكرت المصادر خبر مشاركته مع الإباضيين والصفريين؛ في حصار عمر بن حفص بطبنة في هذه السنة بالذات. وإن كان بعض المؤرخين يخلطون ـ أيضا ـ في السنة التي حدث فيها الحصار. حيث يقرون ببدء ولاية عمر بن حفص لإفريقية في سنة 151هـ(768م)؛ ثم يذكرون أنه تمتع بفترة من السكينة والهدوء؛ تقدر بثلاث سنين؛ ظل فيها في القيروان لا يبرحها؛ ومن جهة أخرى يجعلون تاريخ حصاره بطبنة سنة 151هـ(768م).[2] فكيف يكون ذلك؟

---

[1] إذ يضيف: ((فتكون مدة إمامته سنة واحدة فقط. والظاهر أن الواقع غير هذا؛ بل الصحيح لا بد أن تكون مدته أكثر من السنة والسنتين بكثير جدا؛ لأن التاريخ يحدثنا أنه بقي محاصرا لمدينة القيروان وحدها نحوا من سنة أو سنتين؛ فكيف يتصور هذا؛ مع أن المؤرخين فضلا ـ عن ذلك ـ ذكروا له وقائع عديدة شرقا وغربا وشمالا؛ كان له النصر فيها حليفا؛ وذكروا أن عساكره كانت تعد بمئات الألوف من المشاة، وعشرات الألوف من الفرسان. ولا يخفى أن حشد مثل هذه الجحافل وتحويلها ونقل معداتها ـ من مكان إلى مكان بعيد عنه بمراحل وأسابيع ليس بالأمر السهل الهين في ذلك الوقت المفقودة فيه وسائل النقل السريعة)).

[2] أنظر الكامل في التاريخ، ج: 5، ص ص: 31 ـ 33. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 75 ـ 78. والعبر، مج: 4، ص ص: 412 ـ 413. ومج: 6، ص: 226.

وجملة القول هي أن أبا حاتم هذا تولى شئون الإباضيين بمرتبة إمام عليهم؛ في الوقت الذي بايعت فيه الصفرية أبا قرة خليفة عليهم ببلاد المغرب. ويبدو أنهما كانا يتنافسان على قيادة الفرق المصنفة ضمن المذهب الخارجي؛ وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال تصرفهما؛ حينما التقيا في حلف واحد؛ غير متجانس على أبواب طبنة. ويبدو أن أبا حاتم تمكن من حصار القيروان مدة تجاوزت السنة.[1] وفي الأخير تحقق له اجتياح

---

[1] ذكرت مصادر عديدة خبر حصار أبي حاتم للقيروان؛ وأهم خبر هو ما ذكره ابن الأثير؛ حين قال: ((فقدم القيروان [أي عمر بن حفص] في صفر سنة إحدى وخمسين ومائة في خمسمائة فارس؛ فاجتمع وجوه البلد؛ فوصلهم وأحسن إليهم. وأقام والأمور مستقيمة ثلاث سنين؛ فسار إلى الزاب لبناء مدينة طبنة؛ بأمر المنصور؛ واستخلف على القيروان حبيب بن حبيب المهلبي؛ فخلت إفريقية من الجند؛ فثار بها البربر؛ فخرج إليهم حبيب فقتل. واجتمع البربر بطرابلس، وولوا عليهم أبا حاتم الإباضي ــ واسمه يعقوب بن حبيب مولى كندة ــ وكان عامل عمر على طرابلس الجنيد بن بشار الأسادي؛ وكتب إلى عمر يستمده فأمده بعسكر؛ فالتقوا وقاتلوا أبا حاتم الإباضي فهزمهم؛ فساروا إلى قابس؛ وحصرهم أبو حاتم ــ وعمر مقيم بالزاب على عمارة طبنة ــ وانتفضت إفريقية من كل ناحية. ومضوا إلى طبنة فأحاطوا بها في اثني عشر عسكرا؛ منهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفا، وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفا، وأبو حاتم في عسكر كثير... فلما سارت الصفرية... فضعف أمر الإباضية عن مقاومة عمر؛ فساروا عن طبنة إلى القيروان؛ فحصرها أبو حاتم وعمر بطبنة يصلح أمورها، ويحفظها ممن يجاوره من الخوارج. فلما علم ضيق الحال بالقيروان سار إليها... وأما أبو حاتم فإنه لما حصر القيروان كثر جمعه، ولازم حصارها وليس في بيت مالها دينار ولا في أهرائها شيء من الطعام؛

عاصمة ولاية إفريقية العباسية، وإلحاقها بطرابلس. إلا أن الأمر لم يطل به كثيرا؛ حيث قدم يزيد ابن حاتم المهلبي من المشرق؛ فأعاد السيطرة على القيروان وإفريقية كلها؛ بعد أن قتل أبا حاتم، وهزم جيشه، وفرق شمل الإباضيين. وتم ذلك حسبما ذكرت بعض المصادر في سنة 154هـ (770م).

ـ إمارة أبو يحيى بن قرياس الهواري الإباضي:
ذكره ابن عذاري بهذا الاسم؛[1] حين نسب إليه الثورة التي يكون قد قام بها في طرابلس سنة 156هـ(772م)؛ في عهد يزيد بن حاتم؛ فتصدى له عبد الله بن السمط الكندي؛ قائد طرابلس من طرف يزيد بن حاتم؛ فهزم الإباضيين وفرق جمعهم. ولكن ابن عذاري سكت عن الحديث في

فدام الحصار ثمانية أشهر... حتى جهدهم الجوع، وأكلوا دوابهم وكلابهم؛ ولحق كثير من أهلها بالبربر؛ ولم يبق غير دخول الخوارج إليها. فأتاهم الخبر بوصول عمر ابن حفص من طبنة؛ فنزل الهريش وهو في سبعمائة فارس؛ فزحف الخوارج إليه بأجمعهم وتركوا القيروان؛ فلما فارقوها سار عمر إلى تونس؛ فتبعه البربر؛ فعاد إلى القيروان مجدا، وأدخل إليها ما يحتاج من طعام ودواب وحطب وغير ذلك. ووصل أبو حاتم والبربر إليه؛ فحصروه؛ فطال الحصار حتى أكلوا دوابهم... فلما ضاق الأمر بعمر وبمن معه... وخرج وقاتل فقتل منتصف ذي الحجة سنة أربع وخمسين ومائة)).
الكامل في التاريخ، ج: 5، ص ص: 31 ـــ 32.

[1] **البيان المغرب، ج: 1، ص: 79. أما ابن الأثير فسماه: أبا يحيى فانوس الهواري، الكامل في التاريخ، ج: 5، ص: 40.**

مصير هذا الثائر الإباضي؛ ولم يذكر إن كان قتل أم لا. وحتى ابن الأثير لم يشر إلى مصيره النهائي.

ـ إمارة صالح بن نصير النفزي الإباضي:[1] وكان من رؤساء نفزاوة الإباضيين؛ إذ ثار مع قبيلته سنة 161هـ (777م) على والي إفريقية بالقيروان؛ داود بن يزيد بن حاتم ـ في حياة والده يزيد الذي أقعده المرض ـ فأرسل داود إليهم قوة لتأديبهم؛ بقيادة سليمان بن الصمة بن يزيد بن حبيب بن المهلب؛ في عشرة آلاف من الجند؛ ففتك بهم، وفرق جمعهم؛ غير أن صالح بن نصير ـ كما يبدو ـ استطاع الإفلات؛[2] ولم يعرف مصيره بعدئذ.

ـ إمارة أيوب الهواري: أورد خبره ـ باقتضاب شديد ـ ابن الأثير؛ إذ قال أنه ثار مع قبيلة ورفجومة في الزاب سنة 164هـ(780م)؛ خلال عهد يزيد بن حاتم؛ الذي سير إليهم عسكرا كثيرا؛ بقيادة يزيد بن مجزأ المهلبي؛ حيث قتل في تلك الأحداث، وانهزم جيشه؛ كما قتل فيها أيضا المخارق عامل الزاب. فاسند يزيد بن المهلب القيادة إلى العلا بن سعيد المهلبي؛ فتمكن من دحر

---

[1] **سماه ابن عذاري: نصير بن صالح الإباضي. البيان المغرب، ج: 1، ص: 83.**

[2] **أنظر تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 169. والعبر مج: 6، ص: 228.**

ورفجومة واستلحمهم؛ حيث تتبعهم في كل مكان؛ حتى قضى عليهم[1]. ولم يذكر ابن الأثير مذهب هذا الرجل؛ هل هو صفري أم إباضي.؟ وكالعادة بقي مصير هذا القائد الثائر غير معروف.

وخلاصة القول ــ هنا ــ أنه حصل ــ كما يبدو ــ بعض الالتباس؛ إذ أورد هذه الرواية ــ الرقيق القيروان ــ الذي نسب أفعالها إلى ثائر صفري يسمى أبا زرجونة الورفجومي؛ على أن الأحداث وقعت في سنة 156هـ(772م).[2] ولا يعرف إن كانت ثورة أبي أيوب ــ هذه ــ هي ثورة أبي زرجونة نفسه؛ أم يتعلق الأمر بثورتين مختلفتين؛ قادهما شخصان متباينان.

وبحلول الربع الأخير من القرن الثاني للهجرة؛ أصبح الوضع السياسي في بلاد المغرب غير ما كان عليه في السابق. حيث شهدت هذه الربوع بعض التحولات الجوهرية؛ صبغت ثورات الخوارج ضد حكم العباسيين بالمغرب؛ بمفاهيم جديدة أعطت شرعية لشكل من أشكال الاستقلال للخوارج؛ حيث قامت دولة للصفرية في أقصي المغرب، ودولة للإباضية في المغرب الأوسط. (بالإضافة إلى دولة برغواطة المنحرفة).

---

[1] **الكامل في التاريخ، ج: 5، ص: 33.**

[2] **تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 161 ـــ 162.**

وعليه فلم يبق للخلافة في بغداد إلا القليل القليل؛ المتمثل في الدعاء على المنابر؛ لحفظ ماء الوجه لا غير. ومنذ هذا التاريخ أصبحت المواجهات المسلحة تتم بين دول خارجية في هذه الديار، وبين ولاية إفريقية في القيروان؛ التابعة شكليا إلى الخلافة العباسية ببغداد.

ولما سقطت الدول التي كانت سائدة في بلاد المغرب مثل: الدولة الأغلبية السنية في القيروان، والدولة السنية الإدريسية بفاس، والدولة الرستمية الإباضية في تيهرت، والدولة المدرارية الصفرية بسجلماسة. وبعد أن التهمت تلك الدول كلها دولة جديدة صاعدة؛ تتمثل في الدولة الشيعية الفاطمية؛ لم يجد الخوارج أمامهم سوى الثورة ـ من جديد ـ في ظل قيادة ثائرة أخرى؛ يمكنها أن تحقق آمالهم؛ في عودة دولتهم الخارجية وبروزها إلى الوجود. وهكذا ظهر رجل خارجي؛ في ثورة أقلقت الدولة الشيعية وزعزعت أركانها.

***

ـ إمـارة أبي يزيـد مخلـد بـن كيـداد اليفـرني الزنـاتي الملقـب بصاحـب الحمـار: ظهـر هـذا الرجـل في بـلاد قسطيليـة بالنـواحي الجنوبيـة مـن إفريقيـة؛ بعـد سقـوط الدولـة الرستميـة الإباضيـة؛ وبعـد أن التهمهـا الفاطميـون. وتتلمـذ هـذا الثائـر الخـارجي ـ في صغـره ببـلاد قسطيليـة ـ عـلى بعـض النكاريـة؛ منهـم عبـد الحميـد بـن عبـد اللـه الحميـدي الحجـري؛ الملقـب بـأبي عمـار الأعـمى؛ الـذي قـال عنـه محمـد الصنهـاجي أنـه كـان مقدمـا في الإباضيـة، وقـال فيـه ابـن خلـدون أنـه رأس النكاريـة.[1] كمـا تذكـر مصـادر الإباضييـن أنـه درس عـلى بعـض العلمـاء في سجلماسـة. ونظـرا لفقـر أبي يزيـد، وشـدة حاجتـه؛ فقـد عمـل في تعليـم القـرآن للصبيـان؛ فكانـت فرصـة لـه؛ كي يبـث فيهـم مذهـب النكاريـة.

وتقـول المصـادر التاريخيـة أنـه ذهـب إلى الحـج، وعـاد في سنـة 325هـ(926م)؛ حيـث أخـذ ـ بعـد عودتـه ـ في التشويـش والمشاغبـة وتأليـب العامـة عـلى الحكـام. فقبـض عليـه ابـن فركـان ـ مقـدم تـوزر ـ وأودعـه السجـن؛ بتهمـة مـا كـان يدعـو إليـه مـن تكفيـر المسلميـن، وسـبِّ عـلى كـرم اللـه وجهـه؛ ومـا كـان يصـرح بـه مـن وجـوب الخـروج عـن السلطـان. عـلى أن أبـا يزيـد استطـاع التخلـص مـن سجنـه؛ إمـا بتقديـم بعـض الأعـذار؛ كمـا جـاء في قـول؛ وإمـا

---

[1] **أخبـار ملـوك بـني عبيـد، ص: 30. والعبـر، مج: 7، ص: 27.**

بالقوة والتمرد؛ حين تمكن من الهرب من سجنه؛ بمساعدة شيخه أبي عمار؛ وجماعة من قبيلة زناتة؛ في قول آخر ذكره ابن خلدون.[1] عندها اتجه أبو يزيد ــ أولا ــ إلى وركلا، ثم التجأ ــ بعد ذلك ــ إلى جبل أوراس عند عشيرة بني كملان وهم من هوارة؛ وكانوا على مذهبه.[2] ومنها أخذ يتردد مرة على بني برزال جنوب المسيلة، ومرة أخرى على بني زنداك المغراويين. وفي تلك الأثناء أخذ له أبو عمار البيعة من القبائل المنضوية تحت طاعته؛ فتلقب بشيخ المؤمنين.[3]

ولما أحس بقوة أنصاره وصدق طاعتهم وانصياعهم لأوامره؛ أعلن الثورة على الفاطميين؛ في عهد ثاني ملوكهم أبي القاسم محمد بن عبيد الله. وتمكن ــ في البداية ــ من جمع كتلة قبلية هامة حوله؛ وقد تمكن من تحقيق ذلك نظرا لما كان يظهره ــ في البداية ــ من تدين وورع وانسجام مع المذاهب الأخرى ــ سنية أم خارجية ــ تلك المذاهب المعادية للمذهب الفاطمي.[4] ومن جهة

---

[1] العبر، مج: 7، ص: 27.

[2] أخبار ملوك بني عبيد، ص: 30.

[3] البيان المغرب، ج: 1، ص: 217. والعبر، مج: 7، ص: 28.

[4] قال ابن عذاري: ((قال ابن سعدون: "فبعث الله على أبي القاسم الشيعي مخلد بن كيداد الخارجي؛ فقهره، وقتل جنده؛ وقام المسلمون معه. وخرج الفقهاء والعباد مع أبي يزيد لحربه"؛ وسماهم ابن سعدون في كتابه رَجُلاً رَجُلاً. "فركبوا معه؛ ونهضوا إلى القيروان؛ فدخلوها في صفر العام، [يقصد عام 332هـ] وأظهر لأهلها خيرا؛ وترحم على أبي بكر وعمر ــ رضي الله

أخرى فقد استغل كراهية فئة عريضة من القبائل والعشائر في بلاد المغرب لحكام الدولة الفاطمية. أضف إلى ذلك كله؛ أن علماء المذاهب السنية في هذه الديار أشاعوا على الفاطميين صفات كريهة؛ وضعتهم في مصاف المخالفين لشرع الله، واتهمتهم بانتحال البدع والأكاذيب؛ بل اتهمتهم بالكفر أحيانا؛ كما كذبوا رواية انتسابهم إلى فاطمة البتول رضي الله عنها.[1]

عنهما ــ ودعا الناس إلى جهاد الشيعة؛ وأمرهم بقراءة مذهب مالك. فخرج الفقهاء والصلحاء في الأسواق بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه وأزواجه؛ حتى ركزوا بنودهم عند الجامع؛ فلما كان يوم الجمعة؛ اجتمعوا بالمسجد الجامع، وركبوا مع أبي يزيد بالسلاح؛ ومعهم البنود والطبول... فلما اجتمع الناس، وحضر الإمام، وطلع إلى المنبر؛ خطب خطبة أبلغ فيها، وحرض الناس على جهاد الشيعة، وأعلمهم بما لهم فيه من الثواب؛ ثم لعن عبيد الله الشيعي وابنه؛ ثم نزل فخرج، وخرج الناس معه لقتال الشيعة الفجار؛ فلم يزل قاهرا لهم، غالبا عليهم، قاتلا لجنودهم؛ حتى لم يبق لهم من بلاد إفريقية إلا اليسير)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 217 ــ 218.

[1] أورد ابن عذاري بعض التهم التي وجهت إلى الفاطميين؛ منها نحلة التشريق الإلحادية؛ التي زعم أعداؤهم أنها صدرت عنهم وعن أنصارهم. وأورد أيضا موجزا لما خطه محمد بن سعدون بن علي في كتابه "تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان؛ من هيجان الفتن، وتقلب الأزمان" وكان هذا الكتاب مشحونا بالتهم والأوصاف الكريهة للفاطميين؛ الذين يسميهم العبيديين؛ وينكر نسبهم للرسول محمد صلى الله عليه وسلم. أنظر البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 185 . 281 ــ 287.

وبفضل ذلك كله، وبسبب عوامل أخرى كثيرة؛ تمكن أبو يزيد من استقطاب أهم تجمع قبلي ثائر على الدولة الفاطمية؛ حيث كانت قبائل زناتة فيه هي الركيزة الكبرى ــ بحكم أنها قبيلته التي انحدر منها أبوه ــ بالإضافة إلى هوارة ــ وهي قبيلة أمه ــ ثم القبائل ذات المعتقد الإباضي مثل: مزاتة ونفزة ونفوسة؛ وقبائل أخرى كانت ساخطة على الحكم الفاطمي. ولكن الإباضيين ما فتئوا ــ بعد فترة ــ حتى اكتشفوا مخالفته للمذهب الإباضي الوهبي؛[1] الذي لا يكفر بقية المسلمين من أهل المذاهب الأخرى، ولا يبيح سفك دمائهم، ولا يسمح بسلب أموالهم وسبي نسائهم وذريتهم. وهذا الأمر كله كان يخالفه أبو يزيد؛ إذ يجيز تكفير أهل

---

[1] أورد أبو زكرياء حوارا دار بين فقيه الإباضية أبي الربيع سليمان بن زرقون النفوسي ورجل من الإباضيين؛ فقال: ((فسأل رجل أبا الربيع؛ فقال له: "ما تقول في النكارة يا شيخ.؟" فقال: "هم كفار")). وقد أورد أبو زكرياء أيضا حوارا دار بين أبي الربيع وأبي يزيد مخلد بن كيداد؛ أثناء جولة لهما في نواحي سجلماسة؛ التي كانا يتعلمان فيها على يد عالم الإباضية ابن الجمع. فمرا ببعض الوهبية؛ فلم يضيفوهما كما تمنيا؛ ومرا بجماعة أخرى من النكارة فأكرموهما وضيفوهما؛ فقال أبو يزيد لأبي الربيع: ((يا أبا الربيع؛ ألا ترى ما بين الرجال والرجال؛ فهل لك في الرجوع بنا إلى مذهب هؤلاء القوم" فقال له أبو الربيع: لست أريد الدنيا؛ ولو كانت مرادي؛ إذاً لنلتها بعلمي". قال: فافترقا؛ فرجع أبو يزيد نكاريا؛ وثبت أبو الربيع على مذهب الحق)). كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 195.

الملـــة، ويستبيـــح الغنائـــم والســـبي فيهـــم.[1] وعليـــه فقـــد أعتبـــره الإباضيـــون الوهبيـــون نكاريـــا ومخالفـــا لمذهبهـــم.[2] وصنفـــوه ضمـــن فئـــات الخـــوارج المتطرفيـــن. ومـــع هـــذا فقـــد كـــان يـــرى في نفســـه الـــوارث الشـــرعي للـــدعـــوة الإباضيـــة؛ بعـــد سقـــوط الدولـــة الرستميـــة. لـــذا فقـــد حـــاول استعـــادة مجـــد الإباضييـــن، والنهـــوض بدولتهـــم مـــن جديـــد؛ ولكنـــه فشـــل في الأخيـــر.[3] وانتهـــت حركتـــه

---

[1] أجمعـت المصـادر التاريخيـة كلهـا عـلى سمـاح أبي يزيـد بسفـك دمـاء المسلميـن المنتميـن لغيـر مذهبـه؛ كمـا أجمعـت عـلى استباحتـه للمحرمـات، وتحريضـه عـلى سلـب أمـوال المسلميـن، وسـبي نسائهـم واستعبـاد أطفالهـم. وهـذا نـص ـــ كعينـة ـ كتبـه أبـو زكريـاء ـ وهـو أحـد العلمـاء الإباضييـن ـ يصـف فيـه أبا يزيـد بصفـات تضعـه في مصـاف الكفـرة؛ إذ قـال: ((ثـم إن عـدو اللـه [يقصـد أبـا يزيـد] سـار يريـد القاسـم بالقيـروان؛ وكـل قريـة ومدينـة مـر بهـا ـ في طريقـه ـ خربهـا، وسبـا ذريتهـا، وغنـم أموالهـا؛ كفعـل نافـع بـن الأزرق وغـيـره مـن الخـوارج؛ بـل قـد زاد عليهـم وأربى... وذكـروا أنـه بـلـغ عـدة مـا خـرب عـلى يـده ـ في إفريقيـة ـ ثلاثـون ألـف قريـة؛ لـم تعمـر إلى يومنـا هـذا. وفعـل في إفريقيـة مـن الفسـوق والمعـاصي والفجـور مـا لـم يبلغنـا مثلـه عـن الفراعنـة والأكاسـرة والقياصـرة والجبابـرة... وبلغنـا أنـه نـزل بالساحـل؛ فاخـذ أهـل عسكـره صبيتيـن؛ فجاءتـه أمهمـا تشـكو إليـه؛ فقالـت لـه: "يـا شيـخ؛ إن العزابـة سبـوا لي ابنتيـن؛ وهمـا حرتـان؛ وغصبوهمـا"؛ فلـم يجبهـا عـدو اللـه بجـواب؛ غيـر أنـه قـال: "هـل في إفريقيـة حـرة". فخافـت المـرأة عـلى نفسهـا؛ فهربـت ونجـت بنفسهـا)). كتـاب سيـر الأئمـة وأخبارهـم، ص ص: **180 ـ 182**.

[2] أنظـر كتـاب سيـر الأئمـة وأخبارهـم، ص ص: **175 ـ 187**. وكتـاب طبقـات المشائـخ بالمغـرب، ج: **1**، ص ص: **96 ـ 104**. فكلهـا تتبـرأ منـه، وتخرجـه مـن المذهـب الإبـاضي الوهـبي.

[3] وهـذا مـا جعـل أبـا القاسـم بـن عبيـد اللـه يقـول: ((لقـد فتـح فيهـم [أي في الإباضييـن] بابـا؛ إلا أنه لم يحسـن السيـرة)). كتاب سير الأئمـة وأخبارهـم؛ ص: **181**.

بانتهاء حياته؛ إذ قتل مسلوخا، وممثلا به في سنة 335هـ(949م) بالمهدية.

وقد تمكن هذا الثائر الخارجي من زعزعة أركان الدولة الفاطمية ـ بعض الوقت ـ حيث شغلها بالفتن مدة من الزمن؛ وكاد أن يطيح بأركانها ويسقطها نهائيا؛ لولا معاكسة الأقدار له.[1] وقد استند أبو يزيد ـ في بدية أمره ـ إلى روح العصبية الموغلة في نفوس أبناء القبائل الزناتية؛ ذات الطابع البدوي. كما استطاع ـ بواسطة الدعوة الدينية ـ أن يحقق التلاحم بين القبائل السائرة خلفه؛ تبعا للقاعدة التي تنص على تزايد قوة العصبية؛ عندما تعتمد على الدعوة الدينية.[2]

---

[1] أنظر قصة أبي يزيد في كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 175 ـ 187. وكتاب أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص ص: 29 ـ 47. وكتاب الكامل في التاريخ، ج: 6، ص ص: 302 ـ 311. وكتاب طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 96 ـ 104. وكتاب البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 216 ـ 220. وكتاب العبر، مج: 7، ص ص: 26 ـ 35. وكتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ص ص: 109 ـ 125.

[2] يقول ابن خلدون في هذا: ((إن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية؛ وتُفْرِد الوجهة إلى الحق. فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء؛ لأن الوجهة واحدة، والمطلوب متساو عندهم؛ وهم مستميتون عليه؛ وأهل الدولة التي هم طالبوها ـ وإن كانوا أضعافهم ـ فأغراضهم متباينة بالباطل؛ وتخاذلهم لتقية الموت حاصل؛ فلا يقاومونهم؛ وإن كانوا أكثر منهم)). المقدمة، ج: 2، ص: 337.

غيـر أنـه عجـز عـن المحافظـة عـلى مكتسباتـه؛ بسبـب مـا كـان يصـدر عنـه مـن نـزوات؛ لـم يتمكـن مـن كبتهـا.[1] حيـث أدى الشـك في صـدق دعوتـه إلى نكسـة؛ أثـرت عـلى حركتـه؛ فأخـذ العامـل الديـني يتـلاشى؛ بفعـل الشكـوك الـتي غـزت بعـض أنصاره؛ فضعـف تماسكهـم، وانحلـت وحدتهـم؛ بفسـاد العصبيـة المناصـرة لـه وتفككهـا[2]، وافتـراق القبائـل المتحالفـة

---

[1] فممـا قالـه محمـد الصنهـاجي: ((وكـان أبـو يزيـد في أول أمـره يلبـس خشـن الثيـاب، ويمسـك العصـا، ويسـمى شيـخ المسلميـن؛ ثـم انتقـل عـن ذلـك، وركـب عتـاق الخيـل، ولبـس الديبـاج؛ وكـان يـرى الجمـع بيـن الأختيـن بملـك اليميـن، ويستبيـح نسـاء المسلميـن ممـن خالفـه، ويسفـك الدمـاء. وكـان أصحابـه البربـر يقتلـون كـل مـن ظفـروا بـه مـن النـاس؛ كائنـا مـن كـان؛ عيثـا وعبثـا؛ خاصـة مـن خـرج مـن المهديـة عنـد حصارهـم إياهـا؛ فـرارا مـن الجـوع والحصـار؛ ويشقـون بطونهـم أحيانـا فتشـا عـن المـال؛ توهمـا منهـم أنهـم ابتلعـوه)). أخبـار ملـوك بـني عبيـد، ص: 31. وقـال أيضـا ابـن خلـدون: ((واستخـف أبـو يزيـد بالنـاس؛ بعـد قتـل ميسـور؛ فلبـس الحريـر، وركـب الفـاره؛ ونكـر عليـه أصحابـه ذلـك، وكاتبـه بـه رؤساؤهـم مـن البـلاد... وعذلـه أبـو عمـار فيمـا أتـاه مـن الاستكثـار مـن الدنيـا؛ فتـاب وأقلـع؛ وعـاود لبـس الصـوف والتقشـف)). العبـر، مج: 7، ص ص: 30 ــ 31.

[2] ويشـرح ابـن خلـدون الكيفيـة الـتي تنكسـر فيهـا العصبيـة؛ تبعـا لضعـف الصبغـة الدينيـة؛ يقولـه: ((واعتبـر ذلـك إذا حالـت صبغـة الديـن وفسدت؛ كيـف ينتقـض الأمـر، ويصيـر الغلـب عـلى نسبـة العصبيـة وحدهـا؛ دون زيـادة الديـن؛ فيغلـب الدولـة مـن كـان تحـت يدهـا مـن العصائـب المكافئـة لهـا أو الزائـدة القـوة عليهـا؛ الذيـن غلبتهـم بمضاعفـة الديـن لقوتهـا؛ ولـو كانـوا أكثـر عصبيـة منهـا وأشـد بـداوة)). المقدمـة، ج: 2، ص: 638.

معه؛ حيث عادت إلى سابق عهدها؛ عصبيات عديدة؛ تفرقها الأهواء والأطماع.[1]

وهنا تظهر الحاجة إلى العصبية، والدعوة الدينية معا. فغياب إحداهما؛ يخل باستقرار الأخرى. وهكذا أخمدت ثورة أبي يزيد؛ بواسطة عصبية أقوى من عصبيته؛ كانت هي الأخرى معززة بدعوة دينية تتمتع بفعالية وقدرة على تحقيق أهدافها. وربما عاد سبب فشله ــ في تحقيق هدفه ــ إلى ما لاقاه من خذلان، وتنكر من قبل حلفائه قبائل زناتة؛ وذلك بعد تخليهم عن مناصرته ومساندته؛ في أشد الظروف التي مرت به؛ حيث تركوه فريسة سهلة؛ بين براثن أعدائه. هذه هي العصبية القبلية؛ حين تظهر في زيها السلبي البشع.

فثورة أبي يزيد كانت ــ في الظاهر ــ ثورة خارجية المذهب؛ نشبت ــ بضراوة ــ ضد دولة شيعية المذهب؛ ومع هذا فتلك الثورة لا تخلو من نفحات العصبية القبلية ونزواتها؛ حيث كانت تلك الثورة تتغذى بشحنات من العصبية الأمازيغية الزناتية والهوارية؛ تلك العصبية المناهضة لتسلط قبائل كتامة، وقبائل صنهاجة؛ التي تستتر تحت ستار المذهب الشيعي. لأن الفكرة المذهبية ــ في الحقيقة ــ

---

[1] أنظر أخبار بني عبيد وسيرتهم، ص ص: 31. 33. 34. 38 ــ 41. والكامل في التاريخ، ج: 6، ص ص: 309 ــ 310. واتعاظ الحنفا، ص ص: 115. 116. والعبر، مج: 7، ص ص: 31. 32 ـــ 33

أخفت ظاهرة العصبية، وغلفتها بالوشاح الديني. وقد أكدت هذا التفسير الأحداث التي وقعت بعد موت أبي يزيد؛ إذ ظلت بعض القبائل الأوراسية التي كانت ثائرة معه من قبل ــ كقبيلة هوارة ــ في عصيانها مشاغباتها؛ حتى عهد المعز لدين الله؛ إذ تقول المصادر أنه شن عليها حملات تصفية وتطهير في نواحي الأوراس سنة 342هـ (953م).[1]

والمهم هنا هو أن إخماد ثورة أبي يزيد؛ تم ــ في الظاهر ــ بواسطة عصبية مناوئة للعصبية الزناتية؛ وهي عصبية كل من: كتامة وصنهاجة؛ ولكن من الواجب الاعتراف ــ أيضا ــ بأن خذلان أبي يزيد من طرف القبائل الزناتية؛ لعب دورا حاسما في إمالة الكفة لصالح الشيعة. ويمكن التحقق من ذلك؛ بالإطلاع على الكيفية التي انفضت بها عصبيته؛ أثناء حصاره للمهدية سنة 334هـ(945م)، والكيفية التي تنكر بها أمير مغراوة الزناتية لأبي يزيد؛ مما أدى إلى انفضاض قبيلة مغراوة عنه. إن هذا الأمر كله أضعف العصبية الزناتية وأفسدها؛ وعزز ــ بالمقابل ــ موقف الشيعة، والعصبية: الكتامية والصنهاجية.

---

[1] **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص ص: 48 ــ 49. والعبر، مج: 4، ص: 95. واتعاظ الحنفا، ص: 134.**

وهكذا تبددت أحلام زناتة؛ في إنشاء دولة قوية وموحدة بالمغرب الإسلامي؛ بزعامة أبي يزيد. وبهذا بقي الحديث عن ثورة أبي يزيد في حدود الكيان الثائر، المتمرد؛ الذي لم يصل إلى مرتبة الدولة؛ لأنه ـ حتى وإن كاد أبو يزيد أن يقضي على الدولة الفاطمية ـ لا يمكن وضع كيانه في مصاف الدول؛ إذ لم يكن سوى ثائر؛ حالفه الحظ أحيانا، وخانه أحيانا أخرى.

ـ إمارة أبي خزر يغلي بن زلتاف الوسياني الإباضي: وهو من علماء الإباضية الوهبيين المعتدلين. وقد قام هذا الرجل ـ مع رفيقه وصنوه في العلم ـ **أبي نوح سعيد بن زنغيل الوسياني ـ** بثورة مضادة للدولة الفاطمية؛ وذلك في بلاد قسطيلية أيضا سنة 358هـ(968م). أي بعد ثلاث وعشرين سنة ـ تقريبا ـ من مقتل أبي يزيد مخلد بن كيداد. وتقول المصادر أن السبب في تلك الثورة كان بدافع الثأر؛ وليس بحافز عقائدي أو سياسي. وحدث ذلك بعد إعدام أحد علماء الإباضية الأعيان ـ ظلما كما يقال ـ من طرف سلطان الدولة الفاطمية ـ آنذاك ـ المعز لدين الله تميم ابن إسماعيل.

وهذه الحركة الإباضية ــ في الحقيقة ــ لم تصل إلى درجة الثورة العارمة؛ إذ كانت عبارة عن عصيان وسخط على سلطان الدولة الفاطمية؛ الذي قتل ــ كما يعتقدون ــ ظلما أحد علمائهم؛ وهو أبو القاسم يزيد بن مخلد الوسياني.[1]

والجدير بالملاحظة هنا؛ أن جل المصادر التاريخية السنية صمتت عن هذه الحركة، ولم تشر إليها؛ وقد يكون ذلك بسبب عدم أهميتها، ونظرا لقلة تأثيرها على الدولة الفاطمية. ولم تتكلم عنها سوى المصادر الإباضية؛ التي أضفت عليها ــ بدورها ــ صفة العصيان القبلي؛ احتجاجا على قتل أحد الأعيان المبجلين في: قسطيلية، وبلاد ريغ، ومنطقة الزاب. لذا فقد نهض الساخطون في تلك الجهات؛ وطالبوا بالثأر لأبي القاسم. ويقال أن الذين اجتمعوا للقتال؛ من مزاتة وحدها اثنا عشر ألف فارس؛ باستثناء الراجلين؛ الذين كان عددهم أكثر

---

[1] يقول أبو زكرياء في هذا الموضوع: ((ذكر أبو الربيع سليمان بن يخلف رضي الله عنه ؛ أن أبا القاسم رضي الله عنه تحدث مع يهودي؛ فجرى بينهما كلام في أمر أبي تميم [المعز لدين الله] فقال له أبو القاسم رضي الله عنه ليس بيننا وبينه إلا يسيرا؛ فنقوم عليه؛ ونخرجه من تلك المدينة ــ إن شاء الله ــ يعني مدينة القيروان. فلما افترقا قام اليهودي مبادرا؛ فبلغ قوله لأبي تميم. وبلغ المشائخ ما قاله أبو القاسم لليهودي؛ فأتوه وعاتبوه على ذلك ولاموه. وقالوا له: "لو كنت على ذلك؛ فمثلك لا يفشي سره، ولا يهتك ستره؛ أحسن الله عزاءنا فيك")). سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 210 ــ 211. وذكر الدرجيني الرواية نفسها في طبقات المشائخ بالمغرب؛ ج: 1، ص: 124.

من ذلك.[1] ويقول أبو زكرياء أن جموع الثائرين عقدوا لأبي خزر ولاية الدفاع؛ بهدف المطالبة بدم أبي القاسم. على أن يعقدوا له ــ بعد تحقيق هدفهم الأول ــ ولاية الظهور؛[2] أي الولاية المعلنة صراحة.

ويبدو أن أبا خزر لم يكن على درجة من الحنكة العسكرية. ذلك لأنه تسرع في زحفه نحو باغاي. ويقول أبو زكرياء أنه لم ينتظر إمدادات أصحابه كلهم؛ الممثلين في جموع أهل الزاب وورجلان.[3] وعليه فلم يكن في وسعه الصمود أمام قوة الأعداء؛ إذ أنه بعد أن حاصر باغاي ــ بعض الوقت ــ بقوة من قبيلة مزاتة؛ تلك القوة التي كانت في معظمها تتشكل من طلبة العلم؛ انتهى الأمر بهم جميعا إلى الهزيمة والهرب.

---

[1] **سير الأئمة وأخبارهم، ص: 216. وطبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص: 124.**

[2] **قال أبو زكرياء: ((ثم إن الشيخ أبا خزر (رضي الله عنه) عقدوا له الولاية على الدفاع والطلب بحق الشيخ رضي الله عنه فإن أدركوا حاجتهم عقدوا له ولاية الظهور)). سير الأئمة وأخبارهم، ص: 216.**

[3] **يقول أبو زكرياء: ((لما استنفر أهل الزاب وأريغ وورجلان؛ خرجوا في جموع عظيمة؛ فخرج خزرون بن فلفول؛ فلما وصل خزرون ــ ومن معه ــ إلى الموضع الذي يقال له أفودان تطلا (أو أفوداد لكلا)؛ كان بينه وبين باغاي مسافة قصيرة ــ فيما قيل والله أعلم ــ سمع بخبر الهزيمة فرجع)). سير الأئمة وأخبارهم، ص: 218.**

على أنه من الجدير التنبيه والإشارة لما فعلته الأطماع، والأهواء الذاتية في ضعضعة موقف الثائرين، وإحباط نفوسهم. لقد انجر عن العصبية القبلية الضيقة ــ التي فعلت فعلها السيئ في صفوف مناصري أبي خزر من بني يليان ــ أن شرخا خطيرا حدث في صفوف الثوار.

وبذلك انبثقت في وسطهم ــ فجأة ــ علة عاتية؛ تشخص ما في العصبية من عيوب ومفاسد؛ حيث تسببت ــ بفعل عواملها السلبية ــ في هزيمة جيش الإباضيين؛ وفي تشتت أفراده في الآفاق.[1] عندها لم يجد قائد الثورة أبو خزر وصاحبه أبو نوح أمامهما من وسيلة؛ إلا الهرب والاختفاء ؛ متنكرين في الصحراء وجبل نفوسة؛ انتظارا وطمعا في عفو السلطان؛ الذي عفا عنهما فيما بعد.

---

[1] قال أبو زكرياء واصفا ما جرى في باغاي: ((وبلغنا أن أهل باغاي جاعلوا ناسا من مزاتة؛ يقال لهم بنو يليان؛ على أن يجعلوا في أنفسهم الهزيمة ــ فكان بينهم وبين (بدنة) [أو يدبة] ضغائن ودحول [أي مخادعات] وثارات ــ فلما التحم القتال؛ تنحت بنو يليان، وانحازوا إلى ناحية، وألقوا في مسامع العسكر أن بني بدنة تخلفت لهم لتستولي على أموالهم وأنعامهم ومواشيهم وأحيائهم؛ وجعلوا في أنفسهم الهزيمة؛ وانهزم العسكر)). سير الأئمة وأخبارهم، ص: 217. وقد أورد القصة الدرجيني بأسلوب واضح ومفصل، أنظر طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 129 ــ 130.

وبهذا القدر من المعلومات ـ حول دور العصبية القبلية في تشييد دول الخوارج، وتحريك كياناتهم الثائرة ببلاد المغرب والأندلس ـ يمكن إنهاء هذا الفصل؛ على أن يتبعه ـ لاحقا ـ فصل آخر، يعالج موضوع نشأة الدول العلوية بتأثير العصبية القبلية بهذه الديار أيضا.

****

الـدول العلـويـة

المقصـود بالـدول العلويـة هي تلـك الـدول الـتي أنشأهـا أحفـاد عـلي بـن أبي طالـب كـرم اللـه وجهـه، أو المنتسبـون إليـه مـن أهـل الشيعـة. وقـد يحـدث أن تكـون الدولـة علويـة النسـب؛ ولكنهـا سنيـة المذهـب. وهـذا هـو الخـط الفاصـل بينهـا وبيـن الدولـة الشيعيـة؛ ذات المذهـب المخالـف للمذاهـب السنيـة؛ في الجوانـب الكلاميـة والفقهيـة. أمـا الجانـب السيـاسي؛ الـذي ينـص عـلى وجـوب إسنـاد الإمامـة إلى عائلـة عـلي بـن أبي طالـب كـرم اللـه وجهـه؛ فهـو متفـق عليـه؛ بيـن أنصـار النموذجيـن مـن هـذه الـدول. ولا يدخـل في هـذا المجـال الـدول الشيعيـة الـتي يحكمهـا أمـراء مـن غيـر العلوييـن؛ مثـل: بـني زيـري أمـراء إفريقيـة والمغـرب، وبـني أبي الحسيـن أمـراء صقليـة.

بـدأت الخلافـات السياسيـة تظهـر، وتنمـو بيـن المسلميـن؛ منـذ اليـوم الأول لوفـاة رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلـم. وكـان منطلقهـا؛ اختلافهـم في اختيـار خليفـة لـه. فأهـل يثـرب قالـوا بأنهـم أجـدر النـاس بمنصـب الخلافـة؛ لكونهـم أنصـار محمـد عليـه الصـلاة والسـلام. ولكـن المهاجريـن تصـدوا لهـم؛ وأعطـوا لأنفسهـم الحـق في الخلافـة؛ كونهـم أهـل رسـول اللـه، وأسبـق الخلـق إسلامـا.

ولما توصل الطرفان إلى الاتفاق؛ على أن تكون الخلافة في قريش؛ ظهر فريق ثالث ينادي بأحقية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بمنصب الخلافة؛ نظرا لكونه ابن عم الرسول، وزوج ابنته فاطمة، ووالد الحسن والحسين. ثم شرعت كل جماعة في نشر آرائها خفية وجهارا. وانجر عن ذلك كله حدوث بعض الفتن بين المسلمين؛ بدءا بالفتنة التي قتل خلالها عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ ثم الفتن الدامية الأخرى؛ المشتعلة بين علي بن أبي طالب وخصومه؛ في وقعة الجمل، ووقعة صفين وغيرهما.

وبعد تمام الغلبة للأمويين؛ لم يستسلم العلويون، ولا شيعتهم؛ بل ظلوا في صف المعارضة؛ حتى سقوط الدولة الأموية؛ تحت ضربات الهاشميين، وحلفائهم. ولكن خلافا جديدا ظهر بين أهل البيت؛ وذلك عندما استبد بنو العباس بالسلطة، وانفردوا بها دون بقية الهاشميين؛ من أبناء علي بن أبي طالب. وعليه فقد ثار ــ نتيجة لذلك ــ العلويون وشيعتهم ــ مرات عديدة ــ بسبب إحساسهم بالظلم والغبن.[1]

---

[1] وقد فسر ابن خلدون هذا الأمر في مقدمته؛ طبقا لنظريته عن العصبية؛ فقال: ((وكان أمر بني أمية نافذا في جميع العرب؛ بعصبية بني عبد مناف... ثم تلاشت عصبية بني أمية؛ بما أصابهم من الترف؛ فانقرضوا. وجاء بنو العباس؛ فغضوا أعِنَّة بني هاشم، وقتلوا الطالبيين، وشردوهم؛ فانحلت عصبية عبد مناف وتلاشت، وتجاسر العرب عليهم؛ فاستبد عليهم

ونتج عما لحق ببني علي بن أبي طالب ــ من شتات وتشرد في الآفاق ــ أنهم انتشروا في الأقطار النائية؛ حيث تمكن بعضهم من إقامة إمارات خاصة بهم في مشرق البلاد ومغربها؛ بعيدا عن مركز الخلافة العباسية. وقد عُرفت هذه الإمارات بالدول العلوية. وإذا كان مصير بعضها انتهى بالسقوط السريع؛ فإن بعضها الآخر تميز بالصمود والمقاومة؛ إذ استطاعت ــ بإصرار أصحابها، وبصبرهم ــ مزاحمة الدولة العباسية، ومنافستها في ميادين عديدة. وسيقتصر الحديث في هذا السياق على الدول العلوية ببلاد المغرب والأندلس؛ وأهم تلك الدول:

****

أهل القاصية؛ مثل: بني الأغلب بإفريقية، وأهل الأندلس، وغيرهم؛ وانقسمت الدولة. ثم خرج بنو إدريس بالمغرب. وقام البربر بأمرهم؛ إذعاناً للعصبية التي لهم، وأمناً أن تصلهم مقاتلة، أو حامية للدولة المقدمة، ج: 2، ص: 865.

1)ـ الدولـــة الإدريسيـــة:

نشـــأت الدولـــة الإدريسيـــة بواسطـــة إدريـــس بـــن عبـــد اللـــه الكامـــل ابـــن الحســـن المثـــنى ابـــن الحســـن السبـــط ابـــن عـــلي كـــرم اللـــه وجهـــه.[1] وذلـــك سنـــة 172هـــ (788م) ببلـــدة وليـــلي في المغـــرب الأقـــصى؛ حيـــث تـــم ذلـــك في حمايـــة قبيلـــة أوربـــة البرنسيـــة. ولمـــا كـــان إدريـــس مـــن أهـــل النصـــاب الملـــكي؛ فقـــد انقـــادت إليـــه هـــذه القبيلـــة الأمازيغيـــة بسهولـــة ويســـر؛ وذلـــك حينمـــا قبـــل أعضاؤهـــا بتوليـــه الحكـــم فيهـــم؛ ملكـــا وإمامـــا. وقـــد تعـــزز انقيادهـــم وتحقـــق قبولهـــم بـــه نظـــرا لأنـــه حفيـــد لرســـول اللـــه محمـــد صـــلى اللـــه عليـــه وسلـــم.

وهكـــذا تحقـــق ــ أيضـــا ــ مـــا قـــرره ابـــن خلـــدون؛ مـــن أنـــه يحـــدث لأهـــل النصـــاب الملـــكي؛ أن يقيـــم أحدهـــم دولـــة؛ بفضـــل عصبيـــة أخـــرى؛ غريبـــة عنـــه؛ فتغنيـــه عـــن الحاجـــة إلى عصبيتـــه الخاصـــة.[2] وهكـــذا.. فقيـــام الدولـــة الإدريسيـــة ببـــلاد المغـــرب جـــاء ــ إذن ــ كنتيجـــة طبيعيـــة لمـــا وصلـــت إليـــه عصبيـــة بـــني هاشـــم

---

[1] **أنظـــر جمهـــرة أنســـاب العـــرب لابـــن حـــزم، ص: 49.**

[2] **وذلـــك بقولـــه: ((لمـــا انتبـــذ الطالبيـــون مـــن المشـــرق إلى القاصيـــة، وابتعـــدوا عـــن مقـــر الخلافـــة، وسَمَـــوْا إلى طلبهـــا مـــن أيـــدي بـــني العبـــاس؛ بعـــد أن استحكمـــت الصبغـــة لبـــني عبـــد منـــاف. لبـــني أميـــة أولا، ثـــم لبـــني هاشـــم؛ مـــن بعدهـــم. فخرجـــوا بقاصيـــة المغـــرب، ودعَـــوْا لأنفسهـــم، وقـــام بأمرهـــم البرابـــرة؛ مـــرة بعـــد أخـــرى؛ فأوربـــة، ومغيلـــة؛ للأدارســـة. وكتامـــة، وصنهاجـــة، وهـــوارة؛ للعبيديـــين. فشيـــدوا دولهـــم، ومهـــدوا بعصائبهـــم أمرهـــم. واقتطعـــوا مـــن ممالـــك العباســـيين المغـــرب كلـــه، ثـــم إفريقيـــة)). المقدمـــة، ج: 2، ص: 635.**

المركبة؛ من ضعف وانقسام؛ الأمر الذي استدعى اللجوء إلى عصبية أخرى؛ يمكنها تعويض العصبية المفككة؛ التي تسرب الوهنِ والانحلال إليها.

وحتى تتعمم الفائدة أذكر ــ هنا ــ بما تضمنه كتابي المعنون بـ: العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية؛ من شروح وافية تخص نظرية ابن خلدون بخصوص الكيفية التي تسقط بها الدول؛ حينما يتسرب الخلل إليها؛ وذلك بعد أن يتنكر حاكم الدولة لأهل عصبيته؛ فيسعى لتأديبهم، ويتمادى في إذلالهم؛ لذا يلجئون إلى أقصى البلاد؛ هاربين من بطشه؛ حيث يتطلعون ــ في تلك الجهات ــ إلى إنشاء دول خاصة بهم؛ بمؤازرة قبائل خارجة عن سلطان الدولة الأم القائمة. وهذا هو الذي حدث ــ بالفعل ــ للعلويين الذين انفصلوا عن عصبيتهم المركبة؛ التي تشمل بني هاشم كافة.[1]

---

[1] يقول ابن عذاري: ((أن إدريس وسليمان ابني عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ــ رضهم ــ فروا من الوقعة التي كانت في أيام جعفر المنصور؛ وهي وقعة فخ؛ وكانوا ست اخوة: إدريس، وسليمان، ومحمد، وإبراهيم، وعيسى، و يحيى. أما محمد فخرج بالحجاز؛ وقتل. وأما إبراهيم فقام بالبصرة من العراق؛ فقتل في أيام المنصور. وأما يحيى فقام في الديلم ــ في خلافة الرشيد ــ وهبط على الأمان، ثم سُم ومات. وأما إدريس ففر إلى المغرب؛ ودخل إليه ــ في أيامه ــ من الطالبيين: أخوه سليمان؛ فاحتل بتلمسان، وداود بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب؛ ثم رجع داود إلى المشرق؛ وبقيت ذريته بالمغرب. واحتل إدريس بن عبد الله بالغرب سنة 170هـ؛ واستوطن وليلي ــ وكانت أزلية ــ

ـ حكومة إدريس بن عبد الله:

يقول البكري بخصوص إدريس بن عبد الله؛ حينما وصل إلى المغرب الأقصى: أنه وجد شيخا على رأس قبيلة أوربة ـ عندما نزل عليهم ـ يسمى إسحاق بن محمد بن عبد الحميد؛ وكان على مذهب المعتزلة.[1] وكما يقول البكري فإن إدريسا يكون قد تابعه في اعتقاده، وأظهر اعتناقه لهذا المذهب.[2] فقام ذلك الشيخ بعقد البيعة لإدريس؛ معلنا إمامته للمؤمنين. فأجمعت أحياء قبيلة أوربة كلها على طاعته. وعندما سمعت به عشائر من: زناتة وزواغة ولواتة ولمايا وسدراتة وغياتة ونفزة ومكناسة وغمارة؛ أوفدت إليه الوفود،

وكان وصوله مع مولاه راشد؛ ثم نزل على إسحاق بن عبد الحميد سنة 172هـ؛ فقدمه قبائل المغرب وأطاعوه)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 210.

[1] المعتزلة فرقة من الكلاميين ذات اتجاهات دينية خالصة. وقد انبثق هذا المذهب بين تلاميذ الحسن البصري؛ ومنهم: عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء. وهذا الأخير تنسب إليه الجماعة المسماة بالواصلية؛ وهم طبعا من المعتزلة؛ وعن هذه الفرقة يقول الشهرستاني: ((الواصلية؛ أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال الألثغ. كان تلميذا للحسن البصري؛ يقرأ عليه العلوم والأخبار. وكانا في أيام عبد الملك بن مروان، وهشام ابن عبد الملك. وبالمغرب الآن منهم شرذمة قليلة في بلد إدريس بن عبد الله الحسني؛ الذي خرج بالمغرب في أيام أبي جعفر المنصور)). الملل والنحل، ج: 1، ص: 46. وكان قد أشار إلى الواصلية هؤلاء البكري عندما تكلم عن مدينة تيهرت؛ في كتابه المغرب، ص: 67. كما تكلم عنهم أيضا أبو زكرياء في كتابه سير الأئمة وأخبارهم، ص: 102. ويبدو أن ياقوت الحموي اقتبس قول البكري حين أشار إلى الواصلية؛ في كتاب معجم البلدان، ج: 2، ص: 8.

[2] المغرب، ص: 118.

وبايعتـــه طوعـــا؛ عـــلى السمـــع والطاعـــة؛ اعترافـــا منهـــا بفضلـــه ونبلـــه، وتبركـــا بنسبـــه الشريـــف. هـــذا مـــن جهـــة، ومـــن جهـــة أخـــرى يبـــدو أنهـــا وجـــدت فيـــه عامـــلا هامـــا؛ يساعدهـــا في كبـــح أطمـــاع ولاة القيـــروان.

هـــذا ولـــم يبـــق إدريـــس في موقـــف المنتظـــر بعـــد إعـــلان البيعـــة لـــه؛ بـــل نهـــض إلى الغـــزو والجهـــاد بمجـــرد إحساســـه باكتمـــال قوتـــه. فزحـــف عـــلى بقايـــا اليهـــود والنصـــارى والوثنييـــن؛ في: قنـــدلاوة وبهلوانـــة وفـــازاز وتامسنـــا وشالـــة وتادلـــة. ولمـــا أخضـــع تلـــك الديـــار بقبائلهـــا؛ اتجـــه شرقـــا؛ حيـــث فتـــح تلمســـان صلحـــا؛ بعـــد أن خـــرج إليـــه محمـــد بـــن خـــزر بـــن صـــولات المغـــراوي؛ طالبـــا الأمـــان، ومقدمـــا بيعتـــه، وبيعـــة أعيـــان قبيلـــه، ووجـــوه تلمســـان.[1]

وهكـــذا أصبحـــت الدولـــة الإدريسيـــة قـــوة يحســـب حسابهـــا. فأحـــس الخليفـــة العبـــاسي ــ هـــارون الرشيـــد ــ بالخطـــر الـــذي يمثلـــه إدريـــس؛ بوجـــوده عـــلى رأس تلـــك الدولـــة النائيـــة؛ والـــتي تـــزداد قـــوة وثـــراء كلمـــا مـــر الزمـــن. كمـــا تشتـــد صلابـــة وحصانـــة مـــع مـــرور الأيـــام؛ بفضـــل تلـــك القبائـــل الأمازيغيـــة الملتفـــة حولهـــا، والحارســـة عـــلى أمنهـــا وأمـــن عـــدوه. ولمـــا شعـــر بهـــول الموقـــف؛ قـــرر مـــن فـــوره اللجـــوء إلى الأسلـــوب المتـــاح لديـــه؛ والأكثـــر أمانـــا لـــه ولجيوشـــه. ويتمثـــل ذلـــك الأسلـــوب في الخديعـــة والاغتيـــال.

---

[1] **الأنيـــس المطـــرب بـــروض القرطـــاس، ص ص: 7 ــ 8. وأعمـــال الأعـــلام؛ ق: 3، ص ص: 191 ــ 192. والعبـــر، مج: 4، ص: 24.**

لأنه بعد أن تأكد هارون الرشيد من صعوبة القيام بأي عمل ذي طابع عسكري؛ ورأى استحالة نجاح ذلك العمل المكلف؛ ذي الأبعاد الخطيرة. خاصة عندما يتخيل وجوب حدوث ذلك العمل في مناطق اعتبرت ــ منذ أيام الدولة الأموية ــ مناطق مستقلة عن الخلافة؛ ولا تخضع لنفوذها المباشر. لذا فإنه لم يكن أمامه سوى التحرك بسرعة ــ بمعاونة مساعديه ــ قصد وضع خطة لقتل إدريس ابن عبد الله. وبالفعل استطاع هارون تحقيق ذلك؛ بتدبير وزيره يحيى بن خالد؛ وبتنفيذ أحد أتباع الدولة العباسية؛ اسمه سليمان بن حريز الجزري، وسماه آخرون الشماخ اليمني. وكان هذا الرجل من القائلين بمذهب الزيدية؛ بل من المتكلمين المدافعين عن هذا المذهب الشيعي.[1]

---

[1] ثمة روايات عديدة عن اغتيال إدريس؛ منها هذه الرواية التي ذكرها البكري؛ فقال: ((حتى انتهى إلى الرشيد خبره [أي خبر إدريس] فكربه، وشكا ذلك إلى يحيى بن خالد؛ فقال: "أنا أكفيك خبره يا أمير المؤمنين". فأرسل إلى سليمان بن حريز الجزري؛ وهو رجل من ربيعة، وكان متكلما؛ ممن يرى رأي الزيدية؛ وكان حلوا شجاعا؛ أحد شياطين الأنس. وكانت له إمامة في الزيدية؛ إذ كان متكلمهم؛ وهو الذي جمع الرشيد بينه وبين هشام بن الحكم؛ حين ناظره في الإمامة. فأرغبه يحيى بن خالد في مال، ووعده ــ عن نفسه وعن الخليفة ــ بمواعد عظيمة؛ ودعاه إلى قتل إدريس، والتلطف في ذلك؛ فأجابه؛ فأعطاه مالا جزلا، ووجه معه رجلا يثق به وبشجاعته. ودفع إلى سليمان قارورة فيها غالية مسمومة [والغالية هي خليط من السم]؛ فانطلق مع صاحبه؛ فلم يزالا يتغلغلان حتى وصلا إلى إدريس. وكان إدريس عالما بسليمان ورياسته في الزيدية. فلما وصل إليه قال: "إنما جيتك وحملت

وتم ــ بالفعل ــ ما خطط له يحيى بن خالد؛ إذ قام حريز الجزري هذا ــ بفضل ما كان يتمتع به من دهاء ومكر ــ بتنفيذ الخطة بدقة

نفسي على ما حملته عليه؛ لمذهبي الذي تعرفني به؛ وإن السلطان طلبني هذا لمحبتي في الخروج معكم أهل البيت. فجيتك لآمن في ناحيتك وأنصرك بنفسي"؛ فسره قوله، وقبله وأحسن مثواه، وأكرم نزله، وأنس به. وكان سليمان يجلس في مجالس البربر، ويظهر الدعاء إلى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحتج لأهل هذه المقالة؛ كاحتجاجه بالعراق. فاعجب ذلك إدريس منه؛ فمكث عنده مدة؛ وهو يطلب غرته، ويرصد الفرصة في أمره، ويرمق باب الحيلة عليه؛ حتى غاب راشد مولاه؛ غيبه في بعض أموره؛ فدخل عليه ومعه القارورة؛ فلما انبسط إليه وخلا وجهه؛ فقال: "جعلني الله فداك؛ في هذه القارورة غالية؛ حملتها معي؛ وليس ببلدك من الطيب ما يتخذ هذا منه؛ فجيتك بها لتطيب بما فيها". ووضعها بين يديه؛ ففتحها إدريس؛ وتغلف منها، وشمها. وانصرف سليمان إلى صاحبه ــ وقد أعدا فرسين قبل ذلك مضمرين ــ فركباهما وخرجا مركضين؛ يطلبان النجاة؛ فلما وصل السم إلى دماغ إدريس وكان في خياشيمه؛ سقط مغشيا عليه؛ لا يعقل ولا يدري من يختص به ما شأنه؛ فبعثوا إلى راشد؛ فجاء مسرعا؛ وتشاغل بمعالجته، والتخبر في أمره ــ وقطع سليمان وصاحبه على فرسيهما بلادا في مدة ذلك ــ وأقام إدريس في غشيته عامة نهاره وعروقه تضرب؛ ثم مات. وتبين راشد أمر سليمان بن حريز؛ فركب في طلبه ــ في جماعة من أصحابه ــ فجعلت الخيل تنقطع تحت أصحابه، ويتخلفون لشدة السير، وحث الطلب؛ حتى لحقه راشد؛ فانحرف إليه سليمان ليمنعه من نفسه؛ فخبطه راشد بالسيف فكنع يده، وضربه على وجهه ورأسه ثلاث ضربات؛ كل ذلك لا يصيب مقتلا؛ مع دفع سليمان عن نفسه؛ وما كان عليه من الجنة؛ وقام فرس راشد لشدة حمله عليه؛ ونجا سليمان بحشاشة نفسه؛ وصاحبه قد خذله؛ فلم يغن عنه شيئا؛ ولم يكن عنده إلا الهرب)). المغرب، ص ص: 120 ــ 121. أنظر القصة مفصلة أيضا في كتاب الأنيس المطرب، ص ص: 8 ــ 10. وكتاب أعلام الأعلام؛ ق: 3، ص ص: 192 ــ 194.

ودهـــاء؛ حيـــث سافـــر إلى أقـــصى المغـــرب؛ ومثـــل أمـــام إديـــس في وليـــلي؛ مقدمـــا نفســـه كنصيـــر للعلوييـــن، ومظهـــرا تشيعـــه لأهـــل البيـــت. ولمـــا كـــان إدريـــس ــ كمـــا تقـــول بعـــض المصـــادر ــ يعـــرف عنـــه بعـــض الأخبـــار الـــتي تفيـــد بأنـــه زيـــدي المذهـــب؛ فقـــد سهـــل أمـــر اقترابـــه منـــه؛ دون حـــذر أو شـــك فيـــه. وبذلـــك تمكـــن مـــن اغتيـــال إدريـــس بـــن عبـــد اللـــه؛ بعـــد أن كســـب ثقتـــه التامـــة. إذ يقـــال أنـــه ناولـــه سمـــا؛ زعـــم أنـــه دواء ناجـــع لألـــم الأسنـــان. وربمـــا يكـــون مـــا قدمـــه إليـــه هي زجاجـــة مـــن الطيـــب المسمـــوم؛ كمـــا جـــاء في روايـــة ثانيـــة. وثمـــة أيضـــا أقـــوال كثيـــرة أخـــرى لا تهـــم هنـــا. والخلاصـــة هي أن وفـــاة إدريـــس الأول حدثـــت بوليـــلي سنـــة 175هـــ (791م)؛ بعـــد أن حكـــم الدولـــة ثلاثـــة أعـــوام ونصـــف. ولمـــا مـــات إدريـــس؛ نصـــب رؤســـاء القبائـــل الفاعلـــة في الدولـــة راشـــدا وصيـــا عـــلى العـــرش. في انتظـــار اليـــوم الـــذي تلـــد فيـــه زوجـــة إدريـــس الـــتي كانـــت حامـــلا آنئـــذ؛ حيـــث سيعـــرف عندئـــذ جنـــس المولـــود المنتظـــر؛ وعندهـــا يقـــررون مصيـــر الدولـــة بصفـــة نهائيـــة.[1]

---

[1] في هـذا يقـول ابـن زرع: ((لـم يكـن لإدريـس ــ حيـن وفاتـه ــ ولـد؛ إلا وليـدة تركهـا حبـلى. ــ قـال عبـد الملـك بـن محمـود الـوراق ــ في كتـاب المقبـاس ــ والبكـري، والبرنـوسي وغيرهـم ممـن عـني بتاريـخ أيـام الأدارسـة: " أن الإمـام إدريـس بـن عبـد اللـه ـــ لمـا تـوفي ــ لـم يتـرك ولـدا مولـودا؛ إلا أنـه تـرك جاريـة لـه ــ مولـدة مـن تاليـد البربـر اسمهـا كنـزة ــ حامـلا منـه؛ في الشهـر السابـع مـن حملهـا. فجمـع راشـد رؤسـاء القبائـل، ووجـوه النـاس ــ بعـد فراغـه

ـ حكومـــة إدريـــس الثـــاني:

هـــذا ولـــم يحقـــق هـــارون الرشيـــد هدفـــه الأســـاسي؛ عـــلى الرغـــم مـــن كـــل مـــا حشـــده؛ مـــن تحرشـــات ومؤامـــرات؛ بغـــرض القضـــاء عـــلى الدولـــة الإدريسيـــة، والإطاحـــة بهـــا؛ خاصـــة بعـــد مقتـــل أميرهـــا ومؤسسهـــا إدريـــس بـــن عبـــد اللـــه. إذ أنهـــا تمكنـــت من البقـــاء والاستمـــرار في الوجـــود؛ خاصـــة بعـــد ميـــلاد ولي العهـــد الـــذي ســـمي ـــ أيضـــا ـــ إدريســـا؛ تيمنـــا بأبيـــه وإحيـــاء لذكـــراه. بـــل ظهـــر ـــ كذلـــك ـــ أن هـــذه الدولـــة تعـــزز شأنهـــا، وشـــاع ذكرهـــا، وقـــوي ملكهـــا، واستفحـــل أمرهـــا في عهـــد إدريـــس بـــن إدريـــس؛ خاصـــة عندمـــا أضـــحى عاهـــل الدولـــة ـــ هـــذه المـــرة ـــ يجمـــع بيـــن عصبيتيـــن: الهاشميـــة والأمازيغيـــة. إذ أصبـــح لـــه فضـــل أبيـــه؛ بنسبـــه الشريـــف، إلى جانـــب مـــا لـــه مـــن لحمـــة وانتســـاب للأمازيـــغ؛ بحكـــم نســـب أمـــه؛ الـــتي ينسبهـــا بعضهـــم إلى قبيلـــة نفـــزة البتريـــة؛ أو قبيلـــة أوربـــة البرنسيـــة كمـــا يـــرى آخـــرون. هـــذا وقـــد سهـــر الـــوصي عـــلى إدريـــس

مـــن دفـــن إدريـــس ـــ فأخبرهـــم أن إدريـــس لـــم يتـــرك ولـــدا؛ إلا حمـــلا بجاريتـــه كنـــزة؛ وهي في الشهـــر السابـــع مـــن حملهـــا؛ فـــإن رأيتـــم أن تصبـــروا عـــلى الجاريـــة حـــتى تضـــع حملهـــا؛ فـــإن كـــان ذكـــرا ربينـــاه؛ فـــإذا بلـــغ مبلـــغ الرجـــال؛ بايعنـــاه تبركـــا بأهـــل البيـــت، وذريـــة رســـول اللـــه صـــلى اللـــه عليـــه وسلـــم؛ وإن كانـــت جاريـــة؛ نظرتـــم لأنفسكـــم مـــن ترونـــه أهـــلا لذلـــك. فقالـــوا لـــه: " أيهـــا الشيـــخ المبـــارك؛ مالنـــا رأي إلا مـــا رأيـــت؛ فإنـــك عندنـــا عـــوض مـــن إدريـــس... حـــتى تضـــع هـــذه الجاريـــة)). الأنيـــس المطـــرب، ص: 10. أنظـــر أيضـــا: المغـــرب، ص: 122. وأعمـــال الأعـــلام؛ ق: 3، ص: 195.

وعلى ملكه ــ مولاه راشد ــ في تربيته تربية مكتملة وسديدة؛ أعده بها للقيام بأعباء الدولة أحسن قيام؛ حيث مكنه من حفظ القرآن وهو في الثامنة من عمره؛ كما أشرف على تدريسه علوم: الحديث والفقه واللغة والنحو؛ وسهر على ضمان استيعابه لفنون الأدب والشعر؛ بالإضافة إلى تدريبه على ركوب الخيل، وفنون القتال؛ حتى قيل: أنه استوعب هذه العلوم والفنون كلها حينما وصل سنه إلى الحادية عشر.

وهكذا باءت محاولات الدولة العباسية كلها بالفشل. حتى المؤامرات التي نفذت بواسطة أتباعها ــ ولاة القيروان ــ والتي ذهب ضحيتها مولى إدريس راشد؛ (الوصي على إدريس الثاني وعلى عرشه) لم تحقق أهدافها. حيث انتصب وصي آخر؛ هو أبو خالد يزيد بن إلياس العبدي؛ فواصل نهج راشد، وتابع طريقه الصالح في بناء مؤسسات الدولة الإدريسية؛ حتى اشتد ساعد الأمير وكبر. وقد عقدت البيعة لإدريس الثاني سنة 186هـ (802م) في قول؛ بينما جعلها آخرون في سنة 187هـ أو 188هـ (803م).

ولما خابت مساعي العباسيين؛ التي كانت تستهدف إزالة الدولة الإدريسية نهائياً ــ بعد قتل إدريس بن عبد الله، ثم تلاه اغتيال الوصي راشد ــ شرعوا في حوك مؤامرات جديدة ترمي ــ أيضا ــ إلى تصفية إدريس الثاني جسديا.[1] وبعد أن فشل العباسيون في مساعيهم السابقة؛ تحولوا إلى تطبيق خطة أخرى؛ مفادها: بث الفوضى داخل صفوف القبائل المناصرة للدولة الإدريسية؛ وعليه فقد أخذوا ــ مرة أخرى ــ يسعون لضرب السبب الأساسي الذي جمع شمل تلك القبائل؛ والعمل على إزالته. لذا فقد استماتوا في سبيل تفكيك التركيبة القبلية القوية؛ التي اجتمعت خلف الإمام إدريس. وهكذا لم يجدوا وسيلة أكثر فعالية من استثارة سلبيات العصبية القبلية داخلهم؛ وبث روح الفرقة بين القبائل المساندة لإدريس؛ وزرع التناقضات بين مصالح كل منهم؛ بهدف تفكيك لحمتهم، وتشتيت شملهم.

---

[1] وهذا هو الذي صرح به والي القيروان إبراهيم بن الأغلب؛ في رسالة بعث بها إلى هارون الرشيد؛ ضمنها هذه الأبيات:

أَلَمْ تَرَنِي بِالكَيْدِ أَرْدِيْتُ رَاشِداً
وَإِنِّي بِأُخْرَى لابْنِ إِدْرِيسَ رَاصِدُ
تَنَاوَلَهُ عَزْمِي عَلَى بُعْدِ دَارِهِ
بِمَحْتُومَةٍ قَدْ هَيَّأَتْهَا المَكَايِدُ
وَتَاهَ أَخُو عَكٍّ بِمَهْلَكِ رَاشِدٍ
وَقَدْ كُنْتَ فِيهِ سَاهِراً وَهْوَ رَاقِدُ

وعليه فقد توصل ابن الأغلب ــ والي العباسيين على القيروان ــ إلى كسب ولاء شيخ قبيلة أوربة إسحاق بن محمد بن عبد الحميد ــ بعد فترة سيأتي ذكرها ــ ثم شيخ قبيلة مطغرة بهلول بن عبد الواحد؛ غير أن تلك المحاولات اليائسة أجهضها إدريس الثاني؛ بفضل حزمه وحسن سياسته.

وازدادت الدولة الإدريسية ــ مع مرور الوقت ــ عزة وعنفوانا؛ تبعا لمن وفد إليها من وجوه العرب وفرسانهم أصحاب الخبرة والكفاءة. إذ جاء بعضهم من إفريقية، وبعضهم الآخر من الأندلس.[1] وتقدر المصادر عدد الوافدين من العرب ــ خلال سنة واحدة فقط؛ وهي سنة 189هـ (804م) ــ بحوالي: خمسمائة فارس؛ ينتمون إلى قبائل عربية مختلفة؛ كبني يحصب، والأزد، ومدلج. فسر إدريس بالوافدين، وقربهم إليه، ورفع منازلهم، واتخذهم بطانة، وخاصة له؛ فاستوزر بعضهم، واستكتب آخرين، وأسند القضاء لأصحاب الكفاءة منهم.[2]

---

[1] كما قدم جماعة من الفرس وافدين إلى فاس من بغداد؛ وهم الذي قال فيهم ابن أبي زرع: ((ووفد عليه [أي إدريس] في تلك الأيام جماعة من الفرس؛ من بلاد العراق؛ فأنزلهم بناحية عين علون؛ ومنهم بنو ملونة)). الأنيس المطرب، ص: 29.

[2] فمما قاله ابن أبي زرع: ((وفي سنة تسع وثمانين ومائة وفدت على إدريس وفود العرب من بلاد إفريقية وبلاد الأندلس ــ في نحو الخمسمائة من القيسية والأزد ومذحج والصدف وغيرهم ــ فسر إدريس بوفادتهم، وأجزل صلاتهم وقربهم، ورفع منازلهم وجعلهم بطانته دون البربر؛ فاعتز بهم؛ لأنه

غيـــر أن هـــذا السلـــوك أغضـــب شيـــخ قبيلـــة أوربـــة إسحـــاق بـــن محمـــد بـــن عبـــد الحميـــد؛ فطفـــح كيلـــه في هـــذه المـــرة؛ وتململـــت عصبيتـــه؛ خاصـــة أنـــه سبـــق أن استـــاء مـــن تصـــرف إدريـــس الثـــاني؛ بعـــد أن رأى قبيلتـــه وأهـــل عصبيتـــه يفقـــدون ــ يومـــا بعـــد يـــوم ــ مواقعهـــم المتميـــزة؛ وأخـــذت حظوتهـــم السابقـــة في البـــلاط تتـــلاشى.

وذلـــك أنـــه بعـــد اتســـاع نفـــوذ الدولـــة، وانضمـــام قبائـــل أمازيغيـــة عديـــدة (بتريـــة وبرنسيـــة) إليهـــا؛ نـــال بعضهـــم حظـــوة عظيمـــة، وقربـــا ملحوظـــا في بـــلاط الإمـــام إدريـــس. فلـــم يستســـغ شيـــخ أوربـــة هـــذا الأمـــر؛ ولكنـــه سكـــت عـــلى مضـــض. غيـــر أنـــه رأى ــ مـــرة أخـــرى ــ تماديـــا؛ في ذلـــك السلـــوك الـــذي اعتبـــره مجحفـــا ومثيـــرا. فلـــم يتقبـــل مـــا شاهـــده مـــن حظـــوة وعنايـــة تلاقيهمـــا وفـــود العـــرب؛ تلـــك الحظـــوة الـــتي كانـــت في السابـــق موقوفـــة عليـــه، وعـــلى قومـــه لا غيـــر. نظـــرا لكونهـــم أصحـــاب الفضـــل الأول في قيـــام الدولـــة.

كـــان فريـــدا بيـــن البربـــر؛ ليـــس معـــه عـــربي؛ فاستـــوزر عميـــر بـــن مصعـــب الأزدي؛ وكـــان مـــن فرســـان العـــرب وساداتهـــم؛ ولأبيـــه مصعـــب مأثـــرة عظيمـــة بإفريقيـــة والأندلـــس، ومشاهـــد في غـــزو الـــروم كثيـــرة. واستقـــضا منهـــم عامـــر بـــن محمـــد ابـــن سعيـــد القيـــسي ــ مـــن قيـــس غيـــلان ــ وكـــان رجـــلا صالحـــا ورعـــا فقيهـــا؛ سمـــع مالكـــا وسفيـــان الثـــوري، وروى عنهـــم[!] كثيـــرا؛ ثـــم خـــرج إلى الأندلـــس برســـم الجهـــاد؛ ثـــم جـــاز إلى العـــدوة؛ فوفـــد بهـــا عـــلى إدريـــس؛ فيمـــن وفـــد عليـــه مـــن العـــرب)). الأنيـــس المطـــرب، ص: 13.

وعليه فقد تحركت في داخله بذور العصبية؛ التي كانت كامنة في صدره؛ تنتظر موعد الإنبات؛ فدفعته نخوته وعصبيته إلى الاتصال بعدو الدولة اللدود ابن الأغلب؛ (والي القيروان) التابع للدولة العباسية؛ بغرض التآمر على إدريس. وهنا.. كشرت طبيعة الملك على أنيابها؛ طبقا لمقتضاها في الرد؛ بقوة وحزم وبدون شفقة. فكان مصير شيخ أوربة إسحاق بن عبد الحميد هو القتل.[1] ولم تشفع له مواقفه السابقة مع إدريس الأول؛ خاصة وأن هذا السلطان ــ الثاني في الدولة ــ لم يعش الأيام التي نشأت فيها الدولة، ولم يشاهد ــ بنفسه ــ الخدمات الجليلة التي قدمها شيخ أوربة إلى أبيه إدريس. وبهذا يصح ما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أطوار الدولة، واختلاف أحوالها وخلق أهلها باختلاف الأطوار**".[2]

---

[1] **المغرب، ص: 123. العبر، م: 4، ص: 26.**

[2] **حيث قال واصفا سلوك بعض الحكام : ((الطور الثاني: طور الاستبداد على قومه، والانفراد دونهم بالملك، وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال، واتخاذ الموالي والصنائع، والاستكثار من ذلك؛ لجدع أنوف أهل عصبيته، وعشيرته المقاسمين له في نسبه، الضاربين في الملك بمثل سهمه فهو يدافعهم عن الأمر، ويصدهم عن موارده، ويردهم على أعقابهم أن يخلصوا إليه؛ حتى يُقِرَّ الأمرَ في نصابه، ويُفْرِدَ أهل بيته بما يبني من مجده. فيعاني من مدافعتهم، ومغالبتهم مثل ما عاناه الأولون في طلب الأمر أو أشد؛ لأن الأولين دافعتهم الأجانب؛ فكان ظهراؤهم على مدافعتهم أهل العصبية**

وبعد هذا تفاقمت عزلة أوربة، وازداد نفوذها ضعفا وفتورا. حدث ذلك ــ على الخصوص ــ بعد انتقال عاصمة الدولة من وليلي إلى مدينة فاس ــ الحاضرة الجديدة للدولة ــ وهي التي أنشأها إدريس الثاني لهذا الغرض؛ حتى تستوعب القبائل التابعة للدولة جميعها؛ خاصة وأن من القبائل ــ التي التحقت بخدمة الدولة الإدريسية ــ ما يفوق قبيلة أوربة عددا وعدة. فتعزز بهم مركز مدينة فاس، وازدهر العمران بها، وأينعت حضارتها، فغدت مصدر إشعاع حضاري وثقافي عظيم بالمغرب. وقد ساعدها مركزها المتميز، وموقعها الجيد، وثرواتها: المائية والفلاحية والمعدنية؛ على مضاهاة كبريات الحواضر الإسلامية آنئذ.[1]

بأجمعهم؛ وهذا يدافع الأقارب؛ لا يظاهره على مدافعتهم إلا الأقل من الأباعد؛ فيركب صعبا من الأمر)). المقدمة، ج: 2، ص: 664.

[1] أنظر الأنيس المطرب؛ ففيه عرض وافي لمدينة فاس.

وعندما يئس الأغالبة من تفكيك وحدة القبائل المناصرة للأدارسة؛ وأحسوا بالعجز في القضاء على دولتهم؛ تحولوا إلى استعمال سلاح آخر؛ وهو سلاح الإشاعة، والحرب النفسية؛ إذ عملوا على بث الشك في انتساب إدريس الثاني إلى الهاشميين؛ وذلك بنشر إشاعة مفادها أنه ابن راشد الوصي؛ ولكن سعيهم هذا باء بالفشل أيضا.[1]

هذا وتوفي إدريس بن إدريس بوليلي سنة 213هـ (828م) مختنقا بحبة عنب؛ تسربت في مجرى الهواء بحلقومه.[2] وأولاد إدريس الثاني هم: إدريس، ومحمد، وأحمد، وعبد الله، وعبيد الله، وداود،

---

[1] **ومما يدخل في سياق هذه الإشاعة الواهية؛ قول أحدهم؛ ويسمى محمد بن السمهري؛ يهجو القاسم بن إدريس بن إدريس أمير بصرة وطنجة ونواحيهما:**

قُلْ لِلزَّنِيمِ زَنِيمِ طَنجَةَ عِشْ بهَا
لاَ يَحْسدَنَّكَ فِي بِلاَدِكَ حَاسِدُ
مَنَّتْكَ نَفْسُكَ أنْ تَكُونَ خَلِيفَةً
هَيْهَاتَ هَذا مِنْ حَدِيثِكَ بَارِدُ
لَمَّا رَأَيْتُكَ لِلنِّظَامِ مُصَافِياً
أَيْقَنْتُ حَقًّا أنْ جَدَّكَ رَاشِدُ

وفي هذا السياق يقول ابن خلدون: ((وعجز الأغالبة من بعد ذلك عن مدافعة هؤلاء الأدارسة؛ ودافعوا خلفاء بني العباس بالمعاذير؛ بالغض من إدريس، والقدح في نسبه إلى أبيه إدريس؛ بما هو أوهن من خيوط العناكب)). العبر ، مج: 4، ص: 27.

[2] **المغرب، ص: 123.**

ويحيى، والحسن، والحسين، وعيسى، وعمر، وجعفر، وحمزة، والقاسم.[1]

ـ حكومة محمد بن إدريس بن إدريس:

ولما توفي إدريس الثاني خلفه ولده محمد؛ الذي قام بتقسيم مقاطعات الدولة بين اخوته؛ تبعا لوصية جدته كنزة أم إدريس. إذ أبقى لنفسه حاضرة الدولة (مدينة فاس)؛ بينما خص أخاه القاسم بطنجة وبصرة ونواحيهما، أما صنهاجة وغمارة فكانتا من نصيب أخيه عمر، وبلاد هوارة وتسول وتازي لأخيه داود، وأغمات ونفيس والمصامدة ولمطة والسوس الأقصى لعبد الله، وأصيلا والعرائش وبلاد زواغة ليحيى، وشالة وسلا وأزمور وتامسنا لعيسى، ووليلي وأعمالها لحمزة.[2] أما تلمسان وبعض الجهات من المغرب الأوسط فكانت من نصيب بني عمه سليمان بن

---

[1] الجمهرة، ص: 49. أما البكري وابن أبي زرع فأسقطا اسمي الحسن والحسين؛ وذكرا البقية؛ وكان عددهم اثني عشر ولدا ذكرا هم: محمد وأحمد وعبيد الله وعيسى وإدريس وجعفر وحمزة ويحيى وعبد الله والقاسم وداود وعمر. المغرب، ص ص: 123 ــ 124. الأنيس المطرب، ص: 27. وحتى ابن الخطيب ذكر أن عددهم اثنا عشرة؛ ولكنه لم يسمهم. أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 202.

[2] أنظر المغرب، ص: 124. والأنيس المطرب، ص: 28. أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 202 ــ 205.

والعبر، مج: 4، ص ص: 27 ــ 28.

عبد الله.[1] وقد نتج عن هذا التصرف بعض المشاكل؛ إذ شجع بعض اخوته على المطالبة بالمزيد، ومحاولة الاستبداد بما تحت أيديهم. فأعلنوا العصيان والثورة عليه. عندها نشبت الفتن بينهم؛ غير أن أخاه عمر بقي وفيا له؛ فكلفه بمحاربة إخوانه العصاة؛ فنفذ له أمره؛ ولما حقق له ما أراد؛ جازاه خير الجزاء؛ إذ ضم إليه ولايات اخوته العاصين. وعمر هذا هو جد ملوك بني حمود؛ الذين امتلكوا الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية. وكانت وفاة عمر في عام 220هـ (835م) ودفن بفاس. فأسند محمد أعمال أخيه عمر لولده علي ابن عمر؛ ولم تطل الحياة بمحمد هو الآخر؛ إذ التحق بأخيه عمر سنة 221هـ. وذكر ابن الخطيب من أولاد محمد بن إدريس ثلاثة هم: علي وإدريس وعبد الله.[2] أضف إليهم الأمير يحيى الذي خلف أخاه عليا فيما بعد.

---

[1] العبر، مج: 4، ص: 28. غير أن ابن الخطيب يقول أن الذي ولي تلمسان هو حمزة. والراجح أنه أخطأ. أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 205.

[2] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 207. يبدو أن هناك أسماء أخرى لم يذكرها ابن الخطيب؛ وإلا فكيف نفسر تولي من يدعى يحيى بن محمد بعد أخيه علي؟

ـ حكومة ابني محمد: علي ويحيى:

وخلف محمدا ـ بعد وفاته ـ ابنه عليٌّ؛ وكان يلقب بحيدرة؛ تيمنا بجد العلويين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. ونسبت المصادر لعلي هذا ـ على الرغم من صغر سنه؛ إذ كان سنة عند توليه تسعة سنوات وأربعة أشهر ـ النباهة والفطنة والذكاء؛ كما يقال أن أيام حكمه مرت في هدوء وسكينة وهناء.[1] ويرجح أن السمعة الحسنة التي أضفيت على عهده؛ ترجع في الأساس إلى سهر القائمين على تسيير دولته؛ من رجال بلاط أبيه. هذا وتولى ـ بعد موته سنة 234هـ (848م) ـ أمر الدولة أخوه يحيى بن محمد.[2] فقام بشئون الدولة على أحسن وجه؛ إذ تجلت عظمة الدولة

---

[1] قال فيه ابن خلدون: ((بعد أن استخلف ولده عليا ـ في مرضه ـ وهو ابن تسع سنين؛ فقام بأمره الأولياء والحاشية من العرب وأوربة وسائر البربر وصنائع الدولة وبايعوه غلاما مترعا؛ وقاموا بأمره، وأحسنوا كفالته وطاعته؛ فكانت أيامه خير أيام)). العبر، مج: 4، ص: 29.

[2] هنا يختلف المؤرخون حول من تولى الحكم بعد علي بن محمد. فالبكري وابن الخطيب يقولان بان الذي خلف علي هو ابن أخيه يحيى بن يحيي ابن محمد. أما ابن أبي زرع وابن خلدون فيريان أن الذي تولي الحكم هو يحيى بن محمد نفسه. ومن جهة أخرى فقد تجاهل ابن عذاري تماما ولاية علي بن محمد؛ إذ انتقل مباشرة إلى أخيه يحيى. وبذلك تعتبر الفترة التي تلت موت محمد بن إدريس سنة 221هـ؛ وحتى قيام حكومة يحيى ابن إدريس بن عمر بن إدريس سنة 292هـ شديدة الغموض والإبهام. أنظر: المغرب، ص: 124. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 211. والأنيس المطرب، ص: 29. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 207. والعبر، 29.

الإدريسية في عهده كما قيل.[1] حيث اهتم بالعمران والبناء، وتنشيط التجارة في مملكته، وتشجيع القادمين إليها من الأندلس والأقطار الأخرى. كما بنيت في عهده النواة الأولى لجامع القرويين في سنة 245هـ (859م)؛ بأموال تبرعت بها امرأة ثرية محسنة من أهل القيروان تدعى فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني. والغريب أن المصادر التاريخية التي اطلعنا عليها لم تشر إلى سنة وفاة يحيى بن محمد. وفي العبر بقي موضع تاريخ الوفاة فارغا؛ إذ جاء فيه: ((**وهلك يحيى هذا سنة....**)).[2]

---

[1] **يقول ابن أبي زرع: ((وولي بعد وفاة أخيه علي، وبعهده إليه في حياته؛ فسار بسيرة أخيه وأبيه وجده. وفي أيامه كثرت العمارة بفاس؛ وقصد إليها الناس من الأندلس وإفريقية وجميع بلاد المغرب؛ فضاقت بسكانها؛ فبنا الناس الأرباض بخارجها؛ وبنا الأمير يحيى بها الحمامات والفنادق للتجارة؛ وفي أيامهم بني جامع القرويين شرفه الله)). الأنيس المطرب، ص: 29. أنظر أيضا العبر، مج: 4، ص ص: 29 ـــ 30.**

[2] **العبر، مج: 4، ص: 30.**

كما أن المصادر كلها خلت المصادر من التفاصيل الضرورية التي تستحقها هذه الفترة التاريخية المزدهرة ــ حسب قولهم ــ من عهد الدولة الإدريسية.

ــ حكومة يحيى بن يحيى بن محمد:

وبعد وفاة يحيى بن محمد[1] خلفه ولده يحيى ابن يحيى. وكان هذا الأخير سيئ السيرة، سكيرا، عربيدا، فاسد الخلق. وقد ارتكب حماقة قضت على حكمه؛ وذلك عندما تهجم على امرأة يهودية في الحمام؛ فأثارت تلك الحادثة عليه الرعية، وأخرجوه إلى عدوة الأندلس؛ حيث توفي بعد ليلتين من خروجه كمدا وحرقة.[2] وقدم ــ بعد ذلك ــ والد زوجته، وابن عمه عليٌّ بن عمر بجيشه من بلاد الريف فدخل فاسا وتولى الحكم بدلا من يحيى بن يحيى بن محمد. وبذلك انتقل الحكم في الدولة الإدريسية من أسرة محمد بن إدريس إلى أسرة عمر بن إدريس. هذا ولا يوجد ما يمكن قوله بخصوص حكومة يحيى هذا. إذ يبدو أن فترة حكمه لم تدم طويلا؛ ولم يسجل التاريخ عنه سوى فضائحه الخلقية.

---

[1] لم تذكر المصادر المتوفرة تاريخ وفاته، ولا تاريخ ولاية الذي خلفه.

[2] المغرب، ص: 124. الأنيس المطرب، ص: 46. البيان المغرب، ج: 1، ص: 211. أعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 207. العبر، مج: 4، ص: 30.

ـ حكومة علي بن عمر بن إدريس:

كان هذا الأمير يحكم بلاد الريف؛ ولما ثار سكان فاس على أميرهم يحيى؛ استدعى أعيان الدولة عليا هذا ليتولى الحكم بفاس؛ فقدم إليها في ظروف غامضة؛ حيث بويع من طرف أهل الحل والعقد. ولم تشر المصادر المتوفرة إلى تاريخ ولايته، ولا تاريخ سقوط حكمه. وكل ما ذكر هو أن الدولة في عهده مرت بمراحل حرجة ـ نتيجة لظروف خارجية وداخلية ـ سادت فيها الاضطرابات والفتن بين الأمير علي وبعض الثوار من الصفرية؛ بقيادة عبد الرزاق الفهري الخارجي؛[1] الذي كان متمركزا بجبال ويلان بمديونة؛ جنوب فاس. فتغلب هذا الثائر الصفري على علي بن عمر، وأخرجه من فاس؛ ثم اضطره للفرار إلى بلاد أوربة. هذا ولم يتمكن عبد الرزاق الصفري من الاستيلاء على عدوة القيروانيين؛ فاكتفى بعدوة الأندلسيين؛[2] حيث بقي فيها إلى أن ظهر الأمير يحيى بن القاسم. وهو كما يظهر من اسمه يتبع الفرع الثالث من أبناء إدريس؛ أي فرع القاسم ابن إدريس.

---

[1] سبق الحديث عنه عند التطرق للأمراء الثائرين من الخوارج؛ في الفصل السابق.

[2] تبقى الفترة الزمنية الفاصلة ما بين موت علي بن محمد؛ وتولي يحيى ابن إدريس بن عمر غامضة وغير واضحة المعالم. والمصادر التاريخية كلها تتخلص من الموضوع بجمل خاطفة لا تفيد.

ـ حكومة يحيى بن القاسم بن إدريس:

ولما انهزم علي بن عمر أمام عبد الرزاق الصفري؛ ودخول هذا الأخير عدوة الأندلسيين؛ أرسل أهل العدوة الأخرى في طلب يحيى بن القاسم بن إدريس بن إدريس الملقب بالمقدام أو العدام؛[1] وقد تمكن هذا الأمير الحازم من استرجاع عدوة الأندلسيين؛ بعد أن طرد منها الخوارج. وشدد ـ من هناك ـ الضغط على أولئك الثوار الصفرية، ولاحقهم في معاقلهم، وكانت له معهم وقائع هامة؛ ولكنه لم يهنأ طويلا؛ إذ اغتاله شخص سمته المصادر ـ دون توضيح يذكر ـ بالربيع بن سليمان سنة 292هـ (904م). وبموته عاد عرش الدولة إلى أسرة عمر بن إدريس مرة أخرى؛ من خلال الأمير يحيى بن إدريس بن عمر. وعلى الرغم من الأحداث الكبرى التي عرفتها هذه الفترة ـ ولو كانت قصيرة ـ فإن المصادر التاريخية وقفت عاجزة عن تقديم شيء مهم للقارئ.

---

[1] **يقول البكري وابن الخطيب: أنه عرف باسم العدام، أما ابن أبي زرع وابن عذاري فيسمياته العوام، أما ابن خلدون فيسميه الصرام. ويبدو أن الاسم تعرض للتحريف.**

ـ حكومة يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس:

وهكذا رجع الحكم في فاس ـ من جديد ـ إلى أسرة عمر بن إدريس؛ وذلك بعد أن انتصب يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس صاحب الريف على عرش فاس سنة 292هـ (904م). فقام هذا الأمير بأمر الدولة خير قيام.[1] وأعلنت الخطبة بطاعته في بلاد المغرب الأقصى بكاملها. وتعتبر المصادر الأمير يحيى هذا أفضل بني إدريس شأنا، وأوسعهم ملكا، وأهمهم ذكرا، وأعلاهم قدرا، وأزكاهم عدلا؛ نظرا لسعة علمه، وفضل أدبه، وسداد فقهه، وفصاحة لسانه، وصواب حفظه للحديث الشريف.[2] ومع هذا لم يسعفه الحظ

---

[1] وفيه يقول ابن خلدون نقلا عن ابن زرع بتصرف: ((فملك جميع أعمال الأدارسة، وخطب له على سائر أعمال المغرب، وكان أعلى بني إدريس ملكا وأعظمهم سلطانا؛ وكان فقيها، عارفا بالحديث؛ ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في السلطان والدولة. وفي أثناء ذلك كله خلص الملك للشيعة بإفريقية، وتغلبوا على الإسكندرية، واختطوا المهدية ـ كما نذكره في دولة كتامة ـ ثم طمحوا إلى ملك المغرب؛ وعقدوا لمصالة بن حبوس كبير مكناسة، وصاحب تاهرت على محاربة ملوكه سنة خمس وثلاثمائة؛ فزحف إليه في عساكر مكناسة وكتامة؛ وبرز لمدافعته يحيى بن إدريس صاحب المغرب بجموعه من المغرب، وأولياء الدولة من أوربة، وسائر البرابرة والموالي؛ فالتقوا على مكناسة، وكانت الدبرة على يحيى وقومه؛ ورجع إلى فاس)). العبر، مج: 4، ص: 31. الأنيس المطرب، ص: 48.

[2] كتب البكري: ((قال علي النوفلي: "كان يشهد مجلس يحيى بن إدريس العلماء والشعراء؛ وكان أبو احمد الشافعي من جلسائه، وممن يتكلم عنده في العلم؛ وكان ينسخ له عدة الوراقين، وينتجعه الناس من الأندلس وغيرها؛ فيحسن إلى جميعهم، وينصرفون عنه أكرم منصرف)). المغرب، ص: 132.

طويلا؛ حيث شاءت الأقدار أن تسوق إليه مصالة ابن حبوس المكناسي؛ في جيش الفاطميين؛ وذلك سنة 305هـ (917م). فتصدى له يحيى؛ ولكن مدافعته لم تجد نفعا؛ فاضطر إلى اللجوء خلف الأسوار عندما شعر بالعجز. وأخيرا اضطرته الأوضاع إلى خيار المصالحة والتسليم لمصالة؛ بشرط أن يتركه في سدة العرش مقابل قدر من المال؛ مع إعلان بيعته للخليفة الفاطمي أبي عبيد الله. ولما تم ذلك عاد مصالة إلى إفريقية.

واتضح أن هذه الهزيمة قد أثرَتْ سلبا على استقرار الدولة الإدريسية وسيادتها؛ وخاصة بعد أن أجبر أميرها على إعلان طاعته وولائه للدولة الفاطمية. وكان هذا الأمر بداية انحدار الدولة الإدريسية نحو السقوط النهائي. إذ كان لظهور مصالة بن حبوس المكناسي على مسرح الأحداث وقع خطير على أمن الدولة؛ حيث أنه كان يميل إلى عصبيته المكناسية؛ وتبعا لذلك فقد انحاز إلى أبناء عمه بني أبي العافية المكناسيين؛ المعروفين بشدة العداء للأدارسة؛ أين تآمر معهم على إسقاط الدولة الإدريسية؛ مع أنه عقد مع سلطانها صلحا قائما على شروط؛ لم ينكثها يحيى بن إدريس.[1]

---

[1] يقول ابن أبي زرع: ((وكان موسي بن أبي العافية ــ صاحب تسول وبلاد تازا ــ قد خدم القايد مصالة، وهاداه وتقرب إليه بالإحسان؛ وقاتل معه في جميع حروبه بالمغرب. فلما انصرف مصالة إلى القيروان؛ قدمه على المغرب، واختصه من بين سائر أمرائه. فكان موسى بن أبي العافية كلما أراد

وهكذا ظهر أنه كما قامت الدولة الإدريسية بواسطة عصبية قبيلة أوربة البرنسية؛ شاءت لها الأقدار أن تتفكك، وتنهار بواسطة عصبية قبيلة أخرى منافسة؛ وهي قبيلة مكناسة؛ التي انضمت إلى حلف: كتامة وصنهاجة؛ المسخر لخدمة الدولة الفاطمية. تم ذلك حين أرسل عبيد الله المهدي قائد جيوشه؛ مصالة بن حبوس بن منازل بن بهلول المكناسي إلى فاس؛ بغرض إخضاعها. فتمكن من الانتصار على الأدارسة ــ كما سبق ذكره ــ حيث انتزع بيعتهم للمهدي سنة 305هـ (917م). ولكن أضاف بعض الأشياء التي أوحت بها إليه عصبيته المكناسية؛ إذ استهوته فكرة تقسيم النفوذ والسلطان ــ في تلك الديار ــ بين الأدارسة وأهل عصبيته الممثلين في قبيلة مكناسة. فبادر ــ من فوره ــ إلى منح شيخ مكناسة ــ موسى بن أبي العافية ابن أبي باسل بن أبي الضحاك المكناسي ــ

الظهور بالمغرب والاستبداد فيه؛ غمره يحيى بن إدريس الحسني؛ بشرفه وكرمه ودينه وعدله؛ وقطع به على كل ما يريد؛ فكان على قلبه منه حملا ثقيلا. فلما قدم مصالة المغرب في كرته الثانية؛ وذلك في سنة تسع وثلاث مائة؛ سعى موسى بن أبي العافية بيحيى بن إدريس عنده؛ حتى وغر صدره عليه؛ فعزم مصالة على القبض عليه. فلما قرب من مدينة فاس؛ خرج إليه الأمير يحيى بن إدريس ليسلم عليه ــ في قوم من وجوه عسكره ــ فقبض عليهم مصالة؛ وقيد يحيى بالحديد. ودخل مصالة مدينة فاس؛ ويحيى بن إدريس بين يديه مقيدا على جمل؛ فعذبه بأنواع من العذاب؛ حتى أخرج إليه جميع أمواله وذخائره. فلما قبض مصالة الأموال أطلقه ونفاه إلى ناحية مدينة أصيلا)). الأنيس المطرب، ص ص: 48 ــ 49.

مـــا طلبـــه مـــن نفـــوذ واســـع خـــارج أســـوار فـــاس. وفي المقابـــل حصـــر نفـــوذ الدولـــة الإدريسيـــة داخـــل تلـــك الأســـوار. وهنـــا اشتعـــل الصراع بيـــن القبيلـــة الفتيـــة؛ المتطلعـــة إلى الملـــك، وبيـــن الدولـــة الـــتي تســـرب إليهـــا الوهـــن والانحـــلال. فكـــان هـــذا الإجـــراء ــ المتخـــذ مـــن طـــرف مصالـــة ــ يعتبـــر بمثابـــة الضـــوء الأخضـــر؛ الـــذي أطلـــق يـــد ابـــن عمـــه مـــوسى بـــن العافيـــة؛ لـــكي يتحـــرش بيحـــيى بـــن إدريـــس أميـــر الأدارســـة. وعليـــه فقـــد وجـــد ابـــن أبي العافيـــة فرصـــة مواتيـــة لمواصلـــة استفـــزازه وتحرشـــه بالأدارســـة. وذلـــك لأنـــه لـــم يقتنـــع بمـــا حصـــل عليـــه مـــن نفـــوذ وسلطـــات ورئاســـة؛ إذ كـــان ــ في الحقيقـــة ــ يطلـــب مرتبـــة الملـــك نفســـه؛ ذلـــك الملـــك الـــذي تســـعى إليـــه كـــل عصبيـــة تحـــس في ذاتهـــا القـــدرة عـــلى الوصـــول إليـــه. فالعصبيـــة المكناسيـــة في هـــذه الحـــال ينطبـــق عليهـــا مـــا جـــاء في مقدمـــة ابـــن خلـــدون ضمـــن: "**فصـــل في أن الغايـــة الـــتي تجـــري إليهـــا العصبيـــة هي الملـــك**".[1]

---

[1] حيـــث يقـــول: ((ثـــم إذا حصـــل التغلـــب بتلـــك العصبيـــة عـــلى قومهـــا؛ طلبـــت بطبعهـــا التغلـــب عـــلى أهـــل عصبيـــة أخـــرى بعيـــدة عنهـــا. فـــإذا كافأتهـــا، ومانعتهـــا كانـــوا أقتـــالا وأنظـــارا؛ ولكـــل واحـــدة منهـــا التغلـــب عـــلى حوزتهـــا وقومهـــا؛ شـــأن القبائـــل والأمـــم المتفرقـــة في العالـــم. وإن غلبتهـــا واستتبعتهـــا التحمـــت بهـــا أيضـــا، وزادتهـــا قـــوة في التغلـــب إلى قوتهـــا؛ وطلبـــت غايـــة في التغلـــب والتحكـــم أعـــلى مـــن الغايـــة الأولى وأبعـــد. وهكـــذا دائمـــا حـــتى تكـــافئ بقوتهـــا الدولـــة. فـــإن أدركـــت الدولـــة في هَـــرَمِهَـــا ولـــم يكـــن لهـــا ممانـــع مـــن أوليـــاء الدولـــة أهـــل العصبيـــات استولـــت عليهـــا وانتزعـــت الأمـــر مـــن يدهـــا، وصـــار الملـــك أجْـــمَـــعُ لهـــا. وإن انتهـــت إلى قوتهـــا ولـــم يقـــارن ذلـــك هـــرم الدولـــة وإنمـــا قـــارن حاجتهـــا إلى الاستظهـــار بأهـــل

وهكذا استمر موسى بن العافية في إلحاحه على ابن عمه مصالة؛ حتى حقق له مآربه كلها. حدث ذلك عندما قدم في المرة الثانية إلى غرب البلاد؛ أين قبض على أمير الدولة الإدريسية يحيى بن إدريس؛ في سنة 309هـ (921م)؛ بخديعة دبرها وأحكمها؛ ثم سلط عليه صنوفا من العذاب والإهانة. كما سلبه ذخائره وممتلكاته؛ وبعدها نفاه إلى أصيلا؛ حيث ساءت حاله؛ واشتدت عزلته؛ وتعاظمت حاجته، وازداد فقره؛ فخرج منها إلى الريف في رعاية بني عمه الأدارسة هناك؛ ولكنه قرر بعد ذلك التوجه إلى إفريقية؛ طمعا في استعطاف السلطان الفاطمي؛ فاعترض طريقه موسى ابن العافية؛ وسجنه عنده زهاء عشر سنين، ثم أطلق سراحه؛ فسار إلى المهدية ــ التي كانت آنئذ محاصرة من قبل أبي يزيد صاحب الحمار ــ فمات بها جوعا وكمدا سنة 332هـ (943م).[1] أما فاس فقد ولى مصالة عليها ريحان بن علي الكتامي؛ إلى أن قام عليه أمير آخر من أسرة الأدارسة.

العصبيات انتظمتها الدولة في أوليائها؛ تستظهر بها على ما يعن من مقاصدها)). المقدمة، ج: 2، ص: 610.

[1] المغرب، ص: 126. والأنيس المطرب، ص: 49. والعبر، مج: 4، ص: 32.

ـ حكومة الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس:

وبذلك يتضح؛ أن ثمة بقية من الحياة مازالت تنبض بالنشاط والحيوية في الأسرة الإدريسية؛ حيث ظهر على مسرح الأحداث أمير إدريسي آخر؛ وهو الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجام؛ وذلك حين ثار سنة 310هـ (922م)[1] على ريحان بن عليّ الكتامي؛ الذي ولاَّه مصالة على أعمال فاس؛ قبل عودته إلى إفريقية. ولما تغلب عليه الحسن بن محمد نفاه عن فاس إلى إفريقية. وكان الأمير الحسن موصوفا بالشجاعة والإقدام والفروسية. وقد عرف بلقب الحجام؛ لأنه حدث أن كان ـ في بعض حروبه ـ لا يطعن أحدا إلا في موضع المحاجم؛ فقيل عنه صار حجاما؛[2] ومن هنا قال هو أو قال أحدهم على لسانه:

وَسُمِيتُ حَجَّاماً وَلَسْتُ بحَاجمٍ

وَلَكنْ لِضَرْبِي فِي مكانِ المَحَاجمِ

---

[1] يقول البكري أن تولية ريحان الكتامي تمت في سنة 307هـ؛ وثار عليه الحسن الحجام في سنة 316هـ؛ المغرب، ص: 126. أما ابن خلدون فيقول أن تولي ريحان على فاس تم في سنة 309هـ؛ أما قيام الحسن عليه فحدث في سنة 313هـ. العبر، مج: 4، ص: 32. ومج: 6، ص: 447.

[2] أما ابن حزم فيقول: ((سمي الحجّام لكثرة سفكه للدماء)). الجمهرة، 50.

وبعد أن استولى الحجام على فاس؛ خرج لحرب موسى بن أبي العافية؛ فوقعت بينهما معركة حامية؛ سنة 311هـ (923م). قال عنها المؤرخون أنها كانت أشد معركة حدثت في عهد دولة الأدارسة؛ منذ وفاة جدهم إدريس؛ إذ قتل فيها من المكناسيين نحو ألفين وثلاثمائة قتيل؛ منهم ولد لموسى بن العافية واسمه منهل؛ ومن جيش الأدارسة قتل حوالي سبعمائة. ومع هذا لم يهنأ الأمير الحسن طويلا بالنصر؛ إذ تعرض لمؤامرة غادرة؛ قام بها مساعده وعامله على فاس؛ حامد ابن حمدان الهمداني؛ المعروف باللوزي؛ نسبة إلى قرية بإفريقية تسمى لوزة؛ وثمة من ينسبه إلى قبيلة أوربة.[1] انتهز هذا الرجل فرصة عودة سيده إلى المدينة منفردا؛ فانقض عليه واعتقله؛ ثم بعث إلى موسى بن العافية؛ داعيا إياه للقدوم؛ بعد أن أقفل أبواب فاس في وجه جيش الأدارسة. وبهذا تمكن موسى بن أبي العافية من دخول فاس واحتلالها. كما تعزز ملكه بموت الحسن الحجام.

---

[1] **الأنيس المطرب، ص: 50. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 213. والعبر، مج: 4، ص: 32.**

ومن الواجب التنبيه هنا إلى أن المصادر قد اختلفت؛ حول الكيفية التي مات بها الحسن الحجام؛ إذ قال بعضهم أنه مات مسموما؛ وبعضهم الآخر قال أنه مات بتأثير السقوط من السور الذي فرّ منه.[1]

والمهم هنا أنه مات بعد هذا الحادث. ولم تشر المصادر بشكل صريح إلى السنة التي مات فيها؛ وإن كانت قد قالت أن مدة حكم الحسن نحو عامين. وإذا كان قد ثار على ريحان الكتامي في سنة 310هـ (922م)؛ واشتبك مع ابن العافية سنة 311هـ (923م)؛ تكون إذن سنة سقوط حكمه هي أواخر عام 311هـ أو بداية عام 312هـ (924م). ولما استولى موسى بن أبي العافية على مدينة فاس؛ تحرش بصاحب الفضل عليه حامد بن حمدان؛ فخاف منه؛ فلم يجد أمامه منجى سوى الفرار إلى المهدية.[2] وذكر ابن حزم من ذرية

---

[1] **المغرب، ص: 127. الأنيس المطرب، ص: 50.**

[2] **رواية ابن خلدون تقول: ((وغدر به حامد بن حمدان الأوربي واعتقله. وبعث إلى موسى فوصل إلى فاس؛ وملكها؛ وطالبه بإحضار الحسن؛ فدافعه عن ذلك؛ وأطلق الحسن متنكرا؛ فتدلى من السور فسقط؛ ومات من ليلته. وفر حامد بن حمدان إلى المهدية... وذهب ملك الأدارسة؛ واستولى ابن أبي العافية على جميع المغرب؛ وأجلى بني محمد بن القاسم بن إدريس، وأخاه الحسن إلى الريف؛ فنزلوا البصرة؛ واجتمعوا إلى كبيرهم إبراهيم بن محمد ابن القاسم ــ أخي الحسن ــ وولوه عليهم؛ واختط لهم الحصن المعروف بهم هناك؛ وهو حجر النسر سنة سبع عشرة وثلاثمائة. ونزلوه. وبنو عمر**

الحسن الحجام: ((**القاسم بن محمد بن الحسن؛ الفقيه الشافعي بالقيروان؛ المعروف بابن الزبيري**)).[1]

وهكذا يتضح بأن تلك المحاولات اليائسة التي قام بها الحسن الحجام؛ لبعث الحياة في الدولة الإدريسية لم تُجْدِ نفعا؛ لأن حال الدولة الإدرسية أضحى مهلهلا ومتهالكا؛ إذ يبدو أنها دخلت في سن الشيخوخة؛ حيث تفشت بين أصحابها عاهات الفساد والانحلال، واستهوتهم مغريات الترف والسكينة والارتخاء؛ هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى فقد غدت قوى أعداء هذه الدولة متفوقة عليها؛ بفضل تحالفهم مع الفاطميين. وعليه فقد وصلت دولة الأدارسة إلى الحد الذي يشير إليه ابن خلدون في نظريته بقوله: ((**وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهَرَم؛ ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه، ولا يكون لها معه برءٌ؛ إلى أن تنقرض**)).[2]

ابن إدريس يومئذ بغمارة؛ من لدن تيجساس إلى سبتة وطنجة. وبقي إبراهيم كذلك)). العبر، مج: 4، ص: ص: 32 ـــ 33.

[1] الجمهرة، ص: 50. أما البكري فذكر أربعة من أولاد عمر وهم: علي، وإدريس، وعبيد الله، ومحمد. المغرب، ص: 131.

[2] المقدمة، ج: 2، ص: 666.

وعلى الرغم مما حل بهذه الدولة من أوضاع مزرية؛ وما أضحت عليه من وهن وتشرذم؛ فقد بقيت المواجهات بين أمرائها وأعدائهم قائمة؛ ــ وإن تغير الأشخاص واختلفت المواقع ــ إذ ظهر أن الأحداث لم تهدأ والأحوال لم تسكن أبدا. وجوهر الاختلاف يتمثل في تبدل المقاتلين، وتنوع ميادين الصدام والقتال. ومع ذلك فقد حل الموعد المحتوم لنهاية هذه الدولة؛ وذلك بعد مدة من الزمن ــ كما سبق ذكره ــ وصح ما قرره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص**".[1] وفي النهاية، وبعد مد

---

[1] حيث يقول: ((أما أعمار الدول ــ أيضا ــ وإن كانت تختلف بحسب القرانات؛ إلا أن الدولة ــ في الغالب ــ لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال. والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط؛ فيكون أربعين؛ الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته. قال تعالى: "حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة" [من آية 15 من سورة الأحقاف] ولهذا قلنا إن عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل... وإنما قلنا إن عمر الدولة لا يعدو ــ في الغالب ــ ثلاثة أجيال: لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها؛ من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد. فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم؛ فحدهم مرهف، وجانبهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون. والجيل الثاني تحول حالهم ــ بالملك والترفه ــ من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به، وكسل الباقين عن السعي فيه، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة؛ فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء؛ وتؤنس منهم المهانة والخضوع. ويبقى لهم الكثير من ذلك؛ بما أدركوا الجيل الأول، وباشروا أحوالهم، وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم إلى المجد، ومراميهم في المدافعة والحماية؛ فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية؛ وإن ذهب منه ما ذهب؛ ويكونون

وجـــزر؛ خلـــص الأمـــر إلى سقـــوط مـــا بـــقي مـــن قـــلاع للصمـــود في الدولـــة الإدريسيـــة؛ تحـــت ثقـــل الدولـــة الأمويـــة بالأندلـــس سنـــة 365هـــ (975م). ولكـــن كيـــف حـــدث كـــل ذلـــك..؟

****

ـ عصـــر التفكـــك والشتـــات:

أخـــذت الدولـــة الإدريسيـــة في التفكـــك إلى أجـــزاء صغيـــرة، وأطـــراف منفصلـــة؛ اعتبـــارا مـــن تاريـــخ سقـــوط حكومـــة الحســـن الحجـــام؛ أي في بدايـــة العقـــد الثـــاني مـــن القـــرن الرابـــع الهجـــري ـــ حيـــث غـــدت تشبـــه قطـــرة مـــن زئبـــق سقطـــت عـــلى مسطـــح؛ فتفتتـــت إلى جزيئـــات؛ تناثـــرت في كـــل الجهـــات. ومـــع هـــذا فقـــد بقيـــت خلايـــا تلـــك الدولـــة تنبـــض بالحيـــاة؛ وإن تفككـــت

عـــلى رجـــاء مـــن مراجعـــة الأحـــوال الـــتي كانـــت للجيـــل الأول؛ أو عـــلى ظـــن مـــن وجودهـــا فيهـــم. وأمـــا الجيـــل الثالـــث فينســـون عهـــد البـــداوة والخشونـــة كـــأن لـــم تكـــن، ويفقـــدون حـــلاوة العـــز والعصبيـــة؛ بمـــا هـــم فيـــه مـــن ملكـــة القهـــر؛ ويبلـــغ فيهـــم التـــرف غايتـــه؛ بمـــا تفنقـــوه [أي تنعمـــوا] مـــن النعيـــم، وغضـــارة [أي النعمـــة والسعـــة] العيـــش؛ فيصيـــرون عيـــالا عـــلى الدولـــة؛ ومـــن جملـــة النســـاء والولـــدان المحتاجيـــن للمدافعـــة عنهـــم؛ وتسقـــط العصبيـــة بالجملـــة... وهـــذه الأجيـــال الثلاثـــة عمرهـــا مائـــة ســـنة عـــلى مـــا مـــر. ولا تعـــدو الـــدول ـــ في الغالـــب ـــ هـــذا العمـــر؛ بتقريـــب قبلـــه أو بعـــده؛ إلا إذا عـــرض لهـــا عـــارض آخـــر؛ مـــن فقـــدان المطالـــب؛ فيكـــون الهـــرم حاصـــلا مستوليـــا؛ والطالـــب لـــم يحضرهـــا؛ ولـــو قـــد جـــاء الطالـــب؛ لمـــا وجـــد مدافعـــا. "فـــإذا جـــاء أجلهـــم لا يستأخـــرون ساعـــة ولا يستقدمـــون" [مـــن الآيـــة 61 مـــن ســـورة النحـــل]). المقدمـــة، ج: 2، ص ص: 655 ـــ 657.

لحمتهـا، وانشطـرت كتلتهـا، وتناثـرت أجـزاء وأطرافـا. وأضحـت عبـارة عـن مجموعـة مـن الكيانـات الـتي تحكـم المـدن.. وإمـارات مجهريـة ذات طابـع قبـلي؛ موزعـة عبـر التـراب المغـربي كلـه؛ وكانـت كلهـا تحـظى بحمايـة ورعايـة عجيبـة مـن طـرف القبائـل المغربيـة المختلفـة. وحـدث ذلـك خاصـة في مناطـق الساحـل الشمـالي للمغـرب، وبـلاد الريـف، وجبـال غمـارة.

غيـر أنـه بـرز مـن بيـن تلـك الإمـارات إمارتـان إدريسيتـان منفصلتـان ومتنافستـان: الأولى إمـارة بـني محمـد بـن القاسـم بـن إدريـس بـن إدريـس؛[1] وكانـت تحـت قيـادة إبراهيـم بـن محمـد بـن القاسـم بـن إدريـس بـن إدريـس. وهـو الـذي بـنى قلعـة منيعـة ليتحصـن فيهـا مـع أسرتـه وبـني عمومتـه؛ وتسـمى حجـر النسـر؛ وذلـك في سنـة 317هـ (929م)؛[2] وكانـت هـذه القلعـة تربـض عـلى ذروة جبـل شاهـق صعـب

---

[1] ذكـر البكـري أنهـم: ((حسـن وجنـون [واسمـه الحقيـقي أحمـد. ومعـنى جنـون بالأمازيغيـة القمـر] وإبراهيـم؛ بنـو محمـد بـن القاسـم. وكـان محمـد متخلفـا في إخوتـه وعشيرتـه؛ لا قـدر لـه؛ ثـم صـارت النباهـة والقـدر لبنيـه. وإبراهيـم بـن محمـد هـو المعـروف بالرهـوني. وكـان الـذي يلـزم صخـرة النسـر منهـم جنـون وحنـون ابنـا إبراهيـم. واسـم جنـون [قنـون] القاسـم [وهـو غيـر جنـون الأول ابـن محمـد بـن القاسـم بـن إدريـس؛ الـذي يسـمى أحمـد])). المغـرب، ص ص: 128 ــ 129. أنظـر أيضـا الجمهـرة، ص: 49.

[2] المغـرب، ص: 127. واضطـرب ابـن خلـدون في هـذا الخبـر؛ حيـث ذكـر ــ مـرة ــ أن بـاني القلعـة هـو إبراهيـم بـن محمـد؛ ــ ومـرة أخـرى ــ قـال أن الـذي بناهـا هـو محمـد بـن إبراهيـم بـن محمد. العبر، مج: 4، ص: 33. ومج: 6، ص: 447.

المنـــال؛ في نـــواحي الريـــف بجبـــال غمـــارة. أمـــا الإمـــارة الثانيـــة فـــهي لبـــني عمـــر بـــن إدريـــس بـــن إدريـــس؛ بقيـــادة أبي العيـــش[1] بـــن إدريـــس بـــن عمـــر بـــن إدريـــس؛[2] وقامـــت في جهـــات تيقيســـاس (تيكيســـاز) وسبتـــة وطنجـــة مـــن بـــلاد غمـــارة. وعـــلى هـــذا تكـــون قبيلـــة غمـــارة قـــد برهنـــت عـــلى أنهـــا مـــن أخلـــص قبائـــل المغـــرب لبـــني إدريـــس؛ حيـــث احتضنوهـــم، وآووهـــم في بلادهـــم، وأخلصـــوا الطاعـــة لهـــم جميعـــا؛ ســـواء كانـــوا مـــن بـــنى إبراهيـــم بـــن محمـــد بـــن القاســـم، أو مـــن بـــني عمـــر بـــن إدريـــس.[3]

---

[1] منعـا لكـل التبـاس؛ مـن الواجـب التنبيـه إلى أن اسـم أبي العيـش مستعمـل في عائلـتي الأدارسـة وبـني سليمـان. وثمـة عـدد مـن الأشخـاص يسمـون بهـذا الاسـم.

[2] يقـول البكـرى: ((وأمـا إدريـس بـن عمـر بـن إدريـس فهـو لبـاب ولـد عمـر ابـن إدريـس؛ وبولـده تكـرر الأمـر؛ إلى أن أكثرهـم بنـو محمـد بـن القاسـم. ومحمـد بـن إدريـس بـن عمـر هـو المعـروف بابـن ميالـة؛ يكـنى أبـا العيـش؛ ولـم يـزل مواليـا للناصـر عبـد الرحمـن رحمـه اللـه... وكـان لإدريـس بـن عمـر خمسـة مـن الولـد الذكـور غيـر هذيـن [يقصـد أبـا العيـش محمـدا ويحـيى الـذي تـولى الملـك بفـاس]؛ ولهـم عقـب كثيـر)). ثـم يضيـف: ((وأمـا أبـو العيـش بـن عبيـد اللـه فولـد حمـودا ويحـيى. فأمـا يحـيى فلـه بنـون بتازغـدرا. وأمـا حمـود فولـد القاسـم وعليـا وفاطمـة. فأمـا عـلي فـولي الخلافـة بالأندلـس سنـة سبـع وأربعمائـة)). المغـرب، ص ص: 132 ــ 133.

[3] يقـول ابـن خلـدون في هـذا: ((واستـولى ابـن أبي العافيـة عـلى فـاس، وأعمـال المغـرب؛ وأجـلى الأدارسـة وأحجرهـم بحصنهـم حجـر النسـر؛ وتحيـزوا إلى جبـال غمـارة وبـلاد الريـف. وكـان لغمـارة في التمسـك بدعوتهـم آثـار ومقامـات؛ واستجدوا بتلـك الناحيـة ملكـا؛ توزعـوه قطعـا. كـان أعظمهـا لبـني محمـد هـؤلاء، ولبـني عمـر بتيفيسـاس ونكـور وبـلاد الريـف)). العبـر، مج: 6، ص: 448.

غير أن موسى بن أبي العافية لم يكتف بما افتكه من أيدي الأدارسة؛ بل شحن عليهم بسعيه في مطاردتهم عبر البلاد المغربية كلها؛ إذ عمل جاهدا لتصفيتهم نهائيا، وإزالة وجودهم من تلك الديار؛ سواء كان ذلك بالقتل، أو بالنفي الأبدي.[1] حدث ذلك بعد أن تغلب موسى بن أبي العافية على معظم المغرب الأقصى؛ وبعض والأجزاء الغربية من المغرب الأوسط. وطارد الحسنيين في كل مكان؛ حتى أوشك أن يقضي على وجودهم نهائيا من تلك البلاد. ولم يفلت من مخالبه أو يتقي سطوته إلا الذين انحازوا إلى الريف؛ متحصنين بقلعة حجر النسر المنيعة؛ كما سبق قوله. وحتى هؤلاء حاول استئصالهم نهائيا لولا المعارضة التي واجهه بها أصحابه.[2]

---

[1] وصفت بعض المصادر والمراجع ما أحدثه ابن أبي العافية من مجازر في بلاد المغرب؛ كان الأدارسة من ضحاياها. وقال إسماعيل العربي؛ دون أن يشير إلى مصدره: ((وعقب ذلك؛ بدأ ابن أبي العافية في مطاردة الأدارسة وتقتيلهم جماعات وأفرادا؛ حتى أطلق على نهر فاس اسم النهر الأحمر؛ لغزارة الدماء ــ دماء الأدارسة خصوصا ــ التي سالت فيه)). كتاب دولة الأدارسة، ص: **154**.

[2] قال في هذا ابن أبي زرع: ((واستولى ابن أبي العافية على جميع بلاد المغرب؛ وبايعه القبائل والأشياخ؛ فأجلا جميع الأدارسة من بلادهم، وأخرجهم من ديارهم، وملك مدينة أصيلا، ومدينة شالة وغيرها من بلادهم. وساروا بأجمعهم إلى قلعة حجر النسر؛ مقهورين، مغلوبين؛ فانحصروا بها؛ وهي حصن منيع؛ بناه محمد بن إبراهيم بن القاسم بن إدريس؛ طلع في عنان السحاب. فنزل عليهم ابن أبي العافية؛ واشتد عليهم الحصار؛ وأراد استيصالهم،

وذلك أنه لما حاصرهم في قلعتهم، وتمادى في التضييق عليهم قصد استئصالهم نهائيا؛ اعترض عليه أصحابه؛ ومنعوه من تحقيق رغبته في القضاء ــ نهائيا ــ على الأدارسة. فعاد إلى فاس؛ بعد أن ترك حامية تقدر بألف فارس لمراقبتهم والتضييق عليهم. ولما عاد إلى مركز إمارته بفاس؛ طور زحفه نحو إمارة بني سليمان بن عبد الله بتلمسان. تلك الإمارة التي كان يقودها الحسن بن أبي العيش عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان الحسني.[1] وقد كان هذا الأمير ــ في تلك

وقطع دابرهم؛ فعدله على ذلك رؤساء المغرب، وأكابر أهل دولته؛ وقالوا له: "أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب، وتقتلهم أجمعين. هذا شيء لا نوافقك عليه، ولا نتركك له"؛ فاستحيا لذلك وارتحل عنهم إلى مدينة فاس؛ وخلف عليهم قائده أبا الفتح التسولي [في المغرب والبيان المغرب سمي أبا قمح] في ألف فارس؛ يمنعهم من التصرف؛ وذلك في سنة سبع عشرة وثلاثمائة)). الأنيس المطرب: ص: 51. أنظر أيضا المغرب، ص:128. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 214.

[1] وهو من أبناء سليمان؛ كما هو واضح من اسمه؛ وبذلك تكون يد ابن أبي العافية قد امتدت حتى إلى أبناء سليمان. وكان أبو العيش عيسى هو الذي شيد مدينة جراوة. وحول هذا يقول لكري: ((عيسى أبو العيش بن إدريس بن محمد بن سليمان؛ هو الذي بنا جراوة؛ وكان أميرها؛ وبها توفي)). المغرب، ص: 77. ويضيف ابن عذاري: ((أسسها أبو العيش في سنة 257هـ؛ ووليها بعده ابنه الحسن بن أبي العيش في سنة 291هـ؛ وخرج منها إلى حصن المنصورة في سنة 319هـ؛ ثم عاد إليها في سنة 323هـ؛ ثم انتقل منها إلى تلمسان في سنة 325هـ)). ثم يكمل في موضع لاحق: ((فظهر أمر موسى من ذلك الوقت في العدوة؛ وتجمع إليه كثير من قبائل البربر؛ وتغلب على مدينة جراوة؛ وأخرج عنها الحسن بن أبي العيش بن إدريس

الأثنـــاء ــ داخـــلا في طاعـــة الفاطميـــن؛ فحاصـــره ابـــن أبي العافيـــة، وأخرجـــه مـــن تلمســـان، ومـــن جـــراوة في سنـــة 319هـــ (931م)؛ واضطـــره للالتحـــاق بمدينـــة مليلـــة؛ حيـــث تحصـــن بهـــا؛ إلى أن تحيـــن الفرصـــة المواتيـــة. وبعـــد ذلـــك توجـــه ابـــن أبي العافيـــة إلى مدينـــة نكـــور؛ فاحتلهـــا هي الأخـــرى سنـــة 320هـــ (932م). وكـــان في هـــذه الأثنـــاء؛ قـــد نقـــل بيعتـــه مـــن الفاطميـــن بإفريقيـــة، إلى عبـــد الرحمـــن الناصـــر لديـــن اللـــه الأمـــوي بالأندلـــس.

وتعتبـــر هـــذه الخطـــوة الـــتي قـــام بهـــا ابـــن أبي العافيـــة هي بدايـــة نهايتـــه؛ إذ أرســـل عبيـــد اللـــه الشيـــعي جيشـــا فاطميـــا ــ في البدايـــة ــ بقيـــادة حميـــد بـــن يصليتـــن أو يصـــلي (عمـــه هـــو مصالـــة). فتمكـــن مـــن طـــرد مـــوسى مـــن فـــاس، وإجبـــاره عـــلى التحصـــن في نـــواحي تســـول. ولمـــا لـــم تكـــن حملـــة يصـــلي حاسمـــة فقـــد جـــرد عبيـــد اللـــه الشيـــعي جيشـــا آخـــر بقيـــادة

العلـــوي. ودارت بينهمـــا محاربـــات ومواقعـــات. وبـــنى الحســـن بـــن أبي العيـــش حصنـــا منيعـــا؛ بجبـــل بينـــه وبيـــن جـــراوة أربعـــة أميـــال؛ وحولـــه قـــرى لمدغـــرة وبـــني يفـــرن وغيرهـــم مـــن القبائـــل. وكـــان لأبي العيـــش أيضـــا وبنيـــه مدينـــة تلمســـان ومـــا والاهـــا؛ يسكنهـــا مثـــل زواغـــة ونفـــزة وغيـــر ذلـــك. وفي ذلـــك يقـــول بكـــر بـــن حمـــاد [كامـــل]:

سَائِـــلْ زُواغَـــة عن طعان سُيوفِـــه وَرماحـــه في العَـــارِضِ المُتَهَلِّـــل
وديـــار نَفـــزة كَيـــفَ دَاسَ حَرِيمَهـــا والخيـــلُ تمـــرغ في الوشيج الذبَّـــل
وغـــشَّى مَغيلـــة بالسيـــوف مُذِلَّـــةً وسقىَ جَـــراوة من نَقِيـــع الحنظـــل)).

وجـــراوة في البيـــت الأخيـــر؛ تعـــني القبيلـــة؛ وليســـت المدينـــة. أنظـــر البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص ص: 196. 199 ــ 200.

ميسور الفتى في سنة 323هـ (934م). فتمكن هذا الجيش من اكتساح كل ما سبق أن استولى عليه موسى بن أبي العافية؛ بل طارده وشرده في مجالات بعيدة عبر الصحراء والآفاق النائية. وظل موسى على حاله في التشرد والانقطاع حتى قتل في نواحي ملوية؛ وقد حدث ذلك في تاريخ يكتنفه غموض كبير؛ إذ اختلفت فيه الأقوال.[1] وهنا تمكن الأدارسة، وأبناء عمومتهم بنو سليمان من استعادة المبادرة؛ إذ استطاعوا تخليص مراكزهم وإماراتهم من براثن ابن أبي العافية. خاصة إذا أخذ بالاعتبار ما كانوا عليه؛ من تعاون مطلق مع الفاطميين؛ في حربهم ضد موسى بن أبي العافية وفي مطاردته. وقد تم ذلك ــ على الأخص ــ انطلاقا من الإمارتين المنيعتين؛ اللتين شيدهما أبناء محمد بن القاسم بن إدريس؛ أصحاب قلعة حجر النسر، وربما أبناء عمر بن إدريس بن إدريس أيضا؛ الأمراء في غمارة وبلاد الريف؛ من تيقيساس إلى طنجة. حيث واصل من تلك النواحي بنو إدريس ــ بفرعيهم ــ حركة المقاومة؛ واستمروا في نضالهم بغرض استعادة مجدهم، واسترجاع دولتهم بفاس.

---

[1] اختلفت الأقوال ــ أيضا ــ حول سنة وفاة موسى؛ إذ يقول بعضهم أنها في سنة 328هـ، وآخرون يرونها في سنة 341هـ، وفي قول سنة 350هـ، وآخر في 360هـ، وآخر في 363هـ. الأنيس المطرب، ص: 52.

فكانوا بذلك يترصدون الأحداث، ويتربصون حلول الفرص المناسبة ــ من تلك المواقع المنيعة ــ للانقضاض على أعدائهم. وقد اضطروا أحيانا؛ إلى عقد أحلاف، وعهود مع خصومهم السابقين؛ من أجل تحقيق أهدافهم الأساسية؛ التي تتمثل: في القضاء على عدوهم الرئيسي موسى بن أبي العافية؛ ثم العودة إلى فاس؛ الأمر الذي يحقق لهم تطهير أراضيهم بعد ذلك نهائيا من الدخلاء والمحتلين؛ سواء كانوا من الفاطميين الشيعة، أم من الأمويين.[1]

وبالفعل فقد سارعوا إلى عقد حلف مع الفاطميين ــ وإن كان ذلك لبعض الوقت ــ حينما كانت جيوش الشيعة تطارد موسى بن أبي العافية؛ الأمر الذي مكنهم من استرجاع معظم أملاكهم بالمغرب.[2] كما سعوا إلى مصانعة، الأمويين

---

[1] كانوا يناورون بين الأمويين والفاطميين. أنظر: المغرب، ص ص: 128 ــ 134. وروض القرطاس، ص ص: 53 ــ 59. والعبر، مج: 6، ص ص: 448 ــ 454.

[2] ومما قاله عنهم البكري: ((ثم قدم ميسور الفتى إلى المغرب في سنة ثلاث وعشرين وثلاث مايـة... حاصر موسى بن أبي العافية؛ وتولى معاظم تلك الحروب بنو إدريس؛ حتى جلى موسى بن أبي العافية إلى الصحراء؛ وصار ما كان بيده إلى آل إدريس؛ والرياسة منهم في بني محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس؛ وهم: حسن وجنون [كنون] وإبراهيم؛ بنو محمد بن القاسم؛ وكان محمد متخلفا في اخوته وعشيرته؛ لا قدر له؛ ثم صارت النباهة والقدر لبنيه؛ وإبراهيم بن محمد هو المعروف بالرهوني. وكان الذي يلزم صخرة النسر منهم جنون [كنون] وحنون ابنا إبراهيم؛ واسم جنون [كنون] القاسم... وكان أعلى بني محمد كلهم أيدا أبو العيش بن جنون [كنون] بن محمد؛ وكان له من البلد ما بين أجاجن؛ وهو بقبلي حجر

بالأندلس؛ مظهرين رغبة في التقرب إليهم بواسطة ــ التظاهر بالبيعة ومخادعتهم ــ أملا في كسب الوقت؛ حتى يتحقق لهم جمع شعثهم ولَمِّ شملهم. غير أن ذلك ــ كما يبدو ــ صعب المنال؛ لأن عصبية بني إدريس فسدت، وانكسرت سورتها بالتمام. والشاهد على ذلك ما كان يحدث بين الأسرتين الإدريسيتين المتنافستين من شنآن وفرقة؛ زادت في ضعفهم جميعا؛ وأعطت لأعدائهم فرصا ثمينة لكي يكتسحوهم، ويقضوا عليهم بالكامل.[1]

النسر إلى مدينة فاس. وكان أحمد بن إبراهيم بن محمد عالمهم؛ كان يحفظ السير والتواريخ، وكان نسابة، عاقلا حليما؛ وكان مبجلا لعلمه؛ وكان يعرف أحمد الفاضل؛ وكان له ما جرَّ من أجاجن إلى مدينة سبتة؛ وكان شديد الميل إلى خلفاء بني أمية... ولم يكن في بني إدريس من شهر بالعلم شهرته إلا أحمد الأكبر ابن القاسم بن إدريس بن إدريس؛ وهو المعروف بالكرتي؛ كان له علم وقدر وجاه بالمغرب؛ وهو الذي استجلب بكر بن حماد)). المغرب، ص ص: 128ـــ 130.

[1] أرجع إلى الرسائل التي بعث بها الطرفان إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر؛ حيث كان كل طرف منهما يشنع بأخيه، ويحاول شحن صدر الخليفة الأموي عليه. وطبعا هذا شاهد حي على ما وصلت إليه العصبية الإدريسية من ضعف ومهانة. لقد عرض إسماعيل العربي بعض المقطوعات من تلك الرسائل؛ نقلا عن قطعة من المقتبس؛ نشرها شالميتا بمدريد. دولة الأدارسة، ص ص: 156 ـــ 159. وكعينة لما يقولونه؛ هذه فقرة من رسالة بعث بها بنو عمر إلى السلطان الأموي يحرضونه على بني عمومتهم: ((ولا نأمن سلطان بني عمنا ــ بني محمد ــ المباينين لنا؛ إذ هم الحاجزون بيننا وبين أعدائه؛ الذين زحفوا إلى من بسبتة من جنده المنصور؛ إذ هم أهل الإنكار لدعوته، والدفع لبعته، والكراهية لدولته، والمناهضة بالعداوة لجنده؛ وكنا معشر ولد عمر على خلاف ذلك؛ من الصغو له؛ أيده الله؛ والميل

وهكـذا فما أن خلصـوا مـن أطمـاع مـوسى بـن أبي العافيـة والشيعـة؛ حـتى تورطـوا في أطمـاع أخـرى أشـد وأكثـر شراهـة ونفـاذا؛ تلـك هـي أطمـاع عبـد الرحمـن الناصـر حاكـم الأندلـس؛ الـذي وضـع كـل مـا في حوزتـه مـن قـوة ودهـاء؛ لـكي يمنـع وصـول الفاطميين إلى حـدود مملكتـه. إذ أن خوفـه مـن امتـداد نفـوذ الفاطميين الأقويـاء إلى حـدود دولتـه الجنوبيـة؛ في الطـرف المقابـل مـن العـدوة؛ ألزمـه وحتـم عليـه العمـل الجـاد؛ لـكي يحـول بيـن الفاطميين وبيـن تحقيـق أهدافهـم البعيـدة المـدى. تلـك الأهـداف الـتي تـرمي إلى الانفـراد بالخلافـة الإسلاميـة غربـا وشرقـا؛ بحكـم أنهـم يـرون في أنفسهـم أحـق النـاس بهـا؛ لأنهـم مـن أبنـاء فاطمـة الزهـراء؛ الـتي تجعلهـم خيـر مـن يمثـل أهـل البيـت.

إليـه، والاعتـراف بحقـه)). دولـة الأدارسـة، ص: 158. هـذه حـال بـني إدريـس؛ بعـد أن غـزت الشيخوخـة دولتهـم، وبعـد فسـاد عصبيتهـم. وعليـه فقـد وجـد الخليفـة الأمـوي الأرضيـة صالحـة لاكتسـاح بلادهـم وضـم أراضيهـم وأملاكهـم إليـه.

وعليه فما أن أحس بضعف الأدارسة، وعجزهم عن صد الفاطميين، ومنعهم من احتلال ديار المغرب الأقصى؛ حتى سارع إلى التكفل بأمر الدفاع عن تلك الجهات الغربية بنفسه. لذا لم يجد عبد الرحمن الناصر خيارا آخر أمامه ــ بعد ذلك ــ سوى التدخل المباشر؛ وبكل ما يملكه من قوة، وبكل ما لديه من حكمة ودهاء. حيث استعمل في ذلك سلاح الضغوط والإغراء والتوجيهات. ومع هذا فقد وجد أن تدخله بقوة الاحتلال في بلاد المغرب أصبح من الأمور الضرورية الملحة؛ قبل فوات الأوان.

وعليه فقد اكتسح ــ هو ومن بعده ابنه؛ المستنصر بالله ــ المناطق التي يتمركز فيها الأدارسة؛ الذين اتضح لهما أنهم كانوا مذبذبين في ولائهم وطاعتهم التامة إليهما؛ نتيجة لخوفهم وضعفهم؛ من جهة، وكراهيتهم لبني أمية من جهة أخرى. هذا وقد سهل على عبد الرحمن الناصر مهمة إخضاع الأدارسة؛ نظرا لما كان يلاحظه من انقسام في صفوفهم؛ إذ أنه لمس ــ بسهولة ــ ما كان يحدث بينهم من صراع وشنآن. وإذا كان عبد الرحمن الناصر قد اكتفى باحتلال سبتة وطنجة؛ كموضع قدم له في الضفة المغربية؛ بغرض تحويلهما إلى رأس جسر يسهلان مرور جيوشه فيما بعد ــ بالإضافة إلى احتلال بعض المواقع الهامة في تلك الديار ــ فإن ابنه الحكم

تجاوز ذلك الحد؛ بالعمل الجاد على الاحتلال الكامل للمغرب الأقصى؛ وإسقاط ما فيه من جيوب وكيانات إدريسية. ولما احتل المستنصر بالله بلاد المغرب الأقصى كلها كما خطط؛ نقل كل الأدارسة إلى بلاد الأندلس؛ وذلك في حدود سنة 365هـ (975. حيث فتحت لهم أبواب تلك الديار واسعة. إذ أصبحت بالنسبة إليهم ميدانا جديدا للسعي نحو الملك والسلطان مرة أخرى.[1]

---

[1] للتوسع في موضوع الدولة الإدريسية يستحسن الإطلاع على الكتب التالية: المغرب، ص ص: 115 ــ 134. والأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص: 4 ــ 93. والبيان المغرب، ج: 2، ص ص: 210 ــ 214. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 188 ــ 224. والعبر، مج: 4، ص ص: 23 ــ 36. والاستقصاء، ج: 1. ودولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة. ولمزيد من التوثيق؛ هذا نص لابن خلدون عن الذي جرى ــ في الأيام الأخيرة ــ لمن بقي من الأدارسة؛ جاء فيه: ((واستولى موسى بن أبي العافية على جميع المغرب؛ وأجلى بني محمد بن القاسم بن إدريس، وأخاه الحسن إلى الريف؛ فنزلوا البصرة، واجتمعوا إلى كبيرهم إبراهيم بن محمد بن القاسم؛ أخي الحسن [الحجام] وولوه عليهم؛ واختط لهم الحصن المعروف بهم هنالك؛ وهو حجر النسر سنة سبع عشرة وثلاثمائة وأنزلوه. وبنو عمر بن إدريس يومئذ بغمارة؛ من لدن تيفيساس إلى سبتة وطنجة، وبقي إبراهيم كذلك. وشمر الناصر المرواني لطلب المغرب؛ وملك سبتة على بني إدريس سنة تسع عشرة [وثلاثمائة]؛ وكبيرهم يومئذ أبو العيش بن إدريس بن عمر؛ فاتجابوا له عنها، وأنزل بها حاميته. وهلك إبراهيم بن محمد كبير بني محمد؛ فتولى عليهم من بعده أخوه القاسم الملقب بكنون؛ وهو أخو الحسن الحجام؛ واسمه القاسم بن محمد بن القاسم؛ وقام بدعوة الشيعة؛ انحرافا عن أبي العافية ومذهبه. واتصل الأمر في ولده؛ وغمارة أولياؤهم، والقائمون بأمرهم... وأقام الأدارسة بالريف؛ مع غمارة؛ وتجدد لهم به ملك في بني محمد، وبني عمر بمدينة البصرة، وقلعة حجر النسر، ومدينة سبتة، وأصيلا. ثم

ـ حكومة أبي العيش أحمد بن القاسم (قنون):

وبهذا العرض يتضح أن الدولة الإدريسية الأولى بفاس؛ قد انقطعت في حدود سنة 311هـ (923م) تقريبا. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الفترة الزمنية التي كان فيها الأدارسة يناضلون من أجل استعادة دولتهم؛ وذلك انطلاقا من مواقعهم المنيعة في بلاد الريف وغمارة؛ تكون دولة الأدارسة الثانية قد أخذت شكلا مغايرا لما كانت عليه من قبل؛ حيث تقلص نفوذ أصحابها؛ بل أضحوا تابعين لغيرهم. كما اتخذت الدولة الإدريسية الجديدة عاصمة أخرى لها غير مدينة فاس. وقد تم ذلك ـ في البداية ـ بقلعة صخرة النسر؛ وأخيرا بمدينة البصرة.[1] إذ بدأت ـ في تلك النواحي ـ تتبلور صورة دولتهم الجديدة؛ تلك الدولة التي برز فيها

تغلب عليهم المروانيون، وأثخنوهم إلى الأندلس ثم أجازوهم إلى الإسكندرية. وبعث العزيز العبيدي ابن كنون منهم لطلب ملكهم بالمغرب؛ فغلبه عليه المنصور بن أبي عامر، وقتله. وعليه كان انقراض أمرهم، وانقراض سلطان أوربة من المغرب. وكان من أعقاب الأدارسة الذين أووا إلى غمارة؛ فكانوا الدائلين من ملوك الأموية بالأندلس. وذلك أن الأدارسة لما انقرض سلطانهم؛ صاروا إلى بلاد غمارة، واستجدوا بها رياسة، واستمرت في بني محمد، وبني عمر من ولد إدريس بن إدريس؛ وكانت للبربر إليهم ـ بسبب ذلك ـ طاعة، وخاصة. وكان بنو حمود هؤلاء من غمارة؛ فأجازوا مع البربر؛ حين أجازوا في مظاهرة المستعين. ثم غلبوه ـ بعد ذلك ـ على الأمر، وصار لهم ملك الأندلس)).العبر، مج: 4، ص ص: 33 ـ 34.

[1] هذا طبعا بالنسبة إلى فرع القاسم بن إدريس؛ لأنهم هم الذين يمثلون صمود الأسرة الإدريسية.

الحسن بن قنون بالبصرة في حدود سنة 347هـ (958م) تقريبا؛ إلى سنة تغلبه على مدينة فاس في حدود أواخر عام 372هـ (982م) ــ بمساعدة الفاطميين ــ إلى أن تم القبض عليه من طرف الأمويين؛ أين قتل في سنة 375هـ (417م)؛ وفي هذا التاريخ سقطت الدولة الإدريسية نهائيا وزالت من بلاد المغرب.

ومن هنا وجب علينا الاستمرار في الحديث عن هذه الدولة؛ من خلال عرض الكيفية التي نشأت بها مرة أخرى بعد سقوطها. ولتوضيح الصورة التي بدأت بها هذه الدولة؛ لابد من العودة قليلا إلى أيام التشرد، والامتناع في بلاد الريف وغمارة. وبالتحديد إلى أخبار فرع من بني إدريس؛ وهم بنو محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس؛ الذين امتنعوا في قلعة النسر. حيث برز من بين أعضاء تلك الأسرة أبو العيش أحمد بن القاسم (قنون).[1] وكان هذا الأمير فقيها، وعالما بالسير والأنساب. كما اشتهر بالعفاف والورع والحلم والكرم والشجاعة؛ وكان يعرف باسم أحمد الفاضل.[2] ويعتبر هذا الأمير من أشد بني إدريس ميلا إلى الأمويين بالأندلس؛ حيث سارع إراديا ــ بعد أن خلف والده ــ إلى قطع الدعوة عن

---

[1] تكتب أحيانا كنون، وأحيانا أخرى جنون أو قنون بجيم مصرية؛ حسب النطق بها.

[2] أنظر المغرب، ص ص: 127 ــ 128.

الفاطميين؛ وتحويلها إلى الأمويين. ولكن عبد الرحمن الناصر طمع في أكثر من البيعة؛ إذ ساومه على التخلي له عن مدينتي: طنجة وسبتة؛ فلم يقبل أبو العيش ــ في الوهلة الأولى ــ بذلك الشطط والغلو الذين أبداهما عبد الرحمن الناصر. ولكنه لم يجد أمامه سوى الإذعان للأمر الواقع ــ في الأخير ــ نتيجة للضغوط؛ ذات الطابع العسكري؛ التي لجأ إليها عبد الرحمن الناصر. إذ تدخل هذا السلطان النافذ بالقوة المسلحة؛ دون انتظار أو تلكؤ؛ حيث بادر فورا بإرسال جيش لاحتلال المدينتين. وهكذا لم يجد أبو العيش مفرا من الخضوع للأمر الواقع المعلن بالقوة العسكرية؛ وترك ما كان قد أظهره من اعتراض؛ بل سارع في الحال إلى الاعتذار والتأسف وإبداء الندم؛ فقبل عبد الرحمن الناصر منه ذلك؛ بل أبدى له مودة وإكبارا عظيمين.

ومع ذلك فإن العاهل الأموي لم يقف عند حدود المدينتين: طنجة وسبتة؛ لأنه ــ في حقيقة الأمر ــ لم يكن يرى فيهما سوى رأسي جسر؛ يمكنانه من تمديد ونشر سلطانه الفعلي على بلاد المغرب كلها. وبالفعل فقد تمادى ذلك السلطان الأموي في مشاريعه التوسعية؛ حيث استطاع ــ بعد مدة ــ أن يهيمن على معظم بلاد المغرب؛ تاركا لبني إدريس أصيلا والبصرة فقط. ولما شاهد أبو العيش تغلب عبد الرحمن الناصر على بلاد

المغـــرب؛ وانقيـــاد القبائـــل الأمازيغيـــة إليـــه؛ بعـــث إليـــه يستأذنـــه في الانتقـــال إلى الأندلـــس بهـــدف الجهـــاد في الثغـــور. فلـــبى عبـــد الرحمـــن طلبـــه؛ مبديـــا فرحـــه وســـروره.[1] وتقـــول المصـــادر أن حيـــاة أبي العيـــش انتهـــت باستشهـــاده في ميـــدان الجهـــاد بالأندلـــس سنـــة 347هـــ (958م).[2] وكـــان أبـــو العيـــش قـــد استخلـــف في أعمالـــه ــ عنـــد مسيـــره للأندلـــس ــ أخـــاه الحســـن بـــن قنـــون (كنـــون). وهـــذا الأخيـــر هـــو صاحـــب الدولـــة الإدريسيـــة الثانيـــة بالبصـــرة وفـــاس. كمـــا يعتبـــر آخـــر ملـــوك هـــذه الدولـــة في المغـــرب الأقـــصى. وهنـــا لا بـــد مـــن عـــرض الكيفيـــة الـــتي وقعـــت بهـــا تلـــك الأحـــداث.

---

[1] يقـــول في هـــذا ابـــن أبي زرع: ((فلمـــا رأى أبـــو العيـــش غلبـــة الناصـــر عـــلى بـــلاد العـــدوة؛ كتـــب إليـــه ــ إلى قرطبـــة ــ يستأذنـــه في الجهـــاد؛ فـــأذن لـــه؛ وأمـــر أن يبـــنى لـــه في كـــل منـــزل ينزلـــه قصـــرا؛ مـــن الجزيـــرة الخضـــراء إلى الثغـــر؛ وأن يجـــرى لـــه فيـــه ألـــف دينـــار في كـــل يـــوم ضيافـــة؛ ومـــن الفـــرش والأثـــاث والطعـــام والشـــراب مـــا يقـــوم بالقصـــر. فلـــم يـــزل في ذلـــك حـــتى وصـــل إلى الثغـــر. فكانـــت منازلـــه في رحلتـــه مـــن الجزيـــرة ثلاثيـــن منـــزلا)). الأنيـــس المطـــرب، ص: 54. أنظـــر أيضـــا المغـــرب، ص: 120. وأعمـــال الأعـــلام، ق: 3، ص ص: 218 ـــ 219.

[2] اختلفـــت الأقـــوال حـــول تاريـــخ وفاتـــه؛ فابـــن أبي زرع وابـــن خلـــدون يقـــولان أنهـــا حدثـــت في سنـــة 343هـــ؛ بينمـــا يـــرى ابـــن الخطيـــب أنهـــا وقعـــت في سنـــة 346هـــ؛ بينمـــا يخـــطئ البكـــري حيـــن يقـــول أنهـــا حصلـــت في سنـــة 332هـــ. أمـــا إسماعيـــل العـــربي فيجـــزم بأنهـــا حدثـــت في سنـــة347هـــ. الأنيـــس المطـــرب، ص: 54. وأعمـــال الأعـــلام؛ ق: 3، ص: 219. والعبـــر، مج: 6، ص: 450. ودولـــة الأدارســـة، ص: 179.

ـ حكومة الحسن بن أحمد قنون الأولى:

فلما تولى الحسن بن قنون شئون الحكم؛ بعد أخيه أبي العيش ظل ـ في بداية عهده ـ محافظا على المواثيق المتفق عليها مع الدولة الأموية؛ إذ واصل إعلان الدعوة لخلفائها. ولكنه اضطر إلى تغيير موقفه المعلن ـ على ما يبدو أو تظاهر بذلك ـ عند قدوم الجيش الفاطمي من إفريقية سنة 348هـ (959م)؛ بقيادة جوهر الصقلي ـ إذ لم يكن أمامه سوى مسايرة مقتضى الحال؛ حيث أنه بتغير الأوضاع؛ تغيرت مواقف الحسن بن قنون كذلك. وعليه فقد بادر حالا إلى نقل ولائه من الأمير الأموي إلى الخليفة الفاطمي؛ لأنه ـ كما يبدو ـ رأى في الفاطميين مزايا؛ لم يجدها لدى الأمويين؛ إذ يبدو أنه اعتقد أنهم الأقوى عددا وعدة؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد رأى أن مصلحته تقتضي التعامل مع دولة بعيدة ـ جغرافيا ـ عنه؛ أفضل من التعامل مع دولة قوية وقريبة من أرضه؛ لأن هذه الميزة تمكنه من الحركة والعمل بحرية مطلقة؛ دون أن يلجأ أولئك الحكام المتغلبين إلى التدخل في شئونه في كل لحظة ولأتفه الأسباب. وأهم فائدة قد يجنيها مع الدولة الفاطمية؛ هي ما تحققه له من شروط التخلص من هيمنة القبائل الزناتية المشاغبة؛ تلك القبائل التي اختارت التحالف مع الدولة الأموية؛ وكانت تشكل عامل تهديد يقف في طريق استقرر دولته.

ومع هذا فقد استعمل ورقة المناورة والخداع؛ التي تسمح بها الظرف آنئذ؛ وذلك حينما عاد جوهر الصقلي إلى إفريقية سنة 349هـ(960م)؛ حيث لم يجد الحسن بن قنون أمامه ـ من مخرج ـ سوى أنه أعاد ولاءه ودعوته للأمويين؛ متعللا لهم ـ طبعا ـ بضعفه، وعجزه عن مواجهة الشيعة. كما ظل على عهده بعد وفاة عبد الرحمن الناصر، وخلافة ولده الحكم المستنصر بالله سنة 350هـ؛ وإن كان ذلك قد تم خوفا منهما؛ لأنه ما أن زحف بلغين يوسف بن زيري الصنهاجي إلى المغرب الأقصى؛ لإخضاع القبائل الناكثة للعهد، وأخذ ثأر أبيه من القبائل الزناتية. حتى سارع الحسن بن قنون إلى الانضمام إليه، ومساعدته في حروبه ضد القبائل المتحالفة مع الدولة الأموية. وبهذا يكون قد أضاع كل الفرص الممكنة؛ للتعلل بأعذاره المعهودة؛ كالضعف، واستحالة المقاومة، وانعدام الحيلة.[1]

---

[1] يقول ابن أبي زرع: ((في آخر سنة تسع وأربعين وثلاثمائة نكث الحسن بن قنون بيعة العبيديين، وعاد إلى بيعة المروانيين؛ تتمسك بدعوة الناصر، ودعوة ولده الحكم المستنصر من بعد؛ خوفا منهم لا محبة فيهم؛ لقرب بلاده منهم. فلم يزل في طاعتهم، قائما بدعوتهم إلى أن قدم بلقين بن زيري ابن مناد الصنهاجي؛ من إفريقية قاصدا إلى المغرب؛ لأخذ ثأر أبيه؛ فقتل زناتة، واستأصلهم، وملك المغرب بأسره؛ وقطع أيضا منه دعوة الأمويين، وقتل أولياءهم؛ وأخذ البيعة ـ على جميع بلاد المغرب ـ لمعد بن إسماعيل؛ كما فعل جوهر من قبله. فكان أول من سارع إلى بيعته ونصرته، وقتل أولياء المروانيين، وقطع دولتهم من أمراء المغرب الحسن بن قنون

وبالطبع فقد انجر عن ذلك التصرف من قبل الحسن بن قنون؛ أنه صدرت عن الدولة الأموية قرارات هامة وحاسمة؛ إذ قرر الخليفة الأموي الحكم المستنصر ــ بعد هذا ــ أن يزيل نهائيا أي كيان للأدارسة ببلاد المغرب. لأنه ــ كما يبدو ــ وصل الحال بين الأسرتين القريشيتين في بلاد المغرب إلى القطيعة التامة؛ التي لا تقبل أي ترقيع، أو مسوغات ممكنة. وعليه فقد عبأ قوات ضخمة؛ ووجهها إلى بلاد المغرب؛ لكي يلحقها ــ تماما ــ بمملكته في الأندلس. غير أنه ــ كما يبدو ــ تسرع في تنفيذ قراره؛ ولم يقدر قوة خصمه حق قدرها؛ إذ انتهت المعارك الطاحنة؛ التي دارت بين الجيشين ــ والتي كان أغلبها في البدء سجالا ــ بهزيمة شنيعة للجيش الأموي؛ في سنة 362هـ(972م).

صاحب مدينة البصرة. وكشف وجهه في ذلك؛ وعمل فيه جهده؛ فاتصل خبره بالحكم المستنصر؛ فحقد له ذلك. فلما انصرف بلقين بن زيري إلى إفريقية؛ بعث الحكم قائده ــ محمد بن القاسم ــ في جيش كثيف إلى قتال الحسن بن قنون؛ فجاز إليه من الجزيرة الخضراء إلى سبتة في خلق عظيم؛ وعدد كثير، وقوة وعدة كاملة؛ وذلك في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة؛ فزحف إلى قتاله الحسن بن قنون في قبائل البربر... فقتل فيها محمد بن القاسم؛ قائد الحكم المستنصر؛ وقتل معه خلق كثير من أصحابه؛ وفر الباقون فدخلوا سبتة)). الأنيس المطرب، ص: 57.

حيث قتل فيها قائده محمد بن القاسم؛ مع عدد كبير من أفراده؛ قدرهم ابن حيان بنحو خمسمائة فارس وألف مقاتل مترجل[1]. بينما انهزمت بقيتهم، وانحصروا خلف الأسوار؛ منتظرين المدد، والمساعدة من طرف الخليفة الأموي.

بالفعل فقد بادر الحكم المستنصر بإصدار أوامره المستعجلة؛ يطلب من قواته فيها البقاء في مراكزهم حتى يأتيهم المدد؛ ومعه الأوامر الجديدة. ثم أرسل إليهم ــ بعد ذلك ــ القائد الأعلى لجيشه غالب بن عبد الرحمن؛ مكلفا بمهمة شن حرب محكمة، وشاملة، وطويلة النفس ضد الحسن بن قنون في بلاد العدوة. ويبدو أن الحرب في هذه المرة لا تشبه سابقتها؛ حيث روعيت فيها عدة اعتبارات: عسكرية وسياسية؛ كان من شأنها تحقيق النصر لا محالة. فمن بين القرارات المتخذة:

ــ أولا: حسن اختيار القيادة المكلفة بمهمة الحرب في أرض العدوة. حيث أسند المستنصر هذه المهمة العظيمة إلى قائد محنك؛ وخبير بالشئون العسكرية والقتالية. وهو الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن ــ مولى الخليفة الناصر لدين الله؛ وصاحب مدينة سالم والثغر الأعلى. ويعتبر هذا القائد من أهم أمراء الجيش الأموي ــ آنئذ ــ إذ لا تسند إليه ــ في العادة ــ إلا المهمات الصعبة

---

[1] **المقتبس في أخبار بلد الأندلس؛ تحقيق عبد الرحمن علي الحجي؛ ص: 96.**

والخطيرة. ووصفه ابن خلدون بقوله: ((**البعيد الصيت، المعروف بالشهامة**)).[1]

ـ ثانيا: إعداد خطة محكمة لقتال الحسن بن قنون. لأنه من خلال تجربة الوقائع الأولى؛ ثبت عدم صلاحية الخطط المتبعة فيها؛ بسبب ما شابها من ارتجال واستخفاف بالعدو. لذلك فقد أخذ الخليفة الحكم بعض الوقت لنفسه؛ بهدف التفكير والتشاور وضبط الخطة القتالية التي ستتبع؛ قبل أن يغامر مرة أخرى. وحتى قواته التي مازالت متمركزة في بلاد العدوة؛ فقد أرسل لهم أمرا باجتناب الاشتباك مع قوات حسن بن قنون؛ وأن ينتظروا الأوامر الجديدة.[2] ولما كان الحسن بن قنون قد اعتمد حرب الكر والفر؛ التي تعرف الآن بحرب العصابات؛ فقد كان على المستنصر ومعاونيه أن يبلوروا خطة عسكرية فعالة؛ حتى يتمكنوا من كسر عنفوان وشدة الهجمات؛ التي اعتاد الحسن بن قنون شنها على حين غرة.

---

[1] **العبر، مج: 6، ص: 451. أما ابن أبي زرع فيقول: ((فبعث إليهم قائد عسكره وصاحب حروبه غالبا مولاه. وكان غالب على غاية من الحزم والنجدة والدهاء والإقدام)). الأنيس المطرب، ص: 57.**

[2] **في هذا يقول ابن حيان: ((فتضمن الجواب إليهم [أي جواب الخليفة المستنصر إلى قواده في بر العدوة] أن الرأي؛ ترك الحركة إليه [أي إلى الحسن] والتعرض لحربه؛ حتى يلحق بهم الوزير القائد الأعلى غالب بالقوة إن شاء الله)). المقتبس في أخبار بلد الأندلس؛ تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، ص: 103.**

ومن هنا فقد وجدوا أنه من الضروري كسب ولاء القبائل الأمازيغية؛ المنتشرة عبر بلاد العدوة. لأنه أصبح من الضروري؛ عزل الحسن بن قنون عن أنصاره؛ بغرض إفشال خططه وإرباكه.[1]

ـ ثالثا: حشد القوات المقاتلة بثبات وتأني؛ بحيث يتم اختيار الرجال الأكفاء؛ وتوفير العدد الكافي. وهذا ما تم بالفعل؛ إذ عمل الخليفة المستنصر ـ هذه المرة ـ على حشد عدد كبير من الجند؛ جلبوا من الثغر الأعلى؛ بالإضافة إلى غيرهم ممن كانوا في قرطبة ونواحيها. كما تميز التحضير بالروية ودقة الإعداد؛ بحيث تطلب التحضير ـ لهذه الحملة ـ ثلاثة أو أربعة أشهر تقريبا؛[2] قد يكون ذلك تم ابتداء من شهر جمادى الثانية إلى منتصف شهر رمضان؛ الذي ركب فيه القائد

---

[1] يتضمن كتاب المقتبس عينات كثيرة مبعثرة في صفحاته بخصوص العطايا والهدايا التي يقدمها المستنصر وأعوانه لرؤساء القبائل الأمازيغية؛ لكي يستميلهم إليه ويضمن طاعتهم وولاءهم. وفيما يلي نص لابن أبي زرع يقول فيه: ((فأعطاه الحكم [أي أعطى إلى غالب] أموالا جليلة، وعددا كثيرة، وجيوشا وافرة؛ وأمره بقتال العلويين، واستنزالهم من معاقلهم؛ وقال له عند وداعه: " يا غالب سر مسير من أذن له بالرجوع حيا إلا منصورا أو ميتا معذورا؛ ولا تشح بالمال، وابسط يدك به يتبعك الناس)). الأنيس المطرب، ص: 57.

[2] قال ابن أبي زرع: ((فخرج غالب بالعساكر والجيوش والعدد والأموال من قرطبة في آخر شوال من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة)). الأنيس المطرب، ص: 57.

غالب بن عبد الرحمن الأسطول ـ بجيشه ـ متجها إلى طنجة. [1] ومع ذلك لم يتوقف مدد المستنصر لجيش غالب بالعساكر والمال والعتاد الحربي؛ بل استمر ذلك الخليفة الحازم في إرسال التعزيزات وراء التعزيزات؛ دون تحفظ أو تردد.[2]

---

[1] قال ابن حيان: ((وفي جمادى الآخرة احتل الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن بمحلة فحص السرادق ـ شرقي قرطبة ـ مستدعىً من مولاه الخليفة الحكم؛ مهيبا به لحرب الغوي حسن بن قنون؛ المنازع له عمله بأرض العدوة؛ عندما تفاقم أمره، وأعيا مراسه، وأثخن في قتل الجند، وانتحل ولاية الدعي الشيعي معد. فاضطرب غالب بمحلته تلك ـ يومئذ ـ في يومين في الدَّهم [أي العدد الكثير] الذين أمر باستنفارهم؛ من حشد الثغر الأعلى إلى من استنهضهم من جيش السلطان لديه؛ ثم تقدم بهم في اليوم الثالث إلى الزهراء وطن الخليفة مولاه؛ مشتقا قرطبة؛ واجتهر أهلها من احتفال جيشه، واكتمال عدده واطراد ترتيبه ما امتلأت به قلوبهم فرحا،= =وشمخت له أنوفهم عزا. وأقام بقرطبة أياما؛ اتصل فيها عمل السلطان ورجاله في تجهيزه، وإزاحة علله، وتقوية أيده؛ إلى أن بلغ منه ما ارتضاه؛ ففصل عند ذلك في جموعه يوم الثلاثاء لتسع خلون من رجب منها)). ((وفي هذا الوقت [أي شهر رمضان] ورد الخبر بركوب الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن البحر في الأسطول؛ من مدينة الجزيرة؛ فرضة المجاز إلى بلد الأندلس؛ بعد طول مقامه فيها؛ بعد أن استكمل أهبته فيها؛ وقدم إجازة الأجناد والخيل والأثقال وآلات الحروب؛ فتوافت إلى هناك كاملة؛ وإن ركوبه من الجزيرة كان في يوم الأحد لاحدى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان منها؛ وأقلع رافعا إلى جهة طنجة من أرض العدوة)). المقتبس في أخبار بلد الأندلس، ص ص: **102. 115.**

[2] وهاتان عينتان لذلك: ((وورد كتاب صاحب الشرطة وقائد البحر عبد الرحمن بن رماحس؛ يذكر حركته بالأسطول إلى أصيلا؛ لما في القرب من الوزير القائد الأعلى واجتماع الأسطوليين من صواب التدبير، والأخذ بالحزم... وأرسلت إليه [إلى غالب] كسي فخمة، وسرج وألجم محلاة؛ ففضها فيمن

ـ رابعا: تخصيص أكبر قدر من الأموال؛ لصرفها على جيش الخلافة، أو الاستعانة بها في حملة واسعة؛ قررت لاستمالة وكسب ولاء القبائل الأمازيغية المتعاطفة مع الحسن بن قنون. ومن يتصفح كتاب المقتبس في أخبار بلد الأندلس لابن حيان؛ سيلاحظ ـ بلا شك ـ ما كان يبعث به المستنصر ـ بدون تحفظ ـ من أموال ضخمة وتحف ثمينة، وعتاد حربي، إلى غالب بن عبد الرحمن؛ لكي يعزز بها قوته العسكرية، ويستميل بها القبائل المناصرة للحسن بن قنون.[1]

جاءه من الرؤساء)). المقتبس، 116. ((فلما كان يوم الإثنين لسبع منه [من ذي القعدة] خرج الوزير القائد يحيى بن محمد بن هاشم من قرطبة؛ نافذا إلى العدوة؛ خروجا ظاهرا؛ بين يديه التعبئة الكاملة، والترتيب المنظوم؛ وخرج بخروجه اخوته المتقدمة تسميتهم، وبنو عمه التجيبيون؛ في عسكر ضخم؛ ممن ضم إليه من طبقات الأجناد؛ وفيهم قطع من العبيد الرماة، ومن الرماة الأحرار، وغيرهم من جند المملكة؛ راق إبصارهم النظارة؛ فاحتل يومه ذلك على نهر شوش. وخرج بخروجه الخازن أحمد بن محمد بن حاجب؛ وبين يديه ستة عشر حملا من المال العين، وعدة أحمال من الكسي الفخمة، والسيوف الحالية المرسلة إلى الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن لفضها فيمن يستأمن إليه من أكابر البرابرة)). المقتبس، ص129.

[1] أنظر المقتبس، ص ص: 106. 108. 109. 110. 111. 115. 116. 123. 128. 129. 130. 131. 132. 133. 135. 139. 151.

ـ خامسا: تكثيف عمل الاستخبارات، وبث الجواسيس بشكل واسع؛ لتتبع حركة العدو، ومعرفة نواياه؛ وبث الإشاعات الهدامة في صفوف قواته وأنصاره.[1]

ـ سادسا: مراعاة العوامل النفسية، واعتماد سياسة إعلامية محكمة للتأثير على أنصار الحسن بن قنون، وبث روح الكراهية له بين عامة المسلمين. ويتجلى هذا العمل في الميدان النفسي؛ من خلال ما حصل من عروض عسكرية؛ أقيمت عند تقدم الجيش نحو الزهراء، ودخوله مدينة قرطبة في مظاهرة ضخمة، بغرض إضفاء هالة كثيفة من الهيبة والأبهة على قيادة غالب بن عبد الرحمن؛ وأهم دليل على ذلك؛ ما قام به المستنصر حين بعث إلى هذا القائد بقبة القيادة الحمراء.[2]

---

[1] مما جاء في رسالة المستنصر لقادته بأرض العدوة يوصيهم بالإصرار على المقاومة: ((إن أفضل ما احتمل عليه، وعمل به، استشعار الحزم، وإدراع التحفظ، واستنصاح الاتهام، وإذكاء العيون، وبث الجواسيس والاستكثار منهم ومن حملة الأخبار؛ حتى لا يخفى لحسن ـ أهلكه الله ـ حركة، ولا يتوارى له مذهب)). المقتبس في أخبار بلد الأندلس، ص: 97. ومن جهة أخرى؛ حتى الحسن بن قنون كانت له عيون وجواسيس في صفوف الأمويين؛ ومن الشواهد على هذا ما قاله ابن حيان: ((فقدم الأدلاء والنزّاع في قطيع من الخيل نحوه [أي نحو الحسن]؛ كمنوا على الناحية وتفرقوا في جهاتها وتقطعوا في نواحيها؛ فانملص منهم جاسوس خالطهم لم يشعروا به؛ وأتى إلى الحسن؛ فأعلمه بخبر العسكر المتقرب، وبما ينوي؛ فأزعج من وقته، وركب مع ولده وأهله وجميع من كان معه ـ من فارس وراجل ـ وأحاط بالجبل الذي ظن أنه يوتى منه...)). المقتبس، ص: 140.

[2] وعنها قال ابن حيان: ((وفي هذا الوقت أرسل الخليفة المستنصر بالله إلى الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن بالقبة الحمراء الفخمة المرأى،

أمـا الجانـب الإعـلامي فقـد تـولاه ــ في غالـب الأحيـان ــ الشعـراء، وأئمـة المساجـد. ويتجـلى ذلـك مـن خـلال القصائـد الكثيـرة الـتي قيلـت في المناسبـات كلهـا، وكانـت مليئـة بالهجـاء والسخريـة مـن الحسـن ابـن قنـون.[1] كمـا أن إضافـة كلمـة (ملحـد) إلى اسـم الحسـن ــ كلمـا ذكـر ــ يـدل عـلى مـا كـان يستهدفـه أعـداءه مـن بـث الكراهيـة لـه بيـن عامـة النـاس.

وهكـذا فقـد حظيـت هـذه الحملـة الحربيـة المنظمـة بنجـاح كبيـر؛ إذ حققـت أهدافهـا المسطـرة لهـا. وتمكـن غالـب بـن عبـد الرحمـن مـن عـزل الحسـن بـن قنـون، وشـل حركتـه نهائيـا؛ ممـا اضطـره إلى الإذعـان والاستسـلام والقبـول بشـروط الأمويين. وعليـه فقـد سلـم نفسـه في سنـة 363هـ (973م).[2] حيـث تـم نقلـه ــ

البديعـة الصنعـة؛ الـتي أمـر باتخاذهـا لـه عـلى حـدِّه، ووصفـه كيمـا يرفعـه وسـط محلتـه، ويكـون نزولـه وقعـوده فيهـا؛ إسمـاء لقـدره، ورغمـا لقلـب عـدوه؛ وكانـت غريبـة الابتـداع، عجيبـة الاختـراع، لهـا منظـر رائـق، ومـرأى فائـق؛ جـرى في اتخاذهـا كـلام كثيـر)). المقتبـس ص: 116.

[1] يدخـل في هـذا السيـاق مـا ذكـره ابـن حيـان عـن طلـب غالـب بـن عبـد الرحمـن مـن الخليفـة المستنصـر إمـداده بالشاعـر محمـد بـن حسيـن التميـمي المعـروف بالطبـني؛ لـكي يستعيـن بـه في حربـه الإعلاميـة ضـد عـدوه. وبالفعـل لم يتردد الخليفـة المستنصر في إرساله إلى بر العدوة. أنظر المقتبس، ص ص: 108 ــ 109.

[2] قـال ابـن أبي زرع: ((وأخـرج غالـب الأمـوال؛ فبعـث بهـا إلى رؤسـاء البربـر الذيـن مـع الحسـن بـن كنـون؛ ووعدهـم، وأمنهـم؛ ففـروا عـن الحسـن وأسلمـوه؛ حـتى لـم يبـق معـه إلا خاصتـه ورجالـه؛ فلمـا رأى ذلـك سـار إلى حصـن حجـر النسـر؛ فتحصـن فيـه؛ وأتبعـه غالـب فحاصـره بـه، ونـزل بجميـع جيوشـه عليـه، وقطـع عنـه المـواد؛ وأمـده الحكـم بالعـرب الذيـن ببـلاد الأندلـس كافـة، ورجـال الثغـور؛ فوصـل المـدد إلى غالـب غـرة محـرم سنـة ثـلاث وستيـن وثلاثمائـة؛

مع أهله وحاشيته ــ إلى قرطبة؛ أين بقي فيها إلى سنة 365هـ (975م)؛ سنة إجلائه ــ مع أهله أيضا ــ إلى مصر؛ نظرا لما حدث بينه وبين المستنصر من جفاء؛ بسبب قطعة من العنبر؛ رفض الحسن بن قنون التنازل عنها للحكم؛ الذي يقال أنها أعجبته وطمع فيها. فكان رد فعل المستنصر عنيفا؛ إذ استولى عليها وعلى أموال الحسن وأهله بالقوة؛ ثم أجلاهم جميعا إلى مصر.[1]

فاشتد الحصار على الحسن بن كنون؛ فطلب من غالب الأمان على نفسه وأهله وماله ورجاله؛ وينزل إليه؛ فيسير معه إلى قرطبة؛ فيكون بها؛ فأجابه غالب إلى ذلك، وعاهده عليه. فنزل الحسن بأهله وماله ورجاله؛ وأسلم الحصن إلى غالب فملكه؛ واستنزل غالب جميع العلويين الذين بأرض العدوة من معاقلهم، وأخرجهم عن أوطانهم؛ ولم يترك في العدوة رئيسا منهم)). الأنيس المطرب، ص: 57.

[1] يقول ابن أبي زرع: ((وكان له [أي الحسن بن قنون] قطعة عنبر غريبة الشكل، كثيرة الجرم؛ ظفر بها في بعض سواحله من بلاد العدوة أيام ملكه بها؛ فسواها منشورة يتوسد بها؛ فبلغ أمير المؤمنين الحكم خبرها؛ فسأله حملها إليه، وضمها إلى ذخائره؛ على أن يرضيه عنها بحكمه؛ فامتنع من ذلك، وأبى أن يسلمها إليه؛ فنكبه عليها؛ وأخذ أمواله، وسلبه من جميعها، وأخذ القطعة؛ فبقيت في خزانته إلى أن ظهر علي بن حمود الحسني ــ على ملك الأندلس ــ ودخل قرطبة، وسكن القصر، وظفر ببني أمية؛ فأصاب تلك العنبرة متاع ابن عمه الحسن في الخزانة؛ قد أعفتها الأيام؛ حتى صارت إلى أيدي العلوية أربابها. ولما نكب الحكم الحسن بن كنون، وأخذ أمواله؛ أمر به وبالعلوية؛ فأخرجوهم عن قرطبة، وأجلاهم إلى المشرق؛ فجازوا من المرية إلى تونس؛ ليستريح من نفقاتهم؛ وذلك في سنة خمس وستين وثلاثمائة؛ فسار الحسن وبنو عمه إلى مصر؛ فنزلوا على نزار بن معد؛ وبالغ في إكرامهم، ووعد للحسن النصرة)). الأنيس المطرب، ص: 58.

ويبدو من هذا التصرف؛ أن المستنصر كان يترصد أقرب فرصة لكي يتخلص من الحسن وأهله. ذلك أنه ـ كما يقال ـ أثقله بالتكاليف المادية التي كانت تصرف عليه وعلى عائلته.

ـ حكومة الحسن بن قنون الثانية بفاس:

ومن مصر بدأ الحسن بن قنون مرحلة جديدة لاستعادة ملكه وملك آبائه. وقد وجد تجاوبا وحماسا من طرف الخليفة الفاطمي نزار بن معد؛ الذي أرسله في سنة 373هـ(983م) ـ مع توصية ـ إلى بلغين بن زيري في إفريقية؛ طالبا منه مساعدته على استعادة ملكه في فاس. وبالفعل فقد أمده زيري بثلاثة آلاف فارس؛ رافقوه إلى المغرب الأقصى؛ حيث تمكن بواسطتهم من احتلال مدينة فاس؛ وإعلان قيام الدولة الإدريسية فيها من جديد. وذلك في السنة نفسها. وبادرت قبائل أمازيغية عديدة بإعلان طاعتها وانقيادها للدولة الإدريسية العائدة إلى أحضان المغرب.

ولما بلغ الخبر إلى المنصور بن أبي عامر ـ حاجب الخليفة الأموي هشام المؤيد ـ سارع في الحال إلى إرسال ابن عمه الوزير عمر بن عبد الله بن أبي عامر؛ على رأس جيش ضخم؛ بغرض محاربة الحسن بن قنون.

ولم يقف الحاجب المنصور عند هذا الحد؛ بل أرسل أيضا ولده عبد الملك في جيش كثيف أيضا؛ بهدف دعم المجهود الحربي، وتعزيز صفوف الوزير عمر. ولما تكاثرت الجيوش على الحسن بن قنون؛ وضاقت به السبل؛ طلب من الوزير عمر الأمان؛ على أن يذهب إلى الأندلس؛ ولما أعلم المنصور بذلك؛ تظاهر بالمصادقة على الأمان الذي أعطاه الوزير عمر؛ وطلب منه الإسراع بإرسال الحسن إلى قرطبة. وفي طريقه إليها بعث من اغتاله؛ في جمادى الأولى من سنة 375هـ(985م). وبذلك طويت صفحة الدولة الإدريسية المستقلة نهائيا ببلاد المغرب؛ على أنها ظهرت في ثوب جديد ببلاد الأندلس؛ بعد سقوط الدولة الأموية.

وفي حال مقابلة الدولة الإدريسية بالدولة الفاطمية؛ سيتجلى ضعف الدولة الإدريسية، وقصورها، وانكماش نفوذها. ويرجع ذلك إلى عجزها عن تحقيق بعض الشروط؛ التي تمكنت الدولة الفاطمية من تحقيقها. أهمها: قوة العصبية، وكثرة الأتباع، وفعالية الدعوة الدينية. فعصبية الأدارسة كانت ضعيفة أمام عصبية الفاطميين. وأتباع الأدارسة أيضا قليلون. كما أنهم يفتقرون إلى دعاة أكفاء، وتعاليم مذهبية تشكل قاعدة فكرية، ذات شحنات نفسية؛ تنمي الحماس وتشحذ الهمم؛ في سبيل تحقيق أهداف الدولة. فالدولة تحتاج ــ لتعزيز

قوتها ــ إلى قدرة نافذة، وتحكم دقيق في سير سياسة الدعوة والدعاة. فبفضل ذلك توفر الدولة الأنصار الأوفياء، وتحقق التزامهم المستميت بأهدافها، وتفانيهم في خدمتها وحماية مؤسساتها. وهذه العوامل كلها توفرت للفاطميين؛ وافتقر إليها الأدارسة؛ وبذلك عظمت دولة الأوليين؛ بل امتد نفوذها حتى شمل الأدارسة أنفسهم.

****

ــ الحضارة والنشاط الثقافي:

أما إنجازات الدولة الإدريسية: العمرانية منها والثقافية؛ فيبدو أنها كانت بالمغرب ــ هي الأخرى ــ قاصرة ومحدودة أمام إنجازات الدولة الفاطمية. إذ أن أبرز أعمال الأدارسة تتجلى في مدينة فاس؛ تلك المدينة التي أضحت ــ في عهدهم ــ مركزا هاما؛ يستقطب نشاطات عديدة منها: ما هو عمراني، وما هو ثقافي؛ بالإضافة إلى الدور الاقتصادي الهام؛ الذي أضحت تتميز به مدينة فاس في تلك الربوع.[1] وقد تضمنت الكتب التالية: ــ المغرب

---

[1] يقول ابن خلدون واصفا عهد الأمير يحيى بن محمد بن إدريس في فاس: ((وعظمت دولته، وحسنت آثار أيامه، واستجدت فاس في العمران، وبنيت بها الحمامات، والفنادق للتجار، وبنيت الأرباض، ورحل إليها الناس من الثغور القاصية. واتفق أن نزلتها امرأة من أهل القيروان تسمى أم البنين؛ بنت محمد الفهري ــ وقال ابن أبي زرع اسمها فاطمة، وأنها من

للبكـــري، ونزهـــة المشتـــاق للإدريـــسي، والأنيـــس المطـــرب بـــروض القرطـــاس لابـــن أبي زرع، ودولـــة الأدارســـة لإسماعيـــل العـــربي، ــ معلومـــات لا بـــأس بهـــا؛ تخـــص الإنجـــازات العمرانيـــة ــ الدينيـــة منهـــا والثقافيـــة ــ الـــتي تمـــت في عهـــد الأدارســـة بفـــاس. ويظهـــر أن تحـــولا كبيـــرا حـــدث في المظهـــر الحضـــاري والثقـــافي لهـــذه الدولـــة؛ بـــدءا بتوافـــد عـــدد مـــن المهاجريـــن العـــرب؛ ذوي الثقافـــة الرفيعـــة، والصناعـــة المحكمـــة، والإبـــداع والابتكـــار غيـــر المسبوقيـــن في تلـــك البـــلاد؛ قـــدم أولئـــك العلمـــاء والمثقفون والفقهـــاء مـــن القيـــروان، ومـــن قرطبـــة بعـــد حادثـــة الربـــض فيهـــا. حيـــث تمركـــز القيروانيـــون

هـــوارة ــ وكانـــت مثريـــة بمـــوروث أفادتـــه مـــن ذويهـــا، واعتزمـــت عـــلى صرفـــه في وجـــوه الخيـــر؛ فاختطـــت المسجـــد الجامـــع بعـــدوة القرويـــن؛ أصغـــر مـــا كـــان سنـــة خمـــس وأربعيـــن [ومائتيـــن]؛ في أرض بيضـــاء كـــان أقطعهـــا الإمـــام إدريـــس، وأنبطـــت بصحنهـــا بئـــراً شرابـــاً للنـــاس؛ فكأنمـــا نبهـــت بذلـــك عزائـــم الملـــوك مـــن بعدهـــا؛ ونقلـــت إليـــه الخطبـــة مـــن جامـــع إدريـــس؛ لضيـــق محلتـــه، وجـــوار بيتـــه)). العبـــر، مج: 4، ص: 29. ومـــما قالـــه أيضـــا ابـــن أبي زرع عـــن فـــاس: ((وهي قاعـــدة بـــلاد المغـــرب، وقطرهـــا ومركزهـــا، وقطبهـــا؛ وهي ملـــك الأدارســـة الحسنييـــن؛ الذيـــن اختطوهـــا... وبهـــا منـــازل مونقـــة، وبساتيـــن مشرقـــة، ورياض مورقـــة، وأســـواق مرتبـــة)). ((وكـــان أهـــل عـــدوة الأندلـــس أهـــل نجـــدة وشـــدة؛ وأكثرهـــم ينتحـــل الحـــراث والفلاحـــة؛ وأهـــل عـــدوة القرويين أهـــل رفاهـــة، ونخـــوة في البنـــاء، واللبـــاس، والفـــرش والمطعـــم، والمشـــرب؛ وأكثرهـــم صنـــاع وتجـــار)). ((فأقامـــت مدينـــتيْ فـــاس [عـــدوة القرويـــن، وعـــدوة الأندلسيـــن] عـــلى مـــا بنـــاه [أي إدريـــس] طـــول مدتـــه، وأيـــام ولـــده مـــن بعـــده؛ إلى أيـــام زناتـــة؛ فكثـــرت العمـــارات بهـــا، وبنيـــت الأربـــاض عليهـــا، واتصـــل البنـــاء حولهـــا مـــن كـــل جهـــة؛ فبنيـــت بهـــا الفناديـــق، والحمامـــات، والأرحـــا، والمساجـــد والأســـواق؛ مـــن بـــاب إفريقيـــة إلى عيـــن إيصيلـــن)). الأنيـــس المطـــرب، ص ص: 15 ــ 16. 23. 25.

في الموضع الذي عرف بعدوة القرويين؛ بينما سكن القرطبيون بعدوة الأندلسيين.

ونتيجة لهذا التقسيم السكاني أخذت تظهر عليهم بعض الفروق الثقافية؛ التي ميزت كل فئة بمميزات خاصة اشتهروا بها. ويمكن اعتبار أهم إنجازين عمرانيين شيدا ـ آنئذ ـ بالعدوتين؛ هما المسجدان الذين بنتهما الأختان الوافدتان من القيروان: فاطمة المعروفة بأم البنين، وأختها مريم: بنتي محمد الفهري؛ إذ بَنَتْ فاطمة جامع القيروانيين في سنة 245هـ(859م)؛ أيِ في عهد الأمير يحيى بن محمد بن إدريس. وبَنَتْ ـ أيضا ـ أختها مريم جامع الأندلس. وكان بالعدوتين جامعين بناهما ـ قبل ذلك العهد ـ إدريس بن إدريس؛ وهما: جامع الشرفاء بعدوة القرويين، والثاني جامع الأشياخ بعدوة الأندلسيين. ومع مرور الوقت قدر لمسجد القرويين ـ الذي بنته فاطمة الفهرية ـ أن يكون أهم معلم ثقافي بالمغرب الأقصى؛ إذ تحول ـ مع الأيام ـ إلى جامعة كبرى، ومركز إشعاع ثقافي وديني في منتهى الأهمية. حيث تخرج منه عدد كبير جدا من الفقهاء والأدباء؛ الذين تركوا بصماتهم في ثقافة المغرب عبر العصور.

وما يمكن الاستشهاد به من نصوص أدبية؛ ترجع إلى الفترة الزمنية التي أظلت الدولة الإدريسية؛ ليس بالشيء الكثير؛ من حيث الكيف والكم. من ذلك ــ مثلا ــ ما ورد في بعض المصادر من نصوص شعرية ونثرية نسبت إلى الملوك الأدارسة؛ وإلى الأدباء المقيمين أو الوافدين إلى بلاط الدولة الإدريسية. فهذا ــ على سبيل المثال ــ نص قصير جدا من خطبة قالها إدريس الأول عندما بويع بالإمامة؛ قال فيها: ((**بعد حمد الله، والصلاة على نبيه، لا تمدّن الأعناق إلى غيرنا؛ فإن الذي تجدونه عندنا من الحق لا تجدونه عند غيرنا**)).[1] أما إدريس بن إدريس؛ فيختلف حاله بعض الشيء؛ إذ وصلت إلينا بعض النصوص المنسوبة إليه؛ فإن صح ذلك؛ فذاك شاهد على مكانته الشخصية في ميدان الأدب؛ وإن لم تصح نسبتها إليه فهي بدون شك تعطي صورة لما كان عليه بلاط الدولة الإدريسية في هذا المجال. ومن خلال تلك النصوص يمكن تحديد فكرة ــ ولو متواضعة ــ على المستوى الأدبي لهذا الملك من جهة، والمستوى الذي كان عليه الأدباء في تلك الدولة أو القادمين إليها من جهات أخرى.

---

[1] **العبر، مج: 4، ص: 24.**

ومن الشعر المنسوب إلى إدريس الثاني هذه المقاطع:[1]

لَوْ مَالَ صَبري بصَبرِ الناسِ كُلِّهمُ
لَضَلَّ في رَوْعَتِي أوْ ضَلَّ في جَزَعِي
وَمَا أرِيعُ إلَى يَأسٍ لِيسْلِيني
ألا [.....] يَأس إلى طمعِ
وكَيفَ يَصْبرُ مَطوِيٌّ هَضَائِمهُ
عَلى وَسْوَاسِ هَمٍّ غَيرِ مُنقطِعِ
إذا الهُمُومُ توَافتْ بَعْدَ هَجْعَتِهِ
كرَّتْ عَلَيهِ بِكأسٍ مُرَّة الجُرَعِ
بَانَ الأحِبة واسْتَبْدَلت بُعْدَهمُ
هَماً مُقِيماً وَشَمْلاً غَيْرَ مُجْتَمِعِ
كَأنِّي حِينَ يُجرِي الهَمُّ ذِكرَهمُ
عَلى ضَمِيرِي مَخْبولٌ مِنَ الفزَعِ

---

[1] قد يشك بعضهم في صحة إسناد هذه النصوص إلى إدريس؛ غير أن المهم هنا هو تقديم عينة من النصوص الأدبية التي قيلت في ذلك الوقت؛ ولا يهم ـ في هذه الحال ـ إن كان قائلها هو إدريس نفسه، أو قيلت نيابة عنه؛ من طرف أدباء كانوا في بلاط دولته.

تأوِي هُمــومِي إذْ حَرَّكــت ذِكرَهــمُ
إلَى جَوَانِــحِ جسْــمٍ دَائِــمِ الوَلَــعِ

كمــا بعــث بأبيــات ــ نسبتهــا المصــادر إليــه ــ محــذرا شيــخ قبيلــة مطغــرة بهلــول بــن عبــد الواحــد مــن مغبــة انسياقــه في المؤامــرة الــتي يحــوك خيوطهــا إبراهيــم بــن الأغلــب؛ فقــال:

أبَهْلــولُ قدْ شَمَّمْتَ نفسَــكَ خُطــة
تبَدَّلــتَ مِنهَــا ضلَــــة برَشَــــادِ
أضلَــكَ إبرَاهِيــمُ مِــنْ بعْــدِ دَارِهِ
فأصْبَحْــتَ مُنقــاداً بغيــرِ قِيَــادِ
كَأنكَ لمْ تَسْمَــعْ بِمَكــرِ ابْنِ أغلــبٍ
وَقدْمــاً رَمَى بِالكيــدِ كــلَّ بــلاَدِ
وَمِنْ دُونِ مَا مَنتــكَ نفسُــكَ خَالِيــاً
وَمَنــاكَ إبرَاهيــمُ شــوْكَ قتــــادِ

وثمــة أبيــات أخــرى نسبــت إليــه أيضــا؛ وهي موجهــة إلى ابــن الأغلــب؛ يقــول فيهــا:

أذَكــرُ إبْرَاهِيــمَ حــقَّ مُحَمَّــدٍ
وَعِترَتِــهِ وَالحَــقُّ خيْــرَ مَقــولِ

وَأدْعوهُ لِلأمْـرِ الذِي فِيهِ رُشْـدُهُ
وَمَـا هوَ لـوْلاَ رَأيـهُ بِجهـولِ
فـإنْ آثـرَ الدُّنيـا فـإنَّ أمامَـهُ
زَلاَزِلُ يـوْمٍ لِلعقـابِ طوِيـلِ

وممـا نسـب إليـه مـن نثـر؛ هـذه الخطبـة الـتي ألقاهـا يـوم بيعتـه في سنـة 188هـ (803هـ)؛ وجـاء فيهـا: ((**الحمـد اللـه، أحمـده وأستغفـره، وأستعيـن بـه، وأتوكـل عليـه، وأعـوذ بـه مـن شـرّ نفـسي، ومـن شـر كـل ذي شـر، وأشهـد أن لا إلـه إلا اللـه، وأنّ محمـداً عبـده ورسولـه المبعـوث إلى الثقليـن بشيـراً ونذيـراً، وداعيـا إلى اللـه بإذنـه، وسراجـا منيـرا، صـلى اللـه عليـه وعـلى آل بيتـه الطاهريـن الذيـن أذهـب اللـه عنهـم الرجـس، وطهرهـم تطهيـراً. أيهـا النـاس: إنـا قـد ولِّينـا هـذا الأمـر الـذي يضاعـف فيـه للمحسـن الأجـر، وعـلى المـسيء الـوزر، ونحـن والحمـد للـه عـلى قصـد جميـل، فـلا تمـدوا الأعنـاق إلى غيرنـا، فـإن الـذي تطلبونـه مـن إقامـة الحـق إنمـا تجدونـه عندنـا**)).[1]

[1] **الأدب المغـربي، ص ص: 121 ــ 122. وكمـا يظهـر فقـد اقتبـس هـذه العبـارة الأخيـرة مـن خطبـة أبيـه. راجـع مـا سبـق.**

وورد في المصادر أيضا قصيدة شعرية نسبت إلى القاسم بن إدريس صاحب سبتة وطنجة؛ بعث بها إلى أخيه محمد يعتذر فيها عن تنفيذ أمر وجه إليه من طرفه؛ يطلب فيه تأديب أخيهما عيسى صاحب شالة وتامسنا. وفي هذه القصيدة يقول القاسم:

سَأترُكُ لِلرَاغِبِ الغرْبَ نَهباً
وَإنْ كنتُ فِي الغَرْبِ قيلاً وَندْبا
وَأسْمو إلَى الشرقِ فِي هِمةٍ
يعِزُّ بها رُتباً مَنْ أحَبَّا
وَأترُكُ عِيسَى عَلَى رَأيهِ
يُعَالجُ فِي الغرْبِ هَمًّا وكرْبا
ولَوْ كانَ قلبِي عَن قلبهِ
لكنتُ لهُ فِي القرَابةِ قلبَا
وَإنْ أحدَثَ الدَّهرُ مِنْ رَيبهِ
شِقاقاً عَلَيْنا وَأحدَثَ حَرْبا
فإنِّي أرَى البُعْدَ سِتراً لنا
يُجَدِّدُ شَوقاً لدَينا وَحبا
ولَمْ نَجْنِ قطعاً لأرْحامنا
نلاَقِي بهِ آخِرَ الدَّهرِ عَتبَا

وَتبْــقَى العَــدَاوَة فِي عَقبنـــــا
وَأكــرِمْ بـــهِ حِينَ نعْقِــبُ عَقبَــا
وَأوفــقُ مِنْ ذَاكَ جَــوْبُ الفــلاَةِ
وَقطــعِ المَخارِمِ نقبــاً فنقبَـــــا

هــذا عــن ملــوك وأمــراء الدولــة الإدريسيــة؛ أمــا الأدبــاء والشعــراء مــن عامــة النــاس؛ فالمعلومــات عنهــم ــ هي الأخــرى ــ شحيحــة للغايــة؛ ومــع هــذا يمكــن الاستشهــاد ببعــض العينــات المتناثــرة في عــدد مــن المصــادر والمراجــع. وكمثــال عــلى ذلــك يــأتي: أحمــد ابــن القاســم بــن إدريــس وأبــو العيــش عيــسى بــن إبراهيــم بــن القاســم بــن إدريــس أميــرا البَصْــرة (أو كــرت كمــا تســمى أيضــا) في مقدمــة الذيــن يهتمــون بــالأدب والشعــر؛ إذ كانــا يستقبــلان في مجالسهمــا الشعــراء مــن كــل الأقطــار؛ ويقصدهمــا الشعــراء والأدبــاء مــن ربــوع المغــرب والأندلــس كلهــا؛ حيــث كانــوا يتوافــدون إلى مجالسهمــا الثريــة الزاهيــة. ويفهــم مــن بعــض المصــادر أن بكــر بــن حمــاد الزنــاتي التاهــرتي كــان يراســل أحمــد بــن القاســم ــ إن لــم يكــن قــد زاره في بلاطــه ببصــرة ــ ويمدحــه بقصائــد كثيــرة؛ لــم يصلنــا منهــا إلا هــذه القطعــة الــتي يقــول فيهــا:

إنَّ السَّمَاحـــة وَالمُـــرُوءَة وَالنـــدَى
جُمِعـــوا لأحْمَـــدَ مِنْ بَنِي القاسِـــمِ
وَإذَا تفاخـــرَتِ القبَائِـــلُ وَانتمَـــت
فَافخـــرْ بِفضـــلِ مُحمَّـــدٍ وَبِفَاطِـــمِ
وَبِجَعْفـــرِ الطيـــارِ فِي دُرَجِ العُـــلَى
وَعَلِيِّ العَضبِ الحُسَـــامِ الصـــارِمِ
إنِّي لمشتـــــاقٌ إليـــــكَ وَإنمَـــــا
يَسموا العقـــابُ إذَا سَمَـــا بِقـــوَادِمِ
فابعـــثْ إلَيَّ بِمركـــبٍ أسْمـــو بـــهِ
عَـــلي أكـــونُ عليـــكَ أوَّلَ قـــادِمِ
وَاعْلَـــمْ بِأنـــكَ لـــنْ تنـــالَ مَحبـــة
إلاَّ ببعـــضِ ملاَبـــسٍ وَدَرَاهـــــمِ

وقـــال ابـــن عـــذاري هنـــا: ((**فبعـــث إليـــه ببغلـــة سنيـــة، وصلـــة جزلـــة. وكـــان لـــه فيـــه أمـــداح كثيـــرة**)).[1] ويفهـــم مـــن البيتيـــن الأخيريـــن أنـــه ربمـــا يكـــون زار بـــلاط أحمـــد بـــن القاســـم. ومـــن بيـــن الشعـــراء الذيـــن وفـــدوا عـــلى أبي العيـــش عيـــسى الشاعـــر التاهـــرتي أحمـــد بـــن الفتـــح؛ حيـــث مدحـــه بقصيـــدة استهلهـــا

[1] **البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص: 236**

ـ كعـادة العـرب ـ بالنسيـب ووصـف جمـال نسـاء البصـرة؛ فقـال:

قبَّـحَ الإلـهُ اللهْـوَ إلاَّ قيْنَـةٌ
بصْرِيّـة فِي حمْـرَةٍ وَبيـاضِ[1]
الخمْـرُ فِي لَحَظاتِهَـا وَالوَرْدُ فِي
وَجَنَاتِهَـا، وَالكشْحُ غيْرُ مُفـاضِ
فِي شَكلِ مَرْجِى، وَنسْـكِ مُهَاجـرِ
وَعفـافُ سُنِيّ وَسَمْـتِ إيـاضِ
تاهـرْتُ أنـتِ خلِيَّـة وَبرِيـة
عَوَضْتُ مِنكِ ببَصْـرَة فاعْتَـاضِ
لاَ عُـذرَ لِلحَمَرَاءِ فِي كلـفِي بِهَـا[2]
أوْ تَسْتفِيـضَ بِأبحُـرٍ وَحيـاضِ
مَا عُذرُها وَالبَحْرُ عيـسَى رَبهَـا
مَلِكُ المُلوكِ وَرَايـضُ الـرُّوَاضِ

---

[1] جـاء هـذا البيـت في الأدب المغـربي هكـذا:
مَا حَـازَ كُلُّ الحُسْـنِ إلاَّ قَيْنَـةَ بِصْرِيَّة في حُمْرَةٍ وَبيَـاضِ، ص: 109.

[2] الحمـراء هنـا هـي بصـرة؛ إتسـمى بهـذا الاسـم أيضـا، كمـا تسـمى بصـرة الكتـاب، وبصـرة الذبـان. المغـرب، ص: 110.

وهـذا مقطـع قالـه شاعـر آخـر عـاش في القـرن الرابـع الهجـري اسمـه إبراهيـم بـن محمـد الأصيـلي؛ وهـو في مـدح حيّ مـن هـوارة يعـرف ببـني زيـاد؛ كانـوا ساكنيـن حـول مدينـة أصيـلا:

سَقَى غـرْبِيَّ أرْضِ بَـنِي زِيَـادٍ
سَحَائِـبُ مَا يَجِـفُّ لهَـا غـرُوبُ
وَلاَ زَالَ النعِيـمُ يَعُـمُّ قوْمـاً
إزَاؤُهـمْ مِـنَ الشـرقِ الكثِيـبُ

ومـن شعـراء ذلـك الزمـن الشاعـر محمـد بـن إسحـاق المعـروف بالبجيـلي أو النحيـلي؛ وهـو القائـل في عـدوة القرويـين بفـاس:

يا عـدْوَة القرَوِيـنَ التِي كرِّمـتْ
لاَزَالَ جانِبُكِ المَحْبُـورِ مَسْطـورَا
وَلاَ سَرَى اللـهُ عنكِ ثوْبَ نِعْمتِـهِ
أرْضٌ تَجنبَـتِ الآثـامَ وَالـزُّورَا

وقد يكون هذا الشاعر هو الذي سمَّاه البكري مرة البجيلي ومرة أخرى النحيلي؛ وقد أورد له أبياتا شعرية مقذعة هجا فيها القاسم جنون ابن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس؛ وكان قد أخذ منه جارية له يحبها؛ فقال:

أترَى سِلاَحك إذْ كدَدْتَ قَصِيدَتِي
يَنفِيهِ سَيْلٌ قدْ طمَا مِنْ سَفسَدِ

إلى قوله:

أبَنِي مُحَمَّدَ الزَّنيمِ لأنتمُ
شَرُّ الورَى مِمَّنْ يَرُوحُ وَيغتدِ
إنْ كانَ جَنونُ مِنْ آلِ محَمدٍ
فأنا كفورٌ بِالنبِيِّ محَمدِ

أما إبراهيم بن محمد الأصيلي متعرضا لفاس قائلا:

دَخلتُ فاساً وَلِي شَوقٌ إلَى فاسِ
وَالجُبْنُ يَأخذُ بِالعَيْنينِ وَالرَّأسِ
فلَسْتُ أدْخلُ فاساً لوْ حييتُ ولَوْ
أعطِيتُ فاساً بمَا فِيهَا مِنَ النَاسِ

وممـــن هجـــا فاســـا ــ في ذلـــك الزمـــن أيضـــا ــ قـــاضي تاهـــرت أحمـــد بـــن فتـــح بقولـــه:

أسْلـــحْ عَلى كلِّ فاسِيٍّ مَـــرَرْتَ بـــهِ
فِي العُدْوَتيْـــنِ مَعاً لاَ تبقِيـــنَ أحَـــدَا
قومٌ غـــذُّوُا اللـــؤْمَ حَتَّى قالَ قائِلِهـــمْ
مَنْ لاَ يَكونُ لئِيمـــاً لمْ يَعِـــشْ رَغـــدَا

ومـــن الشعـــراء الذيـــن عاشـــوا في تلـــك الفتـــرة أيضـــا محمـــد بـــن السمهـــري الـــذي هجـــا القاســـم بـــن إدريـــس بـــن إدريـــس صاحـــب طنجـــة بقولـــه:

قـــلْ لِلزَّنِيمِ زَنِيمِ طَنجَةَ عِشْ بهَـــا
لاَ يَحْسدَنـــكَ فِي بـــلاَدِكَ حَاسِـــدُ
مَنتـــكَ نَفْســـكَ أنْ تَكُونَ خَلِيفـــةَ
هَيْهـــاتَ هَذا مِنْ حَدِيثِـــكَ بَـــارِدُ
لَمـــا رَأيْتـــكَ لِلئـــامِ مُصَافِيـــاً
أيْقَنـــتُ حَقـــا أنْ جَـــدَّكَ رَاشِـــدُ

****

2)ـ دولـــة بـــني حمـــود بقرطبـــة:

تعتبـــر هـــذه الدولـــة بمثابـــة امتـــداد وتواصـــل للدولـــة الإدريسيـــة في بـــلاد المغـــرب. وقيامهـــا في بـــلاد الأندلـــس حـــدث نتيجـــة لتحـــول ساحـــة الصـــراع بيـــن الأدارســـة والأمويـــين إلى أرض الأندلـــس؛ بسبـــب مـــا حصـــل مـــن نقـــل أفـــراد الأســـرة الإدريسيـــة بكاملهـــم إلى تلـــك الديـــار؛ مـــن طـــرف الخليفـــة الأمـــوي المستنصـــر باللـــه؛ خاصـــة في سنـــتي: 365هـــ (975م) و375هـــ(985م). هـــذا وينتـــمي الملـــوك الأول مـــن الأدارســـة ــ في الأندلـــس ــ إلى فـــرع عمـــر بـــن إدريـــس. وقـــد كانـــوا منافسيـــن لبـــني عمومتهـــم: أبنـــاء القاســـم بـــن إدريـــس؛ الذيـــن يعتبـــرون آخـــر مـــن تـــولى ملـــك الأدارســـة في المغـــرب. ويبـــدو أن تلـــك المنافســـة كانـــت سببـــا في تغـــاضي الخليفـــة الأمـــوي المستنصـــر عـــن محاولـــة نفيهـــم ــ هـــم الآخريـــن ــ مـــع الحســـن بـــن قنـــون إلى مصـــر.

هـــذا ولـــم تشـــر جـــل المصـــادر ــ بوضـــوح ــ إلى مكـــان إقامـــة بـــني حمـــود في الأندلـــس؛ حينمـــا بـــدأت الفتنـــة. وقـــد انفـــرد ابـــن الخطيـــب ــ تقريبـــا ــ بالحديـــث عـــن ذلـــك؛ ولكـــن باقتضـــاب شديـــد؛ حيـــث ذكـــر أنهـــم كانـــوا ((**مـــن جملـــة أمـــراء المغاربـــة المترسميـــن في ديـــوان بـــني أميـــة بقرطبـــة**)).[1] دون تحديـــد الفتـــرة الزمنيـــة؛ هـــل تـــم ذلـــك قبـــل نـــفي الحســـن بـــن قنـــون إلى مصـــر، أو بعـــد نفيـــه؟.

---

[1] **أعمـــال الأعـــلام، ق: 2، ص: 128.**

وعليه فالسؤال يبقى قائما حول المكان الدائم الذي كانوا يعيشون فيه؛ بعد نفي الأدارسة إلى الأندلس؛ وإخلاء بلاد المغرب منهم. ومن ثمة؛ بعد نفي ابن قنون وأهله إلى مصر. ومن هنا يمكن التساؤل: هل كانوا مستقرين في بلاد غمارة؛ مختفين عن الأنظار بتلك الديار؟ أم كانوا قاطنين ببلاد الأندلس؛ في الظل؛ وبعيدا عن الأضواء؟ وبهذا يمكن الاعتماد على ما ذكره ابن حزم بإيجاز؛ حين ذكر أن بني حمود كانوا بتازغدرا من عمل غمارة.[1] كما يشير البكري إلى بعض فروعهم الموزعين في بقاع شتى بالمغرب كـ: بلاد أوربة، وفاس، وكتامة، وبلاد بني عسوجة وبلاد زناتة، وبلاد برغواطة، وتازغدرا بغمارة.[2] ومن جهة أخرى يجيب ابن الخطيب بإيجاز أيضا ــ في سياق آخر ــ على ذلك؛ إذ يرى أن علي بن حمود انتهز موجة الاضطرابات؛ التي حدثت بين أبناء البيت المالك من: الأمويين وأنصارهم المشكلين من: الأمازيغ وأهل قرطبة؛ فقطع البحر؛ قاصدا سبتة؛ حيث تغلب عليها.

---

[1] قال ابن حزم: ((وكان بدء أمرهم [أي بني حمود] في شول سنة 400؛ إذ ولي القاسم بن حمود سبتة إلى التاريخ المذكور. وكان هذا الفخذ من افخاذهم خاملا؛ وكانوا صاروا بتازغدرة من عمل غمارة)). الجمهرة، ص: 51.

[2] المغرب، ص ص: 131 ــ 133.

ولكنه عاد إلى الأندلس عند سماعه باستفحال أمر سليمان بن الحكم؛ مع من كان معه من الأمازيغ؛ وبعد ظهور بوادر تفيد بقرب انتصارهم على أعدائهم.[1] وقد وردت إشارة خاطفة وباهتة في الذخيرة لابن بسام ــ حين ذكر موضوع وصية هشام المؤيد بالعهد من بعده إلى علي بن حمود؛ نكاية في بني عمه من آل الناصر الثائرين عليه ــ قال فيها أن عليا كان يتردد على سبتة؛ بغرض حث طوائف الأمازيغ، وتحريضهم على الجهاد في صف سليمان؛ وضد المهدي وأنصاره من أهل قرطبة.[2]

---

[1] وفي هذا يقول ابن الخطيب: ((ولما التفت البرابرة بسليمان؛ استيجاشا من العصائب الأندلسية، وتشميرا لمقارعتها؛ وأجفل البرابرة إلى وادي يارو منهزمين؛ لحق [أي علي بن حمود] بالعدوة الغربية؛ وتغلب على سبتة محتالا. ثم عاد إلى الأندلس؛ لما استوسق الأمر لسليمان. واختص من كُوَر إيالته التي اقتسمها البرابر واقتطعوها بسبتة، وأخوه القاسم بالجزيرة)). أعمال الأعلام، ق: 2؛ ص: 128.

[2] قال ابن بسام: ((وكان هشام ــ عند ما رآه من اضطراب أمره؛ وتيقنه من انصرام دولته؛ بما مني به قديما وحديثا؛ من تمالؤ بني عمه آل الناصر عليه؛ وقيامهم واحدا بعد واحد في خلعه ــ صيّر إلى علي بن حمود ولاية عهده؛ وأوصى إليه بالخلافة من بعده؛ وراسله بذلك إلى سبتة؛ أيام تردده عليها؛ بمعنى الاستمداد، وجمعه طوائف البرابرة للجهاد)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1. ص ص: 37 ــ 38.

وهنا يتبادر إلى الذهن احتمال عودة السبب في انتقال علي بن حمود إلى الأندلس من جديد ــ بعد أن تغلب على سبتة؛ خلال موجة الاضطرابات ــ إلى الخطاب الذي ورد إليه من هشام المؤيد؛ كما جاء في الذخيرة ومصادر أخرى. ذلك الخطاب الذي يسند فيه هشام ولاية العهد إليه. ومن هنا يبدو أنه لم يعبر المضيق نحو الأندلس لمجرد التضامن مع سليمان بن الحكم، أو بدافع الغيرة عليه بحكم العصبية، أو حبا في الوقوف معه ضد أعدائه من أهل قرطبة. بل حدث ذلك بدافع المصلحة؛ التي أملت عليه العمل بجد في سبيل تحقيقها.

على كل حال؛ فانزواء بني حمود هذا، واختفائهم عن الأضواء ــ سواء في بلاد الأندلس أو في المغرب ــ مكنهم من اصطياد الفرصة المواتية للانقضاض على عرش الخلافة بالأندلس. وقد تحقق لهم ذلك؛ حينما ترنحت دولة الأمويين؛ ومالت نحو الانهيار؛ بعد سقوط مؤسساتها الفاعلة، وتفكك قواعدها الأساسية. وجملة القول هي أن جل المصادر التاريخية بدأت ــ لأول مرة ــ تتحدث عن علي بن حمود وأخيه القاسم في بلاد الأندلس؛ اعتبارا من سنة 403هـ (1012م). حين تناقلت ــ ما ذكره ابن حيان ــ عنهما وعن الموضع الذي عسكرا فيه مع جيشهما المشكل من المغاربة؛ وكان ذلك بالقرب من الزهراء وقرطبة؛ وبالتحديد في شَقَنْدة. حيث كانا ضمن جيش سليمان بن

الحكم.[1] والمهم هنا أن علي بن حمود يكون قد ولد في بلاد المغرب؛ حسبما توصل إليه إسماعيل العربي؛ بعد عملية حسابية قصيرة قام بها.[2] ثم نُقِلَ ــ مع من نُقِل من بني عمه الأدارسة ــ إلى بلاد الأندلس؛ حيث ظل مهمشاً وبعيداً عن الأنظار حتى حانت الفرصة المناسبة؛ حين ظهر الانقسام الأكبر في صفوف بني أمية وأنصارهم؛ فعاد إلى مركز قوته ونفوذه؛ أين جمع شمل عصبيته الأمازيغية؛ بحجة نصرة أحد الفريقين المتخاصمين من بني أمية؛ ولما تمكن واشتد ساعده انقض من هناك على فريسته، وتغلب على أعدائه، حيث تربع على عرش الخلافة في قرطبة باسم العلويين من بني هاشم.

---

[1] إذ قال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((وانتقل إلى مدينة الزهراء [أي سليمان بن الحكم] بجملة برابره وجيشه؛ فضاقت الزهراء عنهم؛ فنزلوا بما اتصل بها. ونزل ابنا حمود: علي والقاسم قائدا فرقة المغاربة بشَقُنْدة)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 37. نقل هذا النص أيضا ــ كما هو ــ ابن عذاري، ج: 3، ص: 113. كما أشار إليه الحميدي في جذوة المقتبس، ص ص: 19 ــ 20. وعبد الواحد المراكشي في المعجب، ص: 43.

[2] دولة الأدارسة، ص: 226.

ولابد ـ هنا ـ من الإشارة؛ إلى أن ابن خلدون كتب فقرة غامضة؛ تبعث على الاعتقاد بأن بني حمود كانوا مقيمين في تازغدرا ببلاد المغرب؛ في حماية قبيلة غمارة الأمازيغية.[1] وربما يكون ابن خلدون قد اقتبس هذا الخبر عن ابن حزم أو البكري؛ إذ قالا القول نفسه؛ كما سبقت الإشارة إليه. ولما اشتدت الأزمة في الأندلس؛ عَبَرَ أمير بني حمود علي بن حمود إلى الضفة الأخرى مع جملة من أنصاره الأمازيغ؛ حيث انضم إلى صفوف سليمان بن الحكم؛ مسايرة منه للحلف الذي عقده ـ هذا الأخير ـ مع جل القبائل الأمازيغية هناك؛ خاصة وأن علي بن حمود وأعضاء أسرته كانوا يرون في أنفسهم جزءا لا يتجزأ من المجتمع الأمازيغي. وبالفعل فقد عامله سليمان بن الحكم كما عامل أمراء القبائل الأمازيغية. حيث أقطعه ـ بعد أن تحقق له النصر ـ مدينة سبتة؛ كما أقطع أخاه القاسم الجزيرة الخضراء.

---

[1] وفي ذلك يقول: ((وبقي الفخر منهم بتازغدرة من غمارة؛ فأجازوا مع البربر؛ وصاروا في جملة المستعين؛ مع أمراء العدوة، من البربر. فعقد لهما [أي لعلي والقاسم] المستعين فيمن عقد له من المغاربة. عقد لعلي منهما على طنجة، وللقاسم ـ وكان الأسن ـ على الجزيرة الخضراء)). العبر، مج: 4، ص: 330.

ويرى بعضهم أن سليمان ارتكب خطأ كبيرا بتقديم تلك المقاطعتين لعلي وأخيه القاسم.[1] والغريب أن بعض الأمازيغ أنفسهم استنكروا ما قام به سليمان؛ على الرغم من الاندماج الحاصل بين بني حمود والأمازيغ.[2] وربما يكون ما أبداه أمير بني برزال من اعتراض؛ لا يعدو أنه أتى من

---

[1] فهذا ابن بسام يقول: ((ومن الاتفاق الغريب على سليمان أنه لما استوسق له الأمر؛ بعد فراغه من خبر هشام المؤيد؛ أنفذ عزمه ــ من بين قواد جيوشه ــ في اختيار علي بن حمود المذكور؛ فقدمه على مدينة سبتة؛ رأيا ذَهَلَ عنه؛ ونبذها إلى ضد له مكاشح شريك في الدعوى والقرابة. فتلقفها علي تلقف الأكياس المقبلين؛ ودَبَّ لمغبونه سليمان من قِبَلِها الضَّراء دبيب الحَنَق الموتور؛ حتى هجم عليه وسلبه ملكه، وحول دولته، ومزق عِتْرته. وكانت غلطة سليمان التي لم يستقلها هو ولا من بعده؛ وإذا أراد الله شيئا أمضاه)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 38.

[2] قال ابن عذاري نقلا عن ابن حمادة: ((وكانوا ستة قبائل. فأعطى صنهاجة إلبيرة؛ فبقيت بيد حبوس وذريته نحو المائة سنة. وأعطى مغراوة الجوف. وأعطى منذر بن يحيى سرقسطة. [لم يكن منذر بن يحيى بربريا؛ بل كان من قبيلة تجيب العربية] وأعطى بني برزال وبني يفرن جيان وذواتها. وأعطى بني دمر وأزداجة شذونة ومورور وغير ذلك من الحصون. وذكِر أنه ولى القاسم بن حمود طنجة وآصيلا، أما علي بن حمود فولاه سبتة كما ذكرناه. [يرى المراكشي وابن الخطيب وابن خلدون أن ما أعطاه سليمان للقاسم هي الجزيرة الخضراء] فلما بلغ عبد الله البرزالي تقديم ابني حمود؛ دخل على سليمان؛ فقال: "يا أمير المؤمنين بلغني أنك وليت بني حمود العلويين على المغرب." قال: "نعم". قال له: "أليس العلويون طالبيين؟" قال: "نعم". قال: "تأتي إلى خشاش؛ تردهم ثعابين؟" قال: "نُفِذ الأمر في ذلك")). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 113 ــ 114. أنظر في هذا أيضا المعجب، ص: 43. وأعمال الأعلام لابن الخطيب: ق: 2، ص: 119.

باب الغيرة والحسد لعلي بن حمود وأخيه؛ أو ربما يكون ذلك بتأثير من معتقده الخارجي.

المهم أن ذلك حدث بموافقة سليمان وبقرار منه. ولعله لم يكن في يده القدرة على الرفض أو المعارضة؛ نظرا لكون علي قد سيطر بالفعل ــ من قبل ــ على سبتة؛ كما جاء في نصي: ابن بسام وابن الخطيب. خاصة وأن ابن حزم قال أن سبتة كانت ولاية القاسم بن حمود منذ شوال سنة 400هـ(1009م).[1] وبهذا فما صدر ــ بعدئذ ــ عن سليمان لم يكن سوى مصادقة وموافقة على أمر واقع بالفعل. وهكذا فمن ذلك التاريخ برز الدور الخطير والفعال للأدارسة في بلاد الأندلس؛ ممثلين بعلي بن حمود بن ميمون بن حمود ــ وحمود اسمه الحقيقي أحمد ــ بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله.[2] وكما سبق ذكره فهذا الأمير يعتبر من بقايا الأدارسة؛ الذين أجبرتهم الظروف على العيش في ظل الدولة الأموية؛ بعد أن تغلبت على ملكهم ببلاد المغرب.

---

[1] **الجمهرة، ص: 51.**

[2] **نفسه، ص: 50.**

وقد برز فيما بعد ببلاد الأندلس والضفة المقابلة في العدوة المغربية ــ من هذه الأسرة؛ إلى جانب علي ابن حمود ــ أخوه القاسم وعدد من ذرية علي بن حمود هذا؛ منهم: يحيى بن علي، وإدريس بن علي، وحسن بن يحيى، وإدريس بن يحيى، ومحمد بن إدريس بن يحيى، ويحيى (حيون) بن إدريس، ومحمد بن إدريس بن علي، وحسن بن إدريس بن علي، وعلي بن إدريس ابن علي. أما ذرية القاسم فمنهم: محمد بن القاسم، وحسن بن القاسم، والقاسم بن محمد بن القاسم. وقد كان بنو إدريس هؤلاء مندمجين ضمن كتلة القبائل الأمازيغية؛ على الرغم من أصولهم الأولى التي تلتحم ببني هاشم. ذلك لأن الأدارسة كلهم قد انصهروا ــ منذ قيام دولتهم الأولى ــ في المجتمع الأمازيغي؛ فأضحوا جزءا لا يتجزأ منهم. ولهذا فالمصادر التاريخية كلها؛ تتكلم عنهم دوما في سياق حديثها عن الأمازيغ؛ كما ينسب كل تصرف يصدر عنهم آليا إلى القبائل الأمازيغية.[1]

---

[1] فابن خلدون يفتتح الكلام عنهم بقوله: ((كانوا في لفيف البرابرة في بلاد غمارة؛ واستجدوا بها رياسة استمرت في بني محمد، وبني عمر من ولد إدريس؛ فكانت للبرابرة إليهم صاغية؛ بسبب ذلك، وخلطة بتازغدرة من غمارة؛ فأجازوا مع البربر، وصاروا في جملة المستعين مع أمراء العدوة من البربر. فعقد لهما المستعين فيمن عقد له من المغاربة. عقد لعليّ منهما على طنجة وعملها، وللقاسم ــ كان الأسنّ ــ على الجزيرة الخضراء.

وتشير بعض المصادر ــ أيضا ــ إلى أن لهجتهم كانت أمازيغية؛ ومع ذلك فهم لا يجهلون العربية بالتمام. وقد أورد ابن الخطيب مثالا على لهجة علي بن حمود؛ تلك اللهجة المتأثرة بالعجمة كما وصفها؛ حين قال: ((**وقبض** [أي علي بن حمود] **على سليمان وأخيه وأبيه الحكم؛ فقتلهم بيده؛ وقال بلسانه الزناتي: " لا يقتل الزلطان إلا الزلطان**")). ويقصد ابن الخطيب من هذا أن علي ابن حمود لم يقل السلطان بالسين؛ إذ نطق السين زايا.[1] غير أن الذي قاله ابن الخطيب لا يمنع كون علي وأخيه القاسم ومن تبعهما من ذرية ابني حمود كانوا يعرفون العربية ويتذوقون آدابها؛ خاصة وأن مصادر كثيرة أتت بشواهد تفيد بذلك.[2]

****

وكان في نفوس المغاربة والبرابرة تشيع لأولاد إدريس؛ متوارث من دولتهم بالعدوة)). العبر، مج: 4، ص: 330. أما ابن بسام فيستشهد بمقالة ابن قتيبة؛ حين قال: ((ثم رفضتهم آفاقها [يقصد رفضت آفاق بلاد إفريقية بني أبي طالب] إلى طرف بلاد البربر؛ فنكحوا إليهم، وتبربروا معهم)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 96.

[1] أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 121.

[2] فمما قاله المقري ــ على سبيل المثال ــ في علي بن حمود: ((وكان الناصر علي بن حمود ــ على عجمته، وبعده من الفضائل ــ يصغي إلى الأمداح، ويثيب عليها، ويظهر في ذلك آثار النسب العربي والكرم الهاشمي. ومن شعرائه المختصين به ابن الحنَّاط القرطبي [وهو محمد بن سليمان ابن الحناط الرعيني القرطبي الأعمى]... وعبادة بن ماء السماء؛ وكان معروفا بالتشيع... ومدحه ابن دراج القسطلي)). نفح الطيب، ج: 1، ص ص: 483 ــ 484.

ـ حكومة الناصر لدين الله علي بن حمود بقرطبة:

وخلاصة القول فقد ظل علي بن حمود يترقب الفرصة المواتية للانقضاض على كرسي الخلافة بقرطبة. إذ كان يتابع ـ من قرب وبعناية ـ كل ما يجري في ديار الأندلس. حيث يراقب الأحداث التي تمت بعد نشوب الاضطرابات ـ في بدايتها ـ داخل البيت الأموي، وبعد زوال حكم العامريين؛ نتيجة للانقسامات التي حدثت بين أنصار الدولة الأموية؛ عندما انحازت كل فئة من المصطنعين، والقبائل إلى أمير من الأمويين. فانضم جمع كبير من الأمازيغ ـ وبنو حمود معهم طبعا ـ إلى سليمان بن الحكم بن سليمان الملقب بالمستعين بالله؛ الذي قام ضد خصمه محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي. وذلك لأن الأمازيغ كرهوا ابن عبد الجبار (المهدي)؛ بسبب ما أعلنه من عداء لهم؛ وما أبداه من تعصب شديد ضدهم ـ في بداية عهده ـ إذ كان يَكِنُّ لهم كراهية ملحوظة؛ الأمر الذي أجج حقدهم عليه، وعلى أتباعه من العامة والدهماء؛ الذين ارتكبوا مجازر رهيبة في حق الأمازيغ بقرطبة. لذا كان رد الفعل عندهم ـ على اختلاف قبائلهم ـ هو العمل باستماتة على نصرة خصمه اللدود ومنافسه العنيد سليمان بن الحكم (المستعين بالله).

وسبب كراهية المهدي للأمازيغ ــ طبعا ــ عائدة إلى ضغوط نفسية؛ تحركها في داخله العصبية الشديدة لأقربائه وأهله من بني أمية؛ أولئك الأقرباء من الأسرة المالكة الذين سلبهم الأمازيغ ــ بدعمهم للمنصور ابن أبي عامر وأبنائه ــ القدرة في مقاومة المغتصبين والمستبدين في بلاط هشام المؤيد.[1] وهذا ما فسره المقري بقوله: ((**وأذل** [أي المنصور بن أبي عامر] **قبائل الأندلس بإجازة البرابر**)).[2] أي بنقلهم من المغرب إلى الأندلس؛ ثم يضيف في موضع آخر: ((**وكانت الأموية تعتد عليهم** [أي على الأمازيغ] **ما كان من مظاهرتهم العامريين؛ وتنسب تغلب المنصور وبنيه على الدولة إليهم؛ فسخطتهم القلوب، وخزرتهم العيون. ولولا مالهم من العصبية لأستأصلهم الناس؛ ولغطت ألسنة الدهماء من أهل المدينة** [أي قرطبة]

---

[1] وفي ذلك يقول ابن الخطيب: ((وأعلن [أي المهدي] ببغض البرابرة وتنقصهم؛ جهلا بمحلهم من البأس والعصبية؛... وتعصبت العامة للمهدي... وانحاز البرابرة والمغاربة من القبائل بجميعهم إلى أرملاط؛ خارج قرطبة؛ عشية يوم الجمعة؛ وبعد محاورة بينهم وبين العامة؛ ثم صرفوا وجوههم إلى الثغر. وراسلهم محمد بن عبد الجبار؛ فلم يلتفتوا إليه)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 112 ـــ 113. وثمة شواهد أخرى في المصدر نفسه، ص ص: 66. 70. 87. 102. 106. 112ـــ 119. وأنظر في هذا أيضا البيان المغرب، ج: 2، ص ص: 263. 278 ـــ 279. 281. 287. 293 ـــ 294. ج: 3، ص ص: 30. 51 ـــ 91. والعبر، مج: 4، ص ص: 318 ـــ 326. ونفح الطيب، ج: 1، ص ص: 397 ـــ 398. 405. 417. 427 ـــ 430.

[2] نفح الطيب، ج: 1، ص: 405.

بكراهيتهم. وأمر المهدي أن لا يركبوا ولا يتسلحوا؛ ورَدَّ بعض رؤوسهم في بعض الأيام من باب القصر؛ فانتهبت العامة دورهم؛ وشكا بعضهم إلى المهدي ما أصابهم؛ فاعتذر إليهم، وقتل من اتهم من العامة في أمرهم؛ وهو مع ذلك مظهر لبغضهم؛ مجاهر بسوء الثناء عليهم. وبلغهم أنه يريد الفتك بهم...)).[1]

ويقتضي الحال هنا وقفة قصيرة؛ لمحاولة فهم ما جرى بقرطبة في تلك الأثناء. فمن الواضح أن الوضع تطور خلال درجات ومراحل متتابعة. ففي البدء اقتصر الصراع على أهل البلاط بقرطبة؛ وبالتحديد داخل الأسرة المالكة؛ أو بالأحرى بين العصبية الأموية العربية وبعض الموالي والمصطنعين؛ ممن أراد الخليفة إعدادهم وتجهيزهم ضد من تسول له نفسه ــ من عصبيته ــ أن يخرج عليه، أو يتطلع لمشاركته في مجد الملك والسلطان.[2] وفي المرحلة الموالية بدأ نجم المنصور بن أبي عامر يبرز ويسطع على الأندلس كلها. ولما أراد هذا الوزير الحاجب الحازم ــ الذي كان وصيا على العرش ــ أن يستبد بالأمر؛ لم يكتف

---

[1] **نفح الطيب، ج: 1، ص: 427.**

[2] **وهذا يتوافق مع ما ذكره ابن خلدون ضمن: ((فصل في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 632 ــ 634. و((فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالي والمصطنعين)). نفسه، ص ص: 677 ــ 678.**

باصطناع الموالي والمصطنعين ــ كالفتيان العامريين ــ بل مد نظره بعيدا؛ إلى الطرف الآخر من العدوة؛ حيث الأرض التي تفيض بالقبائل، وأبطال الحرب والنزال؛ تلك الأرض المغربية الخصبة بالرجال البواسل، والزاخرة بالقبائل التي لا تحصى؛ تلك القبائل التي ما زالت تعيش في محيط بدوي متقشف؛ محيط بعيد عن ليونة الحضارة وطراوتها، والنائية عن تياراتها المفسدة لشروط الصلابة والبسالة.[1]

وقد يكون من الحوافز التي جعلت المنصور يتحمس إلى جلب فرسان الأمازيغ إلى الأندلس؛ تلك النتائج المشجعة التي انبثقت عنها تجربة سيده المستنصر؛ حين استخدم بني برزال. فاتضح له أنهم كانوا أهلا للمهمة التي أنيطت بهم؛ حيث أضحوا للخليفة الأموي حراسا أوفياء، وللبلاد فرسانا مغاوير. ونتيجة لذلك فقد عمل المنصور على جلب عدد كبير من القبائل الأمازيغية وفرسانهم الأبطال إلى بلاد الأندلس؛ بحجة الجهاد، والدفاع عن أمن الدولة الإسلامية من تحرشات النصارى. فأجزل لهم العطاء، وخصهم بكل غال وثمين من أموال وإقطاع. وبذلك أصبحت في يده

---

[1] أنظر إلى ما كتبه ابن خلدون ضمن: ((فصل في أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 588 ـــ 589. و((وفصل في أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم، ذاهبة بالمنعة منهم)). نفسه، ص ص: 589 ـــ 591.

قوة لا تقهر في الأندلس؛ مكنته من الاستبداد والتصرف في شئون الدولة كما يحلو له.[1] ثم أتت الفترة الموالية؛ التي شهدت الصراع الخطير والانقسام المذهل الذي فتت الدولة إلى طوائف وإمارات صغيرة هنا وهناك؛ حيث هيمنت خلالها فئات عديدة ومتفرقة في المجتمع: قبائل عربية، وقبائل أمازيغية، وموالي من أجناس شتى، ومماليك صقالبة وسودان.. ألخ. وضمن هذا البحر المتماوج من العصبيات المختلفة ــ قبلية وفئوية وعرقية ومذهبية ــ كان بعض الفتات المنعزل، والبقايا الضائعة من بني أمية تظهر فوق السطح أحيانا، وتختفي تحت الأمواج أحيانا أخرى. وفي هذه الأثناء ظهرت العصبية الهاشمية؛ ممثلة بالأدارسة من بني أبي طالب. غير أن عصبيتهم الفاعلة والموجودة في الميدان كانت هي العصبية الأمازيغية؛ نظرا لما حصل من اندماج قديم بين الأدارسة والأمازيغ. ومن هنا يتضح التداخل بين العصبيتين؛ كما يتضح سبب الجفاء الذي لاقاه الأدارسة من قبل الأندلسيين؛ ذلك الجفاء العائد ــ في الحقيقة ــ إلى عدم التمييز والفصل بينهم وبين الأمازيغ.

---

[1] أنظر أيضا: ((فصل فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 680 ــ 681. و((فصل في أن المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك)). نفسه، ص ص: 682 ــ 683.

ونظـرا لمـا واجـه الأمازيـغ مـن شـدة في العـداء أبـداه سكـان المـدن؛ وخاصـة أهـل قرطبـة وإشبيليـة؛ فمـا كـان منهـم سـوى الحـرص عـلى حمايـة أنفسهـم، والسهـر عـلى أمنهـم، والـذود عـن مصالحهـم. ومـن هنـا عملـوا عـلى تقديـم ولائهـم للأميـر الـذي يفيدهـم ويحقـق مآربهـم. فالتفـوا في البدايـة حـول الأميـر هشـام ابـن سليمـان بـن عبـد الرحمـن الناصـر؛ ولمـا قتـل انضمـوا إلى ابـن أخيـه سليمـان بـن الحكـم بـن سليمـان ابـن الحكـم بـن عبـد الرحمـن الناصـر. ولمـا تحقـق لسليمـان المذكـور النصـر، وتربـع عـلى عـرش الخلافـة بقرطبـة؛ لـم يجـد متسعـا مـن الوقـت لـكي يؤجـل تسديـد الديـن الـذي عليـه للأمازيـغ ومـن ناصـره في حـرب عـدوه. لـذا فقـد سـارع إلى مكافأتهـم جميعـا؛ حيـث أسنـد إلى بعضهـم مناصـب ساميـة في الدولـة؛ كمـا خـص أمراءهـم بالقيـادات والمقاطعـات الهامـة. فكـان حـظ بـني حمـود ــ كمـا سبـق ذكـره ــ مثـل حـظ بقيـة الأمازيـغ؛ لصلتهـم بهـم وانتمائهـم إليهـم. وهكـذا فقـد أقطـع سبتـة لعـلي بـن حمـود، والجزيـرة الخضـراء لأخيـه القاسـم.

وبذلـك كـان هـذا الإقطـاع بدايـة الخطـوات الممهـدة لدروب الملـك؛ إذ وصـل بنـو حمـود بذلـك إلى المنفـذ؛ الـذي ساعدهـم عـلى التسـرب نحـو حكـم قرطبـة نفسهـا. فبهاتيـن الولايتـن الهامتيـن الممثلتيـن في سبتـة والجزيـرة الخضـراء؛ يمكـن لهـم أن يحشـدوا الحشـود، ويسهـل عليهـم الحصـول عـلى الأمـوال

اللازمة والعتاد الضروري للقتال. هذا بالإضافة إلى أنهم أصبحوا يرون في أنفسهم أحق الناس بالملك؛ حيث استمدوا شرعيتهم أولا: من كتاب العهد الذي ــ كما قيل ــ خص به الخليفة الشرعي هشام المؤيد الأمير علي بن حمود؛[1] وثانيا: من سلالتهم الإدريسية العلوية القريشية؛ التي تضعهم في مقدمة المؤهلين للخلافة. وثالثا: من قوة العصبية التي تساندهم وتقف خلفهم؛ وهي القبائل الأمازيغية.[2] وهذا هو الذي جعلهم يحسون بإمكان قيام دولتهم بيسر وسهولة؛ خاصة بعد أن ضمن علي بن حمود حقه الشرعي فيها؛ من خلال العهد الذي منحه إياه هشام المؤيد.[3]

---

[1] أنظر ما ذكره ابن خلدون فيما يخص ولاية العهد، ومشروعيتها ضمن: "فصل في ولاية العهد". المقدمة، ج: 2، ص ص: 721 ــ 734. إذ يلخص القول في: ((اعلم أنا قدمنا الكلام في الإمامة ومشروعيتها لما فيها من المصلحة؛ وأن حقيقتها النظر في مصالح الأمة لدينهم ودنياهم؛ فهو وليهم والأمين عليهم ينظر لهم ذلك في حياته، ويتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته، ويقيم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها؛ ويثقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل. وقد عرف ذلك من الشرع بإجماع الأمة على جوازه وانعقاده)). ص : 721.

[2] راجع ما قاله ابن خلدون ضمن: ((فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم)). حيث ذكر أن ((كل أمر تحمل عليه الكافة فلا بد له من العصبية...)). ثم قدم بعض الأمثلة من الأحداث التاريخية. المقدمة، ج: 2، ص: 638.

[3] قال ابن عذاري نقلا عن ابن حيان. ويبدو أن هذا النص هو ذاته الذي ذكره ابن بسام وورد من قبل: ((وكان هشام بن الحكم عندما رآه من اضطراب أمره وتيقنه من انصرام دولته؛ صير إلى علي بن حمود ولاية عهده؛ وأوصى إليه بالخلافة من بعده؛ وراسله إلى سبتة بذلك سراً؛ وولاه

وعليه فما أن تحقق لعلي بن حمود أمر تعيينه على سبتة؛ وما أن تمكن من تعزيز قوته فيها ــ بعد استقراره وضبط أموره ــ حتى شرع في خطواته الأولى نحو تحقيق أهدافه.

وبالفعل كان أول ما بادر إليه علي بن حمود سنة 404هـ(1013م) هو إحكام قبضته على سبتة؛ والقضاء على المعارضين. وذلك أنه سارع إلى قتل قاضي البلدة محمد بن عيسى مع الفقيه ابن يربوع. متهما القاضي المذكور بالتجسس عليه، والسعي إلى كشف أعماله وخططه. إذ اتهمه بأنه كاتب سرا سليمان المستعين، وأخطره بالتحضيرات التي قام بها لغزو قرطبة.[1] إلى جانب ذلك أرسل إلى أخيه القاسم؛ الذي كان في تلك الأثناء بقرطبة؛ فطلب منه الالتحاق بولايته في الجزيرة الخضراء.

طلب دمه؛ واستكتمه السر فيه؛ إلى أوانه وبلوغ زمانه)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 114. 120. أما المقري فيقول: ((فلما دخل سليمان مع البربر قرطبة، ومحو كثيرا من محاسنها ومحاسن أهلها؛ كان من أكبر أمرائهم علي بن حمود؛ وبلغ هشاما المؤيد ــ وهو محبوس ــ خبره، واسمه ونسبه؛ فدس إليه أن الدولة صائرة إليك، وقال له: "إن خاطري يحدثني أن هذا الرجل يقتلني" ــ يعني سليمان ــ "فإن فعل فخذ بثأري". وكان هذا الأمر هو الذي قوى نفس ابن حمود على طلب الإمامة؛ وحمله على الأخذ بثأر هشام المؤيد)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 482.

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص: 115. أنظر أيضا أعمال الأعلام لابن الخطيب، ق: 2، ص: 121.

كما بعث في سنة 405هـ(1014م) إلى حبوس أمير بني زيري والفتى خيران العامري يعلمهما بخطاب العهد الذي وصله من هشام المؤيد؛ ويطلب منهما مساعدته للإطاحة بسليمان.[1] ثم تحرك نحو مدينة مالقة التي استولى عليها، وربما قتل قائدها حسب قول ابن عذاري.[2] ومن ثمة اجتمع مع خيران في المرية؛ وانضم إليه أيضا زاوي بن زيري وحبوس بن ماكسن بن زيري في قبيلة صنهاجة.[3] فانطلقوا جميعا نحو قرطبة؛ ضمن قوة كبيرة من الأمازيغ والعامريين.

---

[1] قال ابن عذاري نقلا عن المظفري؛ وهو كتاب محمد بن عبد الله بن الأفطس: ((لما خرج علي عن طاعة المستعين؛ أخرج كتابا نسبه إلى= =هشام بن الحكم؛ يقول فيه: "أنقذني من أسر البرابر والمستعين؛ وأنت ولي عهدي". ووجه به إلى حبوس الصنهاجي وإلى خيران العامري؛ فقال له انهض إلى مالقة؛ وبها يتم أمرنا؛ فأقبل إليها بالقطائع والعساكر فقتل قائدها واستولى عليها)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 116. وقد اشار إلى هذا أيضا المراكشي في المعجب، ص: 44.

[2] انفرد ابن عذاري بخبر قتل والي مالقة. البيان المغرب، ج: 3، ص: 116. أما المراكشي فقال أنه عامر بن فتوح الفائقي مولى فائق مولى الحكم المستنصر؛ وذكر أنه أخرجه من مالقة؛ ولم يشر إلى قتله. المعجب: ص: 44. أما ابن الأثير فيقول أنه اتفق مع علي على الثورة؛ وخرج من مالقة بإرادته وسلمها لعلي بن حمود. الكامل، ج: 7، ص: 284.

[3] البيان المغرب، ج: 3، ص: 120.

ولما وصلت أخبار علي بن حمود وحلفائه إلى سليمان خرج إليهم بجيشه المكون من الأندلسيين، وقلة من الأمازيغ سنة 407هـ(1016م). ولكنه لم يصمد أمامهم، ومني بهزيمة نكراء؛ حيث انكشفت المعركة عن سقوطه ــ مع أخيه وأبيه ــ في الأسر. ولما دخل علي بن حمود إلى قصر قرطبة واستولى على عرشها؛ بادر فورا بقتل سليمان وأخيه وأبيه ــ ذلك الشيخ الذي ناهز عمره 72 سنة ــ ويقال أنه قتلهم بيده. أخذا بثأر هشام المؤيد كما زعم.[1] هذا هو منطق الملك في أبشع صوره.

وهكذا تم ما أراده الله. ففي لحظات أصبح الحلفاء أعداء؛ يقتل بعضهم بعضا. فما هو السبب؛ وكيف حدث هذا..؟ وما الحافز والمحرك

---

[1] قال ابن بسام: ((فانهزم سليمان؛ وقبض عليه وعلى أخيه وأبيه؛ وسيقوا أُسَارَى إلى علي بن حمود. ودخل القصر وخيران يطمع أن يجد هشاما المؤيد حيا. فلم يوجد؛ وذكر أنه قتل؛ وعرض عليه قبره. فأمر علي بنبشه. فأخرج الشخص؛ وشهد أنه هشام؛ وسليمان يتبرأ من دمه؛ وما كان في جسده شيء من أثر السلاح؛ فتوهم فيه الخَنْق. وأمر علي بتجهيزه إلى أهله؛ وأنذر طبقات الناس للصلاة عليه؛ فدفن لزيق أبيه الحكم. ثم دعا علي بسليمان وذويه؛ فضرب عنقه بيده؛ وظهر منه جزع شديد عند ملاحظته السيف؛ خارت منه قواه. فجثا على ركبتيه؛ ثم ضربت عنق الشيخ أبيه وعنق عبد الرحمن ابنه. وجعلت الرؤوس الثلاثة في طست؛ وأخرجت من القصر إلى المحلة؛ ينادى عليها: هذا جزاء من قتل هشاما المؤيد)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 41 ــ 42. ورد هذا الخبر أيضا في البيان المغرب، ج: 3، ص: 117. وفي أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 121.

لما جرى كله..؟ هل هي نشوة الملك..؟ أم هي العداوة المزمنة الكامنة في نفوس أجيال وأجيال من بني أمية وبني أبي طالب..؟ يبدو أن تلك العوامل كلها كانت وراء ما حدث. فالأطماع ـ طبعا ـ لعبت دورا مهما؛ كما أن العصبية الهاشمية كانت محركا فعالا نشطت حماس علي بن حمود. هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد تجاذبته عصبيتان رئيستان هي: العصبية الهاشمية والعصبية الأمازيغية. وعليه فما يمس الأمازيغ يمسه أيضا في الصميم؛ خاصة وأنه كان دوما محسوبا عليهم؛ ولا يعامله الآخرون إلا كما يعاملون الأمازيغ. ومن هنا اتضح بأن عليّ بن حمود وسليمان بن الحكم كانا يكنان لبعضهما كراهية وحقدا دفينين؛ لم يعلنا عنهما إلا في حالات خاصة. وقد جاء في بعض المصادر لمحات من هذا؛ إذ تقول بعض الروايات أن سليمان كان يكن كراهية لعليّ بن حمود والأمازيغ أيضا ـ مثله في ذلك مثل أعضاء الأسرة الأموية ـ وما الحلف الذي جمعهم سوى فترة زمنية عابرة غير دائمة. إذ كان سليمان في أمس الحاجة إليهم وإلى سيوفهم.

لــذا فإنــه كــان يحــرص عــلى مداراتهــم؛ وتقديمهــم عــلى غيرهــم؛ خوفــا مــن بطشهــم؛ لأنــه يــدرك ضعــف موقفــه أمامهــم. ومــن الشواهــد الــتي أوردهــا بعــض الكتــاب والمؤرخيــن: أنــه قــال ــ في أوساطــه الخاصــة ــ أبياتــا شعريــة مــن نظمــه في حــق الأمازيــغ ومــن حالفهــم:[1]

حَلَفــتُ بِمَنْ صلَّى وَصَــامَ وَكَبَّــرَا
لأغْمِدَهَــا فِيمَــنْ طــغَى وَتَجَبَّــرَا
وَأَبْصَرَ دِينَ اللــهِ تحْيَــا رُسُومُــهُ
فبَــدلَ مَا قــدْ لاَحَ مِنهَــا وَغيَّــرَا
فوَاعَجَبــاً مِــنْ عَبْشَــمِيٍّ مُمَلــكٍ
بِرَغــمِ العَــوَالِي وَالمَعَالِي تَبَرْبــرَا
فلــوْ أنَّ أمْــرِي بِالخِيَــارِ نَبذتهــمْ
وَحَاكَمْتُهُمْ لِلسَّيْــفِ حُكْماً مُحَــرَّرَا
فَإمَّــا حيَــاة تسْتلــذ بِفقدِهِــمْ
وَإمَّا حِمَــامٌ لاَ نرَى فِيــهِ مَا زرَى

---

[1] قــال المقــري في هــذه الأبيــات: ((وكــان مــن أعظــم الأسبــاب في فســاد دولــة المستعيــن؛ أنــه قــال هــذه الأبيــات؛ مستريحــا بهــا إلى خواصــه)). نفــح الطيــب، ج: 1، ص: 429.

فهذه الأبيات تدل ـ بدون شك ـ على ما ينطوي عليه صدر سليمان؛ من كراهية للأمازيغ؛ حيث لم يستطع التخلص من رواسب العصبية الأموية العربية؛ على الرغم من الحلف الذي يربطه بالأمازيع، وعلى الرغم من استماتتهم في الدفاع عنه، والتضحية بأرواحهم من أجله. وبذلك فقد برهن على أنه لا يختلف كثيرا عن ابن عبد الجبار (المهدي)؛ سوى في التقية التي لجأ إليها. ويبدو أن هذه الأبيات كشفت نواياه الحقيقية؛ مما جعل الأمازيع يختارون صف علي بن حمود؛ عندما قرر الأخذ بثأر أجداده الأدارسة من أحفاد الناصر لدين الله الأموي؛ الذي سبق له أن أزال الدولة الإدريسية من الوجود. إذ كان هذا هو حافزه الأساسي لإسقاط الدولة الأموية؛ وإرجاع الحق لبني هاشم. هذا وقد مدح شاعر الأندلس وفحلها دون منازع؛ أبو عمر أحمد بن دراج القسطلي علي بن حمود بقصيدة رائعة؛ نذكر مطلعها هنا؛ على أن نسجل أغلبها في الفصل المخصص للحضارة والثقافة. ومطلعها:

لَعَلَّك ياشَمسُ عِندَ الأصيلِ

شَجِيتِ لِشَجْوِ الغَريبِ الذَّليلِ

فَكوني شَفيعي إلى ابنِ الشَّفِيع

وَكُوني رَسُولي إلى ابنِ الرَّسولِ

ولما تم لعلي أمر إسقاط دولة سليمان؛ سارع إلى طلب البيعة من أهل الحل والعقد في قرطبة. فبويع بالفعل في سنة 407هـ(1016م) وتسمى بلقب الناصر لدين الله. وكانت بيعة شاملة؛ لم يتخلف عنها أحد كما قال ابن حيان.[1] وأظهر ـ من اليوم الأول لحكمه ـ سلوكا فيه حزم وجد وعدل؛ أثلج قلوب الرعية، وملأ نفوس الناس بالبشر والرضى. إذ شرع في اجتثاث الفساد، وكبح الظالمين، وتسليط سيف العدل على رقاب الناهبين والمتجبرين من بعض أتباعه الأمازيغ.[2]

---

[1] قال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((بويع علي بن حمود في باب السُدَّة من قصر قرطبة يوم الإثنين لسبع بقين لمحرم سنة سبع وأربعمائة؛ ثاني اليوم الذي أدرك فيه بثأر هشام المؤيد. ولم يتخلف أحد عن بيعته؛ ووصلوا إليه على طبقاتهم؛ فكرم منازلهم، وأجمل خطابهم. وتسمى ليومه من الألقاب السلطانية بالناصر لدين الله. لقب قد سبقه إليه أبو أحمد المتوكل العباسي بالمشرق؛ وتبعه فيه أيضا عبد الرحمن بن محمد بهذا الأفق)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 97.

[2] قال ابن بسام: ((وجلس علي بنفسه لمظالم الناس؛ وهو مفتوح الباب، مرفوع الحجاب؛ للوارد والصادر؛ يقيم الحدود مباشرا بنفسه؛ لا يحاشي أحدا من أكابر قومه. فانتشر أهل قرطبة في الأرض ذات الطول والعرض؛ وسلكت السبل، ورخا السعر، وأرقُّوا الأغذية، وشاموا النساء وطلبوا النسل... واستمر على أهل قرطبة نحوا من ثمانية أشهر في أحسن عشرة. ثم آنس منهم الكراهية لدولته. وبلغه أيضا قيام المرتضى بشرقي الأندلس. فعزم على إبادة أهل قرطبة وإخلائها؛ فلا يعود لأئمتهم المروانية سلطان آخر

غيـر أنـه شعـر ــ بعدئـذ ــ مـن أهـل قرطبـة ميـلا إلى أميـر أمـوي ظهـر في شـرق الأندلـس؛ اسمـه عبـد الرحمـن بـن محمـد بـن عبـد الملـك بـن عبـد الرحمـن الناصـر؛ وقـد تلقـب بالمرتـضى؛ وذلـك في سنـة 407هـ(1016م). عندهـا تحـول عـن أسلوبـه الأول الـذي اتبعـه في حكـم قرطبـة.[1] فأطلـق أيـدي أتباعـه الأمازيـغ عـلى أهـل المدينـة ــ كـرد فعـل منـه ضـد أولئـك السكـان؛ الذيـن قابلـوا إحسانـه بالإسـاءة، وجميـل فعلـه معهـم بالنكـران ــ فانتشـر النهـب فيهـم مـن جديـد؛ وكثـر العيـث والفسـاد في البلـدة؛ دون أن يجـد سكانهـا حمايـة أو أذنـا صاغيـة لنجـدة أو إغاثـة.[2]

الدهـر؛ ثـم يعـود إلى ساحلـه، ويجمـع شمـل برابرتـه؛ فيضـرب بهـم جميـع الأنـدلـس. فانقلـب سريعـا ظـن التجمـل الـذي كـان يظهـره لهـم، وانصـرف إلى حزبـه البربـري فآثـره)). الذخيـرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 97 ــ 99.

[1] قـال ابـن عـذاري: ((وانقلـب سريعـا عـن التجمـل الـذي كـان يظهـره لأهـل قرطبـة، وانصـرف إلى حزبـه البربـري فآثـره عليهـم لمـا أحـس منهـم الميـل إلى الخليفـة المرتـضى)). البيـان المغـرب، ج: 3، ص: 123.

[2] ذكـر ابـن بسـام أنـه: ((وبلغـه أيضـا قيـام المرتـضى بشـرقي الأندلـس؛ فعـزم عـلى إبـادة أهـل قرطبـة، وإخلائهـا؛ فـلا يعـودون إلى أنمتهـم المروانيـة سلطـان إلى آخـر الدهـر؛ ثـم يعـود إلى ساحلـه، ويجمـع شمـل برابرتـه؛ فيضـرب بهـم جميـع الأندلـس. فانقلـب سريعـا ظـن التجمـل الـذي كـان يظهـره لهـم، وانصـرف إلى حزبـه البربـري فآثـره، وأغـضى عـلى سـوء مـا كانـوا عليـه مـن الظلـم والحيـف؛ فوقـع أهـل قرطبـة في وغيرهـم في حالتهـم مـدة سليمـان مـن استيطالتهـم عليهـم. وصـب عـلى أهـل قرطبـة ضروبـا مـن التنكيـل والمغـارم؛ وانتـزع السـلاح

ولا بد ــ هنا ــ أن ننبه إلى تمسك أهل قرطبة وتشبثهم بالأمويين؛ مهما كانت صفاتهم، ومهما تعددت مثالبهم؛ إذ كان سكان هذه المدينة لا يرضون بديلا بهم؛ مهما توافرت في البديل من شروط الصلاح أو العدل، أو الكفاءة. ولعل الجواب عن هذا يكمن فيما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية**".[1] كما أن حياتهم الحضرية ونفوسهم الرقيقة، المرفهة، المتعالية كانت سببا مباشرا في تأففهم وكراهيتهم لمعاشرة الأمازيغ؛ المتميزين بالصفات البدوية في خشونتها وقساوتها. ومن جهة أخرى فإن الأمازيغ بدورهم ــ بحكم طبعهم البدوي ــ لا يخفون احتقارهم وسخريتهم من

منهم، وهدم دورهم، وقبض أيدي الحكام عن إنصافهم، وأغرم عامتهم، وتوصل إلى أعيانهم بأقوام من شرارهم؛ ففتحوا له أبوابا من البلايا أهلك بها الأمة؛ وتقربوا إليه بالسعاية)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 99.

[1] **ومما جاء في هذا الفصل: ((والسبب في ذلك أن الدول العامة في أولها يصعب على النفوس الأنقيا لها إلا بقوة قوية من الغلب؛ للغرابة وأن الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه. فإذا استقرت الرياسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحدا بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة؛ نسيت النفوس شأن الأولية، واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرياسة، ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم؛ وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الإيمانية. فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم إلى كبير عصابة)). المقدمة، ج: 2، ص: 632.**

نعومة أهل المدن، ورقة عاداتهم، وهشاشة عظامهم، وسوء أخلاقهم.[1]

ومع هذا لم يهنأ علي بن حمود مدة طويلة بخلافة المسلمين في قرطبة؛ إذ تعرض لمؤامرة اغتيال؛ بعد واحد وعشرين شهرا وسبعة أيام[2] من يوم بيعته؛ وبالتحديد في ذي القعدة من سنة 408هـ(1017م). ونسبت المصادر اغتياله إلى بعض صبيانه الصقالبة؛ وتم ذلك داخل حمام قصره.[3]

---

[1] تكلم ابن خلدون في هذا حين قال: ((وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعاكفون على شهواتهم منها؛ قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمات الخلق والشر، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك. حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم.... وأهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم إلا أنه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها. فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها؛ وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحضر أقل بكثير. فهم أقرب إلى الفطرة الأولى، وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة قبحها؛ فيسهل علاجهم عن علاج الحضر)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 584 ـــ 585.

[2] الذخيرة، ج: 1، ق: 1، ص: 102. وحددها المراكشي بـ((عامين غير شهرين)). المعجب، ص: 50. بينما يقول ابن عذاري أنه حكم سنة وتسعة اشهر وتسعة أيام. البيان المغرب، ج: 3، ص: 120. أما المقري فذكر أن بعضهم حققوها بإحدى وعشرين شهرا وستتة أيام. نفح الطيب، ج: 1، ص: 483.

[3] راجع ما كتبه ابن خلدون ضمن: ((فصل في أن إرهاف الحد مضر بالملك ومفسد له في الأكثر)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 684 ــ 686.

ولما اكتشفت الجريمة سارع أنصاره ــ من القادة والأعيان الأمازيغ ــ إلى إعلام أخيه القاسم؛ الذي كان واليا على إشبيلية. فخاف أن تكون مكيدة قد أعدت له؛ لذا فقد اكتفى ــ في البداية ــ بإرسال من يستطلع صحة الخبر. ولما تحقق من موت أخيه ذهب إلى قرطبة؛ حيث تولى تجهيز أخيه الذي دفن في سبتة. وبعدها بحثوا عن الجناة؛ فاتضح أنهم من صقالبة القصر؛ فقبضوا على بعضهم؛ حيث قتلوا ثم صلبوا على جسر قرطبة. هذا وترك علي ابن حمود من الأولاد: يحيى الذي ولاه سبتة، وإدريسا الوالي على مالقة.[1]

ــ حكومة المأمون القاسم بن حمود بقرطبة:

عقدت البيعة للقاسم بن حمود؛ في سادس يوم من وفاة أخيه علي بن حمود؛ ولقب في ذلك اليوم بالمأمون؛ وكان أكبر من أخيه سنا بعشر سنين.[2] ويقال أنه تشَيَّعَ سراً ولم يظهر ذلك علنا؛ كما أنه لم يحاول تغيير ما كان عليه الناس في مذهبهم.[3] هذا ولم يهنأ هو الآخر طويلا بمنصبه؛ إذ تميز عهده بالاضطراب والانقطاع. حيث

---

[1] **الجمهرة، ص: 51. المغرب، ص: 133. والمعجب، ص: 50. والكامل، ج: 7، ص: 286**

[2] **يرى ابن عذاري أنه يكبره بأربع سنوات فقط. البيان المغرب، ج: 3، ص: 120.**

[3] **العجب، ص: 50. الكامل في التاريخ، ص: 286.**

حكم قرطبة فترتين؛[1] تخللهما انقطاع لمدة عام ونصف تقريبا؛ تغلب خلالها عليه ابن أخيه يحيى ابن علي بن حمود؛ الذي كان واليا على سبتة.[2] وهكذا تحقق ما لم يكن ينتظره القاسم؛ لأنه ــ كما يبدو ــ يكون قد اقتنع ــ منذ الوهلة الأولى ــ ورضي بما تحصل عليه من ولاية ممثلة في حكم إشبيلية. ولكن شاءت الأقدار أن يصبح فجأة وبدون تخطيط خليفة للمسلمين. وعليه فقد استهل الفترة الأولى من حكمه ــ التي بدأت في ذي القعدة من سنة 408هـ(1017م) ــ بمظهر الحاكم الجاد والحازم والعادل؛ إذ أظهر ميلا إلى إصلاح الحال، ورعاية شئون العباد، وتنمية أسباب المعاش والعمران، وكان يتصف بالرفق، وحسن السياسة للرعية.

غير أنه ــ مع مرور الأيام ــ ظهر عليه شيء من الضعف والخذلان؛ أمام قوة العصبية التي اعتمد عليها في بداية أمره؛ وتتمثل تلك العصبية في قبائل الأمازيغ. ويبدو أنه كان أسير فضلهم عليه؛ ولكنه عندما استثقل هيمنتهم، وتضايق من شدة تغلبهم عليه وعلى شئون الدولة ــ باحتكار المناصب الحساسة فيها لصالحهم ــ جعله يسعى جاهدا لكي يتخلص ــ نوعا ما ــ من ثقل وطأتهم.

---

[1] دامت الفترة الأولى من ذي القعدة سنة 408هـ إلى ربيع الآخر سنة 412هـ. أما الفترة الثانية فبدأت بذي القعدة من سنة 413هـ إلى شعبان من السنة نفسها.

[2] المغرب، ص: 133. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 124 ــ 125. 130 ــ 131.

لـذا فقـد أراد خلـق بعـض التـوازن في القـوى؛ حيـث شـرع في اصطنـاع جماعـات مـن السـودان؛ الذيـن أسنـد إليهـم بعـض المهـام الحساسـة في الدولـة.[1] وهنـا تحركـت العصبيـة الأمازيغيـة الـتي وجـدت أنـه مـن واجبهـا الدفـاع عـن مصالحهـا؛ ومنـع تحقيـق مـا يخطـط لـه القاسـم بـن حمـود. وهنـا يتبيـن بوضـوح صـدق المقولـة الـتي ذكرهـا ابـن خلـدون ضمـن: **"فصـل في استظهـار صاحـب الدولـة عـلى قومـه وأهـل عصبيتـه بالمـوالي والمصطنعيـن"** [2]

---

[1] **قـال ابـن بسـام نقـلا عـن ابـن حيـان: ((وزاد كلـف القاسـم في اتخـاذ السـودان؛ وقودهـم في أعمالـه؛ إلى أن ضعـف أمـره، وتسلـط البرابـرة عليـه حـتى احتقـره. فكاتـب منـذر بـن يحـيى ــ في السـر ــ يبثـه شأنهـم، ويستنهضـه لتقويمهـم؛ فلـم يكـن فيـه فضـل لذلـك)). الذخيـرة، ق: 1، مج: 1، ص: 481. وورد النـص نفسـه في البيـان المغـرب، ج: 3، ص: 130.**

[2] **جـاء في قـول ابـن خلـدون: ((فـإذا جـاء الطـور الثـاني وظهـر الاستبـداد عنهـم، وانفـرد بالمجـد، ودافعهـم عنـه بالـراح؛ صـاروا ــ في حقيقـة الأمـر ــ مـن بعـض أعدائـه؛ واحتـاج في مدافعتهـم عـن الأمـر، وصدهـم عـن المشاركـة إلى أوليـاء آخريـن؛ مـن غيـر جلدتهـم يستظهـر بهـم عليهـم، ويتولاهـم دونهـم؛ فيكونـون أقـرب إليـه مـن سائرهـم، وأخـص بـه قربـا واصطناعـا، وأولى إيثـارا وجاهـا؛ لمـا أنهـم يستميتـون دونـه في مدافعـة قومـه عـن الأمـر الـذي كـان لهـم، والرتبـة الـتي ألفوهـا في مشاركتهـم؛ فيستخلصهـم صاحـب الدولـة حينئـذ، ويخصهـم بمزيـد التكرمـة والإيثـار؛ ويقسـم لهـم مثـل مـا للكثيـر مـن قومـه، ويقلدهـم جليـل الأعمـال والولايـات مـن الـوزارة والقيـادة والجبايـة؛ ومـا يختـص بـه لنفسـه؛ وتكـون خاصـة لـه دون قومـه مـن ألقـاب المملكـة؛ لأنهـم حينئـذ أوليـاؤه الأقربـون ونصحـاؤه المخلصـون. وذلـك حينئـذ مـؤذن باهتضـام الدولـة، وعلامـة عـلى المـرض المزمـن فيهـا؛ لفسـاد العصبيـة الـتي كـان بنـا الغلـب عليهـا،**

وبالفعل فقد جاءت الفرصة المواتية للأمازيغ كي يعطوا للقاسم درسا قاسيا. وبالفعل تم لهم ذلك حينما بدأ يحيى ابن أخيه علي؛ ـ الذي كان واليا على سبتة ـ في المشاغبة، وإظهار شيء من العصيان؛ حيث أخذ يحرض رؤساء القبائل الأمازيغية ضد عمه؛ بهدف ضمان وقوفهم معه في وجه القاسم، ومساعدته في انتزاع ما اغتصب منه بعد موت والده.[1] ولما عرض القاسم أمر ابن أخيه على رؤساء القبائل الأمازيغية؛ تثاقلوا عن نصرته؛ بحجة أنه شأن عائلي بينهما؛ ولا يجوز الدخول بين حسنيين اثنين. وعندما تحرك يحيى نحو قرطبة لم يجد القاسم أمامه سوى الهروب إلى إشبيلية؛ مركز ولايته في السابق. ولم يرافقه إلا خمسة فرسان من خاصته المقربين. وكان ذلك في ربيع الآخر من سنة 412هـ(1021م). وبقي أنصاره السابقون من الأمازيغ والسودان في قرطبة؛ حيث قاموا بضبط البلدة؛ وإعداد القصر لوصول يحيى؛ ولما وصل سلموا له الأمر.[2]

ومرض قلوب أهل الدولة حينئذ من الامتهان وعداوة السلطان؛ فيضطغنون عليه ويتربصون به الدوائر)). المقدمة، ج: 2، ص: 677.

[1] **أنظر نفح الطيب، ج: 1، ص: 486.**

[2] **الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 482.**

تلك هي الفترة الأولى من حكم القاسم (المأمون) في قرطبة؛ أما الفترة الثانية فبدأت بعد انقلاب الأمازيغ على ابن أخيه يحيى بن علي؛ مما أجبره على الهروب ــ هو الآخر ــ إلى مالقة تحت جنح الليل.

فما كان من القاسم ــ لما سمع بخبر خروج يحيى إلى مالقة فارا ــ إلا أنه تحرك من فوره والتحق بقرطبة من جديد؛ وتم ذلك في ذي القعدة من سنة 413هـ(1022م). ومع هذا لم تدم الفترة الثانية من حكمه طويلا؛ إذ ثار عليه أهل قرطبة؛ في شعبان من عام 414هـ(1023م)؛ بدعوى أنهم لم يحتملوا تسلط الأمازيغ في الأسواق.[1] بينما يقول ابن بسام: ((**فتكنف سريره أغمار الناس من البرابر؛ وخرجوا** [أي أهل قرطبة] **لقتالهم سنة أربع عشرة**)).[2] ويتفق ابن الخطيب مع هذا الرأي أيضا.[3]

---

[1] **البيان المغرب، ج: 3، ص: 134.**

[2] **الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 485.**

[3] **إذ يقول: ((وفسد ما بينه [أي القاسم] وبين أهل المدينة؛ بسبب من حفه من البرابرة)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 133. أما ابن الأثير فيرى أن استيلاء يحيى وإدريس على الجزيرة الخضراء وطنجة؛ شجع الناس على العصيان؛ إذ يقول: ((فلما ملك ابنا أخيه بلاده طمع فيه الناس؛ وتسلط البربر على قرطبة فأخذوا أموالهم؛ فاجتمع أهلها وبرزوا إلى قتاله عاشر جمادى الأولى سنة أربع عشرة [وأربعمائة] فاقتتلوا قتالا شديدا؛ ثم سكنت الحرب، وأمن بعضهم بعضا إلى منتصف جمادى الآخرة من السنة؛ والقاسم بالقصر يظهر التودد لأهل قرطبة وأنه معهم وباطنه مع البربر؛ فلما كان**

أمـــا المقـــري فيتعمـــق في الشـــرح بعـــض الـــشيء؛ بحيـــث يفهـــم مـــن قولـــه أن الاحتقـــان بيـــن الطرفيـــن ربمـــا كـــان بسبـــب التضييـــق عـــلى أهـــل قرطبـــة؛ أثنـــاء البحـــث عـــن بعـــض الأمويـــين المشتبـــه في أمرهـــم؛ بعـــد أن أشيـــع أن قائمـــا منهـــم ســـوف يظهـــر.[1]

ولمـــا عـــاد القاســـم إلى إشبيليـــة مهزومـــا مـــن قرطبـــة؛ وجـــد أبوابهـــا مقفلـــة في وجهـــه؛ بتدبيـــر مـــن القـــاضي محمـــد بـــن إسماعيـــل بـــن عبـــاد؛ الـــذي أوهـــم سكـــان المدينـــة بـــأن القاســـم سيسكـــن مـــن معـــه مـــن الأمازيـــغ في مساكـــن الإشبيليـــين. ومـــن جهـــة أخـــرى فـــقـــد أغـــرى ــ صاحـــب القاســـم وثقتـــه ــ محمـــد بـــن

يـــوم الجمعـــة منتصـــف جمـــادى الآخـــرة صـــلى النـــاس الجمعـــة؛ فلمـــا فرغـــوا تنـــادوا الســـلاح الســـلاح؛ فاجتمعـــوا ولبســـوا الســـلاح وحفظـــوا البلـــد، ودخلـــوا قصـــر الإمـــارة؛ فخـــرج عنهـــا القاســـم...)). الكامـــل، ج: 7، ص: 286. ويتفـــق ابـــن خلـــدون مـــع الـــرأي القائـــل بـــأن تغلـــب ابـــني أخيـــه عـــلى حصونـــه ومراكـــزه في طنجـــة والجزيـــرة الخضـــراء قـــد شجـــع النـــاس عـــلى التجاســـر عليه. العبـــر، مج: 4، ص: 331.

[1] وقـــد وصـــف المقـــري مـــا حـــدث بقولـــه: ((ولـــم تصلـــح الحـــال للقاســـم منـــذ وصـــل إلى الحضـــرة. ووقـــع الاختـــلاف؛ وكـــان هـــوى الســـودان معـــه، وهـــوى كثيـــر مـــن البرابـــر مـــع يحـــيى، وهـــوى أهـــل قرطبـــة مـــع قائـــم مـــن بـــني أميـــة يشيعـــون ذكـــره ولا يظهـــر؛ وكثـــر الإرجـــاف بذلـــك، ووقـــع الطلـــب عـــلى بـــني أميـــة؛ فتفرقـــوا في البـــلاد، ودخلـــوا في أغمـــار النـــاس، وأخفـــوا زيهـــم. ثـــم إن الخـــلاف وقـــع بيـــن البربـــر وأهـــل قرطبـــة؛ وتكاثـــر البلديـــون، وأخرجـــوا القاســـم وبرابرتـــه؛ فضـــرب خيمـــة بغربيهـــا، وقاتلهـــم مـــدة خمسيـــن يومـــا قتـــالا شديـــدا... وفـــر الســـودان مـــع القاســـم إلى إشبيليـــة، وفـــر البرابـــرة إلى يحـــيى وهـــو بمالقـــة؛ وكـــان فـــرار القاســـم مـــن ظاهـــر قرطبـــة يـــوم الخميـــس لثنـــتي عشـــرة ليلـــة خلـــت مـــن شعبـــان ســـنة 414هـــ)). نفـــح الطيـــب، ج: 1، ص: 487.

زيري بن دوناس اليفرني، وأطمعه في إمارة البلدة إن هو ساعدهم على منع دخول القاسم إلى قرطبة.[1]

وبهذا لم يجد القاسم بدا من الخضوع لإرادتهم؛ نظرا لكون أهل البلد حاصروا ابنه محمدا في دار الإمارة؛ وساوموه على فك الحصار عنه والسماح له بالخروج من إشبيلية؛ مقابل أن يرفع هو بدوره الحصار عن المدينة ويتخلى عن المطالبة بها. فلم يجد القاسم أمامه اختيارا آخر غير القبول بشروطهم؛ كسبا للوقت. وتحول إلى شريش؛ حيث بقي هناك بعض الوقت. وفي تلك المدينة ازدادت محنته؛ حين تفرق من حوله جل أنصاره من الأمازيغ، الذين التحقوا بابن أخيه المعتلي يحيى بن علي بمالقة؛ وذلك في سنة 415هـ(1024م).[2]

---

[1] وفي هذا يقول ابن خلدون: ((ولحق المأمون بإشبيلية وبها ابنه محمد، ومحمد بن زيري من رجالات البربر؛ فأطمعه القاضي محمد بن إسماعيل ابن عباد في الملك؛ وأن يمتنعوا من القاسم؛ فمنعوه، وأخرجوا إليه ابنه، وضبطوا بلدهم. ثم اشتد ابن عباد وأخرج محمد بن زيري)). العبر، مج: 4، ص: 232. ويتفق مع هذا الرأي المقري فيقول: ((وأطمع [أي ابن عباد] بن زيري في التملك؛ فأغلق الأبواب في وجه مصطنعه وحاربه؛ فقتل من البربر والسودان خلق كثير؛ وابن عباد يضحك على الجميع؛ فيئس القاسم، وقنع أن يخرجوا إليه ابنه وأصحابه ويسير عنهم؛ فأخرجوهم إليه؛ فسار بهم إلى شريش)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 488.

[2] العبر، مج: 4، ص: 332.

ولما تخلص ابن عباد من الخطر الذي كان يمثله القاسم؛ انقض على محمد بن زيري بن دوناس اليفرني، وطرده من إشبيلية. وهكذا لم تفد ابن دوناس خيانته للقاسم صاحب الفضل عليه. هذا ولم يطل الحال بالقاسم في شريش حتى زحف إليه المعتلي يحيى بن علي فحاصره فيها، وقاتله قتالا شديدا، ثم ضيق عليه حتى استسلم؛ فنقله معه إلى مالقة؛ أين رماه في الأسر حتى مات، أو قتل في السجن سنة 427هـ(1035م) كما قال بعضهم.[1] هذا وخلف القاسم من الأولاد: محمدا الذي تسمى بالخلافة في الجزيرة الخضراء، والحسن الذي تنسك ولبس الصوف، ثم توجه إلى الحج.[2]

وفي عهد القاسم بن حمود قتل عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الملك (المرتضى)؛ الأمير الأموي الثائر بشرق الأندلس.[3] وكان زهير الفتى، وخيران الصقلبي، ومنذر بن يحيى التجيبي ــ في قومه ومعززا بجماعة من فرسان الفرنج ــ وسليمان بن هود ــ مدعوما هو الآخر بفرسان من الفرنج وآخرين ــ قد اتفقوا على تنصيبه

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 485 ــ 486. ويقول المراكشي وابن الأثير أنه قتل في سنة 431هـ. المعجب، ص ص: 51 ــ 52. والكامل، ج: 7، ص: 287. والبيان المغرب، ج: 3، ص: 135. والعبر، مج: 4، ص: 332. نفح الطيب، ج: 1، ص: 488.

[2] ويرى ابن حزم أن ابني الحسن هذا هما: هاشم وعقيل. الجمهرة، ص ص: 50.

[3] جعل المراكشي وابن الأثير خبر المرتضى ومقتله في عهد علي بن حمود. المعجب، ص ص: 49 ــ 50. الكامل، ج: 1، ص: 285.

خليفة؛ ومحاربة القاسم ومن معه من الأمازيغ. ثم زحفوا جميعا معه ــ في قوة عظيمة ــ نحو قرطبة؛ ولكنهم اشتبكوا في الطريق ببني زيري عند حدود إمارة غرناطة؛ فانهزم جيش المرتضى، ونهبت محلته، وتشتت أنصاره. ومن المفارقات العجيبة أن الذين نصبوا المرتضى ونادوا به خليفة للمسلمين هم الذين تسببوا في هزيمته؛ بعد خيانته، إذ تركوه فريسة لعدوه.[1] بل هم الذين قتلوه عندما فر هاربا.[2]

---

[1] قال ابن بسام: ((وأول من انهزم من ذلك العسكر منذر بن يحيى وخيران الصقلبي. وكان منذر قد أوقع في نفوس مدده من رجال الإفرنجة الذعر من غدر الموالي العامريين؛ فشغل بذلك بالهم. فلما انهزم لم يعرفوا السر؛ وأجفل منذر في أصحابه الثغريين؛ فمر بسليمان بن هود صاحبه وهو مثبت للإفرنجة لا يريم موقفه. فصاح به: النجاة يا بن الفاعلة. فلست أقف عليك. فقال له سليمان: جئت والله بها صلعاء، وفضحت أهل الأندلس؛ ثم انقلع وراءه ببقية عسكره؛ وانقلع أيضا خيران برجاله. وصبر الموالي العامريين قليلا حول صاحبهم المرتضى)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 454 ــ 455. ومما نقله ابن بسام أيضا عن ابن حيان قوله: ((وذلك أنه لما انهزم المرتضى؛ قال زاوي لقومه: "كيف رأيتم ما قد خلصنا منه؟" قالوا: "عظيما". قال: "فلا تنسوه وتغالطوا أنفسكم بعده؛ إن انهزام من رأيتموهم لم يكن من قوة منا. وإنما جره مع القضاء غدر ملوكهم لسلطانهم ليهلكوه كما فعلوا؛ فإني عرفت ذلك من يوم نزولهم)). نفسه، ص: 458.

[2] أنظر الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 453 ــ 458. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 125 ــ 130. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 130 ــ 131. ونفح الطيب، ج: 1، ص ص: 484 ــ 486.

هـذا واستـولى بنـو زيـري عـلى مـا في محلـة المرتـضى ــ بعـد هزيمتـه ــ مـن: أنـواع السـلاح وصنـوف الذخائـر وعتـاق الخيـل ومختلـف الأحمـال وأزهى القبـاب. ولـم ينـس زاوي بـن زيـري بـن منـاد أميـر الصنهاجييـن أن يرسـل إلى القاسـم بـن حمـود سهمـه مـن الغنيمـة؛ بصفتـه الخليفـة المعتـرف بـه.[1] وبهـذا أصبحـت الأندلـس كلهـا نهبـا للأقويـاء؛ مـن القبائـل العربيـة، والأمازيغيـة، وبعـض الكتـل والعصابـات مـن المماليـك الصقالبـة، والفتيـان العامرييـن والنصـارى وغيرهـم؛ حـدث ذلـك كنتيجـة لتلـك المعركـة الـتي وقعـت بيـن المرتـضى وبـني زيـري في سنـة 409هـ(1018م). وبالمقابـل تأكـدت نهايـة الحكـم الأمـوي نهائيـا في تلـك الربـوع؛ وذلـك عـلى الرغـم مـن المحـاولات الفاشلـة الساعيـة في قرطبـة لإحيـاء دولتهـم.[2]

---

[1] **قـال ابـن الخطيـب: ((وورد عـلى القاسـم بـن حمـود الخبـر بمقتـل المرتـضى، وهزيمـة الأندلسييـن مـن قبـل زاوي مـع سهمـه مـن الغنيمـة؛ وفي الجملـة سـرادق المرتـضى؛ فسـر بذلـك، وضـرب السـرادق عـلى نهـر قرطبـة؛ وغشيـه النـاس ينظـرون إليـه؛ وقلوبهـم تتقطـع أسىً وحسـرة)). أعمـال الأعـلام، ق: 2، ص: 131.**

[2] **للتوسـع في دولـة بـني حمـود يستحسـن الرجـوع إلى الذخيـرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 35 ــ 59. 96 ــ 102. 452 ــ 461. 468 ــ 486. والبيـان المغـرب، ج: 3، ص ص: 115 ــ 144. 216 ــ 220. وأعمـال الأعـلام، ق: 2، ص ص: 128 ــ 143. والعبـر، مج: 4، ص ص: 330 ــ 336. ودولـة الإسـلام في الأندلـس (العصـر الأول ــ القسـم الثـاني)، ص ص: 656 ــ 677.**

وفي هذا يقول ابن بسام نقلا عن ابن حيان: **((فحلت بهذه الوقعة على جماعة من الأندلس مصيبة سوداء أنست ما قبلها؛ ولم يجتمع لهم على البربر جمع بعد؛ وأقروا بالإدبار، وباءوا بالصغار. وورد على القاسم كتاب زاوي بشرحها مع نصيبه من الغنيمة؛ وفي جملتها سرادق المرتضى. فضربه القاسم على نهر قرطبة، وغشيه من النظارة جملة من علية الناس؛ وقلوبهم تتقطع حسرة منه. فركدت ريح المروانية من ذلك الوقت)).**[1]

وكان المرتضى عبد الرحمن بن محمد هذا ــ كغيره من أمراء الأسرة الأموية ــ يحقد على الأمازيغ، ويعلن تعصبه ضدهم؛ بسبب نصرتهم السابقة للعامريين. وكان يحملهم مسئولية التفكك والانهيار الذي أصاب الدولة الأموية في أواخر أيامها. ومن منظوماته التي تفيض بالعداء للأمازيغ قوله:

---

[1] **الذخيرة، ق: 1، ص ص: 455 ــ 456. وراجع النص نفسه تقريبا في: البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 127 ــ 128. وأعمال الأعلام ق: 2، ص: 131. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 486.**

قــدْ بَلــغَ البَرْبــرُ فِينــا بنــا
مَــا أفسَدَ الأحْــوَالَ وَالنظمَــا
كَالسَّهْــمِ لِلطَّائِــرِ لوْلاَ الــذِي
فِيــهِ مِنَ الرِّيــشِ لمَا أصْــمَى
قومُــوا بِنا فِي شَأنِهــمْ قوْمَــة
تزِيــلُ عَنــا العَــارَ وَالرَّغمَــا
إمَّــا بِهَا نمْلــكُ، أوْ لاَ نــرَى
مَا يَرجــعُ الطــرْفُ بهِ أعْــمَى

وقــد أنشــد محمــد بــن سليمــان بــن الحنــاط الكفيــف شاعــر بــني حمــود قصيــدة أمــام القاســم مشيــدا بالانتصــار عــلى المرتــضى وأتباعــه؛ جــاء في مطلعهــا:

لكَ الخَيْــرُ خَيْــرَانٌ مَضَى لِسَبِيلِــهِ
وَأصْبَــحَ مُلكُ اللهِ فِي ابْنِ رَسُولِــهِ

ـ حكومة المعتلي يحيى بن علي بن حمود:

كان يحيى بن علي بن حمود ـ في عهد والده ـ والياً على سبتة، بينما اختص أخوه إدريس بولاية مالقة. وكانت في نفس يحيى غصة من عمه؛ بسبب اعتقاده أنه اغتصب منه الملك، واستولى على ميراثه الشرعي؛ نظرا لكونه هو ولي عهد أبيه.[1] غير أنه استسلم ـ في البداية ـ لمنطق القوة والغلبة؛ عندما فهم أن معظم القبائل الأمازيغية كانت تتعاطف مع عمه. ومع هذا فقد ظل يرى في نفسه أحق من عمه بالخلافة. ويرى أنه سبقه إلى العرش؛ منتهزا بعده عن عاصمة الدولة آنئذ؛ إذ أن وجوده في سبتة بالعدوة المغربية ساعد عمه القاسم في التربع على العرش بدلا منه. والراجح هنا هو أن السبب يعود أيضا إلى ميل القبائل الأمازيغية في البداية ـ وهم القوة الضاربة في قرطبة ـ إلى تنصيب القاسم. وربما عللوا موقفهم ـ كما جاء في بعض المصادر ـ إلى عدة أسباب؛ منها: أنهم أحسوا بأن القاسم غبن منذ البداية؛ إذ كان أسن من أخيه علي؛ الذي سبقه وتربع على سدة الخلافة في قرطبة.

---

[1] يقول البكري: ((وكان له [أي علي بن حمود] من الولد يحيى وإدريس؛ وولى عهده منهما يحيى؛ وكان صاحب المغرب، وكان إدريس أخوه صاحب مدينة مالقة. فلما قتل علي استدعى البربر القاسم أخاه، وأدخلوه القصر، وبايعه الناس، وخطب له بالخلافة؛ فأنف من ذلك ابن أخيه يحيى؛ لما تقدم من عهد أبيه له)). المغرب، ص: 1333.

ثم إن الوضع السياسي في تلك المدينة آنئذ ـ أي يوم قتل علي ـ لم يكن يسمح بالتريث والانتظار حتى يأتي يحيى بن علي من سبتة؛ التي كانت أبعد من إشبيلية.[1] وبحكم هذه المسوغات فقد وجد يحيى نفسه ـ في البداية ـ مضطرا للخضوع للأمر الواقع على مضض؛ ولكنه لم يستسلم إليه بشكل مطلق.

وعليه فقد شرع في الإعداد الهادئ لاستعادة ما سلب منه. إذ شرع في تعزيز موقفه عن طريق أخيه إدريس في مالقة؛ لكي يسهل عليه التحرك فيما بعد. وبالفعل فقد كان منطلقه عند زحفه إلى قرطبة؛ عبر تلك المدينة الساحلية. وجاءت الفرصة بسرعة؛ لما شعر ببوادر الضيق والخلاف التي أخذت تدب بين رؤساء القبائل الأمازيغية وعمه؛ جراء اصطناع جماعة من السودان؛ فسارع من فوره إلى تأجيج غيظهم، وتحذيرهم من خطط عمه التي يعمل على تحقيقها؛ باستخدام فرق من السودان لحماية ملكه؛ وإضعاف نفوذ القبائل الأمازيغية.[2]

---

[1] **نفح الطيب، ج: 1، ص: 484.**

[2] **يقول المقري: ((وكتب [يحيى] من سبتة إلى أكابر البرابر بقرطبة: "إن عمي أخذ ميراثي من أبي؛ ثم إنه قدم في ولاياتكم التي أخذتموها بسيوفكم العبيد والسودان. وأنا أطلب ميراثي، وأوليّكم مناصبكم، وأجعل العبيد والسودان كما هم عند الناس"؛ فأجابوه إلى ذلك. فجمع ما عنده من المراكب؛ وأعانه أخوه إدريس صاحب مالقة؛ فجاز البحر بجمع وافر، وحصل بمالقة مع**

وبالفعل وجد نداؤه وتحذيره صدى لدى رؤساء الأمازيغ؛ خاصة وأنهم أصبحوا بالفعل متذمرين من سلوك القاسم الرامي إلى إضعاف نفوذهم؛ والانفراد بمجد الملك وحده؛ دون حساب لمقتضى المشاركة التي تجمعهم وإياه فيه؛ بحكم أن ذلك الملك نشأ بفضل سيوفهم وغلبتهم.[1] ولهذا فقد لبوا هذه المرة بسهولة نداء يحيى، وأبدوا تفهمهم واستعدادهم لدعمه وتأييده. فبادر على الفور بالإعداد لغزو قرطبة، والإطاحة بعمه؛ فكان أول عمل قام به بعد أن جهز نفسه عسكريا وماديا؛ هو قطع الدعوة لعمه، ثم انتقل إلى مالقة ومنح لأخيه إدريس ولاية سبتة.

أخيه؛ وكتب له خيران صاحب المرية مذكرا بما أسلفه في إعانة أبيه، وأكد المودة؛ فقال له أخوه إدريس: "إن خيران رجل خداع" فقال يحيى: "ونحن منخدعون فيما لا يضرنا". ثم إن يحيى أقبل إلى قرطبة؛ واثقا بأن البرابر معه؛ ففر القاسم إلى إشبيلية في خمسة فرسان من خواصه ليلة السبت 28 من شهر ربيع الآخر سنة 412هـ)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 486.

[1] راجع الفصول التالية في مقدمة ابن خلدون: ((فصل في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية)). ج: 2، ص ص: 632 ــ 634. و((فصل في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد)). نفسه، ص ص: 649 ــ 650. و((فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالي والمصطنعين)). نفسه، ص ص: 677 ــ 678.

ولما أحس بضعف عمه القاسم؛ وتأكد من عجزه عن التصدي له؛ بدأ بالزحف إلى قرطبة؛ في قوة كبيرة يؤازره فيها زاوي بن زيري أمير غرناطة. فاستنجد القاسم بأنصاره الأمازيغ؛ فتثاقلوا ولم يلبوا طلبه؛ بحجة أن الخلاف حاصل بين حسنيين؛ وذلك شأن داخلي بينهما.[1] عندها لم يجد القاسم مفرا من الخروج هاربا إلى إشبيلية؛ التي كان واليا عليها في السابق؛ ولم يرافقه إلا خمسة من الفرسان؛ وذلك عام 412هـ(1021م). ولما دخل يحيى بن علي إلى قصر الخلافة في قرطبة؛ عقدت البيعة له؛ حيث بايعته في المدينة جموع الأمازيغ والسودان وأهل البلد؛ وذلك في شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة؛ وفيها لقب بالمعتلي بالله. ثم أسند خطة الكتابة إلى أحمد بن برد، والوزارة إلى محمد بن الفرضي.[2]

---

[1] **الذخيرة، ق: 1 مج: 1، ص: 482.**

[2] **فمما كتبه ابن بسام عن التعيينات التي أقرها المعتلي: ((وأقر يحيى أصحاب الخطط على مراتبهم؛ وحسن رأيه في أحمد بن برد وعول عليه في كتابته؛ واستخلص من الأندلسيين صحبه: جعفر بن محمد بن فتح والفقيه أبا عمر بن موسى بن محمد اليماني الوراق صاحب محمد بن عبد الله النبهاني؛ وولاه خطة الوزارة؛ فكادت الجبال تنهدُّ لهذه العظيمة؛ وجمح مركبها به؛ وأبدع في الكبر والخنزوانة. وقدم أيضا إلى الوزارة محمد بن الفرضي الكاتب؛ فكان أعدى من الجَرَب على دواته؛ وارتقبَ عقلاء الناس ــ عند ذلك ــ حلول المحنة؛ فقديما استعاذوا بالله من وزارة السّفلة. ووصَّل جعفر بن فتح صاحبه الأقدم إبراهيم الإفليلي كبير الأدباء بقرطبة بالخليفة يحيى، ورغبه في الإحسان إليه؛ فذاكره وحدثه ونوه به. وسما ــ في أيامه ــ**

ومع هذا فقد عقد يحيى صلحا مع عمه؛ على أن يعترف كل واحد منهما بالآخر؛ فتسمى كلاهما بلقب خليفة.[1] وبذلك أصبح في قرطبة خليفة، وفي إشبيلية خليفة آخر؛ وهذا طبعا يدل على الضعف والهوان الذي أضحى عليه لقب خليفة في الأندلس.

وحتى يحيى بن علي هذا حكم قرطبة ــ مثل عمه ــ في فترتين: بدأت الأولى في جمادى الأولى من سنة 412هـ كما تم ذكره؛ وظل متربعا على سرير الحكم ــ في هذه الفترة ــ ما يناهز السنة وستة أشهر؛ ثم خرج فارا ــ كعمه أيضا ــ إلى مالقة؛ بعد أن ضاق به الحال في تلك المدينة المتقلبة. أما الفترة الثانية فأتت بعد أن عمل القرطبيون على تنصيب بعض الأمويين ــ من جديد في قرطبة ــ كخلفاء؛ وكان آخرهم المستكفي

أبو بكر بن ذكوان، وأبو العباس أحمد بن أبي حاتم أخوه؛ وأنهضهما إلى الوزارة عقب وفاة الشيخ أبي العباس بن ذكوان. وغَرب شأوُ أبي بكر منهم؛ فجاء أحوذيّاً نسيج وحده في فضله وعلمه وعفته)). الذخيرة، ج: 1، ق: 1، ص: 483.

[1] يقول ابن عذاري: ((وكان عمه القاسم بن حمود لما رأى جور البربر، وقلة طاعتهم؛ خرج من قرطبة إلى إشبيلية فارا منهم وخائفا، فاستقر بإشبيلية وهو يدعى له بالخلافة، ويتسمى بأمير المؤمنين؛ فخاطب البربر ــ من قرطبة ــ إلى ابن أخيه هذا يحيى بن علي؛ وأدخلوه قرطبة، وبويع بها ــ كما ذكرنا ــ وتسمى بالخلافة وإمرة المؤمنين، وتلقب بالمستعلي؛ (قال ابن حزم): "خليفتان تصالحا؛ وهو أمر لم يسمع بأذل منه، ولا أدل على إدبار الأمور؛ يحيى بن علي بن حمود بقرطبة، والقاسم بن حمود بإشبيلية")). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 132 ــ 133.

محمد بن عبد الرحمن؛ فكان سيئ السيرة، فاسد الخلق، مهملا لشئون الحكم؛ فانفض من حوله أعيان البلدة؛ وخرج بعضهم ــ وعلى رأسهم الوزير الشاعر أحمد بن شُهَيد ــ إلى مالقة؛ مستنجدين بيحيى بن علي؛ آملين في عودته؛ بعد أن يئسوا من جدوى الاتكال على بني أمية.

عندئذ زحف يحيى ــ كرة أخرى ــ نحو قرطبة؛ لاستعادتها وضمها إلى مملكته؛[1] خاصة بعد أن خلا له الجو من منافسة عمه الذي أضحى سجينا عنده في مالقة. ودخل ــ كما جاء في بعض الأقوال ــ إلى قرطبة من جديد في شهر رمضان من سنة 416هـ(1025م). ولكنه لم يبق في المدينة أكثر من سنة؛ ثم خرج إلى مالقة ــ أيضا ــ وبالتحديد في شهر محرم من سنة 417هـ(1026م).

---

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص: 142. أما المراكشي وابن الأثير فيقولان ــ بصراحة ــ أنه لم يذهب إلى قرطبة بنفسه؛ وإنما بعث إليها عبد الرحمن ابن عطاف اليفرني واليا عليها من قبله. المعجب، ص: 52. والكامل، ج: 7، ص: 288. كما يفهم من سياق ما كتبه ابن خلدون ــ بغموض ــ أنه اكتفى بإرسال الوالي المذكور. العبر، مج: 4، ص: 332.

وذلك لأنه لم يعد يرغب في اتخاذها عاصمة لدولته؛ بعد أن ضاق بها وبأهلها المشاغبين؛ فترك فيها وزيره وكاتبه أحمد بن موسى[1] مع دوناس بن أبي روح. غير أن أهل قرطبة نقضوا عهدهم، وثاروا عليهما ــ كعادتهم ــ في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة. وذلك لما سمعوا بزحف مجاهد وخيران العامريين نحو قرطبة؛ من قبل حبوس بن ماكسن بن زيري.[2] ولكن مجاهد وخيران اختلفا؛ فخاف كل واحد من صاحبه؛ الأمر الذي جعل خيران ينسحب من قرطبة، ويعود إلى المرية.

وجملة القول يبدو أنه ــ على الرغم من ترحيب الناس بيحيى (المعتلي) في الفترة الأولى من حكمه لقرطبة ــ فإنهم سرعان ما تحولوا عن تأييده والقبول به. ويبدو أن السبب يعود إلى ما ورد في جل المصادر؛ من أنه من جهة وقع فريسة للعجب والغرور والتكبر؛ وذلك تبعا لما أظهره من كبر وزهو بنفسه، وما لجأ إليه من فرض الحجاب؛ والترفع عن الاستقبال ومباشرة

---

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 143 ــ 144. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 136. وأجمع كل من: عبد الواحد المراكشي وابن الأثير وابن خلدون والمقري على أن الذي ولاه يحيى على قرطبة هو عبد الرحمن بن عطاف اليفرني. المعجب، ص: 52. والكامل، ج: 7، ص: 288. والعبر، مج: 4، ص: 332. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 432.

[2] الكامل، ج: 7، ص: 288. والبيان المغرب، ج: 3، ص: 143. وذكر ابن الخطيب معهما اسم زهير؛ مع أنه في الحقيقة كان مساعدا لخيران. أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 136.

القضايا بنفسه. ومن جهة أخرى أنه سقط في فخ بعض الوزراء والمستخدمين من السفلة والمنحطين. غير أن ثمة عاملا أخر أغضب بعض الفئات الفاعلة منه. حدث ذلك عندما طالبه رؤساء الأمازيغ بالوفاء بوعده لهم؛ بخصوص عزل السودان من مناصبهم التي حصلوا عليها أيام عمه القاسم؛ فأجابهم في شيء وتهرب من أشياء. عندئذ شرعوا في المشاغبة وإبداء مظاهر العصيان والتمرد. ولما اشتدت ضغوطهم؛ هرب جماعة كبيرة من السودان إلى عمه في إشبيلية؛ وبقي هو منفردا أمام الأمازيغ الساخطين من جهة، والقرطبيين المعارضين من جهة أخرى. وهكذا ساءت الحال بيحيى في قرطبة؛ فاختار بدوره ــ كعمه ــ الهروب منها، والالتحاق بمالقة. فما كان من الأمازيغ إلا الإسراع في استدعاء القاسم إلى قرطبة مرة ثانية؛ وذلك في سنة 413هـ(1022م). وكان من قبل متصلا بهم؛ عاملا على التحريض وبث الفتنة؛ مثلما سبق أن عمل يحيى بالضبط.

هـذا ولـم يطـل بقـاء القاسـم ـ كمـا سبقـت الإشـارة إليـه ـ في قرطبـة؛ إذ اضطـر هـو بـدوره إلى الخـروج منهـا مطـرودا بضغـط مـن سكانهـا؛ وذلـك في سنـة 414هـ(1023م). ويبـدو أنهـم ـ كمـا أشـار إلى ذلـك ابـن الأثيـر وابـن خلـدون ـ قد استضعفـوه بعـد أن وصلتهـم أخبـار أفـادت بتغلـب ابـن أخيـه يحـيى المعتـلي عـلى حصونـه ومراكـزه في الجزيـرة الخضـراء وطنجـة.[1]

****

ـ دولـة بـني حمـود خـارج قرطبـة:

وبخـروج القاسـم إلى إشبيليـة ويحـيى إلى مالقـة؛ أفـل شعـاع قرطبـة نهائيـا كحاضـرة للخلافـة بالأندلـس. وأصبحـت كغيرهـا مـن مـدن تلـك الديـار؛ تابعـة لمراكـز أخـرى؛ سـواء كانـت مالقـة أو طليطلـة أو إشبيليـة أو غيرهـا. وأضـحى. الحديـث ـ مـن جهـة أخـرى ـ عـن دولـة بـني حمـود لا يعـدو أن يكـون حديثـا عـن إمـارات متفرقـة للحموديين ـ مثلهـا مثـل أي إمـارة مـن إمـارات الطوائـف ـ في: مالقـة أو في الجزيـرة أو في سبتـة؛ ثـم انحـدر بهـا الحـال شيئـا فشيئـا أخيـرا إلى مجـرد إمـارة صغيـرة في مدينـة مليلـة. ومـع هـذا فقـد أصـر أصحـاب تلـك الإمـارات

---

[1] **الكامـل، ج: 7، ص: 286. والعبـر، مج: 4، ص: 331.**

على إضفاء صفة الخلافة على ملكهم الهزيل.[1] وهذا ما جعل أبو محمد علي بن حزم يصرخ مستنكرا لما آلت إليه الأوضاع السياسية في الأندلس: ((**فضيحة لم يقع في العالم إلى يومنا ملها: أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام؛ كلهم يتسمى بإمرة أمير المؤمنين؛ ويُخطب لهم بها في زمن واحد. وهم: خَلَفٌ الحُصُريُّ بإشبيلية؛ على أنه هشام بن الحكم، ومحمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة الخضراء، ومحمد بن إدريس بن علي بن حمود بمالقة، وإدريس بن يحيى بن علي بن حمود ببُبَشْتر**)).[2] وبالطبع فالذي يتحمل تبعات جل تلك الأوضاع الشاذة، والاضطرابات المدمرة ــ التي نسفت الدولة الأموية، ومن بعدها الدولة الحمودية؛ وبالتالي مزقت بلاد الأندلس إلى دويلات وكيانات هزيلة؛ لا تقوى على الدفاع عن أمنها وأمن رعاياها ــ هي ظاهرة العصبية القبلية؛ تلك الظاهرة المرضية التي سادت بلاد الأندلس آنئذ.

---

[1] أعلن يحيى وأبناؤه أنفسهم خلفاء في مالقة؛ حيث تلقبوا بالألقاب الخلافية. وبالمقابل أعلن أبناء القاسم أنفسهم خلفاء في الجزيرة الخضراء؛ وتلقبوا ــ بدورهم ــ بالألقاب الخلافية. أنظر: الكامل في التاريخ، ج: 7، ص ص: 286 ــ 289. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 144. 191 ـــ 192. 216 ــ 219. والعبر، مج: 4، ص ص: 331 ــ 335. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 140 ــ 143.

[2] رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء (ضمن كتاب رسائل ابن حزم الأندلسي)، ج: 2، ص ص: 97 ــ 98.

ـ حكومة المعتلي يحيى بن علي بن حمود في مالقة:

فمنذ البداية كان يحيى يميل إلى الاستقرار في مدينة مالقة أكثر من ميله إلى قرطبة؛ تلك المدينة التي لا تستقر على حال. وذلك لأن مالقة تحتل موقعا قريبا من أنصاره وعصبيته في الضفة المغربية. لذا فعند خروجه في المرة الثانية من قرطبة في سنة 417هـ(1026م)؛ قرر أن يجردها من صفتها السابقة كعاصمة للخلافة؛ ووضعها في مصاف المدن الثانوية التابعة لمركز الخلافة في مالقة. لهذا فقد أسند شئونها إلى بعض معاونيه؛ كـ: أبي جعفر أحمد بن موسى، ودوناس بن أبي روح في قول، أو عبد الرحمن بن عطاف اليفرني في قول آخر.

وكان قد عمل ـ قبل هذا التاريخ، وبالتحديد في سنة 413هـ(1022م) لما خرج في المرة الأولى من قرطبة ـ على تنظيم شئونه في مالقة؛ حيث تمسك بإعلان نفسه خليفة إلى جانب عمه خليفة إشبيلية. وبقي يترقب ما يجري في قرطبة وإشبيلية؛ حتى وصلته أخبار هروب عمه القاسم من قرطبة للمرة الثانية، وامتناع إشبيلية عن استقباله؛ الأمر الذي اضطره إلى اللجوء إلى شريش. عندها لم يترك يحيى هذه الفرصة تفوته؛ لذا فقد زحف فورا إلى شريش؛ بنية القتال ضد عمه؛ إذ حدثت بينهما معارك شديدة؛ ضيق خلالها يحيى الحصار على عمه حتى استسلم له في الأخير؛ فقام بأسره؛ ثم نقله معه إلى مالقة عاصمة ملكه. أين كان

مصيره القتل في السجن سنة 427هـ(1035م).[1] في قول، أو في 431هـ(1039م) في قول آخر.

وكان يحيى بن علي يسعى جاهدا ـ منذ ترك قرطبة في المرة الأولى ـ إلى تمهيد دولته وتقويتها انطلاقا من مالقة؛ لذا فإنه لم يتراخ لحظة واحدة عن محاولة ضم مقاطعات جديدة لمملكته؛ من ذلك أنه تغلب على الجزيرة الخضراء؛ التي كانت إحدى مراكز عمه الخلفية؛ وفي الوقت نفسه تمكن أخوه إدريس ـ الوالي على سبتة ـ من التغلب على طنجة؛ التي كانت ـ أيضا ـ حصنا ومستودعا لذخائر عمه. ويعتبر خروج هاتين المقاطعتين الهامتين من يد القاسم؛ بمثابة الضربة القاصمة لسلطانه.

---

[1] شرح المقري سبب قتله بقوله: ((وأجلت الحرب عن قهر يحيى لعمه، وإسلام أهل شَرِيشَ له، وفر سودانه؛ وحصل القاسم وابنه في يد يحيى؛ وكان قد أقسم أنه إن حصل في يده ليقتلنه، ولا يتركه حتى يلي الإمامة في قرطبة مرة ثانية؛ فرأى التربص في قتله = =حتى يرى رأيه فيه. فحدث عنه بعض أصحابه أنه حمله بقيد إلى مالقة، وحبسه عنده؛ وكان كلما سكر وأراد قتله رغبه ندماؤه في الإبقاء عليه؛ لأنه لا قدرة له في الخلاص... وامتدت الحال على ذلك إلى أن قتله خنقا بعد ثلاث عشرة سنة من حين القبض عليه؛ لأنه كان قد حبسه في حصن من حصون مالقة؛ فنمي إليه أنه قد تحدث مع أهل الحصن في القيام والعصيان؛ فقال أوَبقي في رأسه حديث بعد هذا العمر؟ فقتله سنة 427هـ)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 488. وذكر عبد الواحد المراكشي أنه بقي في السجن في زمن كل من: يحيى وإدريس؛ ولم يقتل خنقا إلا بعد موت إدريس في سنة 431هـ. المعجب، ص ص: 51 ـ 52. أما ابن الأثير فيرى أن الذي قتل القاسم هو إدريس بن علي وليس يحيى. الكامل، ج: 7، ص: 287.

وتلا ذلك ــ بالفعل ــ اضطراب حاله في قرطبة، إذ أعلن سكانها عليه العصيان.[1] ولم يكتف يحيى بهذا فحسب؛ بل تحرك أيضا لقتال عمه في شريش كما سبق ذكره. حيث قبض عليه مع ولديه: محمد والحسن؛ حيث سجنهم بمالقة؛ وربما يكون ــ كما جاء في بعض الروايات ــ قد حبس ابني عمه في الجزيرة الخضراء.[2]

ولم يكتف المعتلي يحيى بن علي بما افتكه من عمه؛ بل أكره عددا من أمراء الأمازيغ؛ كي يتخلوا له عن بعض مدنهم وحصونهم؛ التي تغلبوا عليها من قبل. وقد اتخذ من تلك الحصون منطلقا لحصار إشبيلية والتضييق عليها؛ كي يجبر ابن عباد على التسليم له والإذعان للطاعة.[3] ويبدو أن بعض القبائل الأمازيغية لم تكن مخلصة الإخلاص كله للمعتلي؛ وما خضوعها وإعلان

---

[1] العبر، مج: 4، ص: 331.

[2] العبر، مج: 4، ص: 332.

[3] يقول في هذا ابن الأثير: ((واتفق البربر على طاعته، وسلموا إليه ما بأيديهم من الحصون والمدن؛ فقوي وعظم شأنه، وبقي كذلك مدة ثم سار إلى قرمونة؛ فأقام بها محاصرا لإشبيلية طامعا في أخذها)). الكامل، ج: 7، ص: 288. ويتفق معه ابن خلدون فيقول: ((وأقام يحيى المعتلي يخيفهم ويردد العساكر لحصارهم [يقصد هنا ملوك الطوائف] إلى أن اتفقت الكافة على إسلام المدائن والحصون له؛ فعلا سلطانه واشتد أمره؛ وظاهره محمد بن عبد الله البرزالي على أمره؛ فنزل عنده بقرمونة يحاصر فيها ابن عباد بإشبيلية؛ إلى أن هلك سنة ست وعشرين بمداخلة ابن عباد للبرزالي في اغتياله)). العبر، مج: 4، ص ص: 332 ـــ 333.

طاعتها إلا سياسة مهادنة؛ الهدف منها كسب الوقت. وهذا ما يتضح من الاتفاق الذي عقد بين أمير بني برزال وابن عباد ضد يحيى بن علي. إذ تجلى ذلك في مساعدة البرزالي لابن عباد في قتل يحيى؛ بل يقال أن أمير البرزاليين محمد ابن عبد الله هو الذي قتل يحيى بيده سنة 426هـ(1034م) أو 427هـ في قول آخر.[1] وذكر في هذا ابن خلدون: ((**فركب المعتلي لخيل أغارت على معسكره بقرمونة من جند ابن عباد؛ وقد كمنوا له؛ فكبا به فرسه وقتل. وتولى قتله محمد بن عبد الله البرزالي؛ وانقطعت دولة بني حمود من قرطبة**)).[2] ولما قتل المعتلي وضع ابن عباد السيف في أنصاره؛ وكانوا في معظمهم من الأمازيغ؛ فتحركت النعرة والعصبية في صدر البرزالي؛ بسبب ما لحق ببني جلدته؛ فطلب من ابن عباد أن يرفع السيف عنهم. وفي هذا يقول ابن عذاري: ((**واستمرت** [أي عمليات القتل] **على أصحاب يحيى؛ حتى ساء ذلك ابن عبد الله البرزالي، وبدت عصبيته لقومه؛ وكلم ابن عباد في**

---

[1] **أنظر البيان المغرب، ج: 3، ص: 188. والعبر، مج: 4، ص: 333. بينما قال عبد الواحد المراكشي وابن الأثير أنه قتل في المحرم من سنة 427هـ. المعجب، ص: 61. والكامل، ج: 7، ص: 288.**

[2] **العبر، مج: 4، ص: 333. وتوسعت المصادر الأخرى في شرح الكيفية التي قتل بها يحيى بن علي. منها الذخيرة، ج: 1، ق: 1، ص ص: 316 ــ 318. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 188 ــ 189. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 137.**

رفع السيف عنهم؛ فأطاعه في ذلك، وتم لأبن عبد الله ما أراد من حقن الدماء؛ إذ لم يأت الذي أتاه إلا عن ضرورة)).[1] وتلك الضرورة لم تكن في الحقيقة سوى الرغبة في استعادة حصن قرمونة؛ الذي افتكه يحيى من سيد بني برزال؛ واتخذه منطلقا لحصار إشبيلية. هذا وقد ترك يحيى ولدين صغيرين هما: الحسن وإدريس.[2]

****

[1] **البيان المغرب، ج: 3، ص: 189.**

[2] **الجمهرة، ص: 51. المعجب، ص: 54. والكامل، ج: 7، ص: 288.**

ـ الانقسام الثاني في أسرة بني حمود:

حدث الانقسام الأول ـ كما سبق شرحه ـ في سنة 412هـ(1021م)؛ عندما خرج يحيى بن علي ابن حمود عن طاعة عمه القاسم؛ حيث أعلن نفسه خليفة بقرطبة؛ في الوقت الذي احتفظ عمه القاسم بلقبه الخلافي في إشبيلية؛ حاضرة ملكه الجديدة. ولما استحوذ يحيى على ملك الحموديين بالأندلس، وانفرد بالحكم ـ بعد تغلبه على مراكز عمه الخلفية في الجزيرة وطنجة ـ زج بعمه في سجن مالقة؛ ثم حبس ولديه: محمدا والحسن بالجزيرة؛[1] حيث أوكل بهما رجلا من المغاربة يعرف بأبي الحجاج. ولما قتل المعتلي يحيى ابن علي) بن حمود سنة 427هـ (1035م) سارع أبو الحجاج هذا إلى الإفراج عنهما.[2]

---

[1] فحين يرى عبد الواحد المراكشي وابن الأثير أن يحيى قد سجنهما في الجزيرة الخضراء؛ يقول ابن خلدون والمقري أن محمدا كان مسجونا بمالقة؛ ثم فر من سجنه في سنة 414هـ إلى الجزيرة. العبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

[2] وحتى هذا الخبر فيه خلاف؛ إذ يرى عبد الواحد المراكشي أن الموكل بهما أخرجهما إثر مقتل يحيى بن علي؛ بينما يقول ابن الأثير أنهما أخرجا من المعتقل بعد موت إدريس بن علي؛ بينما يجعل ابن خلدون تاريخ هروب محمد بن القاسم ـ من معتقله بمالقة إلى الجزيرة ـ في عام 414هـ. أنظر: المعجب، ص: 62. والكامل، ج: 7، ص: 289. والعبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

ثم طلب من أصحاب الحل في الجزيرة ــ من السودان والأمازيغ ــ البيعة لمحمد بن القاسم؛ الذي اكتفى ــ في البداية ــ بالإمارة على الجزيرة؛ وتغاضى عن الادعاء بالخلافة. ولكنه ــ فيما بعد ــ أعلن نفسه خليفة سنة 439هـ(1047م) وتسمى بالمهدي.[1] ولما توفي ولي بعده في مرتبة الخلافة ــ كما يزعم بعضهم ــ ابنه القاسم بن محمد؛[2] الذي قيل أنه تسمى بالواثق.[3] وكان هذا الأمير هو آخر من تولى من بني القاسم في الأندلس. ويعود السبب في انتقال الخلافة من بني علي بن حمود إلى بني أخيه القاسم؛ إلى ما أصاب دولة الأدارسة في مالقة من تفكك ووهن؛ لذا فقد قرر أمراء الأمازيغ ــ في تلك الديار ــ أن ينقلوا الخلافة من أسرة علي بن حمود في مالقة؛ إلى أسرة أخيه القاسم بالجزيرة.

---

[1] هكذا في جل المصادر؛ بينما قال ابن خلدون أنه تسمى بالمعتصم. العبر، مج: 4، ص: 335.

[2] قال ابن حزم أن محمد بن القاسم خلف من الأولاد: ((يحيى الأصم؛ أكبرهم، ثم القاسم؛ الوالي بعد أبيه؛ وكان حصورا؛ لا يقرب النساء، وإبراهيم، وأحمد، وجعفر، والحسين)). الجمهرة، ص: 51.

[3] هكذا قال ابن خلدون، العبر، مج: 4، ص: 335. أما ابن حزم والمراكشي فيقولان أنه لم يتسم بالخلافة. الجمهرة، ص: 50. والمعجب، ص: 68.

وأولئك الأمراء هم: باديس بن حبوس الصنهاجي أمير بني زيري في غرناطة، وإسحاق ابن محمد بن عبد الله البرزاليِ الزناتي أمير قرمونة، ومحمد بن نوح بن أبي تزيري الدمري الزناتي أمير مورور، وعبدون بن خزرون الرنداجي الزناتي أمير بني خزرون في أركش.[1] هذا وقد بقي أبناء القاسم في إمارتهم بالجزيرة حتى سنة 446هـ(1054م)؛ وهي السنة التي تغلب فيها عليهم جيش المعتضد بن عباد؛ حيث أجلاهم قائد ذلك الجيش عن الجزيرة؛ فانطلقوا إلى المرية في حماية المعتصم بن صمادح.

---

[1] والكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص: 68. والبيان المغرب، ج: 3، ص: 218. 229 ــ 230.

ـ حكومة المهدي محمد بن القاسم بن حمود:

نشأت هذه الإمارة ـ كما سبق قوله ـ في الجزيرة الخضراء أيام القاسم بن حمود؛ بتكليف من الخليفة الأموي المستعين بالله سليمان بن الحكم.[1] ثم تغلب عليها المعتلي يحيى بن علي، وقبض على ولدي القاسم: محمدا وحسن. ولكنهما استطاعا الإفلات بعد موت يحيى بن علي سنة 427هـ(1035م)؛[2] والعودة إلى امتلاك الجزيرة من جديد؛ بمساعدة المكلف بحراستهما؛ وهو من المغاربة، ويدعى أبا الحجاج. ومنذئذ اعتلى محمد ابن القاسم على عرش الجزيرة الخضراء؛ دون أن يتسمى ـ في البداية ـ بالألقاب الخلافية. أما أخوه حسن فقد تنسك، ولبس الصوف؛ ثم توجه إلى الحج مع أخته فاطمة؛ زوجة المعتلي يحيى بن علي.

---

[1] **الكامل، ج: 7، ص: 284. والمعجب: ص: 43. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 128.**

[2] **الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص ص: 62 ـ 63. أما ابن خلدون والمقري فيريان أنهما تمكنا من الفرار من محبسهما بمالقة في سنة 414هـ. العبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.**

وبقي محمد بن القاسم على ذلك الحال حتى زحف إليه نجا الصقلبي؛ بغرض امتلاك الجزيرة؛ وذلك في سنة 434هـ(1042م)؛ فخرجت إليه أم محمد والقاسم ــ واسمها سبيعة ــ فاحتجت عليه قائلة: **((يا أبا الفوز أتقطع مواليك، وتكشفهم عن البلاد؛ ما هذا بحسن))**.[1] فاستحى من قولها وتخلى عن غرضه.[2] وظل محمد في إمارته تاركا مرتبة الخلافة لبني عمه؛ أبناء علي بن حمود؛ دون السعي لمزاحمتهم في الألقاب الخلافية؛ حتى قرر أمراء الأمازيغ ــ سنة 439هـ(1047م) ــ تحويل دعوتهم بالخلافة من بني علي بن حمود إلي بني القاسم؛[3] عندئذ تلقب محمد بالمهدي[1] ونسب إلى نفسه خلافة المسلمين.

---

[1] **البيان المغرب، ج: 3، ص: 216.**

[2] **يقول عبد الواحد المراكشي أنه أحس بفتور من أصحابه؛ لذا تراجع: ((ثم جمع عسكره، ونهض إلى الجزيرة ليستأصل محمد بن القاسم؛ فحاربه أياما؛ ثم أحس بفتور نيات الذين معه؛ فرأى أن يرجع إلى مالقة؛ فإذا حصل فيها نفى من يخاف غائلته منهم، واستصلح سائرهم؛ واستدعى الصقالبة من حيث أمكنه ليقوى بهم على غيرهم)). المعجب، ص: 64.**

[3] **قال ابن عذاري: ((وفي سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ــ قال ابن حيان ــ "فيها تجمع رؤساء القبائل من البربر وأمراؤها على البيعة لمحمد بن القاسم بن حمود الحسني؛ وقدموه للخلافة بالجزيرة الخضراء؛ وهم أربعة أمراء: إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة، ومحمد بن نوح الدميري صاحب مورور، وعبدون بن خزرون صاحب أركش، وكبيرهم باديس بن حبوس صاحب غرناطة وأعمالة وأستجة وغيرها. فبايع جميعهم له بالخلافة؛ وتسمى من الألقاب الخلافية بالمهدي، وخطب له جميع هؤلاء الأمراء في بلادهم على المنابر؛ ثم نهضوا مع إمامهم وساروا إلى المعتضد**

ويبدو أن الأمازيغ عادوا فتخلوا عنه، وتركوه وحيدا؛ إذ يقال أنه مات غما سنة 440هـ(1048م). ويقول عبد الواحد المراكشي أنه أنجب زهاء ثمانية أولاد ذكورا.

ـ حكومة القاسم بن محمد بن القاسم بن حمود:

تولي القاسم بن محمد الحكم في الجزيرة الخضراء إثر وفاة والده سنة 440هـ(1048م). وقد اختلفت آراء المؤرخين في المرتبة الملكية التي احتلها القاسم هذا؛ إذ يقول ابن خلدون والمقري ــ على سبيل المثال ــ أنه تسمى بلقب الواثق؛ بينما يرى ابن حزم أنه لم يتسم بالخلافة؛ ويتفق مع ابن حزم كل من: ابن الأثير وعبد الواحد المراكشي.[2]

عباد بن محمد صاحب إشبيلية؛ ونزلوا عليها؛ ودخل معهم ابن الأفطس صاحب بطليوس. وكانت عدة هؤلاء الرؤساء مع إمامهم محمد بن القاسم على عباد بن محمد سبعة ملوك؛ ثم انصرفوا مع خليفتهم؛ ولم يقض الله لهم أربا. فلم يكن لهم بعد ذلك اجتماع، ولا اتفاق")). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 219 ــ 220.

[1] يعتقد ابن خلدون والمقري: أنه تلقب بالمعتصم. العبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

[2] قال ابن خلدون: ((ثم ملكها بعده ابنه القاسم الواثق إلى أن هلك سنة خمسين [وأربعمائة])). العبر، مج: 4، ص: 335. أنظر أيضا: نفح الطيب، ج: 1، ص: 435. أما ابن حزم فيقول: ((وولي الجزيرة بعد محمد بن القاسم المذكور ابنه القاسم بن محمد؛ ولم يتسم بالخلافة؛ إلى أن خرج عنها سنة 446هـ)). الجمهرة، ص: 50. ويؤيد ابن الأثير هذا الأمر بقوله: ((فولي الجزيرة ابنه القاسم؛ ولم يتسم بالخلافة)). الكامل ج: 7، ص : 289. ويقول

هـذا ولـم يقـم القاسـم بـن محمـد بمـا يستحـق الذكـر والتنويـه في بـلاد الأندلـس؛ طـوال المـدة الـتي حكـم فيهـا الجزيـرة الخضـراء. وكـل مـا ذكـره عنـه المؤرخـون هـو تعـرض بـلاده لغـزو جيـش المعتضـد ابـن عبـاد؛ بقيـادة عبـد اللـه بـن سـلام في سنـة 446هـ(1054م). فتمكـن مـن التغلـب عـلى الجزيـرة الخضـراء؛ وأخـرج القاسـم منهـا؛ حيـث أعـد لـه مركبـا لينقلـه حيـث يشـاء؛ فاختـار المريـة؛ في حمايـة المعتصـم بـن صمـادح؛ بعـد أن يئـس مـن قبولـه في سبتـة؛ حيـث يقيـم سقـوط البرغـواطي.[1]

المراكـشي أيضـا: ((فتـولى أمـر الجزيـرة بعـده ابنـه القاسـم بـن محمـد ابـن القاسـم؛ إلا أنـه لـم يتسـم بالخلافـة)). والمعجـب، ص: 68.

[1] قـال ابـن عـذاري: ((وفي سنـة سـت وأربعيـن وأربعمائـة نظـر المعتضـد عبـاد في حسـن الجزيـرة الخضـراء وأميرهـا القاسـم بـن محمـد العلـوي؛ فضيـق عليـه إلى أن نـزل عـن بلـده بأمـان عـلى نفسـه وخـرج؛ فكـان الـذي حصرهـا لـه قائـده عبـد اللـه بـن سـلام؛ فأعـد عبـد اللـه للقاسـم مركبـا يسيـر فيـه حيـث شـاء. وكـان أميـر سبتـة يومئـذ سواجـات [سقـوط] البرغـواطي؛ وكـان القاسـم هـذا استنصـره فلـم ينصـره؛ فنكـب عـن سبتـة إلى المريـة؛ وبـقي بهـا إلى أن تـوفي. واحتـوى قائـد بـن عبـاد عـلى الخضـراء؛ ثـم خـرج منهـا بالعسكـر؛ تهفـو بهـم ريـح النصـر؛ وقـد قـدروا ألا غالـب لهـم؛ فلقـوا جماعـة مـن بـني يرنيـان؛ فوقعـت بينهـم حـرب انهـزم لهـا خيـل ابـن عبـاد؛ وقتـل قائدهـم عبد اللـه ابـن سـلام؛ وانصـرف الجيـش لابـن عبـاد مهزومـا)). البيـان المغـرب، ج: 3، ص ص: 242 ـــ 243.

وتقول بعض الروايات أن القاسم بن محمد توفي بالمرية سنة 450هـ(1058م).[1] ويقول ابن حزم أنه كان حصورا لا يقرب النساء؛ وعليه فلم يخلف أولادا.[2]

****

ـ حكومة المتأيد بالله إدريس بن علي بن حمود:

ولما قتل المعتلي يحيى بن علي بن حمود؛ عاد كبير دولته أبو جعفر أحمد بن موسى المعروف بابن بقنة[3] رفقة أبي الفوز نجا الخادم ـ ذلك الفتى الصقلبي[4] المقرب من المعتلي يحيى بن علي ـ إلى مالقة؛ أين استدعيا بسرعة إدريس بن علي أخا يحيى من سبتة؛ حيث عقدا له البيعة؛ بشرط أن يسند ولاية سبتة وطنجة للحسن بن يحيى بن علي؛ فقبل إدريس بذلك؛ وانتقل الحسن ابن يحيى ـ رفقة الفتى الصقلبي نجا ـ إلى ولاية سبتة. وفي البيعة تلقب إدريس بن علي بالمتأيد بالله واعتلى سدة الخلافة؛ مثلما كان عليه أخيه

---

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 242 ـ 243. الأعلام للزركلي، ج: 6، ص: 16. أما ابن بسام فلم يذكر المرية؛ ولكنه قال أنه لجأ إلى قرطبة؛ حيث مات بها في التاريخ نفسه. الذخيرة، ق: 2، مج: 1، ص ص: 36 ـ 37.

[2] الجمهرة، ص: 51.

[3] ورد في بعض المصادر ابن بقية والصحيح هو ابن بقنة.

[4] في العبر؛ الصقلي؛ مج: 4، ص: 333.

يحيى بن علي؛ فاعترف بخلافته جمع كبير من الأمازيغ، وبعض الفتيان العامريين ؛ مثل: حبوس ابن ماكسن بن زيري، ومحمد بن عبد الله البرزالي، والفتى الصقلبي العامري زهير المتغلب على المرية، وغيرهم. وفي الخامس من ذي القعدة سنة 427هـ(1035م) اتفقوا ــ جميعا ــ على محاصرة إشبيلية؛ أين استولوا على بعض الحصون والقلاع المحيطة بها.[1]

هذا وقد واجه إدريس المتأيد مقاومة شديدة من طرف ابن عباد؛ الذي عمل جاهدا على استقطاب الناس نحو إشبيلية، والاعتراف بها عاصمة للخلافة؛ إذ أظهر بها رجلا زعم أنه هشام المؤيد؛ فنادى به خليفة للمؤمنين؛ بغرض قطع الطريق في وجه بني حمود؛ الذين يستأثرون بالخلافة. وكان القاضي أبو القاسم بن عباد يعتمد كل الاعتماد في تحقيق مشاريعه على ابنه

---

[1] قال ابن عذاري: ((وفيها [أي سنة 427هـ] اجتمع زهير وحبوس مع محمد ابن عبد الله زعيم زناتة بجهة أستجة في يوم الأربعاء لخمس خلون من ذي القعدة من السنة، واحتلوا يوم السبت بعده بقرمونة، ونهضوا إلى جهة إشبيلية؛ واحتلوا قرية طشتانة، وقاتلوا حصن زعبوقة يوم الأحد واحتلوا بالقلعة يوم الإثنين، وقربوا من إشبيلية يوم الثلاثاء، وأحرقوا طريانة يوم الأربعاء بعده، ثم احتلوا بحصن القصر؛ وفيه انعقدت البيعة بينهم لإدريس ابن علي بن حمود؛ وانصرفوا إلى قرمونة؛ وقد تحالفوا وتعاقدوا على القيام بدعوته، وانصرف زهير إلى المرية، وأخطب لإدريس فيها في منتصف شهر ذي الحجة من السنة)). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 190 ــ 191.

إسماعيل؛ الذي نجح في قتل يحيى المعتلي ــ كما سبق ذكره ــ أمام قرمونة.

ولما تولى إدريس بن علي الخلافة واصل التحرش ببني عباد؛ مثلما كان الحال أيام أخيه يحيى. ووقف أمراء الأمازيغ وبعض الفتيان الصقالبة إلى جانب إدريس؛ نظرا لما عانوه من أطماع ابن عباد. لذا فقد اشتد الصراع بينهم وبين بني عباد، وامتد نطاقه حتى شمل جل المراكز والحصون الأمازيغية في الأندلس. ولم يستثن ابن عباد في ذلك حتى حصون حليفه السابق محمد بن عبد الله البرزالي؛ إذ انتزع منه أشونة وأستجة، وبعدهما عمل على حصار قرمونة. وهنا التأم شمل الأمازيغ ــ في بداية الأمر ــ من جديد؛ بدعم من الفتى العامري زهير. فتمكنوا بفضل حلفهم ــ بعد فترة ــ من تكبيد بني عباد خسائر فادحة؛ حيث قتل إسماعيل بن أبي القاسم، بعد أن انكسر جيشه على مشارف قرمونة؛ فحزوا رأسه وأرسلوه إلى المتأيد بالله إدريس بن علي الذي كان آنئذ مريضا في حصن بُبَشتر.

ولم يعش إدريس ـ بعد هذه الموقعة ـ سوى يومين؛ إذ مات في المحرم من سنة 431هـ (1039م).[1] وخلف ثلاثة أولاد هم: يحيى ومحمد والحسن؛ وكان له ابن أكبر مات في حياته من قبل؛ اسمه علي؛ ترك من الأولاد ـ هو الآخر ـ ابنا اسمه عبد الله بن علي بن إدريس[2].

ـ حكومة المستنصر الحسن بن يحيى بن علي:

أراد ابن بقنة ـ بعد موت المتأيد بالله إدريس ابن علي ـ تنصيب ولده يحيى بن إدريس المعروف بحيون؛ الذي تلقب بالقاسم بالله؛ ولكن الفتى نجا الصقلبي لم يترك له الفرصة لتمهيد حكمه؛ إذ عاجله بالقدوم من سبتة ومعه الحسن ابن يحيى بن علي؛ فهرب ابن بقنة مع يحيى ابن إدريس إلى حصن كمارش [قمارش] القريب من مالقة.

---

[1] قال ابن خلدون في هذا بإيجاز: ((وكان أبوه [أي إسماعيل] أبو القاسم بن عباد قد استفحل ملكه لذلك العهد، ومد يده لانتزاع البلاد من أيدي الثوار؛ وملك أشونة وأستجة من يد محمد بن عبد الله البرزالي؛ وبعث العساكر مع ابنه إسماعيل لحصار قرمونة؛ فاستصرخ محمد بن عبد الله بالمتأيد هذا وبزاوي (؟)؛ فجاء زاوي بنفسه، [مات في سنة 428هـ؛ وعليه يكون من شاركهم هو ابنه باديس] وبعث المتأيد هذا عساكره مع ابن بقية [الصحيح هو ابن بقنة]؛ فكانت بينهم وبين ابن عباد حروب شديدة؛ هزم فيها ابن عباد، وقتل، وحمل رأسه إلى إدريس المتأيد؛ وهلك [أي المتأيد] ليومين بعدها؛ سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة)). العبر، مج: 4، ص: 333.

[2] المعجب، ص: 62.

ولما دخل نجا الخادم إلى مالقة رفع مولاه الحسن بن يحيى إلى[1] سدة الخلافة بمالقة؛[2] فبايعه الناس وتسمى بالمستنصر[3] سنة 431هـ (1039م). وبعدها عمل الحسن على استدراج ابن بقنة وتطمينه بوعد أمان؛ فعاد رفقة يحيى بن إدريس (حيون) إلى مالقة؛ أين قبض عليهما المستنصر وأمر بقتلهما.[4] وكان الحسن بن يحيى متزوجا بابنة

---

[1] يبدو أن في الأمر خلط والتباس؛ إذ يعتقد: ابن عذاري وابن الخطيب أن الحسن هذا هو ابن علي بن حمود. وقد تبنى هذا الرأي أيضا إسماعيل العربي. وهذا طبعا لا يستقيم مع ما ثبت من أن علي لم يخلف سوى ولدين اثنين هما: يحيى وإدريس. وهو ما أجمعت عليه المصادر الأخرى ــ وهي كثيرة ــ انطلاقا من جمهرة ابن حزم، ص: 51. إلى المغرب للبكري، 133. إلى العبر لابن خلدون، مج: 4، ص ص: 331. 334. إلى نفح الطيب للمقري، ج: 1، ص: 432. أنظر نقيض ذلك في: البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 192. 216. أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 140. دولة الأدارسة، ص: 267. هذا ويفهم من أقوال ابن عذاري وابن الخطيب أن هناك شخصين يسميان بحسن: الأول بن علي، والثاني ابن يحيى. المهم أن هذه الفترة من حكم الأدارسة يكتنفها غموض كثيف.

[2] ذكر البكري أن إدريس بن علي عين الحسن بن يحيى وليا لعهده. أنظر المغرب، ص: 133.

[3] هذا هو اللقب الذي ذكره: ابن الأثير وابن عذاري وابن خلدون والمقري؛ أما عبد الواحد المراكشي فقال أنه لقب بالمستعلي؛ والظاهر أنه وقع في التباس. أنظر: المعجب، ص: 63. والكامل، ج: 7، ص: 289. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 192. 216. والعبر، مج: 4، ص: 334. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 432.

[4] ثمة رأي آخر مفاده أن حيون لم يعد إلى مالقة؛ بل بقي في حصن إيرش؛ حيث مات به سنة 434هـ. وثمة رأي آخر ذكره ابن خلدون مفاده أن الخادم نجا قتله مع ابن للحسن بن يحيى صغير كان لديه. أنظر: العبر، مج: 4، ص: 334. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 432. هذا فيما يخص حيون؛ أما

عمه إدريس، وأخت يحيى بن إدريس (حيون) المقتول؛ فعملت جهدها للانتقام منه، والثأر لأخيها؛ وعليه يقال أنها اغتالته بسم دسته له. وذلك في جمادى الأولى من سنة 434هـ(1042م).[1] ويقال أن الحسن بن يحيى خلف ولدا وتركه في كفالة نجا الخادم بسبتة؛ فقتله طمعا في اغتصاب الملك.

بخصوص أبي جعفر بن موسى (ابن بقنة) فابن عذاري يرى بأن بقنة قتل بمالقة؛ بعد مقتل الفتى نجا فقول: ((ثم نهض قوم منهم [أي من الثوار الذين قتلوا نجا] إلى مالقة؛ ونهضوا إلى الوزير أبي جعفر بن موسى فقتلوه، وأخرجوا إدريس بن يحيى من سجنه؛ وبايعوه؛ وتسمى بالعالي؛ وبايعه أمراء البربر، وخطبوا باسمه؛ وذلك سنة أربع وثلاثين وأربعمائة)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 217. إذن يفهم من هذا النص أن ابن بقنة هو الذي كان مع الحسن بن يحيى؛ وليس السطيفي كما ذكر المراكشي، أو الشطيفي كما سماه ابن الأثير. والغريب أن ابن عذاري يخلط في الأمر في موضع آخر؛ حين ذكر أن أبا جعفر بن موسى هذا استوزره الحسن بن يحيى، ثم قتله سنة 433هـ بعد أن امتحنه واستصفى أمواله. أنظر البيان المغرب، ج: ص: 290. كما أنه؛ في الوقت الذي أغفل ذكر السطيفي من قبل؛ ذكره في موضع آخر على انه قتل في اليوم الذي بويع فيه العالي إدريس ابن يحيى؛ وذلك في خبر يتوافق مع ما ذكره عبد الواحد المراكشي؛ ويتعارض مع ما سبق أن قاله ابن عذاري نفسه. لذا يتدعم الرأي القائل بأن هذا النص أو (القطعة) ليس من سياق كتاب ابن عذاري؛ ولم يكن أصلا منه. أنظر البيان المغرب، ج: 3، المقدمة، ثم: ص: 291.

[1] الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص ص: 63 ــ 64.

ـ حكومـــة العالي إدريـــس بن يحيى بن علي بن حمـــود:

كـــان نجـــا الصقلـــبي قـــد تـــرك في مالقـــة ـ عندمـــا رجـــع إلى مقـــر ولايتـــه بسبتـــة ـ رجـــلا مـــن التجـــار يثـــق فيـــه اشتهـــر باسم محمـــد السطيـــفي؛ وأوصـــاه بالسهـــر عـــلى سيـــر الإمـــارة، وعـــلى سلامـــة سيـــده الحســـن بـــن يحـــيى. ولمـــا قتـــل الحســـن مسمومـــا بيـــد زوجتـــه؛ ســـارع السطيـــفي إلى اعتقـــال أخيـــه إدريـــس بـــن يحـــيى؛ خوفـــا مـــن خـــروج الأمـــر مـــن يـــده ويـــد نجـــا الصقلـــبي الـــوصي عـــلى العـــرش؛ ثـــم بعـــث بالخبـــر إلى ذلـــك الفـــتى الصقلـــبي نجـــا؛ فســـارع مـــن فـــوره إلى التوجـــه في قـــوة إلى مالقـــة؛ ولمـــا دخلهـــا زاد في التضييـــق عـــلى إدريـــس بـــن يحـــيى، إذ قـــام هـــو الآخـــر بالتحفـــظ عليـــه؛ وأبقـــاه في سجنـــه أيضـــا؛ خوفـــا مـــن تطلعـــه للخلافـــة؛ لأنـــه ـ كمـــا قيـــل ـ كـــان يرغـــب في القضـــاء عـــلى ملـــك بـــني حمـــود نهائيـــا.

ويبدو ــ كما تقول المصادر ــ أن هذا الفتى الصقلبي كان ينوي ــ في هذه المرة ــ الاستبداد بالدولة، ويسعى لامتلاكها والاستحواذ بها لنفسه[1]؛ بعد أن يجلب مجموعات من الصقالبة؛ ليضمن ولاءهم. غير أن خطته فشلت؛ وذلك بعد أن صرح برغبته تلك للذين كانوا معه من الأمازيغ. وكان جيشه مكونا منهم؛ وبالتحديد من برغواطة؛ وهم أخوال الحسن بن يحيى.[2]

---

[1] ذكر عبد الواحد المراكشي أنه كان للحسن بن يحيى المقتول ابن؛ في رعاية الفتى نجا بسبتة؛ وقيل أنه اغتاله؛ حتى يخلو له الجو على ما يبدو. لذا فإنه استخلف في سبتة عند ذهابه إلى مالقة رجلا من الصقالبة كان يثق فيه. المعجب، ص: 64. أما ابن عذاري فقال بوجود ولد للحسن صغير السن بسبتة في رعاية نجا؛ ولكنه لم يشر إلى احتمال قتله. البيان المغرب، ج: 1، ص: 216.

[2] جاء في رواية ابن عذاري: ((فأتى [نجا] الجزيرة الخضراء؛ وفيها ابنا القاسم بن حمود؛ فأراد إخراجهما منها؛ فخرجت إليه سبيعة أمهما وقالت له: "يا أبا الفوز أتقطع مواليك، وتكشفهم عن البلاد؛ ما هذا بحسن"؛ فاستحيا منها وانصرف إلى مالقة؛ فلما كان ببعض الطريق اجتمعت برغواطة؛ الذين كانوا معه على قتله؛ وكانوا أخوال حسن بن يحيى ومواليه؛ فقالوا: "أنترك موالينا ونتبع عبدا مملوكا خصيا"؛ فتعرض إليه أحدهم... فطعنه بين كتفيه طعنة خرجت من صدره؛ فهلك أبو الفوز نجاء، وقطعوا رأسه وعلقوه من شجرة؛ ثم نهض قوم منهم إلى مالقة؛ ونهضوا إلى الوزير أبي جعفر ابن موسى فقتلوه [يختلف هنا ابن عذاري مع الذين يقولون أن ذلك الوزير هو السطيفي؛ أما ابن موسى (ابن بقنة) فقتله نجا من قبل] وأخرجوا إدريس بن يحيى من سجنه وبايعوه وتسمى بالعالي؛ وبايعه أمراء البربر وخطبوا باسمه؛ وذلك سنة أربع وثلاثين وأربعمائة)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 217.

فاستاء الأمازيغ من فكرته؛ ولكنهم تظاهروا بأنهم يؤيدونه؛ بينما كانوا يتصيدون الفرصة المواتية للانقضاض عليه. وبالفعل تمكنوا من القضاء عليه؛ أثناء عودته من الجزيرة الخضراء إلى مالقة. ثم قضوا على صنيعته السطيفي بعده.[1] وتم ذلك كله سنة 434هـ(1042م). وبعد ذلك أخرجوا إدريس بن يحيى من محبسه، ونصبوه على سدة الخلافة، ولقبوه بالعالي؛ في السنة نفسها أي 434هـ(1042م).

---

[1] الكامل، ج: 7، ص: 289. أما المراكشي فقال في خبر شرح فيه مقتل الخادم الصقلبي نجا: ((وعزم [أي نجا] على محو أمر الحسنيين جملة؛ وأن يضبط تلك البلاد لنفسه؛ فدعا البربر الذين كانوا جند البلد؛ وكشف الأمر إليهم علانية، ووعدهم بالإحسان؛ فلم يجدوا لمساعدته بدا؛ فوافقوه في الظاهر؛ وعظم ذلك في أنفسهم باطنا. ثم جمع عسكره، ونهض إلى الجزيرة ليستأصل محمد بن القاسم؛ فحاربه أياما، ثم أحس بفتور نيات الذين معه؛ فرأى أن يرجع إلى مالقة؛ فإذا حصل فيها نفى من يخاف غائلته منهم واستصلح سائرهم، واستدعى الصقالبة من حيثما أمكنه ليقوى بهم على غيرهم؛ وأحس البربر بهذا منه؛ فاغتالوه في الطريق من قبل أن يصل إلى مالقة؛ فقتل وهو على دابته في مضيق صار فيه؛ وقد تقدمه إليه الذي أراد الفتك به؛ وفر من كان معه من الصقالبة بأنفسهم؛ ثم تقدم فارسان من الذين غدروا به يركضان حتى وردا مالقة؛ فدخلا وهما يقولان: "البشرى البشرى!" فلما وصلا إلى السطيفي؛ وضعا سيفهما عليه فقتلاه)). المعجب، ص ص: 64 ــ 65.

ولما تولى إدريس بن يحيى الحكم في مالقة بادر فورا إلى اعتقال: محمد وحسن: ابني إدريس ابن علي؛ ووضع عليهما حراسة. ولكن أخذت ــ بعد فترة ــ تظهر على إدريس بن يحيى بعض التناقضات، والتصرفات الغريبة في تسيير شئون الدولة؛ لذا بدأت ثقة معاونيه تتضعضع فيه؛ وفتر حماسهم نحوه، وصار ولاؤهم يتآكل شيئا فشيئا؛ ويميل إلى الضعف والتلاشى. وعليه فقد أطلق الحراس المكلفين بابني عمه سراحهما؛ ونادوا بخلافة كبيرهما محمد بن إدريس بن علي؛ بدلا من إدريس. وعندما سمع الخبر السودان القائمين بأمن قصبة مالقة؛ سارعوا للاستجابة والدعاء لمحمد؛ ثم أستقدموه إلى حاضرة الملك. ولما انتصب محمد على عرش الخلافة ــ بدخوله إلى مالقة ــ تسمى بالمهدي؛ وولى أخاه حسنا ولاية عهده، ولقبه بالسامي؛ وذلك في سنة 438هـ(1046م).

وبعد أن تمكن الخليفة الجديد من الوضع أمر بالقبض على إدريس (العالي)، ثم حبسه في المكان نفسه؛ الذي كان هو أخوه مسجونان فيه؛ أي في حصن قمارش كما قال بعضهم. وبذلك استبدل الخصمان الأماكن والمواقع.[1]

---

[1] أورد هذا الخبر ابن الأثير، وعبد الواحد المراكشي، الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب: ص: 66. أما ابن عذاري فلم يذكر حصن إيرش تماما؛ وإنما قال نقلا عن ابن القطان: ((فخرج إدريس بن يحيى من مالقة إلى حصن بيشتر مع عبيده ومن تبعه من الجند؛ فغزا مالقة مع باديس بن حبوس؛ فلم

ومع ذلك تمكن العالي ــ بعد فترة ــ من الخلاص من محبسه؛ بمعونة بني زيري، وبعض أمراء الأمازيغ؛ الذين لم ترضهم سياسة محمد المهدى؛ المتصف بالتشدد والحزم. وقد تم ذلك عندما استمالوا المكلفين بحراسة العالي في قمارش؛ حيث أقنعوهم بالدعاء للعالي، وإعادته لمنصبه الخلافي؛ انطلاقا من ذلك الحصن؛ وبالفعل قام حراس العالي برفعه إلى سدة الخلافة في تلك الجهات.[1] ولم يكفهم إطلاق سراح إدريس بل عملوا كل جهدهم كي يتغلبوا على مالقة ويعيدوه إلى منصبه فيها. ولكن محاولاتهم باءت بالفشل الذريع.[2]

يقدر على شيء؛ فرجع إلى حصن ببشتر، وأخرج عياله وجاز إلى سبتة)). ثم أضاف رواية نقلا عن ابن حيان فقال: ((وفي شعبان من سنة ثمان وثلاثين [وأربعمائة] خرج إدريس بن يحيى بن علي بن حمود من مالقة؛ متنزها للصيد فغلق الباب في وجهه أهل البلد؛ ووجهوا إلى ابن عمه محمد ابن إدريس، وبايعوه بالخلافة، وتلقب بالمهدي، وتوطد أمره بمالقة مدة حياته؛ وانصرف إدريس بن [يحيى] بن علي العالي إلى العدوة، ثم رجع بعد ذلك إلى الأندلس، واستقر عند أبي نور بن أبي قرة اليفرني، صاحب رندة شهورا ودعا له بالخلافة)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 217. أما ابن الخطيب فيقول أن محمد بن إدريس انتهز فرصة خروج العالي إدريس بن يحيى إلى حصن ببشتر؛ فأقفل في وجهه أبواب مالقة. أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 141. المهم أن الآراء حول دولة الأدارسة في مالقة متضاربة وتختلف من مصدر إلى آخر.

[1] الكامل، ج: 7، ص، 289. والمعجب، ص: 67.

[2] قال المراكشي: ((وظهرت من محمد بن إدريس هذا شهامة وجرأة شديدة؛ هابه بها جميع البربر، وأشفقوا منه؛ وراسلوا المرتب في الحصن الذي فيه

ولما يئس بنو زيري وأمراء الأمازيغ من إمكان التغلب على مالقة؛ تخلوا عن المطالبة بها، وتركوا العالي وحيدا؛ واتجه أمراء الأمازيغ ــ بعدئذ ــ صوب هدف آخر في الجزيرة الخضراء؛ حيث يقيم محمد بن القاسم بن حمود؛ فالتفوا حوله، ونادوا به خليفة للمسلمين؛ ولكنهم تخلوا عنه ــ هو الآخر بعد فترة ــ وتفرقوا عنه؛ عندما لم يجدوا فيه فائدة تنتظر.

إدريس بن يحيى هذا؛ واستمالوه؛ فأجابهم، وقام بدعوة إدريس... ولم يظهر محمد مبالاة بذلك؛ بل ثبت ثباتا شديدا؛ وكانت والدته تشجعه، وتقوي متنه، وتشرف على الحرب بنفسها فتحسن إلى من أبلى؛ فلما رأى البربر شدة عزمه، وثباته؛ فَتَّ ذلك في أعضادهم؛ وتخلوا عن إدريس بن يحيى؛ ورأوا أن يبعثوا به إلى سبتة وطنجة؛ إلى البرغواطيين اللذين ذكرنا)).
المعجب، ص ص: 66 ــ 67.

ولما ترك أمراء الأمازيغ إدريس بن يحيى وحيدا؛ نظرا لفشل مخططهم في احتلال مالقة؛ وتبعا لما كان يبديه من مواقف سلبية ومتناقضة؛ لم يجد أمامه ــ بعد أن تفرق الأنصار من حوله ــ سوى اللجوء إلى سبتة؛ تلك المقاطعة المغربية التي سبق له أن وضعها في يد عبد من عبيد أبيه؛ يسمى سقوط أو (سكوت) البرغواطي؛ في الوقت الذي أسند فيه ــ أيضا ــ مدينة طنجة لعبد برغواطي آخر من عبيد أبيه؛ اسمه رزق الله البرغواطي. وهكذا لم يجد ملجأ مناسبا سواهما يهرب إليه؛ عندما سدت في وجهه السبل؛ وعليه فقد قصدهما؛ قاطعا بحر العدوة؛ فاستقبلاه بالتبجيل والإجلال؛ واعترفا بخلافته؛ وناديا بها؛ ولكنهما ــ بالمقابل ــ ضربا عليه حجابا شديدا؛ منع أعيان القوم من الاتصال به. وبعد مدة سئم البرغواطيان منه؛ فنفياه للأندلس مرة أخرى؛ دون أن يتخليا عن الاعتراف به خليفة للمسلمين؛ كما أبقيا لديهما ولده الصغير رهينة للمستقبل.

وفي الأندلس اختار إدريس الإقامة في تاكرنة عند بني يفرن ــ دون أن يتنازل عن لقب الخلافة ــ وبقي يرقب الحال إلى أن توفي خصمه محمد المهدي؛ عندها طلب عامة الناس في مالقة عودته إليها؛ فدخل من جديد إلى حاضرة ملكه السابق؛ سنة 445هـ(1053م). وبقي في مالقة إلى أن توفاه الله[1] سنة 446هـ(1054م) أو 447هـ(1055م).

وبذلك يكون العالي إدريس بن يحيى بن علي بن حمود قد حكم خلال فترتين متقطعتين: الفترة الأولى بين عامي: 434هـ(1042م) و438هـ(1046م)؛ أما الفترة الثانية فبين عامي: 445هـ(1053م) و446 أو 447هـ(1055م). وذلك شأنه شأن أبيه يحيى، وعم أبيه القاسم بن حمود من قبل.

وكان العالي إدريس بن يحيى هذا حسن الثقافة، أديبا وشاعرا؛ كريم الخصال، مهذب الطباع، لطيف المعشر، حسن المجلس، عطوفا، شفوقا، حليما؛ ولكنه ــ مع ذلك ــ كان غريب الأطوار، متناقض المواقف والأفعال. فمما شاع عنه أنه يكثر من أعمال الخير والإحسان؛ حتى قيل أنه واظب على التصدق في كل يوم جمعة بحصة

---

[1] **الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص: 68. والعبر، مج: 4، ص: 335. أما ابن عذاري فيخالف هذا الرأي؛ إذ يرى أن إدريس مات بعد خلعه بفترة قصيرة. أنظر البيان المغرب، ج: 3، ص: 291.**

من المال تقدر بخمسمائة دينار.[1] كما يقال أنه رد للذين كانوا مغضوبا عليهم اعتبارهم وحقوقهم، وأرجع ـ أيضا ـ المطرودين إلى أوطانهم، وأعاد لهم ما أخذ منهم من أملاك وضياع.

وبالمقابل كان يظهر في صورة أخرى مناقضة للصورة الأولى؛ وذلك أنه كان ينادم ويصاحب الأرذال من العباد؛ ويقال أنه لم يكن يحجب حرمه عنهم.[2] ومن غرائب ما عرف عنه أنه لم يكن يبخل حتى بحصونه ورموز دولته؛ إذا ما سأله جيرانه الأقوياء التكرم عليهم بها.[3] وقيل أنه لما انقلب عليه ابن عمه محمد بن إدريس؛ عرض عليه مؤيدوه وأنصاره ـ من العامة ـ أن يسمح لهم بالمقاومة والدفاع عنه؛ فرفض؛ وطلب منهم أن يتركوه وشأنه.[4] فلم يجدوا بدا من تركه لقمة في

---

[1] الكامل: ج: 7، ص: 289.

[2] الكامل، 7، ص: 289. والمعجب، ص: 66.

[3] قال المراكشي: ((وكل من طلب منه حصنا من حصون بلاده؛ ممن يجاوره من صنهاجة، أو بني يفرن أعطاه إياه. وكتب إليه أمير صنهاجة أن يسلم إليه وزيره ومدبر أمره وصاحب أبيه وجده: موسى بن عفان السبتي؛ فلما أخبره بأن الصنهاجي كتب إليه يطلبه منه؛ وأنه لابد من تسليمه إليه؛ قال له موسى بن عفان: "افعل ما تؤمر؛ وستجدني إن شاء الله من الصابرين! " فبعث به إلى الصنهاجي فقتله)). المعجب، ص: 66.

[4] يقول المراكشي: ((واجتمعت العامة إلى إدريس بن يحيى، واستأذنوه في حرب القصبة، والدفاع عنه؛ ولو أذن لهم ما ثبت السودان فوارق ناقة [وهذه العبارة تأتي كناية عن السرعة والحسم]؛ فأبى؛ فقال لهم: "ألزموا منازلكم ودعوني؛ فتفرقوا عنه)). المعجب، ص: 66.

يد ابن عمه؛ الذي سجنه كما تمت الإشارة إليه. وحتى عندما انتقل إلى سبتة، وقام عبداه: سقوط أو (سكات)، ورزق الله البرغواطيان بالحجر عليه، وحجبه عن رؤساء وأعيان البلدة؛ وقف موقفا غريبا؛ وذلك حينما تمكن بعضهم من الاتصال به؛ فطلبوا منه أن يأذن لهم بفك الحصار عنه؛ فأبى ثم أعلم العبديين بما قالوه له؛ مما أدى بالعبديين إلى نفي أولئك الأعيان من سبتة؛ بل نفياه هو بدوره إلى الأندلس؛ بعد أن احتفظا بولده رهينة لديهما. فاستقر به الحال في تاكرنة عند بني يفرن؛ إلى أن وصله نبأ وفاة خصمه محمد بن إدريس (المهدي)؛ وطلب أهل مالقة منه العودة إلى مركز ملكه؛ فعاد؛ وبقي بها حتى وفاته.

ويعتبر العالي إدريس بن يحيى أبرز بني حمود ذكرا وشهرة عند أدباء وعلماء الأندلس؛ إذ لازم بلاطه عدد كبير منهم؛ كما زاره عدد آخر من الشعراء والعلماء؛ فكان يكرمهم ويجالسهم ويحاورهم ويشاركهم في قرض الشعر ونقده. ومن أولئك الأدباء والعلماء الأديب الشاعر الفقيه أبو محمد غانم بن الوليد المخزومي المالقي؛ وهو الذي قال في العالي:

رِيــحُ الصَّبَــا بَلِــغِي أَنْفــاسَ ذِي ظَمَــإٍ
وَبَرِّدِيهَــا بِمَا يَقضِيــهِ مَجْــــرَاكِ
أَوْ يَمِّمِي حَضْــرَةَ العَــالِي بِمَا احْتَمَلَــتْ
مِنِّي الضُّلُــوعُ فَثَــمَّ البُرْءُ لِلشَّــاكِي

****

ـ الانقســام الثالــث في أســرة بــني حمــود:

كــان الانقســام الأول ـ كمــا ذكرنــاه ـ في عهــد القاســم ابــن حمــود سنــة 412هـ (1021م). أمــا الانقســام الثــاني فحــدث بعــد وفــاة إدريــس بــن يحــيى بــن حمــود سنــة 431هـ (1039م). ثــم جــاء الانقســام الثالــث في عهــد العــالي إدريــس بــن يحــيى بــن عــلي سنــة 438هـ (1046م)؛ وذلــك بعدمــا خــرج عليــه ابــن عمــه محمــد بــن إدريــس بــن عــلي؛ حيــن تغلــب عــلى مالقــة وحبــس العــالي في حصــن قمــارش ـ كمــا سبــق ذكــره ـ ثــم تســمى بالخلافــة، وتلقــب بالمهــدي. وبعــد ذلــك انحــاز حــراس إدريــس إليــه، وأعــادوا إليــه الاعتبــار، ونــادوا بــه خليفــة؛ حيــث استقــر لبعــض الوقــت في حصــن قمــارش أو ببشتــر؛ وتمســك بالدعــاء لــه أمــراء الأمــازيــغ ـ أيضــا ـ وزحفــوا نحــو مالقــة؛ بغــرض التغلــب عليهــا وإعــادة العــالي إلى منصبــه؛

ولكنهم فشلوا في مساعيهم كلها؛ نظرا لحسن صمود محمد المهدي ومن معه.

ولما يئس أمراء الأمازيغ من عودة إدريس انفضوا عنه؛ وتحولوا صوب محمد بن القاسم بن حمود أمير الجزيرة؛ فالتفوا حوله ونادوا به ــ هو الآخر ــ خليفة للمسلمين. وبهذه الخطوة أصبح في الأندلس أربع خلفاء؛[1] الخليفة الأول إدريس بن يحيى بحصن بُبَشْتر الملقب بالعالي، والثاني خليفة إشبيلية خلف الحصري المنتحل لاسم هشام المؤيد، والثالث محمد بن إدريس بمالقة الملقب بالمهدي، والرابع محمد بن القاسم بالجزيرة الخضراء الملقب ــ أيضا ــ بالمهدي. ويبدو أن هذا هو الذي استفز أبا محمد علي بن حزم؛ وحفزه لقول مقولته السابقة الذكر؛ مستنكرا ومنددا بما حصل. وطبعا لا يمكن أن يحدث كل ذلك لولا نزوات القبلية؛ ذات المصالح الضيقة، وأنانية العصبية المدمرة.

ــ حكومة المهدي محمد بن إدريس بن علي بن حمود:

وحينما توفي المتأيد إدريس بن علي سنة 431هـ(1039م)؛ خلف ثلاثة أولاد ذكورا هم: يحيى ومحمد وحسن. فأما يحيى ــ وهو الملقب بحيون ــ فقتله ابن عمه المستنصر حسن بن يحيى (المعتلي)؛ عندما قدم مع الخادم نجا من سبتة ــ

---

[1] **الكامل في التاريخ، ج: 7، ص: 286. والمعجب، ص: 68.**

كما سبقت الإشارة إليه ـ وبقي أخواه الصغيران: محمد وحسن: ابني إدريس بن علي. ولما تولى العالي إدريس بن يحيى الحكم بادر ـ فورا ـ إلى حبسهما. ولكنهما تمكنا من الإفلات، والقيام بعصيان ضد إدريس؛ متصيدين ـ كما قيل في بعض المصادر ـ لحظة خروجه من مالقة للقنص؛ فأغلقا ـ مع أنصارهما ـ أبواب المدينة؛ ومنعاه من العودة إلى ملكه. وقد سهل عليهما الأمر ما كان يشوب أجواء البلاط؛ من استياء ونفور؛ لما كان يبديه العالي من سلوك غير مقبول لدى معاونيه.

وبالطبع فقد استثمرا تلك الفرصة التي أضحى فيها أعيان الدولة غاضبين من التصرفات الشاذة للخليفة إدريس بن يحيى؛ نظرا لما كان يظهره من تناقض وتقلب في الأحوال. وبذلك وجد الأخوان منفذا هاما؛ للاستيلاء على الحكم. وبالفعل تمكنا من ذلك؛ بمساعدة بعض الحراس، وبمساندة الحامية السودانية بقصبة مالقة. وتم تغلبهما على سدة الخلافة سنة 438هـ (1046م)؛ حيث تربع على عرش مالقة محمد بن إدريس؛ الذي تلقب بالمهدي؛ ورفع الدعاء له بالخلافة. وبادر محمد المهدي بإسناد ولاية العهد لأخيه حسن؛ الذي تسمى بالسامي. غير أنه غضب عليه فيما بعد، فنفاه إلى جبال غمارة بالعدوة المغربية؛ فبايعه من كان هناك من قبائل غمارة؛ أين يتواجد أنصار الأدارسة التقليديين.

أمـــا محمـــد المهـــدي فبـــقي صامـــدا في مالقـــة؛ ضـــد خصومـــه مـــن أمـــراء الأمازيـــغ إلى يـــوم وفاتـــه مسمومـــا ــ كمـــا قيـــل ــ في سنـــة 444هـــ (1052م) أو 445هـــ (1053م).[1] فســـارع ــ عندئـــذ ــ العـــالي إدريـــس بـــن يحـــيى إلى العـــودة إلى مالقـــة؛ والتربـــع مـــن جديـــد عـــلى عـــرش الخلافـــة بهـــا؛[2] وذلـــك لأنـــه كـــان يتربـــص الفرصـــة المواتيـــة؛ مـــن تاكرنـــة حيـــث كـــان مستقـــرا. وهكـــذا عـــاد العـــرش لإدريـــس مـــن جديـــد؛ حيـــث بـــقي إلى يـــوم وفاتـــه سنـــة 446هـــ(1054م) أو 447هـــ(1055م)؛ كمـــا سبـــق ذكـــره.

---

[1] اتفـق ابـن عـذاري وابـن الخطيـب عـلى قصـة زعمـا أنهـا قصـة مـوت محمـد المهـدي؛ وجـاء فيهـا: ((وكـان محمـد بـن إدريـس هـذا سفاكـا للدمـاء؛ فامتـدت يـده إلى قتـل البرابـر؛ ولمـا رأى الحجـاب ذلـك؛ وهـم أمـراء القبائـل؛ عملـوا الحيلـة في قتلـه؛ فوجـه لـه باديـس بـن حبـوس بكـأس عـراقي مسمـوم؛ مـع رجـل مـن الكتاميـن. فلمـا وصـل إليـه قـال لـه: "هـذه كـأس جلبـت للحاجـب المظفـر باديـس؛ فلـم يرهـا تصلـح إلا للخلافـة؛ فاختصـك بهـا". فأعجـب بهـا محمـد ابـن إدريـس، وملأهـا خمـرا، وضمهـا إلى فمـه؛ فأحـس في نفسـه ريبـة منهـا؛ فأمـر الكتـامي فشربهـا؛ فتهـرأ جلـده عـن لحمـه مـن حينـه. وبـقي هـو ثلاثـة أيـام، ومـات مـن رائحتهـا في أواخـر سنـة 444هـ)). البيـان المغـرب، ج: 3، ص: 218. وأعمـال الأعـلام، ق: 2، ص ص: 141 ــ 142.

[2] قـال البكـري وابـن الخطيـب: أن الـذي تـولى الحكـم ــ مباشـرة ــ بعـد مـوت محمـد المهـدي ابـن أخيـه إدريـس بـن يحـيى بـن إدريـس بـن عـلي؛ حيـث تسـمى بالموفـق؛ ولـم ينسـب إلى نفسـه رتبـة الخلافـة؛ ولكنـه لـم يبـق في الملـك أكثـر مـن أشهـر يسيـرة؛ إذ زحـف إليـه العـالي إدريس بـن يحـيى. أنظـر المغـرب، ص: 134.

ـ حكومة المستعلي محمد بن إدريس المتأيد:[1]

تولى الحكم بمالقة في السنة التي توفي فيها العالي إدريس بن يحيى. وتسمى ـ في أوثق الأقوال ـ بالمستعلي. هذا ولم تهتم المصادر التاريخية كثيرا بالمستعلي هذا؛ خاصة وأن حكمه لم يتجاوز السنتين. أي من سنة 446 أو 447هـ (1055م) إلى سنة 449هـ(1057م)؛ وهي السنة التي تغلب فيها باديس بن حبوس بن زيري على مالقة؛ معلنا بذلك ختام الدولة الإدريسية في الأندلس نهائيا.[2] وكان أمراء الأمازيغ بتلك الديار قد حولوا دعوتهم ـ في البداية ـ إلى محمد بن القاسم سنة 439هـ(1047م)، ولما مات سنة 440هـ(1048م) نقلوها لابنه القاسم لفترة قصيرة؛ ولكنهم تخلوا ـ بعد ذلك ـ عن تلك الفكرة؛ ورأوا وجوب الاستقلال بأنفسهم؛ دون حاجة إلى سند شرعي في الحكم. خاصة بعد سقوط دولة بني القاسم بالجزيرة الخضراء في يد المعتضد بن عباد سنة 449هـ(1057م).[3]

---

[1] هذا رأي ابن عذاري وابن خلدون. البيان المغرب، ج: 3، ص:218. والعبر، مج: 4، ص: 335. أما رأي البكري وابن الخطيب فيختلف؛ إذ يرون أنه ابن العالي إدريس بن يحيى؛ وليس ابن إدريس المتأيد. أنظر: المغرب، ص: 134. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 142. كما انهم اختلفوا أيضا في اللقب فمنهم من يعتقد أن لقبه هو المستعلي؛ ومنهم من يرى أن لقبه هو السامي.

[2] يرى البكري أن باديس دخل مالقة، وأسقط دولة المستعلي في سنة 447هـ. المغرب، ص: 134.

[3] البيان المغرب، ج: 3، ص: 242.

وهـذا مـا جعـل باديـس بـن حبـوس يزحـف إلى مالقـة؛ بغـرض امتلاكهـا. ولمـا أسقـط أميـر بـني زيـري باديـس بـن حبـوس دولـة بـني حمـود؛ لـم يجـد المستعـلي مفـرا مـن اللجـوء ــ في البدايـة ــ إلى المريـة. ومـن هنـاك وصلتـه دعـوة مـن أهـل مليلـة؛ فأجـاز إليهـم قاطعـا البحـر؛ نحـو العـدوة المغربيـة. وفي تلـك المدينـة الوفيـة لبـني إدريـس وجـد الملجـأ الآمـن؛ حيـث بايعتـه قبائـل تلـك النـواحي سنـة 456هـ(1063م)؛[1] وظـل هنـاك حـتى وفاتـه في أواخـر سنـة 460هـ(1067م).[2] ويعتبـر المستعـلي محمـد بـن إدريـس هـذا هـو آخـر ملـوك بـني حمـود الأدارسـة في الأندلـس. وذلـك بعـد أن تمـت تصفيـة ملـك بـني عمهـم؛ أبنـاء القاسـم بـن حمـود ملـوك الجزيـرة الخضـراء؛ مـن قبـل المعتضـد بـن عبـاد سنـة 449هـ(1057م).

****

---

[1] يقـول البكـري الـذي كـان معاصـرا لتلـك الفتـرة أن المستعـلي ذهـب إلى مليلـة في سنـة 459هـ؛ فممـا قـال:((وتسـمى بالمستعـلي، ولـم يخطـب لـه بالخلافـة؛ فأقـام بمالقـة إلى أن تغلـب عليهـا باديـس بـن حبـوس بـن ماكسـن في صـدر سنـة سبـع وأربعيـن وأربعمائـة؛ فانقطعـت دولـة بـني عـلي بـن حمـود مـن يومئـذ؛ ثـم استـدعي محمـد بـن إدريـس هـذا مـن مدينـة مليلـة؛ وهـو مستقـر بالمريـة؛ لا يعـرف مكانـه؛ لخمـول ذكـره؛ فعبـر إليهـا؛ وذلـك في شهـر شـوال سنـة تسـع وخمسيـن وأربعمائـة؛ فقـام بـه جماعـة بـني ورتـدي بميلـة وبقلـوع جـارة ونواحيهـا. وهـو هنالـك بـاقي إلى وقتنـا هـذا؛ وهـو آخـر سنـة ستيـن وأربعمائـة)). المغـرب، ص: 134.

[2] العبـر، مج: 4، ص: 335. ونفـح الطيـب، ج: 1، ص: 435.

ـ الحضـــارة والحركـــة الثقافيـــة:

يبـــدو أن الإنجـــازات الحضاريـــة والثقافيـــة لدولـــة بـــني حمـــود لـــم تصـــل إلى المستـــوى المطلـــوب؛ بالنسبـــة لدولـــة تواجـــدت في ربـــوع الأندلـــس؛ إذ كـــان رصيـــد هـــذه الدولـــة الحضـــاري ـــ بفرعيهـــا ـــ متواضعـــا؛ إذا مـــا قيســـت بالدولـــة الأمويـــة، أو بدولـــة بـــني عبـــاد بإشبيليـــة. فدولـــة بـــني حمـــود ـــ ســـواء بقرطبـــة أو بمالقـــة أو بالجزيـــرة الخضـــراء ـــ كـــان يهيمـــن عليهـــا الطابـــع القبـــلي؛ ذي التوجـــه العسكـــري. هـــذا مـــن جهـــة، ومـــن جهـــة أخـــرى فـــإن عمرهـــا كـــان قصيـــرا ـــ بعـــض الـــشيء ـــ بالمقارنـــة مـــع دولـــة بـــني أميـــة؛ الأمـــر الـــذي لـــم يساعـــد عـــلى ظهـــور المبتكـــرات الحضاريـــة والثقافيـــة بالقـــدر الكـــافي. كمـــا أن حياتهـــا كانـــت مليئـــة بالفتـــن والحـــروب والمؤامـــرات؛ وهـــذا ـــ بالطبـــع ـــ لا يساعـــد عـــلى بـــروز عبقريـــات في الميادين العلميـــة والفكريـــة. ويعتبـــر ذلـــك مـــن بيـــن الموانـــع المؤثـــرة في سبيـــل إنجـــاز أي مشـــروع حضـــاري. هـــذا وكـــان ـــ طبعـــا ـــ للعامـــل الاقتصـــادي أثـــره في انكمـــاش الإنجـــازات الحضاريـــة والثقافيـــة بهـــذه الدولـــة الضعيفـــة؛ الـــتي لـــم تكـــن مواردهـــا الاقتصاديـــة كافيـــة لتحقيـــق مـــا حققتـــه الدولـــة الأمويـــة.

ومع ذلك فقد ورثت دولة بني حمود شيئا من التراث الذي خلفته الدولة الأموية؛ ممثلا ببعض المنشآت العمرانية، والمبتكرات العلمية، وما تعودت عليه الرعية من تذوق للإبداعات الفنية والأدبية. هذا وقد ورث بلاط الحموديين أيضا ـ بشقيه ـ بعض المؤسسات الثقافية كما ضم إليه بعض الأدباء والكتاب الفطاحل، والشعراء الفحول؛ كما استقبل أدباء وشعراء وفدوا إليه من جهات أخرى؛ دون نية في الإقامة. وقد ازدانت هذه الدولة وحظيت أيضا بوجود بعض العلماء والفقهاء في ربوعها؛ حيث اختصوا بشئون الكتابة والقضاء والفتيا والتدريس. ولمزيد من الفائدة والتوضيح نشير إلى أولئك العلماء والأدباء والكتاب والشعراء؛ وهم:

ـ **أبو عمر أحمد بن درّاج القسطلي**:[1] وينتسب إلى أسرة بني درّاج الصنهاجيين. وكان القسطلي ـ أيام المنصور بن أبي عامر ـ كاتبا للإنشاء مع ابن الجزيري.[2] ويبدو أن أنه مرّ مرور الكرام ببلاط

---

[1] قال فيه ابن بسام: ((حل اسمه من الأماني محل الأنس، وسار نظمه ونثره في الأقاصي والأداني مسير الشمس؛ وأحد من تضاءلت الآفاق عن جلالة قدْره؛ وكان الشام والعراق أدنى خطى ذكره. وقد أجرى الثعالبي طرفا من أمره بـ(اليتيمة): "بلغني أن أبا عمر القسطلي كان عندهم بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام؛ وهو أحد شعرائهم الفحول هنالك. وكان يجيد ما ينظم")). نفسه، ص: **60**.

[2] ذكره الحميدي فقال: ((كان كاتبا من كتاب الإنشاء في أيام المنصور أبي عامر؛ وهو معدود في جملة العلماء والمقدَّمين من الشعراء، والمذكورين من البلغاء؛ وشعره كثير مجموعٌ؛ يدل على علمه؛ وله طريقة في البلاغة والرسائل؛ تدل على اتساعه وقوته؛ وأول من مدح من الملوك المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر مدبر دولة هشام المؤيد... فعن أبي محمد علي ابن أحمد بن سعيد الفقيه؛ وأخبرني أن المنصور أبا عامر لما فتح شنب ياقب أو غيرها من القلاع الحصينة التي يقال إن أحدا لم يصل إليها قبله؛ استُدْعِيَ أبو عمر أحمد بن محمد بن درّاج، وأبو مروان عبد الملك بن إدريس المعروف بابن الجزيري؛ وأمرا بإنشاء كتب الفتح إلى الحضرة، وإلى سائر الأعمال. فأما ابن الجزيري: "سمعا وطاعة". وأما ابن درّاج فقال: "لا يتم لي ذلك في أقل من يومين أو ثلاثة". وكان معروفا بالتنقيح والتجويد والتؤدة. فخرج الأمر إلى ابن الجزيري بالشروع في ذلك؛ فجلس في ظل السرادق ولم يبرح حتى أكمل الكتب في ذلك. وقيل لابن درّاج افعل ذلك على اختيارك؛ فقد فسح لك فيه. ثم جاء بعد ذلك بنسخة الفتح؛ وقد وصف الغزاة من أولها إلى آخرها، ومشاهد القتال، وكيفية الحال؛ بأحسن وصف، وأبدع وصف؛ فاستحسنت ووقع الإعجاب بها؛ ولم تزل منقولة متداولة إلى الآن. وما بقي من نسخ ابن الجزيري ـ في ذلك الفتح على كثرتها ـ عين ولا أثر... وسمعت أبا محمد علي بن أحمد [بن سعيد

بني حمود؛ إذ لم تطل إقامته فيه كثيرا. ومع هذا فقد منح ملوك هذه الدولة أروع ما خطته أقلام الكتاب من نثر، وأجمل ما قيل فيهم من قصائد شعرية. ومن قوله المنثور هذه القطعة التي خص بها الخليفة علي بن حمود؛ جاء فيها: **((حسْبُك اللهُ يا ابنَ رسول الله، وعلى هُدًى من الله، فيما خَفقتْ إليه راياتك، وصَدَقتْ به آياتُك، جديرٌ أن يُعِزَّ بطاعته نَصْرَك، كما شرحَ بتوفيقه صَدْرَك، ويُتَمِّم بتأييدِه أمرَك، بما أوْلَيتَ أولياءَه المؤمنين، وأبْلَيْتَ في عبادِه الصالحين، المصابينَ في الأموال والأهلين، أيَّامَ تزاحَمَتْ إليهم أسبابُ القضاء بالبَأساءِ والضَّرَّاء، وأبْرَقَتْ عليهم آفاقُ السماء بسيوف الأعداء، تَسِحُّ بوابل الدِّماء وتموجُ بأسراب السّباء، فَسُرْعانَ ما هاموا فلا وَزَر، وربعوا فلا مُسْتقرّ، ونادوا ولاتَ حين مَنَاص ولا فوْت، إلاَّ مَنْ أعْفَاهُ الموت؛ فأصبحوا أنْفَاضَ الجَلاء، وأغراضَ الفناء، قد جَهدُوا بالبلاء، وعَيُوا بالدَّاء العَيَاء، فلئنْ زُلْزلَتْ بهمِ الأرض، لقد سكَنَ بهم عِزُّ سلطانِك، ولئنْ تَهافتَ بهم الذعْر، لقد**

الفقيه]؛ وكان عالما بنقد الشعر يقول: "لو قلت إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن درّاج لم أبعد". وقال مرة أخرى: "لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن درّاج؛ لما تأخر عن شأو (حبيب) و(المتنبي)". مات أبو عمر أحمد بن درّاج قريبا من من العشرين وأربعمائة)). جذوة المقتبس، ص ص: **110 ــ 114**.

اطمأنــوا في مِهَــادِ أمانــك)).[1] وقــد مــدح هــذا الشاعــر الذائــع الصيــت؛ الخليفــة عــلي بــن حمــود بقصيــدة شهيــرة؛ نــوه فيهــا بانتسابــه إلى رســول اللــه صــلى اللــه عليــه وسلــم، وأشــاد ببــني هاشــم، ومجــد نسبهــم القديــم؛ وجــاء فيهــا:[2]

لَعَلَــك ياشَمْــسُ عِنــدَ الأصيــلِ
شَجِيتِ لِشَجْــوِ الغَريــبِ الذَّليــلِ
فَكــوني شَفيعي إلى ابنِ الشَّفِيــع
وَكُوني رَسُولي إلى ابنِ الرَّســولِ
فَإِمَّــا شَهــدْتِ فَــأَزْكَى شَهيــدٍ
وإمَّــا دَلَلــتِ فَأَهْــدَى دَلِيــلِ

---

[1] **الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ص: 64.**

[2] **قــال فيهــا ابــن بســام: ((وهــذه القصيــدة لــه طويلــة؛ وهي مــن الهاشميــاتِ الغُــرّ؛ بناهــا مــن المِسْــك والــدُّرّ؛ لا مــن الجــصّ والآجــرُ؛ لا بــل خَلَّدهــا حديثــاً عــلى الدَّهــر، وسَــرَّ بهــا مَطالــعَ النُّجــومِ الزُّهْــر؛ لــو قَرَعَــتْ سَمْــعَ دِعْبِــلِ بــنِ عــلىّ الخــزاعيّ، والكُمَيْــتِ بــن زَيــدٍ الأســديّ، لأمْسَكــا عــن القــول، وبرئــا إليــه في القــوَةِ والحَــوْل؛ بــل لَــوْ رآهــا السيــد الحميــريّ، وكُثَيِّــرٌ الخُــزاعيّ، لأقاماهــا بَيِّنَــة عــلى الدَّعــوَى، ولتلقياهــا بِشــارَة عــلى زَعْمِهِمــا بخــرُوج الخيــلِ مــن رَضــوَى؛ وقــد أثبــتُّ أكثرهــا إعلانــاً بجلالــة قدرهــا، واستحسانــاً لعَجُــزِهــا وصدْرِهــا)). الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 87 ــ 88.**

عَلى سَابــقٍ في قيُــودِ الخُطــُوبِ
وَنَجْمٍ سَنــاً فِــي غُثــاءِ السُّيُــولِ
يُنــادِي الثــرَى لِسَقــامِ الضَّيَــاعِ
وَيَشْكــو إلَى المُلــْكِ دَاءَ الخُمُــولِ
وَعَــزَّ عَلى العِلمِ مَثــوَاهُ أرْضــاً
عَلى حُكمِ دَهْــرٍ ظلــومٍ جَهُــولِ
وَيَعْجَــبُ كَيــفَ دَنــا مِنْ عَــلِيٍّ
وَلــمْ تَنفَصِــمْ حَلقــات الكُبــولِ
وَكيْــــفَ تنسَّــــمَ آلَ النــبيِّ
وَأبْطــأ عَنــهُ شِفــاءُ العَلِيــــلِ
وَأطــوَادُ عِزِّهِــــمُ مَاثِــــلاَتٌ
لــهُ وَهْوَ يَرنــو بِطــَرفٍ كلِيــلِ
وَأبْحُرُهــمْ زَاخِــــرَاتٌ إلِيْــــهِ
وَيَرشُــفُ فِي الثمَــدِ المُسْتَحِيــلِ
تَجَــزَّأ مِــنْ جَنــتَيْ مَــــأرَبٍ
بِخَمــطٍ وَأثــلٍ وَسِــدْرٍ قلِيــلِ

ثــم يضيــف قائــلا:

شَرِيــدُ السُّيُوفِ وَفــلُّ الحُتــوفِ
يَكِيــدُ بأفــلاَذِ قلــبٍ مَهُــــولِ
فأذهَــلَ مُرْضِعًــة عَــنْ رَضِيــعٍ
وَأنــسَى الحَمَائــمَ ذِكــرَ الهَدِيــلِ
فَمَا تَهْتَــدِي العَيْــنُ فِيهَا سَبِيــلاً
سِــوَى سُبُــلِ العَبَرَاتِ الهُمُــولِ
وَلاَ يَعْــرِفُ المَوْتُ فِيهَا طَرِيقــاً
إلى النَّفــسِ إلاَّ بِعَضْــبٍ صَقِيــلِ
رَكِبْــتُ لَهَــا مَحْمَــلاً لِلنجَــاةِ
وَصَيَّــرْتُ قَصْــدَكَ فِيهِ عَدِيــلِي
فــرُدَّتْ عَــلى عَقِبَيْهَــا المَنــونُ
بــوَاقٍ مُجيــرٍ وَرَأيٍ أصِيــلِ
وَقــد سُمْتَهَــا بِنَفِيــسِ التــــلاَدِ
عَلى أنفــسٍ ضَائِعَــاتِ الذُّحُــولِ
نُفُوسُ حَنَتْ قــوْسَ عَطْفِي عَلَيْهَــا
فكــنَّ سِهَــامَ قِــسِيِّ الخمُــــولِ

إلى أن يقــول:

إلـــى الهَاشِـــمِيِّ إلـــى الطالِـــبيِّ
إلَى الفَاطِمِيِّ العَطُـــوفِ الوَصُـــولِ
فَسُـــمِّيَ جَـــدُّكَ عَمْـــرو الكِـــرَامِ
بهَشْـــمِ الثرِيـــدِ زَمَـــانَ المُحُـــولِ
وَضَيَّـــفَ حَتَّى وُحُـــوشَ الفـــلاَةِ
وَأهْـــدَى القِرَى لِهِضَابِ الوُعُـــولِ
وَإنَّ أبَـــا طالِـــــبٍ لِلضُيُـــــوفِ
لأطلَـــبُ مِـــنْ ضَيفِـــهِ لِلنـــزُولِ
يَـــرُوحُ عَلَيْهِـــم بغـــرِّ الجِفـــــانِ
وَيَغـــدُو لَهُمْ بِالغَريـــضِ النشِيـــلِ
فَأنْتـــمْ هُـــدَاةُ حَيَـــاةٍ وَمَـــــوْتٍ
وَأنتـــمْ أئمـــةُ فِعْـــــلٍ وَقِيـــــلِ
وَسَـــادَاتُ مَنْ حَلَّ جَنـــاتِ عَـــدْنٍ
جَمِيـــعِ شَبَابهـــــمُ وَالكهُـــــولِ
وَأنتـــمْ خَلاَئـــفُ دُنيَـــا وَدِيـــــنٍ
بِحُكـــمِ الكِتـــابِ وَحُكـــمِ العُقـــولِ
وَوَالدُكـــــمْ خَاتِـــــمُ الأنبيَـــــاءِ
لَكـــمْ مِنـــهُ مَجْـــدُ حَـــفِيٍّ كَفِيـــلِ

تلـــذُّ بحَمْلكـــمُ عَاتقـــاهُ
عَلَى حَمْلِـهِ كـلَّ عِـبْءٍ ثقِيـلِ
وَرَحْـبٌ عَلَى ضَمِّكـمْ صَـدْرُهُ
إذَا ضَـاقَ صَدْرُ أبٍ عَنْ سَلِيـلِ
وَيَطرُقـهُ الـوَحْيُ وَهْنـاً وَأنتـمْ
ضَجيعَـاهُ بَيـنَ يَـدَيْ جِبْرَئِيـلِ
وَزَوَّدَكـمْ كـلَّ هَـدْيٍ زَكِـيٍّ
وَأَوْدَعَكـمْ كـلَّ رَأْيٍ أصِيـلِ

وممـا قالـه ابـن درّاج في وصـف المقاتليـن:
وَقَـدْ لَمَعَتْ حَوْلَيكَ مِنْهـمْ أسِنـة
تُخَيـلُ أنَّ الحَزْنَ وَالسَّهْلَ نِيـرَانُ
أسُـودُ هَيَـاجٍ مَا تـزَالُ تراَهُـمُ
تطِيـرُ بِهِمْ نَحْوَ الكَرِيهَةِ عِقْبَـانُ
وَأقمَـارُ حَرْبٍ طالِعَـاتٌ كأنمَـا
عَمَائِمُهُمْ فِي مَوقِفِ الرَّوْعِ تِيجَـانُ
وَكـلُّ زَنَـاتِيٌّ كـأنَّ حُسَامَـهُ
وَهَامَـة مَنْ لاقَـاهُ نارٌ وَقَرْبَـانُ

وَأَبْيَــضَ صِنهَــاجٍ كَــأَنَّ سِنانَــهُ
شِهَابٌ إذا أَهْوَى لِقرْنٍ وَشَيْطَــانُ

وقــال أيضــا في وصــف لحظــة وداع لأسرتــه:

وَلَما تدَانَــتْ لِلــوَدَاعِ وَقَــدْ هَفَــا
بِصَبْــرِيَ مِنهَــا أنَــة وَزَفِيــرُ
تُناشِدُنِي عَهْــدَ المَــوَدَّةِ وَالهَــوَى
وَفِي المَهْدِ مَبْغــُومُ الندَاءِ صَغِيــرُ
عَــيِيٌّ بِمَرْجُوعِ الخِطابِ وَلَفْظِــهِ
بِمَوقــعِ أهْــوَاءِ النفــوسِ خَبيــرُ
تَبــوَأ مَمْنوعَ القلــوبِ وَمُهــدَتْ
لــهُ أذْرُعٌ مَحْفوفــة وَنَحُــــورُ
فَكــلُّ مُفــدَّاةِ الترَائِــبِ مُرْضِــعٌ
وَكــلُّ مُحَيَّــاةِ المَحَاسِــنِ ظَبِيــرُ
عَصَيْتُ شَفِيعَ النَّفْسِ فِيهِ وَقَــادَنِي
رَوَاحٌ بِتــدْآبِ السُّــرَى وَبُكُــورُ
وَطَارَ جَنَاحُ البَيْنِ بِي وَهَفَتْ بِهَــا
جَوَانِحُ مِنْ ذُعْــرِ الفــرَاقِ تَطِيــرُ

لئِــنْ وَدَّعَتْ مِنِّي غَيــوراً فإنــنِي
عَلى عَزْمَتِي مِنْ شَجْوِهَــا لغَيُــورُ
ولَــوْ شَهِدَتنِي وَالهَوَاجرُ تَلتــظِي
عَلَيَّ وَرَقــرَاقُ السَّــرَابِ يَمُــورُ
أسَلــطُ حَــرَّ الهَاجرَاتِ إذا سَطــا
عَلى حُرِّ وَجْهي وَالأصِيلُ هَجِيــرُ
وَأسْتَنشِقُ النَّكبَــاءَ وَهْيَ بَــوَارِحٌ
وَأستَوْطِئُ الرَّمْضَــاءَ وَهْيَ تفــورُ
وَلِلمَوْتِ فِي عَيْــنِ الجَبَانِ تَلــوُّنٌ
وَلِلذُّعْرِ فِي سَمْعِ الجَرِيءِ صَفِيــرُ

وقــال في وصــف هــول البحــر:
إلَيكَ شَحَنَــا الفلــكَ تَهــوِي كأنهَــا
وَقَدْ ذَعرَتْ عَنْ مَغْرِبِ الشّمْسِ غِرْبَانُ
عَلَى لُجَــجٍ خضْرٍ إذا هَبــتْ الصَّبَــا
تــرَامَى بنــا فِيهــَا ثبيــرُ وَثهــلاَنُ
مَوَاثِــلٌ ترْعَى فِي ذرَاهــا مَوَاثِــلاً
كَمَا عُبــدَتْ فِي الجَاهِلِيَّــةِ أوْثــانُ

فِي طَيِّ أسْمَـــالِ الغرِيـــبِ غرَائـــبٌ
سَكنَّ شِغافَ القلـــبِ شِيـــبٌ وَوِلـــدَانُ
يُرَدِّدْنَ فِي الأحْشَـــاءِ حَـــرَّ مَصَائِـــبٍ
تزِيـــدُ ظلاَمـــاً ليلهَـــا وَهْيَ نِيـــرَانُ
إذَا غِيـــضَ مَاءُ البَحْرِ مِنهَا مَدَدْنـــهُ
بدَمـــعِ عيُـــونٍ تمْترِيهـــنَّ أشْجَـــانُ
وَإنْ سكنـــتْ عَنا الرِّيَاحُ جَـــرَى بنـــا
زَفِيـــرٌ إلَى ذِكـــرِ الأحِبَّـــةِ حَنـــانُ
يَقلـــنَ وَمَوْجُ البَحْرِ وَالهَـــمُّ وَالـــدُّجَى
تَمـــوجُ بنـــا فِيهَـــا عُيـــونٌ وَآذَانُ
ألاَ هَـــلْ إلَى الدُّنيَا مَعَـــادٌ وَهلْ لنـــا
سِوَى البَحْرِ قَبْرٌ أوْ سِوَى المَاءِ أكفانُ
وَهَبْنـــا رَأيْنا مَعْلـــمَ الأرْضِ هَل لنـــا
منَ الأرْضِ مَأوًى أوْ مِنَ الأنسِ عِرفانُ

ـ ثم أبو حفص أحمد بن برد الأكبر:[1]
فأما الكاتب أبو حفص بن أحمد بن برد الأكبر؛ فهو من أهل قرطبة؛ ولم تذكر المصادر أصوله الأولى التي ينحدر نسبه منها. أما ابن بسام فقال إن بني برد ينتمون إلى بني شُهَيد بالولاء. وقد كان ابن برد هذا ـ من قبل ـ كاتبا في البلاط الأموي؛ وأيام بني عامر بالتحديد؛ ثم كتب في آخر أيامه للخليفة علي بن حمود ثم ولده يحيى. وهو جد أبي حفص أحمد بن برد الأصغر؛ صاحب رسالة السيف والقلم. وهذه قطعة من خطاب كتبه ابن برد الأكبر عن علي بن حمود لمنذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة: ((**وما أنكرنا شيئاً مما ذهبت إليه من التأنِّي والتثبت، ولا اعتقدنا إلاَّ رأيك في نظر الاجتماع، وترقب الالتئام؛ لترتفع الشُبْهة ويَنْجَلِيَ الشَّكُّ؛ وإن كان مَذهَبُنا في هذه الأمَّةِ مشهوراً، واحتسابُنا الأجْرَ في صلاحِها معروفاً، وقيامُنا لنصرها وسخاؤنا بأنفُسِنا وأموالنا لاستنقاذها؛ لا ننْوي إلاَّ وجْهَه تعالى. وإلاَّ فقد عَلِمَ مَنْ عَرَفنا، وأيْقَن من أنْصَفَنا؛ أننا كنا في عَيْشٍ هَنِيّ، ولَبَبٍ رَخِيّ، وعملٍ واسع، ومال**

---

[1] قال ابن بسام: ((وقد أبو حفص هذا ديوان الإنشاء بعد ابن الجزيري؛ ثم كتب عن سليمان المستعين وغيره من أمراء الفتنة؛ فأسمع الصم بيانا، واستنزل العصم إبداعا وإحسانا؛ وقد أخرجت من رسائله؛ ما يعرب عن فضائله، ويوضح مشهور دلائله؛ وكانت وفاته بسرقسطة سنة ثماني عشرة وأربعمائة؛ وقد نيف على الثمانين)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 103.

وافـــر، وجنـــدٍ مُطيـــع، وحصـــن منيـــع؛ وفي دون ذلـــك مـــا أقنَـــعَ مـــن عـــرفَ الدنيـــا بحقيقَتهـــا، وأجْـــزَأ مـــن أنْزلَهـــا مَنْزلتهـــا؛ ومـــا كـــفَى مـــن لا يعـــدِلُ بالسَّلامـــةِ ولا يَبيـــعُ بالغَبْـــن، ولا يركـــبُ الأهـــوال، ولا يقتحِـــمُ المهالـــك، مغـــرِّراً بدمـــه، مُخاطِـــراً بنفسِـــه، لحُطـــامٍ تافِـــهٍ، وظـــلٍ زائـــل، ومتـــاعٍ قليـــل؛ وإنـــا لنرجـــو منـــه تعـــالى أنـــه لـــم يُيَسِّـــرْ مـــا يَسَّـــرَ مـــن آمالنـــا إلا عنـــد اطّلاعِـــه عـــلى نيَّتِـــنـــا فيهـــا؛ فنحـــن بعَيْـــنِ اللـــه، ونواصينـــا بيـــدِه، والمُلـــكُ والأمْـــرُ لـــه)).[1]

---

[1] الذخيـــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 117 ــ 118.

ومـــن شعـــر أبي حفـــص بـــن بـــرد الأكبـــر هـــذه الأبيـــات الـــتي خاطـــب بهـــا أبـــا العـــلاء صاعـــد بـــن الحســـن اللغـــوي:

أبَـــا العَـــلاءِ اسْتمِعْ تَعْرِيضَ ذِي مِقـــة
أهْدَى لـــكَ الوُدَّ مَحْضاً غَيْـــرَ مَقْطُـــوبِ
نـــاءٍ بِغرْبَتِـــهِ والفَهـــمُ نِسْبَتـــهُ
وكـــمْ دَنِـــيٍّ قـــصِيٍّ فِي المَناسِيـــبِ
وَصَـــارَ فِـــي غُرْبَـــةِ الآدَابِ مُغْتَرِبـــاً
أمَا كَـــفَى الدَّهْـــرُ عَـــضٌّ دُونَ تغْرِيـــبِ
أوْلاكَ مَحْمَـــدَةٌ مِـــنْ بَعْـــدِ تَجْرِبَـــةٍ
لا يَصْلُـــحُ الحَمْـــدُ إلا بَعْـــدَ تَجْرِيـــبِ
أنْـــتَ الـــذِي لمْ يُعَاشِـــرْ مِثْلَـــهُ رَجُـــلاً
فِي العِلْـــمِ وَالظَـــرفِ والآدابِ والطِيـــبِ
تَحْصِيـــلُ فَضْلِـــكَ لِلحُسَّـــادِ مَعْجَـــزَةٍ
وكُنْـــهُ عِلمِـــكَ شَيْءٌ غَيْـــرُ مَحْسُـــوبِ
أمَّـــا اللُّغَـــاتُ فلاَ يَعْقُـــوبُ يَبْلُـــغُ مَـــا
وَعِيـــتَ مِنهَـــا وَلاَ أشْيَـــاخُ يَعْقُـــوبِ

إلى أن يقـــول:

ـ ثـم أبـو عامـر أحمـد بن عبـد الملـك بن شهيـد:[1]
وينتسـب هـذا الأديـب الفـذ والشاعـر العمـلاق إلى قبيلـة

حَيَّـا تَحيَّـةَ ذِي أُنـسٍ بنا وَجِـلاً
قِناعَ وَجْهٍ طَوِيلِ الصَّوْنِ مَحْجُـوبِ
فَقلتُ: أهْلاً ورَحْبـاً، مَنْ هَدَاكَ لنـا
لَيـلاً؟ فـرَدَّ بتأهيـلٍ وتَرْحِيـبِ
قالَ: مَاذا ترَى؟ قلتُ: الغَزَالـةُ في
ثَوْبِ احْمِرَارٍ منَ الظلمَاءِ غِرْبِيـبِ
وَقَالَ: اتئِدْ! قُلتُ: قَدْ أبْصَرْتُها قِيَـلاً
فَقالَ: حِلاً، فقلتُ: الحِـلُّ مَطْلُـوبِي
قالَ: تَحَـرَّ فلاَ تشططْ بنَـا سَرَفـاً
فَقُلْتُ: لَيْسَ سوَى التَّقْصِيرِ مَرْغُوبِي
ثُمَّ اعْلَـمِي أنني فِي حُبِّكِـمْ دَنِـفٌ
قَالَتْ: عَلِمْتُ فَلاَ تَخْضَعْ لِمَحْبُـوبِ
قُلْتُ: الوِصَالُ، فَقَالَتْ: مَهْ بَلَى وَعَسَى
وَفِي عَسَى فرْجَةٌ ترْجَى لِمكـرُوبِ
ثَمَّتَ وَلتْ فَأبْقتْ فِي الحَشَا ضَرَمـاً
يَذكـو بِدَمْعٍ عَلَى الخَدَّينِ مَسْكُـوبِ
فَالآنَ فَازْجُرْ أوِ اسْجَعْ إنْ هَمَمْتَ بِهِ
كَسَجْعِ شِـقٍّ أوِ الأفْعَى أوِ الذِّيـبِ
هَـذِي عِبَارَتِهَـا فالأمْـرُ مُشْتَـرَكٌ
تلـقَى أفَانِينَـهُ طـراً بِتَهْذِيـبِ

[1] قـال ابـن بسـام نقـلا عـن ابـن حيـان: ((كـان أبـو عامـر يبلـغ المعـنى ولا يطيـل سَفَـرَ الكـلام؛ وإذا تأملتـه ولسَنَـه، وكيـف يَجُـرُّ في البلاغـة رسنـه؛ قلـت عبـد الحميـد في أوانـه، والجاحـظ في زمانـه. والعجـب منـه أنـه كـان يدعـو قريحتـه إلى مـا شـاء مـن نثـره ونظمـه في بديهتـه ورويَّتـه؛ فيقـود الكـلام كمـا يريـد مـن غيـر اقتنـاء للكتـب، ولا اعتنـاء بالطلـب، ولا رسـوخ في الأدب؛ فإنـه لـم يوجـد لـه رحمـه اللـه ـ فيمـا بلغـني ـ بعـد موتـه؛ كتـاب يستعيـن بـه عـلى

أشجع الغطفانية العربية. هذا ويعتبر النقاد القدماء أحمد بن شهَيْد في صف أهم الأدباء الأفذاذ الذين أنجبتهم بلاد الأندلس في وقته؛ إذ كان يتميز بسهولة عجيبة في التعبير؛ سواء كان ذلك شعرا أم نثرا. فهو بذلك شاعر وناثر في الوقت ذاته.[1] ومن أشهر أعماله الأدبية رسالة "التوابع والزوابع"؛ التي حلق بخياله فيها؛ حيث تخيل أنه قام برحلة إلى أرض الجن؛ بمساعدة جني من قبيلة أشجع الجن. التي تتطابق مع قبيلته أشجع ذات الأصول الأنسية. وأشار في تلك الرحلة إلى ما شاهده، وتكلم عن الذين لقيهم من الجن؛ أتباع الشعراء الفحول وشياطينهم؛ حيث وتحاور معهم وقرأ عليهم شعره

صناعته، ويشحذ من طبعه إلا ما لا قدْر له؛ فزاد ذلك من عجائبه، وإعجاز بدائعه)). نفسه، ص: 192.

[1] قال الحميدي في ترجمة ابن شهيد: ((من العلماء بالأدب ومعاني الشعر وأقسام البلاغة، وله حظ من ذلك يسبق فيه، ولم ير لنفسه في البلاغة أحدا يجاريه؛ وله كتاب "حانوت عطار" في نحو من ذلك، وسائر رسائله وكتبه نافعة الجد، كثيرة الهزل؛ وشعره كثير مشهور؛ وقد ذكره أبو محمد علي بن أحمد [بن حزم] مفتخرا به؛ فقال: "ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد؛ وله من التصرف وجوه البلاغة وشعبها مقدار ينطق فيه بلسان مُركَّب من لساني: عمرو [بن بحر الجاحظ] وسهل [بن هارون]... قال لنا أبو محمد علي بن احمد [بن حزم] توفي أبو عامر ابن شهيد ضحى يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى، سنة ست وعشرين أربعمائة بقرطبة؛ ودفن يوم السبت ثاني يوم وفته في مقبرة أم سلمة؛ وصلى عليه جهور بن محمد بن جهور أبو الحزم. وكان حين وفاته حامل لواء الشعر والبلاغة؛ لم يخلف لنفسه نظير في هذين الهلمين جملة؛ ومولده سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة)). جذوة المقتبس، ص ص: 133 ــ 136.

فأجازوه. وهذه الرسالة ــ كما هو ظاهر ــ سبق بها غيره من المبدعين العرب وغير العرب؛ إذ كتبها قبل أن يكتب: أبو العلاء المعري العربي رسالة الغفران، وقبل أن يكتب آلياري دانتي الإيطالي قصته الكوميديا الإلهية، أو جون ميلتون الأنجليزي الفردوس المفقود.

هذا وقد عاش أبو عامر أحمد بن شهيد في أدق فترة عرفتها بلاد الأندلس؛ كما أنه انغمس في الصراعات التي دارت ــ آنئذ ــ بين الطوائف المختلفة ــ أيام الفتنة الكبرى التي اجتاحت تلك الديار ــ وقضت على مؤسسات الخلافة الأموية نهائيا. وقد كان في عداد الأدباء الذين عايشوا الفترة الزمنية التي أظلت الدولة الحمودية سواء كان ذلك في قرطبة؛ أو في مالقة؛ تلك المدينة التي هاجر إليها ابن شهيد مع بعض أعيان قرطبة ــ لبعض الوقت ــ بعد أن ازداد الوضع تعفنا في قرطبة؛ بسبب ما أبداه بقايا الخلفاء الأمويون من سلوك سيئ. وعليه فقد ذهب أولئك الأعيان ــ وفيهم ابن شهيد ــ إلى مالقة مستنجدين بيحيى بن حمود؛ طالبين منه العودة إلى قرطبة.[1]

---

[1] **لكامل في التاريخ، ج: 7، ص ص: 287 ـــ 288. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 134 ــ 136. ودولة الإسلام في الأندلس، ق: 2، ص ص: 666 ــ 667.**

ويبدو أنه لم يتول مهام وزارية في بلاط بني حمود؛ وإن كان من الذين يترددون عليه. ولم يكن ابن شهيد ــ حسبما تشير إليه بعض النصوص ــ من المقربين المحبوبين إلى حاشية الخلفاء من بني حمود؛ بل يبدو أنه تعرض ــ أحيانا ــ إلى بعض المضايقات من تلك الحاشية[1].

---

[1] وقد نقل المقري عن صاحب المطمح نصا يشير إلى ذلك الجفاء والإقصاء جاء فيه: ((ودبَّت إلى أبي عامر ابن شُهَيد أيَّام العلويين عَقارب؛ برئت بها منه أباعد وأقارب؛ واجهه بها صَرْفُ قطوب؛ وانبرت إليه منها خطوب؛ نَبَا لها جَنْبه عن المضجع، وبقي بها ليالي يأرق ولا يهجع؛ إلى أن أعلقت في الاعتقال آماله، وعقلته في عقال أذهب ماله؛ فأقام مرتهناً، ولقي وَهَناً؛ وقال:

قريبٌ بمُحْتَلِّ الهَوَانِ مَجيدُ
يَجُودُ ويَشْكو حُزنَهُ فيُجيدُ
نَعَى صَبْرَهُ عِندَ الإمَامِ فَيا لَهُ
عَدُوٌّ لأبْنَاءِ الكِرَامِ حَسُودُ
وَمَا ضَرَّهُ إلاَّ مِزَاحٌ وَرِقَّةٌ
ثَنَتْهُ سَفِيهَ الذِّكرِ وَهوَ رَشِيدُ
جَنَى مَا جَنَى فِي قُبةِ المُلكِ غَيرُهُ
وَطُوِّقَ مِنهُ بِالعَظِيمَةِ جِيدُ
وَمَا فِيَّ إلاَّ الشِّعرُ أثبَتَهُ الهَوَى
فَسَارَ بِهِ فِي العَالَمِينَ فَرِيدُ
أفُوهُ بِمَا لَمْ آتِهِ مُتَعَرِّضاً
لِحُسْنِ المَعَانِي تَارَةً فأزِيدُ
فَإنْ طَالَ ذِكرِي بِالمُجُونِ فإنَّهَا
عَظَائِمُ لَمْ يَصْبِرْ لَهُنَّ جَلِيدُ
وَهَلْ كُنتُ فِي العُشَّاقِ أوَّلَ عَاقِلٍ
هَوَتْ بِحجَاهُ أعْيُنٌ وَخُدُودُ

فـــرَاقٌ وَشَجْـــوٌ وَاشْتِيَـــاقٌ وَذِلـــــة
وَجَبَّـــــارُ حُفـــــاظٍ عَـــلَيَّ عَتِيـــدُ
فَمَـــنْ يُبْلِـــغُ الفِتيَـــانَ أَنِّيَ بَعْدَهُـــمْ
مُقِيـــــمٌ بِـــدَارِ الظَّالِمِيـــــنَ وَحِيـــدُ
مُقِيـــمٌ بِـــدَارٍ سَاكِنوهَـــا مِـــنَ الأَذَى
قِيَـــامٌ عَـــلَى جَمْـــرِ الحِمَـــامِ قعـــودُ
وَيسْمَـــــعُ لِلْجَنَـــــانِ فِي جَنَباتِهَـــــا
بَسِيـــطٌ كترْجِيـــعِ الصَّـــدَى وَنَشِيـــدُ
وَلسْـــتُ بِـــذِي قِيْـــدٍ يَـــرِنُّ، وَإِنمَـــا
عَلَى اللحْـــظِ مِنْ سُخطِ الإِمَـــامِ قِيُـــودُ
وَقلـــتُ لِصَـــدَّاحِ الحَمَـــامِ وَقَـــدْ بَـــكَى
عَلَى القصْـــرِ إِلفـــاً وَالدُّمُـــوعُ تَجُـــودُ
أَلاَ أَيُّهَـــا البَـــاكِي عَـــلَى مَـــنْ تُحِبـــهُ
كِلاَنَـــــا مُعَـــنًّى بِالخـــــلاَءِ فَرِيـــــدُ
وَهَلْ أَنـــتَ دَانٍ مِنْ مُحِـــبٍّ نـــأَى بِـــهِ
عَـــنِ الإِلـــفِ سُلطـــانٌ عَلَيـــهِ شَدِيـــدُ
فَصَفَقَ مِنْ رِيـــشِ الجَنَاحَيـــنِ وَاقِعـــاً
عَلَى القَـــرْبِ حَـــتَّى مَا عَلَيـــهِ مَزِيـــدُ
وَمَـــا زَالَ يُبْكِيـــنِي وَأَبْكِيـــهِ جَاهِـــداً
وَلِلشَّـــوقِ مِنْ دُونِ الضُّلُـــوعِ وَقُـــودُ
إِلى أَنْ بَكَى الجُدْرَانُ مِنْ طُولِ شَجْوِنَـــا
وَأَجْهَـــشَ بَـــابٌ جَانِبَـــاهُ حَدِيـــدُ
أَطَاعَـــتْ أَمِيـــرَ المُؤْمِنِيـــنَ كتائـــبٌ
تصَـــرَّفُ فِي الأَمْـــوَالِ كَيْـــفَ تَرِيـــدُ
فَلِلشَّمْـــسِ عَنهَـــا بِالنَّهَـــارِ تأَخُـــرٌ
وَلِلبَـــدْرِ شِحْنَـــاً بِالظَـــلاَمِ صُـــدُود
أَلاَ إِنهَـــا الأَيـــامُ تلعَـــبُ بِالفَـــتَى
نُحُـــوسٌ تهَـــادَى تَـــارَةً وَسُعُـــودُ

مــع ذلــك فقــد اختــار اللجــوء إلى مالقــة، وفضــل رعايــة يحــيى بــن عــلي بــن حمــود؛ عندمــا ضــاق بــه الحــال في قرطبــة؛ بسبــب مــا وصــل إليــه الوضــع في تلــك المدينــة مــن فســاد وتعفــن بعــد خــروج بــني حمــود منهــا. لــذا فقــد قــال هــذه القصيــدة لمــا أزمــع الخــروج إلى مالقــة:

أرَى أعْيُنــاً ترنــو إلَيَّ كأنمَــا
تسَــاورُ مِنهــا جَانــبَيَّ أرَاقــمُ
أدُورُ فــلاَ أعْتــامُ غيْرَ مُحَــارِبٍ
وَأسْعَى فلاَ ألقَى امْرُءاً لِي مُسَالــمُ
وَيَجْلبُ لِي فَهمِي ضُرُوباً مِنَ الأذَى
وَأشْقَى امْرُئٍ فِي قَرْيَةِ الجَهْلِ عَالمُ
وَأوْجَعُ مَظلومٍ لِقلــبٍ وَذِي حِــجىً
فــتىً عَــرَبِيٌّ تزْدَرِيــهِ أعَاجــمُ

وَمَا كنــتُ ذا أيــدٍ فَأذعــن ذا قــوًى
مِــنَ الدَّهــرِ مُبــدٍ صَرْفــهُ وَمُعِيــدُ
وَرَاضَــتْ صِعــابِي سَطــوَةٌ علويــة
لهَــا بَــارِقٌ نحْــوَ النــدَى وَرُعــودُ
تقولُ التِي منْ بَيْتِهَــا كــفَّ مَركــبِي
أقرْبِــكَ دَانٍ أمْ مَــدَاكَ بَعِيــدُ
فقلتُ لَهَا أمْــرِي إلى مَنْ سَمَــتْ بــهِ
إلَى المَجــدِ آبــاءٌ لــهُ وَجــدُودُ

غَنَيْتمُ عَلى مَا تزْعُمُونَ عَنِ الورَى
لقدْ سَفِهَــتْ تِلكَ الحُلُــومُ الزَّوَاعِــمُ
وَهَلْ يُقْدِمُ البَازِي عَلى الطَّيْر فِي الضُّحَى
إذا زَالَ عَنْ رِيشِ الجَناحِ القــوَادِمُ
سَــلاَمٌ عَليكــمْ لاَ تَحِيَّــةَ شَاكِــرٍ
ولَكِنْ شَــجىً تنْسَــدُّ مِنهُ الحَلاَقــمُ
وَمَا قرِعَتْ سِــنِّي عَلَيْكــمْ ندَامَــةً
وَأوشكْ غــداً أنْ يَقرَعَ السِّن نــادِمُ
عَلَيكمْ بــدَارِي فاهْدِمُوهَــا دَعَائِمــا
ففِي الأرْضِ بَنــاءُونَ لِي وَدَعَائــمُ
لئِنْ اخْرَجَتنِي عَنكم شَــرَّ عُصْبَــةٍ
ففِي الأرْضِ إخــوَانٌ عَلَيَّ أكــارِمُ
وَإنْ هَضَمَتْ حَــقِّي أمَيَّــةُ عِندَهَــا
فَهَاتــا عَلى ظَهرِ المَحَبَــةِ هَاشِــمُ
وَلاَ غــرْوَ مِنْ تِلكَ القلاَنسِ جَالِيــا
إذا عَرَفتْ حَــقِّي هُنــاكَ العَمَائــمُ

وقــال في وصــف نحلــة:

وَطائِــرَةٍ تهــوِي كــأنَّ جَناحَهَــا
ضَمِيــرٌ خــفِيٌّ لاَ يُحَــدِّدُهُ وَهــمُ
مُلاَزِمَــةٍ لِلــرَّوْضِ حَتَّى كأنهَــا
لَهَا كلُّ مَا تفترُّ عَنهُ الرُّبَى طَعْــمُ
تَمُجُّ بِفيهَا الشَّهْدَ صِرفاً وَيَخْتــفِي
لِمُشْتــارِهِ مَا بَيْنَ أحْشَائِهَــا سَهــمُ
مُنافِــرَةٍ لِلإنــسِ تأنــسُ بِالفــلاَ
مُفرِّقةٍ لِلشَّهْدِ، مِنْ بَعْضِهَــا السُّــمُّ
فإدناؤُها رُشــدٌ وَهَتــكُ حِجَابهَــا
إذا احتَجَبَتْ فِي غَيْرِ أيامِهَا ظلــمُ

وقــال في وصــف برغــوث:

وَمُنفــرٍ للنــــوْمِ مَسْكنــــهُ إذَا
نــامَ المُمَلــكُ بَيْنَ أثنــاءِ الثيَــابْ
يَسْرِي إلَى الأجْسَامِ يَهْتِــكُ عَــدْوُهُ
عَنْ كلِّ جِسْمٍ صِيغَ بِالنُّعْمَى حِجَابْ
وَيَعُــضُّ أرْدَافَ الحِسَــانِ وَمَالــهُ
كفٌّ وَلَكِنْ فوهُ مِنْ أعْدَى الحِــرَابْ

مُتَحَكِّمٌ فِي كُلِّ جِسْمٍ نَاعِمٍ
مُتَدَلِّلٌ مَا بَيْنَ أَلْحَاظِ الكِعَابْ
فَإِذَا هَمَمْتَ بِزَجْرِهِ وَلَّى وَلاَ
يُثْنِيهِ عَمَّا قَدْ تَعَوَّدَهُ طِلاَبْ
وَتَرَى مَوَاضِعَ عَضِّهِ مَخضُوبَةً
بِدَمِ القُلُوبِ وَمَا تَعَاوَرَهُ خِضَابْ
قَرْمٌ مِنَ اللَّيْلِ البَهِيمِ مُكَوَّرٌ
يَمْشِي البَرَازَ وَمَا تَوَارِيهِ ثِيَابْ
عَظُمَتْ رَزِيَّتُهُ وَلَكِنْ قَدْرُهُ
أَخزَى وَأَهوَنُ مِنْ ذُبَابٍ فِي تُرَابْ

ومن روائع ما كتبه نثرا في وصف برغوث قوله: ((**أسودُ زنجيٌّ، وأهليٌّ وحشيٌّ، ليس بوانٍ ولا زُمَّيْل، كأنه جزء لا يتجزأ من لَيل، وشُونيزة،**[1] **وَثَبَتُهَا غريزة، أو نقطة مداد، أو سويداء قلب فؤاد، شربه عبٌّ، ومَشْيُهُ وَثْبٌ، يَكمُنُ نهاره، ويَسْري ليله، يدرك بطعن مؤلم، ويستحلُّ دم كل مسلم، مساور للأساوِرَة، يجرُّ ذيله على الجبابرة يتكفر بأرفع الثياب، ويَهْتِكُ ستِرَ كل حجاب، ولا يَحْفِلُ ببوَّاب، يرد مناهل العيش العَذبَة، ويصل إلى**

[1] الشُّونيزَة هي الحبة السوداء، وتسميها العامة في الجزائر سَيْنُوجَة.

الأحراج الرطبة، لا يُمْنَعُ منه أمير، ولا يَنفعُ فيه غيْرَةُ غَيور، شَرُّهُ مبثوث، وعهده منكوث، وهكذا كل بُرْغوث)).[1]

ويبدو أنه كان يخوض صراعا ساخنا ضد مجموعة من أدباء وعلماء قرطبة؛ إذ كانت بينهم منافسة شديدة؛ تجلت في بعض المناقضات والمعارضات التي كانوا يشنونها ضد بعضهم بعضا. ولم ينج من هذا الصراع حتى من ولي منهم مناصب عليا في الدولة[2].

---

[1] المغرب في حلى المغرب، ج: 1، ص: 83.

[2] وهذا خبر نقل عن ابن شهيد يتعرض للأديب الكاتب ابن عباس الذي كان يتولى وزارة الفتى زُهير الصقلبي؛ جاء فيه: ((لما قدم زهير الصقلبي إلى حضرة قرطبة من المرية وجّه وزيره أبو جعفر بن عباس إلى لُمَّة من أصحابنا منهم: ابن بُرْد وأبو بكر المرواني وابن الحناط والطبني؛ فحضروا إليه؛ فسألهم عني وقال: "وجِّهُوا إليه"؛ فوافاني رسوله مع دابة بسَرْج مُحَلًّى ثقيل؛ فسرت إليه، ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب؛ تحفز المجلس لدخولي، وقاموا جميعا لي؛ حتى طلع أبو جعفر علينا ساحباً ذيلاً لم أرَ أحداً سَحبَه قبله، وهو يترنم؛ فسلمت عليه سلام من يعرف قدر الرجال، فرد رداً لطيفا؛ فعلمت أن في أنفه نُعرة لا تخرج إلا بسعط الكلام، ولا ترام إلا بمستحصد النظام؛ ورأيت أصحابي يُصيخون إلى ترنمه. فقال لي ابن الحناط؛ وكان كثير الإنحاء عليّ، جالبا في المحافل ما يسوء إليَّ: "إن الوزير حضره قسيم، وهو يسألنا إجازته"؛ فعلمت أنّي المراد؛ فاستنشدته، فأنشد:

مَرَضُ الجُفُونِ وَلَثْغَة فِي المَنطِق

فقلت لمن حضر: لا تجهدوا أنفسكم؛ فما المراد غيري؛ ثم أخذت الدواة فكتبت:

سَبَبَانِ جرَّا عِشْقَ مَنْ لمْ يَعْشَق
مَنْ لِي بألثَغَ لاَ يَزَالُ حَدِيثُهُ
يذكي عَلَى الأحْشَاءِ جَمرَةَ مُحرق
ينبِي فَينبو فِي الكلاَمِ لِسَانُهُ
فكأنهُ مِنْ خمرِ عَينيهِ سُقِي

وكتب ابن شهيد إلى الكاتب الأديب أبي بكر محمد بن قاسم المعروف باشكمياط أو (أشكنهاط) رسالة قال فيها منتقدا إياه: ((**ما أغيرَكَ أبا بكر، على نظم ونثر؛ لو إليكَ كان العلم، أو بكفك كان الفهم؛ لم تترك لأرض أعلاماً، ولا لغيرك إنعاماً؛ أحَشا عند رِعدتك؟!**[1] **عرضت عليك الدُّرَّ منظوماً؛ فقلت: نعم ما صنعت لو اخترعت؛ وما أحس ما أطلعت لو ابتدعت. معرّضا بالتقَصُّص،**[2] **ومشيراً إلى التلصُّص؛ هيهات ! لا يزيد الحزّ من الغرَب** [الذهب والفضة]، **ولا يضيءُ السليط في القصب** [أي أنابيب

لاَ ينعِشُ الألفاظَ مِنْ عَثَرَاتِها
ولَوَانَّها كتِبتْ لهُ فِي مهرَق

ثم قمت عنهم؛ فلم ألبث أن وَرَدُوا عليَّ، وأخبروني أن أبا جعفر لم يرضَ بما جئت به من البديهة، وسألوني أن أحمل مَكاويَ الهجاء على حتاره [أي تحريفه]؛ فقلت:

أبو جَعفرٍ كاتِبٌ مُحسِنٌ
مَليحُ سنا الخطِّ حلوُ الخطابة
تملأ شحماً ولَحماً وَما
يليقُ تملؤُهُ بالكِتابة
لهُ عرَقٌ ليسَ ماءَ الحياءِ
ولَكِنهُ رَشحُ ماءِ الجنابة
جرَى المَاءُ فِي سُفلِهِ جرْيَ لينٍ
فأحدَثَ فِي العلوِ مِنهُ صَلاَبة)).

نفح الطيب، ج: 3، ص ص: 610-611.

[1] أي هل يصح الحش (ترييش السهم استعدادا للرمي) مع رعدة تنتاب الرامي.

[2] أي الولوع في تتبع معاني الآخرين.

مـــن الجوهـــر][1] **لأقطعـــنَّ حبالـــك هاجـــراً، ولأتركـــن ليلـــك ساهـــراً))**.[2]

ومـــن النصـــوص الـــتي يعـــارض فيهـــا ابـــن شهيـــد بعـــض الكتـــاب المحافظيـــن، المتشبثيـــن بالأساليـــب القديمـــة للبيـــان قولـــه: ((**وإصابـــةُ البيـــان لا يقـــومُ بهـــا حفـــظُ كثيـــر مـــن الغريـــب، واستيفـــاءُ مسائـــلِ النحـــو؛ وإنمـــا يقـــوم بهـــا الطبـــع مـــع وَزنِـــه مـــن هذيـــن: النحـــو والغريـــب. ومقـــدارُ طبـــعِ الإنســـان إنمـــا يكـــونُ عـــلى مقـــدار تركيـــب نفســـه مـــعِ جسمـــه؛ فمـــن كانـــت نفســـه في أصـــلِ تركيبـــه مستوليـــةً عـــلى جسمـــه؛ كـــان مطبوعـــاً روحانيـــاً؛ يـــُطلـــع صُـــوَرَ الكـــلام والمعـــاني في أجمـــلِ هيئاتهـــا، وأروَق لبساتهـــا؛ ومـــن كـــان جسمـــه مستوليـــاً عـــلى نفســـه ــ مـــن أصـــل تركيبـــه ــ والغالـــبَ عـــلى حسّـــه؛ كـــان مـــا يطلـــعُ مـــن تلـــك الصـــور ناقصـــاً عـــن الدَّرجـــة الأولى في الكمـــال والتمـــام، وحُسْـــنِ الرَّونـــق والنظـــام. فمـــن كانـــت نفسُـــه المستوليـــة عـــلى جسمـــه فقـــد تـــأتي منـــه في حســـن النظـــام صُـــوَرٌ رائقـــة مـــن الكـــلام؛ تمـــلأ القلـــوب، وتشعـــف النفـــوس. فـــإذ فتشـــت لحسنهـــا أصـــلا لـــم تجـــده، ولجمـــال تركيبهـــا أســـا لم تعرفـــه؛ وهـــذا هـــو الغريـــب؛ أن يتركـــب الحســـن مـــن غيـــر حســـن؛ كقـــول امـــرئ القيـــس:**

---

[1] أي أن الذهـــب والفضـــة لا يصلحـــان للسهـــام؛ ولـــن يزيـــد الحـــز مـــن قيمتهمـــا لـــكي يصيـــرا سهامـــا؛ كمـــا لا يـــضيء السليـــط في قناديـــل مـــن أنابيـــب الجوهـــر؛ بينمـــا يـــضيء في قناديـــل بسيطـــة.

[2] الذخيـــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 230 ـــ 231.

تنوَّرتُهَــا مِنْ أذرُعــاتٍ وَأهــلهَــا
بيَثــرِبَ أدنَى دَارِهــَا نظــرٌ عــَالِي

فــإن هــذه الديباجــة إذا تطلبــت لهــا أصــلاً مــن غريــب معــنىً لــم تجــده. وكقــول أبي نــواس:

طرَحتــمْ مِــنَ الترْحــالِ ذِكــراً، فَغَمنــا،
فَلوْ قدْ شَخَصْتمْ صَبَّحَ المَوْتُ بَعْضَنَــا

ثــم قولــه:

سَأشْكو إلى الفَضْلِ بْنِ يَحْــيَى بْنِ خَالِــدٍ
هَــوَاكِ، لَعلَّ الفضْــلَ يَجْمَــعُ بَيننــا

فهــذا مــن الكــلام الغــثِّ، واللفــظِ الــرَّثِّ؛ الــَّذي لــو رامــه حِمــار الكــُساح لأدركــه؛ ولكــن لــه مــن التعلــق بالنفــس، والاستيــلاء عــلى القلــب مــا تــرى)).[1]

ولمزيــد مــن الفائــدة نثبــت هنــا هــذه المقاطــع مــن رسائــل أدبيــة، نقديــة رائعــة كتبهــا ابــن شهيــد؛ جــاء فيهــا: **((وكمــا أن لكــل مَقــامٍ مَقــالاً؛ فكذلــك لكــل عصــر بيــان، ولكــلِّ دَهــرٍ كــلام، ولكــلّ طائفــةٍ مــن الأمــم المتعاقبــة نــوعٌ مــنَ الخطابــة، وضــربٌ مــن البلاغــة؛ لا يوافقُهــا غيــرُه ولا تَهــشَّ لســواه. وكمــا أن للدنيــا دولاً؛ فكذلــك للكــلام نقــلٌ وتَغَايــرٌ في العــادة. ألا تــرى أنَّ**

---

[1] **الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 231 ــ 232.**

الزَّمـــان لمـــا دار كيـــف أحـــال بعـــضَ الرَّســـمِ الأولِ في هـــذا الفـــنِّ إلى طريقـــة عبـــد الحميـــد وابـــن المقفـــع وسهـــل بـــن هـــارون وغيرهـــم مـــن أهـــلِ البيـــان؟ فالصنعـــة معهـــم أفسَـــحُ باعـــاً، وأشـــدُّ ذراعـــاً، وأنـــوَرُ شُعاعـــاً؛ لرُجْحـــان تلـــك العقـــول، واتســـاع تلـــك القرائـــح في العلـــوم. ثـــم دار الزمـــانُ دَوَرَانـــاً؛ فكانـــت إحالـــةٌ أخـــرى إلى طريقـــة إبراهيـــم بـــن العبـــاس ومحمـــد بـــن الزَّيَّـــات وابـــني وهـــب ونظرائهـــم؛ فرقـــت الطِّبـــاعُ، وخـــف ثقـــلُ النفـــوس. ثـــم دارَ الزمـــانُ فاعتـــرى أهلـــه بالطائـــف صَلَـــفٌ، وبِرقـــةِ الكـــلامِ كلـــفٌ؛ فكانـــت إحالـــة أخـــرى إلى طريقـــة البديـــع وشمـــس المعـــالي وأصحابهمـــا. وكذلـــك الشعـــراءُ انتقلـــوا عـــن العـــادة في الصنعـــةِ بانتقـــال الزمـــانِ؛ وطلـــبَ كـــلُّ ذي عصـــرٍ مـــا يجـــوز فيـــه، وتَهـــشُّ لـــه قلـــوبُ أهلـــهِ؛ فكـــان مـــن صريـــعِ الغـــواني وبَشـــارٍ وأبي نـــواسٍ وأصحابهـــم في البديـــع مـــا كـــان؛ مـــن استعمـــال أفانينـــهِ والزيـــادة في تفريـــع فنونـــهِ.

ثم جاء أبو تمام فأسرف في التجنيس، وخرج عن العادة؛ وطابَ ذلكَ منه، وامتثله الناس؛ فكل شِعرٍ لا يكونُ اليوم تجنيساً أو ما يُشبهه تَمُجه الآذان؛ والتوسُّطُ في الأمرِ أعدلُ؛ لأنه لَبسَ ديباجة المُحدثين على لأمةِ العرب؛ فتركَبَ له من الحُسْنِ بينهما ما تَركب)).[1]

((وأهل صناعة الكلام مُتباينون في المنزلة، متفاضِلون في شَرَفِ المرتَبة، على مقدارِ إحسانهم وتصرُّفِهم. فمنهم الذي ينظم الأوصاف، ويخترعُ المعاني، ويحرز جيد اللفظِ؛ إلاَّ أنه يَصْعبُ عليه الكلام، ويَكدُّ قريحته التأليف؛ حتى إنه رُبَّمَا قَصَّر في الوصف، وأساءَ الوضع. فهذا في الأبياتِ القليلة نافر، وفي القريبةِ المأخذِ سائر، وفي طريقة الجمهور الأعظم ذاهب؛ حتى إذا ازدحمت عليه، وانحشَدَتْ إليه، وطالبته ببهاءِ البهجة، وشرف المنزلة، وقف وأنفلّ، وتلاشى واضمحل. ومنهم الكارعُ في بحر الغزارة، القارحُ بشُعاعِ البراعة؛ الذي يَمُرُّ مَرَّ السَّيلِ في اندفاعه، والشؤبُوبِ في انصِبابه؛ لا يشكو الفشَل، ولا يَكِلُّ على طولِ العمل؛ إذا ازدحَمَتْ في الكلامِ عليه المطالِب، وعَلِقتْ بحواشي فكره المآرب، وحُشرت عليه الصعائب والغرائب؛ استقلَّ بها كاهله، واضطلع بثقلها غاربهُ، وأعارَها من نظرِه لَمْحة، ومن فِكْره

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 237 ــ 238.

قدْحَــة، ثــم رمى بهــا عــن جانبيــهِ؛ قــد رَوِيَــتْ بمائهــا، ولبســت شُعــاع بهائهــا؛ وبــقي كاللقــوَةِ في المَرْقــب؛ ســامٍ نظــرُه، قــد ضــمَّ جناحَيْــه، ووقــفَ عــلى مخلبــه، لا تتــاحُ لــه جارحــة إلا اقتصَّهــا، ولا تنَازلــه طائــرة إلاَّ اختَطفهــا؛ جُرْأتــه كشَفرتــه، وبديهتــه كفِكرتــه؛ فذلــك الألســن يــومَ حــربِ الكــلام، لا تُخــطئُ ضربتــُه، ولا تُصــابُ غرَّتــُه. ومنهــم مــن يتجــافَى الكــلام، ويــرغ عــن المقــال؛ فــإذا مُــني بــه، أخــذ بأطــرافِ المحاســن، وشــارَك في أنحــاءٍ مــن الصنعــة؛ وجُــلّ مــا عنــده تلفيــقٌ وحيلــة؛ وبذلــك يُصاحِــبُ الأيــَّام، ويُجــاري أبنــاء الزَّمــان؛ مــا كــان لــه عقــل يغــطي عــلى نقصانِــه، سياســة يَسُــوسُ بهــا فُحــولَ زمانِــه. ومــن خــرج عــن هــذه الطبقــات الثــلاث لــم يستحــق اســم البيــان، ولا يدخــلُ في أهــلِ صناعــة الكــلام)).[1]

((وقــومٌ مــن المعلميــن بقُرْطُبتِنــَا ممــن أتى عــلى أجــزاءٍ مــن النحــو، وحفِــظَ كلمــاتٍ مــن اللغــة، يحنــونَ عــلى أكبــادٍ غليظــة؛ وقلــوبٍ كقلــوب البُعــران؛ ويَرجعــونَ إلى فِطــنٍ حَمِئــةٍ، وأذهــانٍ صَدِئــةٍ؛ لا مَنفــذَ لهــا في شُعــاعِ الرِّقــةِ، ولا مَــدَبَّ لهــا في أنــوارِ البيــان. سَقَطــَتْ إليهــم كتــبٌ في البديــعِ والنقــدِ فَهِمُــوا منهــا مــا يفهمــه القــرد اليمــاني مــن الرَّقــص عــلى الإيقــاع، والزَّمْــر عــلى الألحــان؛ فهــم يُصَرِّفــون غَرَائبَهــا فيمــا يَجــري عندهــم تصريــفَ مــن لــم يــرْزَقْ آلــة الفهــم،

---

[1] الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ، ص ص: 238 ــ 239.

ومن لم تكن له آلة الصناعة، مما هي مَخْصوصَة بها، لا تقومُ تلك الصناعة إلا بتلك الآلة؛ فهو كالحمار لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضربِ العود والطنبورِ؛ لتوتدِ رُسغه، واستدارة حافره؛ ولا له بنانٌ يَجِسُّ به عَلَى دَسْتبان... فهذه حَالُ العصابةِ من المعلِّمِين: يدركون بالطبيعةِ، ويقصرون بالآلةِ. وتقصيرهُم بالآلة هو من طريقِ العِلَلِ الدَّاخِلةِ من فساد الآلةِ القابلةِ للروحانية، والخادمةِ لآلاتِ الفهم، الباعثة لرقيق الدَّم في الشّرْيانات إلى القَلب؛ وزيادةِ غِلظِ أعصابِ الدّماغِ ونُقصانِها عن المقدار الطبيعي. يُعِينُ على ذلك بالحَدْسِ وطريق الفِراسة فسادُ الآلةِ الظاهرةِ؛ كفرطحةِ الرأس وتسفيطه، ونتوءِ القَمَحْدُوَةِ، والتِواءِ الشَّدْق، وخزَرِ العين، وغِلظِ الأنفِ، وانزواءِ الأرنَبة...

وليس العجبُ في هذه العصابةِ إلا من أبي القاسم[1] فإنَّه زاد عليهم في الصناعة، وبَزَّهم بوُفورِ

---

[1] وهو أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا الزهري المعروف بابن الإفليلي؛ قال فيه الحميدي: ((وكان متصدراً في علم الأدب يُقرأ عليه، ويختلف فيه إليه؛ وكان مع علمه بالنحو واللغة يتكلم في معاني الشعر وأقسام البلاغة والنقد لهما؛ وله كتاب شرح فيه معاني شعر المتنبي)). جذوة المقتبس، ص: 151. وقال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((وكان أبو القاسم المعروف بابن الإفليلي... قد بذ أهل زمانه بقرطبة؛ في علم اللسان العربي، والضبط لغريب اللغة؛ في ألفاظ الأشعار الجاهلية والإسلامية، والمشاركة في بعض معانيها. وكان غيورا على ما يَحْمِل من ذلك الفن، كثير الحسد فيه، راكبا رأسه في الخطأ البين إذا تقلده أو نشب فيه، يجادل عليه، ولا يصرفه صارف عنه، وعدم علم العروض ومعرفته مع احتياجه إليه، وإكمال صناعته به، فلم يكن له شروع فيه. وكان لحق الفتنة البربرية بقرطبة؛ ومضى الناس من حائن وظاعن؛ فازدلف إلى الأمراء المتداولين بقرطبة من آل حمود ومن تلاهم إلى أن نال الجاه)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 281 ــ 282. أما صاحب المغرب فقد أضاف: ((استكتبه المستكفي فبَرُدَ، ووقع كلامه خاليا من البلاغة؛ لأنه كان على طريقة المعلمين؛ فزُهِدَ فيه؛ وما بلغني أنه ألف شيئاً إلا كتابه في شعر المتنبي؛ ولحقته تهمة في دينه أيام هشام؛ فسجن في المطبق. وابن شهيد كثير الوقوع فيه والتندير به... قال الحجاري: "كان بارد النظم والنثر، لم يندر له من شعره إلا قوله:

صَحِبْتُ القَطِيعَ وَنَادَمْتُه ... وَأَصْبَحْتُ فِي شُرْبِهِ ذا انْقِطَاعْ

وَأَبْصَرْتُ أَنْسِي بِهِ وَحْدَهُ ... كَأَنْسِ الرَّضِيعِ بِثَدْيِ الرَّضَاعْ "

قال: "وهو القائل في يحيى بن حمود:

أَنْتَ خَيْرَ النَّاسِ كُلِّهُمُ ... يَابْنَ مَنْ مَا مِثْلُهُ بَشَرُ

فَإِذا مَا لُحْتَ بَيْنَهُمُ ... قِيلَ هَذا البَدْوُ وَالحَضَرُ"

قال: "وأنشدتهما لأحد الأدباء، فقال لي ــ عندما سمع عجز الأول ورأى ترادف الميمات ــ : هذه عُقَد ذنب العقرب؛ فلما سمع الثاني قال: سبحان من

البضاعة. دخلَ الشعراء فَأخذَ لباقَتَهم، وصار في جملة الكتاب فاستعار صلفهم ورشاقتهم، وباشرَ أهلَ الحساب فاستفاد طريقة البراهين، وناظر أهلَ الجَدَلِ فتعلم القوانين، وعَرَفَ عناصرَ الكلامِ؛ فكل علم يَزْعَمُه قبض يده، وكل جدٍّ وهَزلٍ فإليه منسوبٌ، وعنهُ مأخوذ؛ وهو مع ما اجتمع له من ذلك كُلِّهِ، وحُبِي به، أشدهم صَبابَة [ضنانة] بألاَّ يكونَ بالأندلس مُحْسِنٌ سواه، ولا مجيدٌ حاشاه. وكانَ الرَّأيُ عِندِي له أن يَسْكنَ أرْضَ جليقية أو قُطراً بعد عن الإسلام؛ حتى لا يسمعَ فيه لخطيب ذِكراً، ولا يُحِسَّ لشاعرٍ ركزاً؛ فيكون هناك فرْداً. ومنَ العَجبِ أيضاً في أَمرهِ أنَّ كلَّ كاتب كتبَ للسلاطين عندنا، وكلَّ شاعرٍ مدحهم، رُوِيَتْ أَشعارُه ورسائله غير أبي القاسمِ وحدَه. على أنه إنما جلس للتعليمِ على هذا المعنى. وربما عرَّضَ بأن يُؤخذُ منه شيءٌ من أشعارهِ ورسائله ولا يجيبه تلميذ؛ والمحرومُ محرومٌ...

أخلى خاطر هذا الرجل من التوفيق، وجعله يخرى على فمه")). المغرب في حلى المغرب، ج: 1، ص: 73.

وهو مع هذا يسمينا الهمج الهامج، ويسمي البديعَ والصَّابئَ وشمسَ المعالي العَضَاريط. وهو أبخلُ أهلِ الأرض لا محالة. ولم يُقَصِّرْ بنا عنده إلا توقيرُنا لثغَامَتِه [أَي بياض رأسه].

وفي ذي القعدة من سنة خمس وعشرين وأربعمائة أصيب ابن شهيد بداء الفالج؛ فشل حركته، وألزمه الفراش إلى أن مات. وقد أثر عليه ذلك المرض كثيرا؛ إذ طال ثقله عليه؛ وضيق عليك أنفاسه، فكره الحياة على تلك الحال المؤلمة؛ حتى راودته نفسه بالانتحار؛ ولكنه صبر على حكم الله؛ إلى أن وافته المنية سنة ست وعشرين وأربعمائة.

ـ ثم أبو عبد الله محمد بن سليمان الرُّعيني المعروف بابن الحناط الكفيف: سمي بابن الحناط لأن أباه كان يبيع الحِنْطة بقرطبة. وينتسب هذا الأديب إلى قبيلة ذي رُعَيْن الحميرية العربية. هذا وقد ولد ضعيف البصر أعشى؛ وعلى الرغم من علته تلك؛ فقد تمكن من تعلم القراءة، والتفوق في تحصيل علوم شتى. ولم يفتّ في عضده انطفاء بصره بالكامل بعد فترة من الزمن؛ إذ واصل الجدّ والاجتهاد في استيعاب العلوم بمختلف فنونها. ويعتبر ابن الحناط من شعراء وأدباء الأندلس الفحول في زمنه.

وقد كانت له صولات وجولات في مواجهة ابن شهيد؛ ويبدو أنه تفوق عليه في بعض المرات.[1] ويقول صاحب المسهب أن بني ذكوان هم الذين أعانوه في حياته؛ إذ كفوه مئونة الدهر؛ وضمنوا له فرصة التفرغ للعلم. وتقول بعض المصادر أنه كان يغلب عليه الاشتغال بعلم

---

[1] قال ابن بسام: ((وأبو عبد الله بن الحناط هذا زعيم من زعماء العصر ــ كان ــ ورئيس من رؤساء النظم والنثر في ذلك الأوان، وجمرة فهم لفحت وجوه الأيام، وغمرة علم سالت بأعلام الأنام؛ فكم له من وقذة [أي ضربة] لا يبرأ أميمها [أي جرحها]، ونكزة لا يسلم سليمها. وكانت بينه وبين أبي عامر بن شهيد بعد تمسكه بأسبابه، وانحياشه ــ كان ــ إلى جانبه؛ مناقضات في عدة رسائل وقصائد أشرقت أبا عامر بالماء، وأخذت عليه بفروج الهواء... وقد ذكره ابن حيان في فصل من كتابه فقال: "وفي سنة سبع وثلاثين وأربعمائة نعي إلينا أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الحناط الشاعر الضرير القرطبي؛ بقية الأدباء النحارير في الشعر؛ هلك بالجزيرة الخضراء في كنف الأمير محمد بن القاسم. وهلك إثره ابنه الذي لم يكن له سواه بمالقة؛ فاجتثَّ أصله. وكان من أوسع الناس علما بعلوم الجاهلية والإسلام، بصيرا بالآثار العلوية، عالما بالأفلاك والهيئة، حاذقا بالطب والفلسفة، ماهرا في العربية والآداب الإسلامية، وسائر التعاليم الأوائلية؛ من رجل موهَّنٍ في دينه، مضطرب في تدبيره، سيئ الظن بمعارفه، شديد الحذر على نفسه، فاسد التوهم في ذاته، عجيب الشأن في تفاوت أحواله، ولد أعشى الحملاقة، ضعيف البصر، متوقد الخاطر، فقرأ كثيرا في حال عشاه، ثم طفئَ نور عينيه بالكلية، فازداد براعة، ونظر في الطب بعد ذلك، فأنجح علاجا. وكان ابنه يصف له مياه الناس المستفتين عنده، فيهتدي منها إلى ما لا يهتدي له البصير، ولا يخطئ الصواب في فتواه ببراعة الإستنباط؛ وتطبب عنده الأعيان والملوك والخاصة، فاعترف له بمنافع جسيمة، وله مع ذلك أخبار كثيرة مأثورة")). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 437 ــ 438.

المنطـــق؛ الأمـــر الـــذي وضعـــه ــ آنئـــذ ــ موضـــع اتهـــام في دينـــه.[1]

وهـــذه بعـــض العينـــات مـــن قصائـــد ابـــن الحنـــاط بالإضافـــة إلى نصـــوص مـــن نثـــره؛ حفظتهـــا كتـــب التـــراث الأندلـــسي. بـــدءا بمقطـــع مـــن رسالـــة بعـــث بهـــا إلى الوزيـــر أبي العبـــاس ابـــن ذكـــوان قـــال فيهـــا: ((**الإسهـــاب كلفـــة، والإيجـــازُ حكمـــة، وخواطـــر الألبـــاب سهـــام؛ يصـــابُ بهـــا أغـــراضُ الكـــلام؛ وأخونـــا أبـــو عامـــرٍ** [ابـــن شهيـــد] **يسهـــبُ نثـــراً، ويطـــوّل نظمـــاً؛ شامخـــاً بأنفـــه، ثانيـــاً مـــن عطفـــه، متخيـــلاً أنـــه قـــد أحـــرز السبـــاق في الأدب، وأوتي فصـــل الخطـــاب. فهـــو يستقصـــرُ أساتيـــذَ الأدبـــاء، ويستجهـــلُ شيـــوخ العلمـــاء... في ليلـــةٍ بتهـــا، والكـــفُّ الخضيـــبُ سوارُهـــا البـــدر، والشعـــرى العبـــورُ وشاحهـــا النســـر،؛ وكأنمـــا سماؤهـــا روضـــة تفتحـــتِ النجـــوم وسطهـــا زَهـــراً، وتفَجَّـــرَتِ المجـــرَّة خلالهـــا نهـــراً؛ وادٍ يسيـــل بعسجـــد عـــلى رضـــراضِ زبرجـــد. فلمـــا أصبـــت الغِـــرَّة، وأقصـــدت الثغـــرة؛ تقلبـــت عـــراراً، وتناومـــت غـــراراً؛ حـــتى أنبهـــني الفجـــر ببـــرده، وسَرْبَلـــني الصبـــاح بـــبُـــرْده، وهببـــت مـــن النومـــة، وصحـــوت مـــن النـــشْـــوةِ، فَزفففتهـــا إليـــك بنـــتَ ليلتهـــا عـــذراء، وجلوتهـــا عليـــك كريمـــة فكرتهـــا حسنـــاء، تتلفـــع بحبـــرةِ حبـــر، وتتبختـــر في شعـــار شعـــر، مؤتلفٌ بيـــن رَقهـــا ومدادهـــا، ومجتمـــع في بياضهـــا وسوادهـــا...**

---

[1] **المغـــرب، ج: 1، ص: 121.**

وتخـــال القلـــمَ رقَّ لمـــا بـــه فبـــكى؛ فأنشدْهـــا أخـــاكَ الشهيـــدي [أي ابـــن شهيـــد]، **وكلفـــه على العـــروض والقافيـــة مُعارضَتَهـــا، وحمِّلـــه عـــلى الليـــن والشـــدة مُـــقارضتهـــا، فستوقـــد بقلبـــه قبَســـاً، وتـــضْـــربَ في أذنِـــهِ جَرَســـاً؛ فيَتَبيَّـــن بـــه حَظّـــه، ويعـــرف لغيـــره فضلـــه))**.[1]

ويبـــدو أنـــه كـــان بيـــن ابـــن الحنـــاط وابـــن شُهيـــد منافســـة حثيثـــة وبريئـــة؛ لـــم تمنعهمـــا مـــن إظهـــار التقديـــر والاحتـــرام لبعضهمـــا بعضـــا؛ ويتجـــلى ذلـــك مـــن خـــلال تصرفاتهـــا الواضحـــة، ومـــن خـــلال مـــا ينظمانـــه مـــن مقاطـــع شعريـــة يتبـــادلان فيهـــا المديـــح[2].

---

[1] الذخيـــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 439 ـــ 440.

[2] وقـــد نقـــل الحميـــد بعـــض الأبيـــات الـــتي تؤيـــد هـــذا؛ مثـــل: ((فأخبـــرني الرئيـــس أبـــو الحســـن عبـــد الرحمـــن بـــن راشـــد الراشـــدي قـــال: "لمـــا نعيـــت أبـــا عامـــر بـــن شُهيـــد إلى أبي عبـــد اللـــه بـــن الحنـــاط ـ وقـــد عرفـــت مـــا كـــان بينهمـــا مـــن المنافســـة ـ بـــكى، وأنشـــدني لنفســـه بديهـــة:

لَمَّـــا نـــعَى النـــاعِي أبا عَامِـــرِ
أيقنـــتُ أنِّـــي لسْـــتُ بِالصَّابـــرِ
أوْدَى فتَى الظرفِ وَتْبُ النـــدَى
وَسَيِّـــدُ الأوَّلِ وَالآخـــرِ"

ولابـــن الحنـــاط مـــن كلمـــة طويلـــة في مـــدح أبي عامـــر بـــن شهيـــد أولهـــا:

أمَّا الفـــرَاقُ فـــلِي فِي يَوْمِـــهِ فـــرَقُ
وَقـــدْ أرِقـــتُ لـــهُ لـــوْ يَنفـــعُ الأرَقُ
أظْعَانُهمْ سَابَقَتْ عَيْـــنِي التِي انهَمَلَـــتْ
أم الدُّمُـــوعُ مَـــعَ الأظعَـــانِ تسْتَبـــقُ
عـــاقَ العَقِيـــقُ عَنِ السُّلوَانِ وَاتضَحَتْ
فِي توضحٍ لِي مِنْ نَهْجِ الهَـــوَى طـــرُقُ

وممـــا قالـــه ابـــن الحنـــاط في قصيـــدة رفعهـــا إلى الخليفـــة عـــلى بـــن حمـــود:

رَاحَـــتْ تذكـــرُ بِالنسِيـــمِ الرَّاحَـــا
وَطفـــاءُ تكسِـــرُ لِلجنـــوحِ جَناحَـــا
أخـــفَى مَسَالِكهَا الظـــلاَمُ فأوقـــدَتْ
مِـــنْ بَرقِها كَيْ تَهتـــدِي مِصْبَاحَـــا
وَكأنَّ صَوْتَ الرّعدِ خلفَ سَحَابهـــا
حَادٍ إذا وَنَـــتِ السَّحَائِـــبُ صَاحَـــا
جَادَتْ عَلى التلعَاتِ فاكتَسَتِ الـــرُّبَى
حُلـــلاً أقـــامَ لَهَا الرَّبيـــعُ وِشاحَـــا

لـــوْلاَ النسِيـــمُ الذي تأتِي الرِّيـــاحُ بهِ
إذَا تضَـــوَّعَ مِنْ عَرفِ الحِـــمَى الأفـــقُ
لـــمْ أدْرِ أنَّ بُيُـــوتَ الحَيِّ نازِلـــةٌ
نَجْـــداً وَلاَ اعْتَادَنِي نَحْوَ الْحِمَى القـــلقُ
مَـــا فِي الهَـــوَادِجِ إلاَّ الشمْسُ طالِعَـــة
وَمَـــا بقلـــبِي إلاَّ الشـــوقُ وَالأرَقُ

ومـــن أخـــرى:

مِنْ كلِّ بَيْضَـــاءَ مِثْـــلِ البَـــدْرِ مُطلِعـــاً
هَيفـــاءَ مِثل قضِيـــبِ البَـــانِ مُنعَطِفـــا
إلـــفٌ ألفـــتُ الضَّنَـــا مِنْ بَعْدِ فرقتِـــهِ
حَـــتَّى غـــدَا بَـــدَنِي مِنْ دِقـــةٍ ألفـــا)).

جـــذوة المقتبـــس، ص: 58.

فانظُرْ إلَى الرَّوْضِ الأرِيضِ وَقدْ غدَا
يَبكِي الغــوَادِي ضَاحِكــاً مُرتاحــا
وَالنــوْرُ يَبسُــطُ نحوَ دِيمتِهــا يــداً
أهــدَى لها سَــاقِي النــدَى أقدَاحَــا
وَتَخالــهُ حَــيّى الحَيا مِــنْ عَرفِــهِ
بذكِيِّـــــهِ فـــإذَا سَقـــاهُ فاحـــا
رَوْضٌ يُحَــاكِي الفاطِــمِيِّ شمَائــلاً
طِيبــاً، وَمزْنٌ قــدْ حَكــاهُ سَمَاحَــا
أعَــلِيٌّ إنْ تعــلُ المُلــوكَ فإنهــمْ
بهــمٌ جُعلــتَ أغرَّهــا الوَضَّاحَــا
لمــا طلعــتَ لَهــا بِكــلِّ ثنِيــةٍ
أنسَيْتهــا المَنصُــورَ وَالسَّفاحَـــا

وفي قصيــدة أخــرى يقــول في عــلي بــن حمــود أيضــا:

شــقِيَ بَعْدَنا بالبُعدِ مِنْ نِعمَ نُعمَــانُ
وَأُوحِشَ مِنْ لبْنَى عَلى البُعدِ لُبنــانُ
سَقَى القَطرُ مَا بَيْنَ العَقِيقِ وَضَارِجٍ
مَعــارِفَ فِيهَــا لِلأحبــةِ عِرْفــانُ

وَحَيا الحيَــا عَهداً عَهدناهُ باللــوَى
لــوَى دَيننا فِيــهِ صُدُودٌ وَهِجــرَانُ

إلى قولــه:
وَلاَ مِثْلَ هَذَا العَــدْلِ كيــفَ أعَــادَهُ
عَلِيٌّ وَقدْ مَــرَّتْ مِنَ الظلمِ أزْمــانُ

ويقــول فيــه أيضــا في قصيــدة أخــرى:
بَكيــتُ لَهَا شجْــواً وَهنَّ الحمائِــمُ
ينحــنَ بلاَ دَمــعٍ وَدَمعــكَ سَاجــمُ
وَلَما عَلونا الحزْنَ وَاعْتَسَفــتْ بنــا
رُسُومَ الدِّيارِ اليَعْمَــلاَتُ الرَّوَاســمُ

ثــم يقــول:
سَقَى مَنبتَ اللذَّاتِ مِنهَا ابْنُ هَاشِــمٍ
إذَا انهمَلــتْ مِن رَاحَتيــهِ الغمَائِــمُ
إمَــامٌ أقــامَ الدِّيــنَ حَــدُّ حُسَامِــهِ
طرِيــراً وَمِنــهُ فِي يَــدِ الله قائِــمُ

وَيُزْهِرُ فِي يُمناهُ نــوْرٌ مِنَ الظبَــا
لــهُ مِنْ رُؤُوسِ الدَّارِعِيــنَ كمَائِــمُ
سُيُــوفٌ إذَا اعْتلتْ جهَاتُ ثغورِهَــا
فمِنهُــنَّ فِي أعْنَاقِهــــنَّ تمَائِــــمُ
بِكلِّ خمِيــسٍ طبَّــقَ الجَــوَّ نقعَــهُ
وَضَيــقَ مَسْــرَاهُ الجيَادُ الصَّــلاَدِمِ
كــأنَّ مُثــارَ النقــعِ إثمِــدُ عَيْنِــهِ
وَأشفــارَ جَفنيْــهِ الشِّفارُ الصَّــوَارِمُ
تعُــدُّ عَلَيْهِ الطيْرُ وَالوَحْــشُ قوتهَــا
إذَا سَــارَ وَالتفــتْ عَلَيْــهِ القشَاعِــمُ

ويقــول أيضــا في غيرهــا:
رِقتُ وَقدْ غــنَّى الحَمَامُ الهَوَاتــفُ
بمنعَرَجِ الأجْزَاعِ وَاللَّيْــلُ عاكــفُ
أعدْنَ لِيَ الشوقَ القدِيمَ وَطــافَ بِي
عَلى النأْيِ مِنْ ذِكرَى المَلِيحَةِ طَائِفُ

ويضيــف:

سَقَى عَرَصَــاتِ الــدَّارِ كلُّ مُلثــةٍ
مِنَ المُزْنِ تزْجيهَا البُرُوقُ الخَوَاطِفُ

كأنَّ نثِيــرَ القطــرِ مِنهَــا جَوَاهِــرٌ
تفرِّقهَــا لِلرِّيــحِ أيــدٍ عَوَاصِــفُ

كأنَّ ابْتِسَــامَ البَــرقِ فِيهَا إذَا بَــدَتْ
سُيــوفُ عَــلِيٍّ بِالدِّمــاءِ رَوَاعــفُ

ولــه قصيــدة في القاســم بــن حمــود يشيــر فيهــا إلى مقتــل المرتــضى الأمــوي؛ بعــد أن خانــه حليفــه خيــران الصقلــبي؛ فاستهلهــا قائــلا:

لكَ الخَيْــرُ خَيْرَانٌ مَضَى لِسَبِيلِــهِ[1]
وَأصْبْــحَ مُلْكُ اللهِ فِي ابْنِ رَسُولِــهِ

إلى أن يقــول:

وَفُرِّقَ جَمْع الكُفْرِ وَاجْتَمَعَ الــورَى
عَلَى ابْنِ حَبِيــبِ اللهِ بَعْــدَ خَلِيلِــهِ

---

[1] في هــذا البيــت إشــارة إلى قصيــدة أحمــد بــن دراج القسطــلي؛ كــان قــد مــدح فيهــا خيــران بقولــه في المطلــع:

لــك الخيــر قــد أوفى بعهــدك خيــران وبشــراك قــد وافــاك عــز وسلطــان

وَقــامَ لِــوَاءُ النَّصْرِ فــوقَ مُمَنــعٍ
مِنَ العِــزِّ جِبْرِيــلٌ إمَــامُ رَعِيلِــهِ
وَأشْرَقــتِ الدُّنيَــا بِنــورِ خَلِيفــةٍ
بــهِ لاَحَ بَــدْرُ الحَــقِّ بَعْدَ أفولِــهِ
مِــنَ الهَاشِمِيِّيــنَ الذِيــنَ بِمَجْدِهِــمْ
تَعَــوَّدَ شَخــصُ المَجْدِ جَرَّ ذُيُولِــهِ
فلاَ تسَــلِ الأيَّــامَ عَمَّا أتــتْ بــهِ
فمَا زَالــتِ الأيــامُ تــأتِي بسُولِــهِ
وَلَمَّا دَعَا الشَيْطَانُ فِي الخَيْلِ حِزْبَــهُ
وَأقبلَ حِــزْبُ اللــهِ فــوْقَ خُيُولِــهِ
كَتَائِــبُ مِــنْ صَنهَاجَــةٍ وَزَنَاتــةٍ
تَضَايَقُ فِي عَرْضِ الفَضَاءِ وَطُولِــهِ
تَقــدَّمَ خَيْــرَانٌ إلَيْهَــا بزَعْمِــــهِ
لِيُــدْرِكَ مَا قــدْ فَاتــهُ مِنْ ذُحُولِــهِ
فَلمَّا التَــقَى الجَمْعَــانِ عَــاوَدَ رَأيَهُ
فَخَلَّى لِبَعْضِ الهَوْلِ جُــلَّ فُضُولِــهِ
وَوَلَّى وَأبْــقَى مُنْــذِراً مِنْ وَرَائِــهِ
يُقِيــمُ لأهْلِ الغَــدْرِ عُــذْرَ نُكولِــهِ

ومما قاله في المعتلي يحيى بن حمود:

لمْ يَخل مِنْ نوَبِ الزَّمَانِ أديبُ
كلاَّ فشَأنُ النائبَاتِ يَنوبُ
أمْسَى قرَاراً لِلخطوبِ وَأغتدِي
غرَضاً تفوَّقُ نَحْوَهُ فتصِيبُ
وَإذَا انتهَيْتَ إلَى العُلومِ وَجَدتهَا
شَيْئاً يُعَدُّ بهِ عَلَيْكَ ذُنوبُ
وَغضَارَةُ الأيامِ تأبَى أنْ يُرَى
فِيهَا لأبْنَاءِ الذَّكَاءِ نصِيبُ
وَلذَاكَ مَنْ صَحِبَ اللَيَالِي طالِباً
جَدَّا وَفهْماً فاتَهُ المطلوبُ

إلى قوله:

أمتْ أمِيرَ المُؤْمِنِينَ مَوَاحِلاً
فسَقى صَدَاهَا غيْثُهُ الشؤْبُوبُ
المُعْتَلِي بِاللهِ وَالمَلِكُ الذِي
تاجُ الفخارِ برَأسِهِ مَعْصُوبُ
إنْ كانَ عَدُّوا حُبَّ آلِ مُحَمدٍ
ذَنباً فإنِّي لسْتُ مِنهُ أتوبُ

ومما قاله في محمد بن القاسم بن حمود حينما اختار الإقامة عنده في الجزيرة الخضراء:

تفرَّغتُ فِي شُغلِ العَدَاوَةِ وَالظَّعنِ
وَصِرْتُ إِلَى دَارِ الإقامَةِ وَالأمْنِ
أمَقتولةَ الأجْفانِ مِنْ دَمْعِ حُزنها
أفِيقِي فإنِّي قدْ أفقتُ مِنَ الحُزْنِ
فلِلهِ سَيْرِي يَوْمَ وَدَّعتُ صُحْبَتِي
زَمَاعاً وَلَمْ أقرَعْ عَلَى ندَمٍ سِنِّي
رَحَلتُ فكمْ مِنْ جُؤْذَرٍ وَغَضَنفرٍ
يُرَوِّي الثرَى مِنْ فَضْلِ أدْمُعِهِ الهَتنِ
وَمَا عَنْ قِلى فارَقتُ ترْبَةَ أرْضِكمْ
وَلكِنني أشفقتُ فِيهَا مِنَ الدَّفنِ
مَرَرْتُ بشوسٍ وَالنُّجُومُ كأنهَا
توَقدُ مِنْ فِكرِي وَتسْرَجُ مِنْ ذِهنِي
وَأسْرَيتُ مِنْ بَدْرِ الظلاَمِ بِألبَةٍ
بِصُحْبَةِ مُطفِي الجَمْرِ أوْ مُكفِئِ الظَّعْنِ
لبسْنا بِهَا ليْلاً مِنَ الثلجِ أبْيضاً
كسَتهُ يَدُ الصِّنبْرِ ثوْباً مِنَ القطنِ

وَرُحْنا عَــلَى ألبيــرَةٍ فاسْتقــلَّ بِي
جَناحُ عُقابٍ لاَ يَــرُوحُ إلَى وكَــنِ
ولَمــا تنكبْنــا المُنكــبَ لــمْ نَجــدْ
لَنا مَرْكباً أهدَى سَبيــلاً مِنَ السُّفــنِ
ترَامَتْ بنا الأهْوَالُ فِي كــلِّ لُجَّــةٍ
تخيلهَــا جَــوًّا تَجَلــلَ بِالدَّجْــنِ
ترَى السُّفنَ فوقَ المَوْجِ فِيهَا كأنَّهَــا
تَحَدَّرُ مِنْ رَعْنٍ وَتوفِي عَلَى رَعــنِ
فبوَّأتُ رَحْــلِي ظِــلَّ أرْوَعَ مَاجــدٍ
يَقولُ بلاَ خلفٍ وَيُعــطِي بلاَ مَــنِّ
إمَام وَصِيُّ المُصْطفَى وَابــنِ عَمــهِ
أبُوهُ، فتــمَّ الفخــرُ بَيْنَ أبٍ وَابــنِ

ـ ثــم أبــو بكــر عُبــادة بــن عبــد اللــه بــن محمــد الأنصــاري الخــزرجي المعــروف بابــن مــاء السمــاء:[1]

يضعــه كثيــر مــن النقــاد والأدبــاء الأندلسييــن في صــف فحــول الشعــراء بتلــك الديــار. وهــو مــن أهــل قرطبــة؛

---

[1] وصــف الحميــدي ابــن مــاء السمــاء بقولــه: ((مــن فحــول شعــراء الأندلــس، متقــدم فيهــم مــع علمــه؛ ولــه كتــاب "أخبــار شعــراء الأندلــس". ذكــره أبــو محمــد عــلي بــن أحمــد [بــن حــزم]؛ وأنــه كــان حيــا في صفــر سنــة إحــدى وعشريــن وأربعمائــة)). جــذوة المقتبــس، ص: 293.

وينتسب في أصوله الأولى إلى الأنصار؛ وبالتحديد إلى قبيلة الخزرج. ويعتبر ابن ماء السماء من المبدعين المجددين في صناعة الشعر. هذا وقد نسبوا إليه بعض المبتكرات في نظم التواشيح.[1] ويقول ابن بسام أنه كان يظهر التشيع في شعره. وهذه بعض العينات من شعره بدءا بهذا المقطع قاله في علي بن حمود:

---

[1] قال ابن بسام: ((وقيل له ابن ماء السماء لجدهم الأول. ولحق بقرطبة الدولة العامرية والحمودية؛ ومدح رجالها. وكان أبو بكر في ذلك العصر شيخ الصناعة، وإمام الجماعة؛ سلك إلى الشعر مسلكا سهلا؛ فقالت له غرائبه مرحبا وأهلا. وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقها، ووضعوا حقيقتها، غير مرقومة البُرود، ولا منظومة العقود؛ فأقام عُبادة هذا منآدَها، وقوم ميْلَها وسنادَها؛ فكأنها لم تُسْمَعْ بالأندلس إلا منه، ولا أخذتْ إلا عنه؛ واشتهر بها اشتهاراً غلب على ذاته، وذهب بكثير من حسناته. وهي أوزان كثُرَ استعمال أهل الأندلس لها في الغزل والنسيب؛ تُشَوِّقُ على سماعها مصونات الجيوب بل القلوب. وأول من صنع أوزانَ هذه المُوَشَّحات بأفقنا واخترع طريقتها ــ فيما بلغني ــ محمد بن محمود القَبْري الضرير. وكان يصنعها على أشطار الأشعار؛ غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة؛ يأخذ اللفظَ العاميّ والعجميّ ويسمّيه المَرْكَزَ، ويضعُ عليه الموَشَّحة دون تَضمينٍ فيها ولا أغصان. وقيل إن ابن عبد ربّه صاحب كتاب "العقد الفريد" أول من سبق إلى هذا النوع من الموشّحات عندنا. ثم نشأ يوسف بن هارون الرَّمادي؛ فكان أول من أكثر فيها التضمين في المراكيز؛ يضمّنُ كلّ موقفٍ يقف عليه في المراكز خاصّة. فاستمر على ذلك شعراءُ عصرِنا؛ كمكرم بن سعيد وابني أبي الحسن. ثم نشأ عُبادة هذا؛ فأحدَث التضفير؛ وذلك أنه اعتمد مواضعَ الوقف في المركز)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 468 ــ 469.

أطَاعَتــكَ القلــوبُ وَلاَ عَــصِيٌّ
وَحِــزْبُ اللــهِ حِزْبُــكَ يَــا عَــلِيٌّ
فكــلٌّ مَــنِ ادَّعَى مَعَــكَ المَعَــالِي
كــذُوبٌ مِثــلَ مَا كــذبَ الــدَّعِيٌّ
أبَى لــكَ أنْ تُهَاضَ عــلاَكَ عَهْــدٌ
هِشــــامِيٌّ وَجَــــدٌّ هاشــــمِيٌّ
وَمَــا سُمِيــتَ بِاسْــمِ أبيــكَ إلاَّ
لِيَحْيَــــا بِالسَّــمِيِّ لــهُ السَّــمِيُّ
فــإنْ قــالَ الفَخــورُ أبِي فــــلاَنٌ
فَحَسْبُــكَ أنْ تقــــولَ أبِي النــبِيُّ

ويقــول أيضــا في قصيــدة أخــرى:
أبَسْــلٌ عَليكَ المَاءُ حَــتَّى يشُوبَــهُ
دَمٌ وَالكرَى حَتَّى تقضَّ المَضَاجــعُ
أجَــمَّ جيَــاداً أدمَنَ الغــزْوُ نهْكهَــا
فَمِنهَــا حَسِيــرٌ فِي الجهَادِ وَظَالــعُ
وَأغمِــدْ سُيُوفاً تشتكِيــكَ جُفونُهــا
كَمَا تشْتــكِي نُجْلَ العُيُونِ البَرَاقِــعُ

وَسَكِّنْ عَجَاجَ الرَّكــضِ شَيْئاً فقلَّمَــا
يُرَى الجَوُّ مِمَّا هُجْتَــهُ وَهوَ ناصِــعُ
وَآنِــسْ قُصُوراً طالَ إيحَاشهَا بــهِ
فقدْ أشفقتْ مِمَّا صَنَعْــتَ المَصَانِــعُ
وَهَلْ ضَــرَّكَ البَاغِي بسَهْمِ مَكِيــدَةٍ
وَأنتَ بَــوَاقِي عِصْمَــة اللــهِ دَارِعُ؟
وَأيُّ يَــدٍ تنــوِي قِرَاعــكَ بَعْدَمــا
رَأيْنــا يَــدَ الجَبــارِ عَنــكَ تقــارِعُ؟

وقــال راثيــا عــلي بــن حمــود، ومهنئــا لأخيــه القاســم بتــوليــه العــرش:

صَــلى عَلَى المَــلِكِ الشَّهيدِ مَلِيكــهُ
وَسَقَــاهُ فِي ظِــلِّ الجنانِ الكوثــرُ
مَــولًى دَهَتــهُ عَبيــدُهُ، وَغضَنفــرٌ
تركَتهُ أيْــدِي العُفــرِ وَهوَ مُعَفــرُ
كانــتْ تهَيَّبُــهُ الأسُــودُ فغالــــهُ
فِي قصْــرِهِ مُسْتَضْعَــفٌ مُسْتَحْقــرُ
لمْ يُثــنِ عِــزُّ المُلكِ عَنــهُ مَنونــهُ
فَسَمَــتْ لهُ مِنْ حَيْثُ لمْ يَكُ يَحْــذَرُ

خلتـــــهُ سِـــــراً وَالقبَائـــــلُ دُرَّعٌ
تَحْمِيـــهِ لكِـــنَّ المَنايـــا جُسَّـــــرُ
وَلَـــوْ أنهَا رَامَتـــهُ جَهْراً لاَنثنـــتْ
وَالبيـــضُ تقـــرَعُ وَالقنـــا يَتكســـرُ

ثـــم يكمـــل:
مَـــا غـــابَ بـــدْرُ التـــمَّ إلاَّ رَيثمَـــا
جَـــلَّى الدُّجَى عنا الصَّبَاحُ الأزْهـــرُ
إنْ يَهْـــوِ مِنْ أفـــقِ الخِلاَفـــةِ نيـــرٌ
يَهْـــدِي السَّبيـــلَ فقـــدْ تـــلاَهُ نيِّـــرُ
بِالقاسِـــمِ المَأمُونُ أفـــرَخَ رَوْعنـــا
فالقسْـــمُ وَافٍ وَالنصيـــبُ مُوَفـــرُ

ومـــن شعـــره في القاســـم بـــن حمـــود:
مَا ضَيعَ اللـــهُ مُلكاً أنـــتَ رَاعِيـــهِ
وَلاَ أبَـــاحَ ذِمَـــاراً أنـــتَ حَامِيـــهِ
لِلـــهِ دَرُّكَ مِـــنْ مَـــولًى عَوَارِفـــهُ
لمْ تبـــقِ فِي الأرْضِ إلاَّ مَنْ يُوَاليهِ

تَهْدِيهِ وَالناسُ قَدْ ضَلوا كَوَاكِبَ مِــنْ
آرَائِــهِ فِي سَمَــاءٍ مِــنْ مَعَاليــهِ
مُكفــلاً برِضَــاهُ هِمـــــة أنفـــاً
تَرْمِي إلى الغَرَضِ الأقْصَى فتُصمِيهِ
كَانــتْ خِلاَفتُنــا فِي الغرْبِ مَظلَمَة
كــأنَّ أيَامَنـــــا فِيهَــا ليَالِيـــــهِ
سِيَاسَةٌ أبْــرَأتْ بِالرِّفــقِ فِي مَهَــلٍ
دَاءَ الخِــلاَفِ وَقــدْ أعيــا مُدَاوِيهِ
وَحِكمَةٌ خَضعَتْ هَــامُ المُــلوكِ لهَا
عِــزًّا فلاَ حُــرَّ مَوْجُــودٌ بوَادِيــهِ
مُؤَيــدٌ جَــاءَتِ الدُّنيَــا إلَى يَــدِهِ
عَفــواً وَلبَّتــهُ مِنْ قــرْبٍ أمَانِيــهِ
جَلــتْ أيادِيــهِ حَــتَّى إنَّ أنفُسَنــا
وَمَــا مَلكنــاهُ جُــزْءٌ مِــنْ أيَادِيــهِ

ويقــول مادحــا يحــيى بــن عــلي بــن حمــود:

فهَــا أنــذَا يَا ابْــنَ النبــوَّةِ نافــثٌ
مِنَ القولِ أرْيَاً غَيْرَ مَا يَنفثُ الصِّــلُّ
وَعِندِي صَرِيحٌ فِي وَلاَئــكَ مُعــرِقٌ
تشيعــهُ مَحْــضٌ وَبيْعَتــهُ بتــلُ
وَوَالَى أبِي قَيــسٌ أباكَ عَلَى العُــلاَ
فَخيَّــمَ فِي قلبِ ابنِ هِنــدٍ لهُ غِــلُّ

ومــن شعــره أيضــا:

لاَ تشْكــــوَنَّ إذَا عَثــــــرْ
تَ إلَى صَدِيقِكَ سُــوءَ حَالــكْ
فيُرِيــكَ ألوَانــــاً مِــنَ الــْــ
إذْلاَلِ لــمْ تَخطــــرْ ببَالــــكْ
إيــــاكَ أنْ تــــدْرِي يَميــــ
ــنــكَ مَا يَــدُورُ عَلَى شِمَالِــكْ
وَاصْبــرْ عَلَى نــوَبِ الزَّمَــا
نِ وَإنْ رَمَتْ بِــكَ فِي المَهَالــكْ
وَإلَى الــذِي أغــــنَى وَأقــــ
ــنَى اضْرَعْ وَسَلْهُ صَلاَحَ حَالِكْ

وهــذا موشــح لــه يقــول فيــه:

مَنْ وَلِــي ♦ فِي أُمَّــةٍ أمْــراً وَلَــمْ يَعْــدِلِ ♦ يُعْــزَلِ ♦ إلاَّ لِحَاظُ الرَّشَــإِ الأكْحَــلِ

جُــرْتَ فِي حُــكــمَــكَ فِي قــتــلِيَ يَــا مُــسْــرِفُ

فــانــصِفِ فــوَاجــبٌ أنْ يُنــصَــفَ الــمُــنــصِــفُ

وَارْأفِ فــإنَّ هــذَا الــشــوقَ لاَ يَــرْأفُ

عــلِّــلِ ♦ قــلَبي بذَاكَ البَارِدِ السَّلْــسَلِ ♦ يَنْجَلِي ♦ ما بفــؤادي مِنْ جَوَى مُشْعَــلِ

إنــمــا تــبْــرُزُ كَــيْ تــوقِــدَ نَــارَ الفِــتــنْ

صَــنــمــاً مُــصــوَّراً فِــي كــلِّ شــيْءٍ حَسَــنْ

إنْ رَمَــى لــمْ يُخــطِ مِــنْ دُونِ القلُــوبِ الجــنَــنْ

كَيفَ لِي ♦ تَخَلُّــصٌ مِنْ سَهْمِــكَ المُرْسَــلِ ♦ فَصِــلِ ♦ وَاستَبقني حَيــاً وَلاَ تقتــلِ

يَا سَــنــا الــشَّــمْــسِ وَيَــا أبْــهَى مِــنَ الكوكــبِ

يَا مُــنــَى النــفــسِ وَيــا سُــؤلِي وَيَــا مَــطلــبــي

هَــا أنــا حــلَّ بــأعــدَائــكِ مَــا حــلَّ بــي

عــذَّلــي ♦ مِنْ ألــمِ الهجْرَانِ فِي مَعزَلِ ♦ وَالخَلي فِي الحُبِّ لاَ يَسْــأَلُ عَمَــنْ بلي

أنــتَ قَــدْ صَيــرتَ بالحُــسْــنِ مِــنَ الرُّشْــدِ غَــيّ

لــمْ أجــدْ فِــي طــرَقِــي حُــبــكِ ذنبــاً عَــلــَيّ

فــاتــئِــدْ وَإنْ تــشــأ قــتــلِــيَ شَــيْــئــاً فــشــيّ

أجــمــلِ ♦ وَوَالــنِي مِنْكَ يَدَا المُفــضــلِ ♦ فَهْيَ لِي ♦ مِنْ حَسَنَاتِ الزَّمَنِ المُقبــلِ

مَااغتــذَى طــرفِــيَ إلاَّ بــسَــنــا نــاظــرَيــكْ

وكَـــذَا فِي الـحُـبِّ مَا بي لَيْـسَ يَخـفى عَـلـيْـكْ
ولَـــــذا أنـشِـدُ وَالـقـلـبُ رَهـيـنٌ لـدَيـــكْ
يَـا عَـلي ♦ سَلطْتَ جَفنيْكَ عَلى مَقتـلِي ♦ فابقِ لِي قلبي وَجُدْ بالفَضـلِ يَـا مَوئـلِي

ـ ثـم أبـو جعفـر أحمـد بـن أيـوب اللمـائي:[1] يعتبـر أبـو جعفـر اللمـائي مـن الأدبـاء والشعـراء الفحـول ببـلاد الأندلـس. وينتسـب هـذا الكاتـب إلى قبيلـة لمايـة الأمازيغيـة؛ وقـد ولـي ـ في بـلاط عـلي بـن حمـود ـ خطـة الكتابـة. ويبـدو أنـه كـان يعـاني ـ في آخـر أيامـه ـ مـن مـرض ضيـق النفـس أو داء النسمـة كمـا يسـمى آنئـذ؛ وقـد تـوفي في مالقـة بعـد شـدة وعـذاب[2].

---

[1] قـال ابـن بسـام: ((وكـان أبـو جعفـر هـذا ـ وقتـه ـ أحـد أئمـة الكتـاب، وشهـب الآداب؛ مـن سُخِّـرت لـه فنـون البيـان، تسخيـر الجـن لسليمـان؛ وتصـرف في محاسـن الكـلام، تصـرف الريـاح بالغمـام؛ طلـع مـن ثنايـاه، واقتعـد مطايـاه؛ ولـه إنشـاءات سَرِيَّـة في الدولـة الحموديـة؛ إذ كـان علـم أدبائهـا، والمُضطَلـع بأعبائهـا)). الذخيـرة، ق: 1، مج: 2، ص: 617.

[2] وقـد أورد ابـن بسـام قصيـدة لأبي عامـر ابـن شهيـد قالهـا ـ وهـو عـلى فـراش مرضـه المزمـن ـ عندمـا نـعي إليـه أحمـد بـن أيـوب اللمـائي جـاء فيهـا:

أمِـنْ جَنابهُـمُ النفـحُ الجَـنوبيُّ
أسْرَى فَصَاكَ بهِ فِي الغوْرِ غـاريُّ؟
أهـدَى إلَيَّ ظلاَمـاً رَدْعَ نافِجَـةٍ
أدْمـاءَ شـقَّ بهَا الدَّأمَـاءَ هِنـديُّ
وَاللَيْـلُ قدْ قـامَ فِي أثـوَابِ نادبـةٍ
كأنـهُ فـوقَ ظهْـرِ الأرْضِ نـوبِيُّ
والنجْـمُ تَحْسَبُـهُ قـدَّامَ تابِعـهِ
حَمَامَـةً رَامَهَـا فِي الجَـوِّ بَـازِيُّ

وعلى الرغم من شهرته وطول باعه في ميدان الكتابة نثرا وشعراً؛ فإن ما وصل إلينا من أعماله زهيد جداً؛ بسبب الضياع؛ وقد تنبه إلى هذا الأمر ابن بسام حيث قال: ((**إلا أنِّي لم**

وَجَدْوَلُ الأفق يَجْرِي فِي مُنافسِهِ
مَاءٌ سَقَى زَهْرَةَ الخضْرَاء فِضِيُّ
فقلتُ وَالسُّقمُ مَنشُورٌ عَلَى جَسَدِي
يَحدُو الرَّدَى وَرِدَاءُ العَيْشِ مَطوِيُّ:
أهدَى اللمَائِيُّ مِنْ أزْهَارِ فِكرَتِه
نشْراً فقالَ الدُّجَى: مَرَّ اللمَائيُّ
فقِيلَ مَاتَ فقالَ الليْلُ قَارَبَ ذَا
فانهَلَّ مِنْ مُقلتِي نَوْءُ سِمَاكِيُّ
وَبِتُّ فَرْداً أناجِي مُقلتِي شغفاً
كأنِّنِي فِي نقُوبِ الدَّارِ جِنِّيُّ
لاَ عِشتُ إنْ مُتَّ لِي يَا وَاحِدِي أبَداً
وَمَوتنَا وَاحِدٌ لاَ شكَّ مَرئِيُّ
إنَّ الكرِيمَ إذَا مَاتَ صَاحِبُهُ
أوْدَى بِهِ الوَجْدُ وَالثكلُ الطبِيعِيُّ
إنْ مُتُّ قبْلَكَ لاَ تعْجَبْ فذُو أمَلٍ
قَدْ حَمَّ مِنْ دُونِهِ يَوْماً حَمَامِيُّ
أوْ مُتَّ قبْلِي فمَا مَنعَاكَ لِي عَجَبٌ
إنَّ الكرِيمَ إلَى الأصْحَابِ منْعِيُّ
زَادَ البَلاَءُ عَلَى نفسِي فأعْدَمَهَا
صَبْرِي فصَبْرِي عَلَيْكَ اليَوْمَ وَحْشِيُّ
حَتَّى أهُمَّ بقتلِي كلَّ دَاجِيَةٍ
يَا قَوْمِ هَلْ رَامَ هَذَا قَبْلُ إنسِيُّ؟
إنِّي إلَى اللهِ مِنْ عُقْبَى بُليتُ بهَا
جَرَى بهَا الحُكمُ وَالأمْرُ الإلهِيُّ

أجد عند تحريري هذه النُّسخة من كلامه إلاَّ بعض فصول له من منثور؛ وهي ثِمَادٌ من بُحُور؛ وقد أخرجت من براعته ما يشهد له بالفضل في صناعته، والتقدم على أكثر جماعته)).[1] وأهم أعماله التي وردت في المصادر القليلة هذه القطعة النثرية التي بعث بها إلى وزير زهير أبي جعفر أحمد بن عباس جاء فيها: **((غُصنُ ذِكراك عندي ناضر، وروضُ شُكرك لديّ عاطر، وريحُ إخلاصي لك صَبا، وزمنُ آمالي فيك صِبا، فأنا شاربٌ ماءَ إخائك، متفيِّءٌ ظِلال وفائك، جانٍ منك ثمر فَرْع طاب أكله، وأجناني البرَّ قديماً أصله، وسقاني إكراماً برقه، وروَّاني إفضالاً وَدْقه، وأنت الطَّالعُ في فجاجه، السَّالكُ لمنهاجه: سهمٌ في كنانة الفضل صائب، وكوكب في سماء المجد ثاقب، إن أتبَعَتَ الأعداءَ نورَهُ أحرق، وإن رميتَهم به أصابَ الحَدَقَ؛ وعلى الحقيقة فلساني يَقْصُرُ عن جميل أسِرُّه، ووصفِ وُدٍّ أضْمِرُه))**.[2] أما شعره فمنه قوله:

قدْ قلتُ إذْ سَارَ السَّفِينُ بهِ
وَالبَيْنُ يَنهَبُ مُهْجَتِي نهْبَا
لوْ أنَّ لِي مُلكاً أصولُ بهِ
لأخذْتُ كلَّ سَفينةٍ غصْبَا

---

[1] **الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص: 617.**

[2] **نفسه، ص: 618.**

وقــال في أخــرى أيضــا:

غــنَّى وَلِلإيقــاعَ فــو قَ بَيانِ مَنطِقــهِ بَيــانُ
وَكأنمــا يــدُهُ فــمٌ وَقضيبهُ فِيهَــا لِســانُ

زاره بعــض أصحابــه وهــو طريــح الفــراش بفعــل المــرض الــذي أودى بحياتــه؛ فحــاول بعضهــم الترويــح عليــه بغــرض التخفيــف عنــه؛ فقــال لهــم شعــرا:

رَوِّحــنِي عَائِــدِي فقلــتُ لــهُ
مَــهْ، لاَ تــزِدْنِي علَى الذِي أجــدُ
أمَــا تــرَى النــارَ وَهْيَ خامــدَةٌ
عنــدَ هبــوبِ الرِّيــاحِ تتقِــدُ؟

وقــال يشتــكي مــن علتــه بعــد أن يئــس مــن الشفــاء:

عظمَ البَــلاَءُ فلاَ طَبيبٌ يرتــجَى
مِنــه الشفــاءُ وَلاَ دَوَاءٌ ينجــعُ
لــمْ يَبــقَ شَيْءٌ لمْ أعَالِجهَــا بــهِ
طَمَعَ الحَيَــاةِ، وَأينَ مَنْ لاَ يَطمَــعِ؟

"وَإذَا المَنِيــة أنشبــتْ أظفارَهــا
ألفيْــتَ كــلَّ تمِيمَــةٍ لاَ تنفــعُ"[1]

ولــه هــذه القطعــة كذلــك:

يا كبــدِي بِالبَيْــنِ مَــنْ أكلمَــكْ
وَيا دُمــوعَ العَيْــنِ مَنْ أسْجَمــكْ؟
وَيا فــؤَادِي كمْ تقــاسِي الهَــوَى
مُكتتمــاً عــنِّيَ، مَــا أكتمَــــكْ!
علمْتــكَ الكتــمَ أمَــا تسْتــحِي
وَيْحــكَ أنْ تَكتــمَ مَــنْ علمَــكْ؟
كنــتُ أدَاوِيــكَ فــلاَ ذَنَــبَ لِي
لــوْ أنــنِي أعلــمُ مَــنْ أسقمَــكْ

ولــه هــذه قطعــة الــتي يكــون قــد مــدح فيهــا عــلي بــن حمــود:

طلَعــتْ طوَالعُ لِلرَّبيــعِ فأطلعَــتْ
فِي الرَّوْضِ وَرداً قبْلَ حينِ أوَانــهِ
حيــا أمِيــرَ المُؤْمِنِيــنَ مُبشــراً
وَمُؤَمــلاً لِلنيــلِ مِــنْ إحسانــهِ

---

[1] استشهــد هنــا ببيــت أبي ذؤيــب الهــذلي.

ضَنَـــتْ سَحَائبـــهُ عَليـــهِ بمَائهَـــا
فأتـــاهُ يسْتسْقِيـــهِ مَـــاءَ بنانـــــهِ
دَامـــتْ لنـــا أيامـــهُ موْصُولـــــة
بِالعـــزِّ وَالتمْكِيـــنِ فِي سُلطانـــــهِ

ثـــم هـــذه القصيـــدة الـــتي يشكـــو فيهـــا نوائـــب الدهـــر:

أمسَى سَقامِي زَاجـــرِي وَمُؤَنـــبِي
وَغـــدَا مَشِيبِي وَاعِظِي وَمُـــؤَدِّبِي
أوْهتْ خطوبُ الدَّهرِ مِنِّي عَاتِـــقِي
ثقلاً، وَزَعـــزَعَ منكِبـــاهُ منكِـــبِي
وَهمَـــتْ سَحائبـــهُ عَلَيَّ فغـــادَرَتْ
أرْضِي قرَارَةَ كلِّ خطبٍ مُعجـــبِ
فأظلُّ أبصِـــرُ فيهِ مَا لمْ أحْتســـبْ
جـــوراً وَأقـــرَأ فيـــهِ مَا لمْ أكتـــبِ
ســـنٌ حدِيثٌ تحتَ جـــدٍّ شـــارِفٍ
وَســـوادُ رَأسٍ فـــوْقَ قلبٍ أشيـــبِ
أغـــدُو عَلَى بَكـــرٍ لصرفِ بَناتـــهِ
وَأرُوحُ مبتنِيـــاً بأخـــرَى ثيِّـــــبِ

أفتــضُّ مِنهَا كــلَّ يــوْمٍ عــذْرَة
لاَ تشتــهَى وَأزَفُّ مَا لمْ أخطــبِ
يَا سَيــدِي وَأخِي الوَفِيَّ وَمَا أخِي
منهُ إلَى قلــبِ الإخــاءِ بأقــرَبِ
وَإذَا غدَا العِلــمُ المُشــرِّفُ أهلــهُ
نسَبــاً يُؤَلفنــا فنحــنُ بنــو أبِ
هــلاَّ اهتدَيتَ إلَى خِطابِ مــرَزَّإٍ
مَا بينَ أضْلاَعِ الخطــوبِ مُغيــبُ
لمْ يبــقِ مِنهُ الدَّهــرُ غيْرَ مَدَامِــعٍ
سُفــحٍ وَقلــبٍ بِالسقــامِ مُعَــذَّبِ
أخفتــنِيَ الأيــامُ فِي لهَوَاتهَــا
وَسَجَنَنِي فِيهَا فَكيــفَ شَعَــرْتَ بِي؟
وَكتبْتَ عَنْ وُدٍّ وَقــدْ كتبَ الإخــا
بَينَ النفــوسِ صَحَائِفاً لــمْ تكتــبِ
بــأرَقَّ مِنْ دَمعِ المُشــوقِ فــؤَادُهُ
وَأرَقَّ مِنْ رِيــقِ الحَبيبِ وَأعــذَبِ
فظلَلــتُ مِنهُ فِي غدِيــرِ بَلاَغــةٍ
عــذْبٍ وَمُلتفِّ الحَدَائــقِ مُعْشــبِ

كرُمــتْ مَغارِسهُ فأوْرَقَ فرْعــهُ
عِلمــاً وَأثمَــرَ بِالكــلاَمِ الطيــبِ
صُبُــحٌ تــدَرَّعَ مِنْ سَوَادِ مِــدَادِهِ
لَيــلاً كفِعْــلِ الزَّائــرِ المُترقــبِ
خفِيَــتْ مَعَانِيــهِ عَــلَى أوْهامِنــا
فَالفكــرُ بَيْــنَ مُصــدّقٍ وَمُكــذِّبِ
طلعــتْ كوَاكِبــهُ ولَمَّــا تطلِــعْ
وَغرَبــنَ فِيــهِ لنــا لمَّــا تغــرُبِ
أنَا مُذْنــبٌ لاَ شكَّ إذْ لمْ أستَطِــعْ
رَدَّ الجَــوَابِ وَأنتَ غيرُ المُذْنــبِ
حَمَلَتــهُ مِنْ طيبِ الإخــاءِ مَحَبــة
فيكــمْ وَإخــلاَصٌ لكــمْ فتطيَّــبِ
وَبَعَثــتُ مَاءَ الوَردِ فِيــهِ سَائِغــاً
عَذْبــاً لذَائقــهِ زلالاً فاشــرَبِ
أذْكَى مِنَ المِسْكِ الفتِيــقِ نسِيمُــهُ
أرَجــاً وَأصْفَى مِنْ لُعابِ الجنــدُبِ

ـ ثـم أبو بكر عبـد الله بن حجـاج الغافـقي الإشبيـلي: وهـو ـ كمـا يستـوحى مـن اسمـه ـ مـن أهـل إشبيليـة. هـذا وينتسـب ابـن حجـاج إلى قبيلـة غافـق القحطانيـة العربيـة. قـال عنـه صاحـب المغـرب ((**ذكـر الحجـاري: "أنـه شاعـر بعيـد الصـوت، معـدود في شعـراء المعتضـد؛ وكـان قـد هجـر وطنـه، وانتبـذ إلى صاحـب الجزيـرة الخضـراء محمـد بـن القاسـم بـن حمـود... فقـال لـه وزيـره: أسـأل ابـن الخليفـة: هـل أنـت مـن بـني حجـاج أصحـاب السيـرة بإشبيليـة؟ فقـال: لـو كنـت منهـم طلبـت السيـف؛ ولـم أطلـب بالشعـر؛ فقـال ابـن حمـود: لا فـُضَّ فـوك! يـا شَـدَّ مـا امْتَعـضَ لأعْيـانِ بلـده**)).[1] ويكـون ابـن حجـاج هـذا قـد تـوفي بعـد سنـة 430هـ؛ لأنـه تقابـل في هـذه السنـة مـع الحميـدي؛ الـذي قـال إنـه سمـع منـه أشعـارا كثيـرة؛ عندمـا التـقى بـه في السنـة المذكـورة.[2] ومـن شعـره هـذه الأبيـات الـتي ذكرهـا الحميـدي:

لَما كتمْـتُ الحُـبَّ لاَ عَنْ قِـلًى
وَلَـمْ أجـدْ إلاَّ البُكـا وَالعَوِيـلْ
نادَيـتُ وَالقلـبُ بـهِ مُغـرَمٌ
يا حَسْـبِيَ اللـه وَنِعـمَ الوَكِيـلْ

---

[1] **المغـرب، ج: 1، ص ص: 265 ـ 266.**

[2] **جـذوة المقتبـس، ص: 261.**

وأورد لـــه الحجـــاري هـــذه الأبيـــات:

ألاَ أيها الـــوَادِي الذِي رَفَّ ظِلـــهُ
وَفاحَـــتْ خزَاماهُ وَغـــرَّدَ طائِـــرُهْ
أتذْكـــرُ أيامِي بدَوْحِـــكَ وَالحِـــمَى
يبارِكنـــا مِنـــهُ بِجزْعِـــك زَائـــرهْ
وَقدْ رَقَّ نَسْـــجُ العَتبِ بينِي وَبَيْنـــهُ
وَمَا زَاد مِنا الحبُّ عفتْ سَرَائِـــرُهْ

أمـــا المقـــري فقـــد أورد لـــه عـــدة مقطوعـــات؛ منهـــا هـــذا المقطـــع مـــن قصيـــدة مـــدح بهـــا محمـــد بـــن القاســـم ابـــن حمـــود:

يقولونَ إنَّ السِّحْرَ فِي أرْضِ بابـــلٍ
وَمَا السحْرُ إلاَّ مَا أرَتَـــكَ مَحَاجـــرُهْ
وَمَا الغُصْنُ إلاَّ مَا انثنَى تَحْتَ برْدِهِ
وَمَا الدِّعصُ إلاَّ مَا طوَتَـــهُ مَـــآزِرُهْ
وَمَا الـــدُّرُّ إلاَّ ثغـــرُهُ وَكلاَمَـــــهُ
وَمَا الليْـــلُ إلاَّ صَدْغـــهُ وَغدَائـــرُهْ

وأرد لـــه أيضـــا المقـــري مقاطـــع صغيـــرة مـــن الشعـــر الـــذي قالـــه عندمـــا كـــان في إشبيليـــة. لا داعي لإثباتهـــا في هـــذا المجـــال.

ـ <u>ثم أبو محمد غانم بن وليد المخزومي المالقي</u>:[1]

وينتسب هذا الأديب العالم إلى بني مخزوم من قريش؛ وهو من أهل مالقة وعلمائها النابهين. قال فيه الحميدي: ((**فقيهٌ، مدرسٌ، وأستاذ في الآداب وفنونها، مجوِّد؛ مع فضل وحسن طريقة**)).[2] ووردت له بعض المقطع الشعرية في الذخيرة، وبعض المواضع المتفرقة من نفح الطيب، وفي جذوة المقتبس، والصلة. ولغانم بن وليد رسائل نثرية عديدة أوردها ابن بسام؛ منها على سبيل المثال هذه المقطوعة النثرية التي صاغها لما تولى إدريس العالي الخلافة. وفي النص إشارة إلى الأحداث التي تكون قد وقعت في مالقة؛ حين حاول الفتى الصقلبي نجا بمساعدة السطيفي اغتصاب الحكم. قال غانم: ((**ولم يترُك المتطول علينا عزَّ وجههُ بالهدى أمة محمَّدٍ عليه السلامُ سدى؛ بل نظمَ شملها بإمامٍ عادلٍ تجتمعُ إليه، وتعوِّلُ عليه، تتوارثهُ كابراً عن كابرٍ، وتتلقاهُ غابراً عن غابرٍ؛ إلى أن أذِنَ اللهُ للأكمام الهاشميّ، والملك الفاطميّ، والفرع العلويّ، إدريس العالي بالله بن يحيى المعتلي بالله بن علي الناصر**

---

[1] قال فيه ابن بسام: ((قد بذ ـ وقته ـ أهل ذلك الإقليم، في أنواع التعاليم؛ فَرْدَ عصره ونسيج وحده في تناهي جده؛ متفننا جرى في ميدان السَّبْق، وفقيها قرطس أغراض الحق؛ وكان في هذا الباب الذي ولجنا فيه من أهل الرَّوية والبديه)). الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 853 ـ 854.

[2] جذوة المقتبس، ص: 325.

لديـن اللـه بـن حمـود بـن أبي العيـش بـن عبيـد اللـه ابـن عمـر بـن إدريـس بـن عبـد اللـه بـن حسـن بـن الحسـن بـن عـلي بـن أبي طالـب؛ فقـام العـالي باللـه بخلافـة المغربيـن، واضطلـع بملـك العدوتيـن؛ ولمـا آن أوانُ إمامتـه، حـانَ مـن عـدوّه حيـنُ قيامتـه. وكـان مقتـلُ العبـد الغـادر ـ وكافـرُ النعْمَـة كالكافـر ـ في جُمـادى الآخـرة سنـة أربـع وثلاثيـن، وفي عشريـن ليلـةٍ خلـتْ مـن كانـون. فانجلـتْ سمـومُ الشتـاء بانجلائـه، وانقضـت أيـام الشـؤمِ بانقضائـه، وكـان عقـبَ الشهـر في استقبـال شهـر رجَـبَ الشهـر الأصـمّ؛ سُـمِّيَ بذلـك لأنَّ العـربَ أسقطـتْ فيـه قعْقعَـة السِّـلاح؛ وكـأنَّ المثـلَ إنمـا جـرى في مضمـار، عـلى مفـرق الليـل والنهـار، وأرى النـاسَ مخايـلَ السعـدِ والإينـاس، وهـو قولهـم: عِـشْ رجبـاً تـرَ عجبـاً؛ وكـأن هـذا العجـبُ آخِـرَ يـومٍ مـن الليـالي، وقامَـتْ فيـه دولـةُ هـذا الملـكِ العـالي، والشمـسُ تأخـذُ مـن قعـرِ الفلـكِ في الصعـود، وتـؤذنُ بجـري المـاء في العـود؛ وتترقَّى بالعلـم في دَرَجِ السـعـود:

وَاسْتَقْبَـلَ المُلكَ إمَـامُ الهُـدَى
فِي أرْبَـعٍ بَعْـدَ ثلاَثِينَـا
خِلاَفَـةُ العَـالِي سَمَتْ نَحْـوَهُ
وَهوَ ابْنُ خَمْـسٍ بَعْدَ عِشْرِينَـا

إنِّي لأرْجُــو يَا إمَــامَ الهــدَى
أنْ تمْلــكَ المُلـــكَ ثمَانِينَـــا
لاَ رَحِــمَ اللـــهُ امْرُءاً لَمْ يَقــلْ
عِنــدَ دُعَــائِي لــكَ آمِينَـــا

فسفــرت الدنيــا قناعهــا فتيــة، وبلغــت النفــوسُ بخلافتــه الأمنيــة، وانثالــتْ عليــه بيعــاتُ الأمصــار، وأمــتْ حضرتــه الرُّســلُ مــن جميــع الأقطــار، وبــدأ بالفضــل، وصــدع بالعــدل؛ فأحيــا مآثــرَ آبائــهِ الطاهريــن)).[1]

وفي رسالــة لــه بعــث بهــا إلى أبي الحســن الحصــريّ قــال: ((**مــا أفصــحَ لسانــك، وأفســحَ ميدانــك، وأوضــحَ بيانــك، وأرجــحَ ميزانــك، وأنــورَ صباحــك، وأزهــرَ مصباحــك؛ أيهــا السابــق المتمهــل، في ميــدان النّبــل، والسَّامِــقُ المتطــوِّلُ بفضائــلِ الذّكــاء والفضــل؛ أرحتــني مــن غــلِّ الهــمِّ، فأزهدتــني أريحيّــة، وأزَحتــني عــن ظــلّ الغــمِّ، فلاحــتْ لي شمــسُ الأمنيــة، بمــا أطلعتــه عــليّ، فنفذتــه مكارمُــك إليّ. فقلــت: أعَصْــرُ الشبــابِ رَجَــع، أم كوكــبُ السَّعــدِ طَلَــعَ، أم بأرقُ الإقبــالِ لمــع؟ كــلاَّ واللــه؛ إنهــا لمكرُمَــةٌ فهريــة، أهدتهــا نفــسٌ سنيــة، وهمَّــة عليَّــة. إن قلــتُ الوشيُ الصنعــانيّ فقــد نقصتهــا، أو الدّيبــاجُ الخســروانيّ فقــد بخستُهــا. بــلى**

---

[1] الذخيــرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 861 ــ 862.

واللـــه، أرتـــني زهـــرَ الرَّبيـــع في غيـــرِ أوانـــه، وحُســـنَ الصَّنيـــع عـــلى عَدَمـــه في أهـــلِ زمانـــه؛ لمحـــتُ منـــه عِقـــد الـــلآل، يبـــقى عـــلى أخـــرى الليـــال؛ فأنـــت واحـــدُ البلاغـــة الـــذي لا يجـــارَى، وفـــارسُ الفصاحـــة الـــذي لا يُبـــارَى؛ وقـــد اعتقـــدتُ مـــا بـــه أشـــرت، وإيـــاه اعتمـــدت، لـــو لاح لي في أفـــق النقلـــةِ صبـــاح، أو استقـــلّ بي في طـــرُق الرّحلـــة جنـــاح.

وكـــم حاولـــتُ مسالمـــة النوائـــب بانقبـــاضي، ومـــداراة الدُّنيـــا بتـــركي لأغراضِهـــا وإعـــراضي؛ فـــإذا الانقبـــاضُ قـــد حصَّلـــني في جملـــةِ القَبـــض، والتـــركُ للأغـــراض قـــد جعلـــني للنـــوَب كالغـــرض؛ ولا ســـلاحَ إلاَّ الدُّعـــاء إلى اللـــه تعـــالى في الصَّـــلاح، ولا جنـــاح إلاَّ التمـــني لمـــن يقـــولُ مـــا عليـــك جُنـــاح؛ فسبحـــان مـــن قـــدرَ أن أكـــونَ لنـــاب النـــوَب حربـــاً، وتكـــونَ عـــليّ أيـــامُ الزمـــان إلبـــاً، أصـــلى بنـــار المصائـــب السُّـــود؛ كـــأنِّي ممَّـــا أنـــا بـــاكٍ منـــه محســـود. أستغفـــرُ اللـــه! فقـــد حـــمي صـــدري حـــتى غـــلى مِرْجَلـــه، وضـــاق مجـــالُ فكـــري حـــتى اتَّســـعَ في الشكـــوى مقولَـــه. ولـــو أني سلمـــتُ لمواقـــع الأقـــدار، وعلمـــتُ أنـــه ليـــس عـــلى القـــدَر اختيـــار، ورضيـــتُ بمـــا يـــأتي بـــه الليـــلُ والنهـــار، وتَيَقنـــتُ أنَّ خُلـــقَ الزمـــانِ عـــداوة الأحـــرار؛ لأرحـــتُ قلبـــاً يتقلـــبُ في جمـــرِ الأسى، وأذكـــرتُ لبَّـــا قـــد نـــسي الاقتـــداء بالأسى)).[1]

---

[1] الذخيـــرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 856 ــ 857.

ومن المقطوعات الشعرية لغانم بن وليد؛ هذه الأبيات التي قالها لما دخل على مجلس باديس ابن حبوس؛ فوسع له كي يجلس على رغم الضيق فقال:

صَيرْ فؤَادَكَ لِلمَحْبُوبِ مَنزِلَة
سمُّ الخِياطِ مَجَالٌ لِلحَبِيبَيْنِ
وَلاَ تسَامِحْ بَغِيضاً فِي مُعَاشَرَةٍ
فقلمَا تسِعُ الدنيَا بَغِيضَيْنِ

وله أيضا:

الصَّبرُ أوْلَى بِوقار الفتَى
مِنْ قلقٍ يَهْتِكُ سِترَ الوَقارْ
مَنْ لزِمَ الصَّبْرَ عَلَى حَالِهِ
كانَ عَلَى أيامِهِ بِالخيارْ

ومما قاله في العالي بالله إدريس بن يحيى ابن حمود:

لَوْلاَ التَّحَرُّجُ لمْ يُحْجَبْ مُحَيَّاكِ
حُيِّيتِ عَنا وَحُيِّينا بِمَحْيَاكِ
هَذا اللثامُ غَمَامٌ مَا يُبينُ هُدًى
حُطِّي اللثامَ فَليسَ البَدْرُ إلاَّكِ

لمَّا هَدَيْــتِ إلَى نَعْمَــانَ سَافِــرَةً
كانتْ هدَايَتُنــا مِنْ بَعْضِ نُعْمَــاكِ

ثم يضيف:
أوْ يَمِّمِي حَضْرَةَ العَالِي بِمَا احْتَمَلَتْ
مِنِّي الضُّلوعُ فَثَــمَّ البُرْءُ لِلشَّــاكِي

ويقــول في قصيــدة أخــرى:
يَا غَرِيبــاً بِحُسْنِــهِ قِصَّتِي فِيكَ أغْــرَبُ
أنْتَ فِي طَيِّ نَاظِرِي وَالمُنَى مِنْكَ تُحْجَبُ
لاَ تَلــمْ فِي مِــدَادِهِ بدَمِ القلــبِ يُكتَــبُ
إنَّ إدْرِيــسَ مَاجِــدٌ لِلعُلاَ فِيــهِ مَذهَــبُ
جَــدُّهُ خَاتمُ الهُــدَى وَعَــلِيٌّ لـــــهُ أبُ
فَهْــوَ لِلْمَجْدِ مَطْلــعٌ وَهْوَ لِلْمَجْدِ مَغــرِبُ

ويقــول دولــة إدريــس العــالي:
ضَحِــكَ الزَّمَانُ إلَيْكَ بَعْدَ عُبُــوس
وَنَــفَى دُجَى الإيحَــاشِ بِالتأنِيــسِ

فَأَدِرْ نُجُومَ الرَّاحِ فِي فَلَــكِ المُــنَى
وَتَطُوفُ نَحْوَكَ مِنْ أكــفِّ شُمُــوسِ
فِي رَوضَةٍ تُحْيِي النُّفُــوسَ كَأَنَّمَــا
بَاتَــتْ تَنَفــسُ عَنْ عُــلاَ إِدْرِيــسِ
مَلِــكٌ أقــامَ اللــهُ دَوْلَــةَ مُلكِــــهِ
فَكَبَــا مِنَ الأعْــدَاءِ كــلُّ رَئِيــسِ
مِنْ دَوْحَةِ الــوَحْيِ الــتِي بِسُمُوِّهَــا
دَرَسَــتْ مَعَانِي الكفــرِ أيَّ دُرُوسِ

وقــال في رثــاء أخويــه:

يــا دَمْــعُ لاَ تخــذُلْ وَكنْ مُسْعِــداً
لاَ تَخــشَ مِنْ صَبْرِيَ أنْ يَمْنعَــكْ
أخٌ غرِيـــقٌ وأخٌ فِي الثـــرَى
وَترتــجِي السَّلــوةَ مَــا أطمَعَــكْ!
إنَّ جُمــودَ العَيــنِ خــوْفَ العِــدَا
وَرِقبَــةَ الحُسَّــادِ لــنْ يَنفعَــــكْ
يــا عُمَــراً أعْمَــرْتَ قلــبِي أسىً
وَدَّعَ صَبــرِي مِثلمَــــا وَدَّعــــكْ

رُزِئــتُ فِي الدُّنيَــا يَدَيْ نصْــرَتِي
يَــا دَهــرُ تبــاً لــكَ مَــا أفجعــكْ

وقــال واصفــا وادي مالقــة في موضــع يســمى ربــوة العقــاب:

ضحِــك الزَّمَانُ بِحسنِــهِ وَبهَائــهِ
كَالصَّبِّ يَضْحَكُ بَعْدَ طولِ بُكائِــهِ
وَكــأنَّ إقبَــالَ الرَّبيــعِ بوَصلِــهِ
وَصْلُ الحَبيبِ أتــاكَ بَعْدَ جَفائِــهِ
وَكأنمَــا وَادِي العُقــابِ عَشيــة
مُسْتَمْطِــرٌ دَمْعِي بِجرْيــةِ مَائــهِ
وَكأنَّ رَشحَ الطلِّ فِي رَوْضِ الرُّبَى
رَشحُ الخدُودِ بَــدَا بنــارِ حيائــهِ

وكــان يُحْــيي جلســات الأنــس والطــرب في قصــر الملــك العــالي إدريــس بــن يحــيى مطــرب اسمــه المهــدوي؛ فطلــب يومــا مــن غانــم تذييــل بيــت مــن الشعــر كــان يحفظــه؛ حــتى يتســنى لــه الغنــاء بــه؛ مــع التذييــل. والبيــت الــذي يحفظــه المهــدوي هــو:

يَا نائِبَ الوَجهِ عَنْ شمْسِ الضحَى غَسَقاً
وَالبــدْرُ لــوْ كلفــوهُ ذَاكَ لــمْ ينــبِ

فأكمــل غانــم بــن وليــد بديهــة:
فِي غــرَّةِ الملكِ العَــالِي وَمَنظــرِهِ
بــدْرٌ يُعطــلُ نورَ السبعةِ الشهـــبِ
نــرَى محيــاهُ فِي ليــلٍ فيخبرُنــا
عنِ الحَقِيقــةِ أنَّ الشمــسَ لمْ تغــبِ

وحــدث أيضــا في بعــض جلســات الأنــس والسمــر والغنــاء؛ الــتي كــان يحييهــا المغــني محمــد بــن الحمــاميّ أن طلــب الملــك إدريــس مــن غانــم تذييــل بيــت ابــن المعتــز:
هــلْ يُزِيــلُ البَيْــنَ مُحْتــالُ
أنْ غــدَتْ لِلبَيْــنِ أجْمَــالُ

فأكمــل غانــم قائــلا:
إنمــا العَــالي إمَــامُ هــدًى
حَلِيَــتْ فِي عَصْــرِهِ الحَــالُ
مَلِــكٌ إقبَــالُ دَوْلتــهِ
لِــذَوِي الأفهَــامِ إقبَــالُ

قــلْ لِمَتنْ أبــدَتْ مَطَالبـــــهُ
رَاحَتــاهُ الجـــــاهُ وَالمَـــــالُ[1]

ـ وأبــو عبــد اللــه محمــد بــن الســرّاج المالــقي: لــم يتــم التعــرف عــلى أصــل نسبــه الأول؛ إذ أحجمــت المصــادر المتوفــرة عــن الإشــارة إلى ذلــك؛ ولــم تذكــر ســوى أنــه مــن أهــل مالقــة[2]. أمــا ابــن بســام فقــد نقــل مقطوعــات عديــدة مــن شعــره؛ ولكنــه لــم يشــر إلى ترجمــة حياتــه؛ وكــل مــا قــال فيــه: ((**محســنٌ في**

---

[1] وممــا حكــاه غانــم عــن مجالــس السمــر الــتي تقــام بقصــر الملــك إدريــس قولــه: ((وحضــرتُ مجلســهُ أيضــاً فتغــنَّى الحمــاميُّ بشعــرِ محــدثٍ أولــه:

إذَا بَلَغتِــني يَــا نــا قــتِي المَسْــمِيَّ إدْرِيســا

فكــأنَّ العــالي باللــهِ استحســنَ الحُــلــةَ ولــم يــرضَ قولــه "المســمــيِّ"؛ وإنمــا هــو المســمِّــي أو المُــســمَــى مــن سمّــيــت أو أسميــت؛ ولا يُــقــالُ مــن التسميــة سمــوتُ ولا سميــت؛ ولــو قــال "المُســمَى بإدريســا" لصــحَّ الــوزنُ والكــلام؛ فأطــرَقَ قليــلاً ــ أيــده اللــه ــ ثــم قــال: للمُــغــنــي: "أعِــدِ الصــوتَ؛ قــل:

إذَا ضَاقــتْ بكَ الدُّنيَــا فَعَــرِّجْ نحــوَ إدْرِيسَــا
إذَا لاَقيتــــهُ تلــــقَى رَئيســاً لَيْسَ مَرْءوسَــا
وَمَــنْ عَزَمَاتــهُ تنــفِي عــنِ الأوْطــانِ إبْليسا
إمَــامٌ ماجــدٌ ملــــكٌ يزيــلُ الغــمَّ وَالبُؤسَــا")).

الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص: 864.

[2] قالــه عنــه الحميــدي مثــلا: ((محمــد بــن الســرّاج المالــقي: منســوب إلى مالقــة؛ بلــد مــن بــلاد الأندلــس؛ عــلى ساحــل المَجَــاز الــذي يقــال لــه الزُّقــاق؛ لــم يقــع لي اســم أبيــه؛ شاعــر أديــب مشهــور؛ رأيــت لــه أشعــارا في ذي الوزارتيــن أبي جعفــر أحمــد بــن بَقنــة وزيــر دولــة العلويِّيــن مــن بــني حمــود؛ وذكــره أبــو عامــر بــن شُهَيْــد مفضِّــلا لــه؛ وأنشــد ممــا استحســن مــن شعــره:

وكَــمْ عَنَّ يَوْم النحْــرِ مِنْ نَحْــرِ شَــادِنٍ
لِعيــنِي بِأطــوَاقِ الجمــالِ مُطــوَّقِ)).

جذوة المقتبس، ص: 61.

أهـل عصـره مَعـدود، وشاعِـرُ بـني حَمُّـود؛ ولـه فيهـم غيـرُ مـا قصيـد، ومقطوعـاتٌ في النَّسيـب؛ وجدتهـا بخـطّ الأديـب أبي عـليّ الحسـن بـن الغليـظ مـن أفـق مالقـة أيضـا؛ صاحبـه الكثيـر الاتصـالِ بـه والمُنادمـةِ لـه)).[1] وكمـا هـو واضـح؛ فشعـر ابـن السـراج هـذا تغـب عليـه نزعـة الوصـف، وحـب الطبيعـة، والغـرق في المجـون. وهـذه بعـض المقاطـع المختـارة مـن الذخيـرة والمغـرب ونفـح الطيـب. فممـا قالـه عنـد سماعـه لهـزار؛ وهـو ذلـك الطائـر المسمى في بـلاد المغـرب والأندلـس بـأمِّ الحَسَـن[2]:

وَمسْمِعَـةٍ تغنينـا ارتجـالاَ

وَتصْحبنـا بنغمتهَـا دَلاَلاَ

وَبينَ أكفنـا خمـرٌ وَمـاءٌ

إذَا ما سالَ خِلتَ الدُّرَّ سَـالاَ

فإنْ شاءَتْ سقيناهـا مدَامـاً

وإنْ شـاءَتْ سقيناهـا زُلاَلاَ

وَلوْ سُقيتْ دَمِي وَدَمِي حَرَامٌ

لَكـانَ لِحسـنِ منطِقِهَا حَلاَلاَ

---

[1] **الذخيـرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 870 ــ 871.**

[2] **ثمـة قـول يـرى أن أم الحسـن هي الشحـرور والعندليـب والبلبـل.**

ويقــول أيضــا:

وَمُسمِعَةٍ غنتْ فهَاجــتْ لنا هــوًى
جنينا به مِنها ثمَــارَ المنَى جنيــا
دَعوْتُ لَهَا سُقيَا، فمَا اسْتكمَلَ الرِّضَا
دُعائِي لها حَتى سَقاها الحَيا سَقيَــا
وَكأسٍ عَلى طِيبِ استمَاعِي لِصَوتِها
شرَبتُ، وَدَمعُ المُزْنْ يُسعدُنِي جرْيا

ثــم يقــول:

كفَي حزناً أنِّي أرَى الحسنَ ممكِنــاً
ولَستُ أرَى لِي فيهِ أمْراً وَلاَ نهيــا
ولَوْ تعــدِلُ الأيــامُ فِي بذلِ خطــةٍ
لَمَا كنتُ فِي السُّفلَى وَغَيْرِيَ فِي العُليا

ومِمــا قالــه في ديــك صــدح مــع السحــر:

رَعَى اللهُ ذَا صَوْتٍ أنسْنا بصَوتــهِ
وَقد بانَ فِي وَجهِ الظلاَم شحــوبُ
دَعــا مِنْ بعِيــدٍ صَباحاً فأجابــهُ
يُخبرُنــا أنَّ الصبــاحَ قــرِيبُ

عَليَّ لـــهُ ــ لوْ كنتُ أملكُ أمـــرَهُ
حياةٌ عَلَى طِيبِ الزَّمـــانِ تطِيـــبُ

ولـــه كذلـــك:

رَعَى اللـــهُ فِتيَانـــاً أنسْتُ بقرْبهـــمْ
عَلَى جَـــدْوَلٍ لِلمـــاءِ فِيـــهِ خرِيـــرُ
أقمنا بهَا يَوْمينِ فِي خفضِ عِيشـــةٍ
وَلاَ عيـــشَ إلاَّ قهـــوَةٌ وَغدِيـــــرُ
تـــدُورُ القـــوَافِي بَيننـــا نستحِثهـــا
وكـــأسُ الحميا بِالســـرُورِ تـــدُورُ
وَفِي الشجرَاتِ الخضرِ مِنهُ رَقِيقـــة
لنغمتِهَـــا بَيْـــنَ الضُّلـــوعِ هدِيـــرُ
إذَا مَا تغنـــتْ فوقنـــا قلـــتُ قيْنـــة
تلاَهـــا بصَـــوْتٍ مُثلثـــانِ وَزِيـــرُ
سَبَتنِي بِصَوْتٍ لوْ يُبـــاعُ اشترَيتـــهُ
بمَا مَـــرَّ مِنْ عمـــرِي وَذَاكَ يسيـــرُ

ــ ثـــم أبـــو عـــلي الحســـن بـــن الغليـــظ المالـــقي:
كـــان ملازمـــا لزميلـــه الشاعـــر ابـــن الســـراج المالـــقي؛ فهمـــا وجهيـــن لعملـــة واحـــدة كمـــا يقـــال. والمصـــادر

التي تكلمت عن ابن السراج تحدثت ـ في سياق واحد ـ عن ابن الغليظ؛ لأنه كان هو المورد الأساسي الذي استقت منه تلك المصادر الأدبية أخبار زميله ابن السرج. وكان هذان الشاعران في خدمة ملوك بني حمود. ويتميز شعرهما بالتوجه نحو وصف الطبيعة، والمجون. هذا وقد جاءت أشعار ابن الغليظ متداخلة مع أشعار ابن السراج؛ إذ كانت عبارة عن مطارحات شعرية إخوانية بينهما؛ حيث كان ابن الغليظ ـ في أغلب الأحيان ـ يستفز صديقه ابن السراج بشطر أو بيت أو بعض أبيات؛ فينساق هذا الأخير مع تيار الإغراء؛ فيأتي ببقية الفكرة متقيدا بالبحر والقافية والروي نفسه. وكعينة من شعر ابن الغليظ؛ هذه الأبيات التي بعث بها إلى ابن السراج مغريا إياه كي يلتحق به؛ حيث أعد مجلس شراب وأنس:

يا خليلاً صَفا وَكَدَّرَ يوْمِي
هل إلَى الطيبِ فِي غدٍ مِنْ سبيلِ؟
لوْ ترانِي أسارِقُ اللحظَ خِلي
وَأسقِّي مِنْ رِيقهِ المعسولِ

لتمَنيــتَ أنْ تــرَى "حسُــنَ الــوَرْ
دِ" [1] تغنيــكَ بِالغنــاءِ النبيـــلِ
يا خلِيــلاً مِثالــهُ نصْــبَ عيــنِي
لــوْ خلونــا إذَنْ شفيــتُ غليــلِي

وقــال واصفــا جلســة مــن جلساتهمــا في الطبيعــة الخلابــة؛ محــاولا بذلــك تحريــك صديقــه ابــن ســراج، واستفــزازه لــكي يصــف ذلــك الموضــع الجميــل:

شرِبنــا علَى مــاءٍ كــأنَّ خرِيــرَهُ
خرِيــرُ دُموعِي عِند رُؤْيةِ أزْهــرِ [2]
حلفــتُ بعينيهَا لقــدْ سَفكــتْ دَمِي
بأطــرَافِ فتــانِ وَألحــاظِ جــؤذرِ

ثــم أعــاد إنشــاد صــدر البيــت الأول؛ بغــرض تحريــك صديقــه ابــن الســراج:

شرِبنــا عَــلَى مــاءٍ كــأنَّ خرِيــرَهُ

---

[1] حُســُــن الــوَرْد: جاريــة يحبهــا ابــن الســراج.

[2] أزْهــَــرُ جاريــة لبعــض أصدقائهمــا كــان يهواهــا ابــن الســراج.

فقـــال عـــلى الفـــور:

بكـــاءُ محـــبٍّ بانَ عنـــه حبيـــبُ
فمنْ كانَ مشغوفـــاً كئيبـــاً بإلفـــهِ
فـــإنِّي مشغـــوفٌ بـــهِ وَكئيـــبُ

ومـــن المقاطـــع الشعريـــة الـــتي نسبهـــا ابـــن بســـام إلى ابـــن الغليـــظ؛ بغـــرض استفـــزاز ابـــن الســـراج:

بـــدَا الورْدُ فِي أغصانهِ متعرِّضـــاً
يذَكـــرُنِي مَن اسمهُ حســـنُ الـــورْدِ
يذَكـــرُ أيامـــاً نعمنـــا بطِيبهـــا
ورَشف رُضابٍ طَعمهُ حَسنُ الورْدِ
فدَعنِي ولاَ تلـــحَ علَى الحبِّ أهلـــهُ
فَلوْ كُنت تدْرِي لَمْ تلمْنِي علَى وَجدِي

فقـــال:

ولَما تبـــدَّى الورْدُ فـــوقَ غصُونـــهِ
وَذَكرنِي بِالـــورْدِ فِي صَفحةِ الخـــدِّ
ذَكـــرْت به منْ خـــدُّهُ لِيَ رَوْضـــة
تهيمُ بها مَن حسنِها رَوْضةُ الـــورْدِ

فقلتُ لِمنْ عهدِي لـــهُ مِثــلُ عهــدِهِ
سَقاكَ الحَيا مِنْ صَاحِبٍ حافِظِ العهدِ
وَقلتُ اسْقِنِي كأساً عَلَى طِيبِ ذِكرِها
فــإنِّيَ مَشغوفٌ بِها بينِكــمْ وَحــدِي

وكتــب إلى ابــن الســراج معتــذرا عــن تخلفــه عــن موعــد تواعــدا عليــه:

يــا صَدِيقــاً وِدَادُهُ مَا يرِيــمُ
وَخليــلاً إخــاؤُهُ لِي يــــدُومُ
جَاءَنِي رَاغِباً لأحضُرَ عُرْســاً
مَنْ لــهُ عِندَنــا ذِمــامٌ قدِيــمُ
وَهوَ عُسٌ لاَ تأتِهِ خاوِيَ البطْـ
ـنِ فإنَّ الغــدَاءَ فِيــهِ نسِيــمُ

وكتــب إلى ابــن الســراج ــ أيضــا ــ بعــد عودتــه مــن سفــر متعــب؛ رافــق فيــه أناســا لــم يرتــح لرفقتهــم:

يا مَنْ أقلبُ طــرفِي فِي مَحاسِنــهِ
فــلاَ أرَى مِثلهُ فِي النــاسِ إنسَانــا

لَوْ كُنتَ تَعلــمُ مَا لاَقَيتُ بَعْــدَكَ ما
شَرِبتَ كَأساً وَلاَ استَحْسَنتَ رَيحَانــا

فأجابــه بقولــه:

يا مَــنْ إذَا سقتنِي الــرَّاحَ رَاحتــهُ
أهــدَتْ إلَيَّ بِها رُوحــاً وَرَيحانــا
مَنْ لَمْ يَكنْ فِي صَباحِ السَّبتِ يَأخُذها
فَلَيسَ عِندِي بِحُكمِ الظرْفِ إنْسَانــا
فَكنْ عَلَى حُسْنِ هَذَا اليوْمِ مُصْطَبِحاً
مُؤَخــراً حسنــاً فِيــهِ وَحسانــا
وَفِي البَسَاتِينِ إنْ ضَاقَ المَحَــلُّ بِنــا
مَندُوحَة لاَ عَدمْنــا الدَّهــرَ بُسْتَانــا

ـ ثــم أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا القِبذَاقِي الأشبــوني:[1]
لــم يكــن ابــن مقانــا مــن المقيميــن في مالقــة؛ ولكنــه زار بــلاط الخليفــة العــالي إدريــس بــن يحــيى؛ خــلال تجوالــه في بــلاد الأندلــس؛ أيــن مدحــه كمــا مــدح بعــض الأمــراء في تلــك الربــوع. هــذا وقــد كتــب الحميــدي اسمــه هكــذا: ((**عبــد الرحمــن بــن مقنــاة**

[1] **قــال فيــه ابــن بســام: ((مــن شعــراء غربنــا المشاهيــر؛ ولــه شعــر يُعْــربُ عــن أدب غزيــر؛ تصــرف فيــه تصــرف المطبوعيــن المجيديــن؛ في عنفــوان شبابــه وابتــداء حالــه، ثــم تراجــع طبعــه عنــد اكتهالــه)). الذخيــرة، ق: 2، مج: 2، ص: 786.**

البطليــوسي؛ أبــو زيــد)).[1] وقــال إنــه شاعــر مشهــور؛ ثــم أورد لــه هــذا القطعــة الشعريــة:

وَرَوْضٍ مِنْ رِيَاضِ الحُزْنِ ناءٍ
كــأنَّ مــلاَءَهُ وَشْيٌ مُعضــدْ
خرَقنــا دُونهُ أحشــاءَ خــرْقٍ
كــأنَّ سرَاتــهُ جيــشٌ مُــزَرَّدْ
وَقدْ نشــرَ الصَّبَاحُ رِدَاءَ نــورٍ
عَلَى دُرَرٍ مِنَ الزَّهرِ المُنضــدْ
كــأنَّ الطــلَّ مُنتشِــراً عَليــهِ
بــرَادَة فِضةٍ فِي الجــوِّ تبــرَدْ
كــأنَّ غدِيــرَهُ مــرْآة قيــنٍ
جلاَها الصَّقلُ أوْ صَرْحٌ مُمَــرّدْ
إذَا طربــتْ عَليهِ الطيرُ غنــتْ
لإسْحــاقٍ وَزِرْيــابٍ وَمَعبــدْ

---

[1] **جــذوة المقتبــس، ص: 279.**

أمـــا ابـــن بســـام فقـــد نقـــل عـــن الوزيـــر الفقيـــه محمـــد بـــن إبراهيـــم الفهـــري قولـــه: ((**كـــان أبـــو زيـــد ابـــن مقانـــا قـــد انصـــرف شيخـــا إلى وطنـــه عندنـــا؛ بعـــد أن جـــال أقطـــار الأندلـــس عـــلى رؤســـاء الجزيـــرة؛ قـــال: فمـــررت بـــه يومـــا بقريتـــه الـــتي تـــدعى بالقِبـــذَاق مـــن ساحـــل شِنتـــرة؛ وبيـــده مزبـــرة** [أداة لقطـــع الأشجـــار]؛ **فلمـــا رأيتـــه ملـــت إليـــه ومـــال إلي، وأخـــذ بيـــدي، وجلسنـــا ننظـــر في حـــراثٍ يحـــرثُ بيـــن يديـــه**)).[1] ويبـــدو أن ابـــن مقانـــا كـــان لا يسمـــع جيـــدا؛ إذ وصـــف نفســـه بالصمـــم في هـــذا البيـــت:

سمِعـــتُ الكنـــكَ يَصْـــرُخُ فِي الرَّبيـــعِ
عَلى مَـــا بِي مِـــنَ الصَّمَـــمِ الطبيـــعِي

ومـــن أشهـــر قصائـــده هـــذه القصيـــدة الـــتي حظيـــت بانتشـــار واســـع في المغـــرب والأندلـــس؛ وهي الـــتي قـــال فيهـــا ابـــن بســـام: ((**ولـــه القصيـــدة المشهـــورة في ابـــن حمـــود؛ يتـــداول القوّالـــون أكثـــر أبياتهـــا؛ لعذوبـــة ألفاظهـــا، وسلامتهـــا**)).[2] وممـــا حكـــاه المقـــري بخصـــوص هـــذه القصيـــدة قولـــه: ((**وقـــد كـــان بنـــو حمـــود مـــن ولـــد إدريـــس العَلَـــوي؛ الذيـــن توثبـــوا عـــلى الخلافـــة في أثنـــاء الدولـــة المروانيـــة بالأندلـــس يتعاظمـــون، ويأخـــذون أنفسهـــم بمـــا يأخذهـــا خلفـــاء بـــني العبـــاس؛ وكانـــوا إذا**

---

[1] **الذخيـــرة، ق: 2، مج: 2، ص: 787.**

[2] **نفســـه، مج: 2، ص: 791.**

حضرهم منشد لمدح أو من يحتاج إلى كلام بين أيديهم؛ يتكلم من وراء حجاب؛ والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة؛ ولما حضر ابن مقانا الأشبونيّ أمام حاجب إدريس بن يحيى الحمودي؛ الذي خطب له بالخلافة في مالقة، وأنشده قصيدته النونية... وبلغ فيها إلى قوله: (أنظرونا نقتبس...)؛ رفع الخليفة الستر بنفسه، وقال: "انظر كيف شئت"؛ وانبسطَ مع الشاعر، وأحسن إليه)).[1] ومطلع هذه القصيدة التي مدح بها ابن مقانا إدريس العالي هكذا:

أَلبَرقِ لائحٍ مِنْ أندَرِينْ
ذرَفتْ عَيْناكَ بِالمَاءِ المَعِينْ
لعِبَتْ أسْيَافهُ عَارِيَة
كَمَخارِيقَ بِأيدِي اللاَّعِبِينْ
وَلِصوْتِ الرَّعْدِ زَجْرٌ وُحَنِينْ
وَلقلبِي زَفرَاتٌ وَأنِينْ
وَأناجِي فِي الدُّجَى عَاذِلتِي
وَيْكِ لاَ أسْمَعُ قوْلَ العَاذِلِينْ
عَيَّرَتنِي بِسَقامٍ وَضَنًى
إنَّ هَذيْنِ لزَينُ العَاشِقِينْ

---

[1] **نفح الطيب، ج: 1، ص: 214.**

إلى أن يقــول:

وَكــأنَّ الطــلَّ مِسْــكٌ فِي الثــرَى
وَكــأنَّ النــورَ دُرٌّ فِي الغصُــونْ
وَالنــدَى يَقطــرُ مِــنْ نرْجَسِــهِ
كدُمُــــوعٍ أسْبلتهُــــنَّ الجُفــــونْ
وَالثرَيــا قــدْ علَــتْ فِي أفقِهَــا
كقضِيــبٍ زَاهِــرٍ مِــنْ يَاسَمِيــنْ
وَانْبــرَى جُنــْحُ الدُّجَى عَن أفقــهِ
كَغــرَابٍ طــَارَ عَنْ بَيضٍ كَنِيــنْ
وَكــأنَّ الشَّمْــسَ لمــا أشرَقــتْ
فَانثنــَتْ عَنْهَــا عُيــونُ النَّاظِريــنْ
وَجْــهُ إدْرِيسَ بْنِ يَحْيَى بْنِ عَــلِي
بْــنِ حَمُّــودٍ أمِيــرِ المُؤمِنِيــــنْ
خــطَّ بِالمِسْــكِ عَــلَى أبوَابــــهِ
ادْخلوهَــــا بِسَــــلاَمٍ آمِنِيــــنْ
وَينــــادِي الجــــوْدُ فِي آفاقــــهِ
يَمِّمُــوا قَصْــرَ أمِيــرِ المُسْلِمِيــنْ

مَلِـــكٌ ذُو هَيبـــةٍ لكِنـــهُ
خاشـــعٌ لِلـــهِ رَبِّ العالمِيـــنْ
وَإذَا مَـــا رُفِعـــتْ رَاياتـــهُ
خقـتْ بَيـنَ جَنَـاحَيْ جَبْرَئِيـنْ
وَإذَا أشكـلَ خطـبٌ مُعضِـــلٌ
صَـدَعَ الشـكَّ بمِصْبَـاحِ اليَقِيـنْ
وَإذَا رَاهـــنَ فِي السبـــقِ أتَى
وَبيمْنـــاهُ لِـــوَاءُ السابقِيـــنْ
يَا بـنِي أحْمَـدَ يَا خيـرَ الـوَرَى
لأبيكـمْ كـانَ رَفـدُ المُسْلِـمِيـنْ
نـزَلَ الـــوَحْيُ عَليـهِ فاحْتَـبَى
فِي الـدُّجَى فَوقَهُمُ الرُّوحُ الأمِيـنْ
خلِقـوا مِـنْ مَـاءَ عَـدلٍ وَتَـقى
وَجَمِيعُ النـاسِ مِنْ مَـاءٍ وَطِيـنْ
انظُرُونـا نقتبـسْ مِـنْ نُورِكـُم
إنـهُ مِـنْ نـورِ رَبِّ العَالمِيـنْ

ولمـا خـرج مـن بلنسيـة قاصـدا طرطوشـة؛ لزيـارة صاحبهـا الفـتى العامـري المدعـو مقاتـلا؛ منـع مـن الجـواز إليهـا؛ فكتـب إلى مقاتـل هـذه الأبيـات:

إنْ كانَ وَادِيــكَ نِيــلاً لاَ يُجازُ بــهِ
فمَالنا قــدْ حُرِمْنــا النيْــلَ وَالنيــلاَ
إنْ كانَ ذَنبِي خــرُجِي مِنْ بَلنسِيَــةٍ
فمَــا كفــرْتُ وَلاَ بَدَّلــتُ تبدِيــلاَ
"هِيَ المَقادِيــرُ تَجْرِي فِي أعِنتِهَــا"
لِيقــضِيَ اللــهُ أمراً كانَ مَفعــولاَ

ولــه أيضــا في مجاهــد العامــري:
وَلمــا سَقتنــا مِــنِ ابرِيقِهَــا
لثمْنــــا يَدَيهَــــا وَخلخالهَــــا
وَبتنــا وَبَاتــتْ عَــلَى سَاقِهَــا
تصفَــقُ لِلشــرْبِ جرْيالَهَــا
كأنَّ نجُــومَ الــدُّجَى رَوْضَــة
تَجُــرُّ بهَــا السُّحْــبُ أذْيالهَــا
كــأنَّ الثرَيــــا بهــا رَايــــة
يقــودُ المُوَفــــقُ أبطالهــــا

ــ ثــم أبو عمرو بن هاشم وزير العالي إدريس بن يحــيى:
لــم تتكلــم جــل المصــادر عــن هــذا الوزيــر الشاعــر؛ ومــا عرفنــاه عنــه أتى في المغــرب؛ حيــث

قال عنه صاحبه: ((**من المسهب: كان له خلال توجب له الوزارة. أخبرت انه كان يوما في بيت وزارته؛ فدخل عليه غلام جميل بقل عذاره؛ فقال:**

أتانِي وَقدْ خطَّ العِذَارُ بخدِّهِ

كمَا خطَّ مِنْ جمْرٍ عَلَى مُهْرَقٍ سَطرَا

فقلتُ لهُ: لمْ يَقتنِعْ بِحَيَائه

مُحياكَ حَتَّى زَادَ مِنْ شعرٍ سِترَا)).[1]

ـ ثم أبو علي الحسن بن حسون:[2]
هكذا ورد اسمه في بعض المصادر. وثمة غموض كبير يكتنف هذا الفقيه القاضي؛ حيث يوجد ـ كما يتبادر إلى الذهن ـ اثنان ـ أو أكثر ـ وليا قضاء مالقة في فترة زمنية واحدة؛ أو متقاربة على الأقل؛ ولا يعرف إن كانا ـ في حقيقتهما ـ شخصا واحدا أم شخصين؛ إذ تسمي المصادر ذلك القاضي أحيانا باسم الحسن وأحيانا أخرى باسم الحسين أو باسم محمد بن الحسن؛ كما يكنيه بعضهم بأبي

---

[1] **المغرب، ج: 1، ص: 425.**

[2] **قال فيه ابن سعيد: ((من المسهب: "عين مالقة. ورب حلِّها وعقْدها، وعلم بُرْدِها وواسطة عِقْدِها، وكان من أئمة العلماء، ولي قضاء مالقة في مدة العالي بن يحيى بن حمود الفاطمي)). نفسه، ص: 430.**

علي وبعضهم الآخر بأبي عبد الله.[1] أضف إلى ذلك أن ابن بشكوال سمى أيضا قاضيا ـ ولي قضاء مالقة في زمن بني حمود؛ وبالتحديد في زمن إدريس بن يحيى ـ باسم أبي علي حسين بن عيسى بن حسين الكلبي المعروف بحسون؛ ونسبه إلى بلدة جراوة بالمغرب. وقال أنه توفي سنة 453هـ(1061م).[2]

أما صاحب المغرب فقد تكلم عن المدعو أبا علي الحسن بن حسون بإيجاز شديد؛ وقال فيه: **((عَيْن مالقة، وربُّ حَلهَا وعقدها، وعلم بُردها وواسطة عقدها؛ وكان من أئمة العلماء؛ ولي قضاء مالقة في مدة العالي بن يحيى بن حمود الفاطمي... وقاسى شدة من اختلاف الخلفاء على**

---

[1] تعرض ابن بسام خلال حديثه عن الفقيه الشاعر غانم بن وليد؛ (المتوفى سنة 470هـ) حين أورد قصيدته التي رثى فيها القاضي ابن حسون؛ فقال: ((وله [أي لغانم] من قصيدة يرثي الفقيه القاضي أبا عليّ بن حسون)). الذخيرة ق: 1، مج: 2، ص: 866. علما بأن صاحب القصيدة سماه فيها بالحسين؛ بقوله: ((ولَى حُسَينٌ والمحامد بعده)). أنظر أيضا المغرب، ج: 1، ص: 430. ونفح الطيب، ج: 3، ص: 390. وتاريخ قضاة الأندلس، ص ص: 90 ــ 94.

[2] جاء تحت رقم 327 ((حُسَين بن عيسى بن حسين الكلبي: قاضي مالقة؛ يُكْنَى: أبا علي، ويعرف بحسون... وكان فقيه مالقة وكبيرها، أصله من جراوة (قلت: جراوة التي أصله منها هي بين تلمسان، وعقبه بها مشهور. اخبرني بذلك أهل ذلك الموضع)؛ وتوفي صدر سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة. قال الشعبي: وكان فقيها في المسائل حافظا لها، عالما بأصولها ونظرائها، ما رأيت مثله في علمه بها)). الصلة، ج: 1، ص: 142.

بلـــده)).[1] كمـــا أورد لـــه قطعـــة شعريـــة صغيـــرة نسبهـــا إليـــه؛ وهي:

خلعـــتُ عِذَارِي فِي هوَاها وَعِندَما
تبَدَتْ نجومُ الشيبِ فِي غَسقِ الشعْرِ
وَثنَيتُ عَنانِي وَارتَجَعتُ إلَى النهَى
وَعاوَدَنِي حِلمِي وَرَاجَعنِي صَبـــرِي
وَأصْبَحْتُ لاَ أبغِي سِوَى العِلمِ خُطة
ففِيهِ الذِي أرْجوهُ فِي مَوقفِ الحَشـــرِ
ولَوْلاَهُ مَا أصْبَحتُ أقضِي عَلَى الأَلى
صَحِبْتهمْ فِي عُنفـــوَانٍ مِـــنَ العُمرِ

وفي المقابـــل ذكـــر المقـــري مـــا دار بيـــن المدعـــو ابـــن حَـــسّـــون وإدريـــس بـــن يحـــيى؛ فقـــال: **((وحـــكي أن العـــالي إدريـــس الحمـــودي لمـــا عـــاد إلى ملكـــه بمالقـــة؛ وبَّـــخ قاضيهـــا الفقيـــه أبـــا عـــلي بـــن حَسُّـــون؛ وقـــال لـــه: "كيـــف بايعـــت عـــدوي مـــن بعـــدي وصحبتـــه؟". فقـــال: "وكيـــف تركـــت أنـــت ملكـــك لعـــدوك؟". فقـــال: "ضـــرورة القـــدرة حملتـــني عـــلى ذلـــك". فقـــال: "وأنـــا أيضـــا حصلـــت في يـــد مَـــنْ لا يسعـــني إلا طاعتـــه"))**.[2]

---

[1] **المغـرب، ج: 1، ص ص: 430 ــ 431.**

[2] **نفـح الطيـب، ج: 3، ص: 390.**

ثم أورد المقري لهذا القاضي أبياتا من الشعر نسبها إليه:

رُفِعتُ مِنْ دَهرِي إلَى جَائِرٍ
وَيبتغِي العَدلَ بأحْكَامِي
أضْحتْ به أمْلاَكُهُ مِثلَ أشْـ
ـكَالِ خيالٍ طَوْعَ أيَامِ
هذَا ولَما أبرَمَ ذَا ناقِضٌ
كأنهمْ فِي حُكمِ أحلاَمِ

غير أن صاحب كتاب تاريخ قضاة الأندلس المدعو أبا الحسن علي بن عبد الله الجذامي المالقي النباهِيّ. يذكر رواية يمكن أن تفك الإشكال بعض الشيء.[1] وذلك أنه تكلم عن قاضٍ ولي قضاء مالقة في الفترة الزمنية التي حددت للقاضي المدعو ابن حسون؛ غير أن الاسم الذي ذكره صاحب كتاب تاريخ قضاة الأندلس يختلف عما ذكر سابقا. فالاسم هنا هو: محمد بن الحَسَن الجُذاميّ النُّباهيّ. وقال أنه ولي ــ لأول مرة ــ القضاء في عهد يحيى بن علي بن حمود؛ حيث أجبره على تلك المهمة؛ وذلك أنه خيره بين القبول بخطة القضاء أو السيف؛ فقبل بها بشروط.

---

[1] أنظر كتاب تاريخ قضاة الأندلس المسمى بـ: كتاب المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا. ص ص: 90 ــ 94.

لما توفي يحيى في قرمونة؛ عرفت مالقة اضطرابات وفوضى؛ جراء قدوم الفتى الصقلبي **نجا** إليها؛ وتكليف وزيره **محمد السطيفي** بتسيير البلد؛ فاستعفى القاضي محمد بن الحسن الجذامي النُّباهيّ. وبعد ثورة الجند والرعية على **نجا والسطيفي** وقتلهما؛ انتصب إدريس بن يحيى على عرش مالقة؛ فعين في خطة القضاء القاضي محمد ابن الحسن بكتاب تولية نشره صاحب الكتاب وهو: ((**هذا كتابٌ أمر به، وأنفذَه، وأمضاه من عَهده، وأحكمَه الإمامُ أميرُ المسلمين، عبدُ الله العالي بالله، الظافرُ بحول الله، إدريس بن المُعتلي بالله ـ أعلى اللهُ أنره وأعزَّ نصره ـ للوزير القاضي أبي عبد الله محمد بن الحسن ـ وفقه الله ـ قلده به القضاءَ بين المسلمين بمدينة مالقة ـ حرسها الله ـ وأعمالها**)). ثم يضيف مؤلف كتاب: ((**وهو كتاب** [يقصد كتاب التولية] **كبيرٌ في رَق، وتأريخه في إحدى عشرة ليلة من ربيع الأول سنة 445هـ**[1053م]؛ **وعليه توقيعُ العالي بخطّ يده، نصه: "يُنفذُ هذا ويُعمَل عليه، واللهُ الموفق، وهو المستعان"**))[1].

---

[1] **تاريخ قضاة الأندلس، ص: 91.**

ومما يبعث على الاعتقاد في احتمال كون هذا الشخص هو نفسه الذي ورد ذكره من طرف كل من: ابن بسام، وابن سعيد، والمقري؛ ما جاء ذكره في كتاب قضاة الأندلس (المسمى بكتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)؛ حول رواية مقتل القاضي النباهي؛ إذ جاء أنه كان رفقة بعض الفقهاء ومنهم الأديب غانم؛ الذي تمكن من النجاة مع الآخرين. ويبدو أن قصيدة غانم في رثاء القاضي الذي سماه ابن بسام بابن حسون تتفق مع هذا السياق؛ علما بأن صاحب القصيدة يكنيه فيها بأبي علي ويسميه بالحسين[1].

---

[1] وجاء فيها:

((الموْتُ أعرَبَ فِي أصحِ مَسَاق ... أنَّ المنِية شمرَتْ عَنْ ساق

المَوْتُ يُخبرُ عَنْ مرَارَةِ كأسِهِ ... وَالكأسُ ملأى لمْ يدِرْهَا ساق

هلاَّ تواصَينَا بصورَةِ حالِنَا ... وَالنفسُ ترقَى فِي لهًى وَتَرَاق

يَا آمِلَ الدُّنيا لباقِي عمرِهِ ... أقصِرْ فما أملٌ عليها باق

حسناءُ زيٍ بِالنهَى ممهورَة ... فإذَا تعرَّتْ مُتعتْ بطلاَق

مَعْشوقةُ الحركاتِ إلاَّ أنها ... أفعَى تدُبُّ لأعشق العشاق

كمْ أوْدَتِ الدُّنيا بِغضٍّ شبيبةٍ ... كالغصْنِ ماسَ بناضرِ الأوْرَاق

وَموَقرٍ لبسَ المَشِيبَ جَلاَلَة ... بَحر لباغِي العِلمِ عَذبِ مَذَاق

طرَقتهُ أحداثُ المَنونِ فأطرَقتْ ... مِنهُ الفضَائلُ أيمَا إطرَاق

لوْ كانَ يُبقِي المَوْت حَبراً عَالِماً ... لوَقَى الحِمامَ أبا عَلِيّ وَاق

وَلى حسينٌ وَالمحامدُ بعدَهُ ... كيلاَ تقاسِي جاحمَ الأشوَاق

أسَفِي لرَيةَ كنتَ عقدَ جمَالِها ... فابتزَّ ذَاكَ العِقد دُونَ وِفاق

تزدَانُ مِنكَ بِحسنِ مَا قدْ طوّقت ... زَينَ الحمامِ الوُرق بِالأطوَاق

هـذا مـا سمـح بـه المجـال فيمـا يخـص ذكـر الأدبـاء والعلمـاء الذيـن أظلتهـم الدولـة الحموديـة؛ عـلى أنـه مـن الضـروري الإشـارة إلى أن عهـد العـالي إدريـس بـن يحـيى كـان أكثـر ثـراء وازدهـارا مـن غيـره مـن العهـود الـتي حكـم فيهـا ملـوك آخـرون مـن بـني حمـود. وذلـك لأن الفتـرة الـتي حكـم خلالهـا العـالي تميـزت ــ عـلى الرغـم مـن قصرهـا وانقطاعهـا ــ بالحركـة الأدبيـة والثقافيـة النشيطـة؛ إذ كـان بـلاط تلـك الدولـة عبـارة عـن منتـدى أدبي؛ سمـح لكثيـر مـن الأدبـاء والشعـراء بعـرض إبداعهـم ونشـره وإذاعتـه. وكانـوا يجـدون كـل تشجيـع وتكريـم مـن قبـل أميـر الدولـة العـالي إدريـس بـن يحـيى بـن عـلي بـن حمـود.

عِلمٌ أعِيـنَ بفضلِ حِلـمٍ رَاجـحٍ أخـذَ الأمـانَ لـهُ مِنَ الأخـلاَق
وَصبَاحَة وَسَمَاحَـة قسمـتْ لـهُ رِزقـاً تبـارَك قاسـمُ الأرْزَاق
وَمِنَ الغَرِيبِ غرُوبُ شَمسٍ فِي الثرَى وَضياؤُهـا بـاق عَـلى الآفـاق
أبقيـتَ فِي الدُّنيـا مآثـرَ ثـرَّةً تبـلَى حُـلى الأيامِ وَهْيَ بـوَاق
قدْ كانَ مَجلِسُكَ المُـارَكُ مَوْسمـاً فأقامَ أوْحـشَ مِنْ غـدَاةِ فـرَاق
غيبـتَ عنهُ مَغِيـبَ بَدْرٍ كامـلٍ وَالليـلُ أدْهـمُ ضـارِبٌ بـروَاق
وَمِنَ العَجَائِبِ وَالكسـوفُ مرَتـبٌ قمـرٌ تـوَارَى فِي زَمانِ محـاق
مَنْ ذَا أعزِّي فِيكَ مِنْ هذَا الـوَرَى لـمْ يلقـنِي إلاَّ بِحزنـكَ لاَق
وَالناسُ مَحزُونـونَ فيـكَ كأنمـا كـانَ اتفاقهـمْ عَـلى إصفـاق

الذخيـرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 866-868.

وهكذا ظلت الحال بين مد وجزر؛ حتى انتهى أمر الحموديين نهائيا في مالقة سنة 449هـ(1057م). وذلك بعد أن استولى باديس بن حبوس أمير غرناطة عليها؛ حيث ضمها إلى مملكته. ثم تلا ذلك خروج آخر أمراء الدولة الحمودية محمد بن إدريس (المستعلي) منها؛ قاطعا البحر إلى مليلة؛ أين بقي بها أميرا عليها حتى حلول تاريخ وفاته سنة 456هـ(1063م).

****

3)ـ دولـــة بني سليمـــان:

صاحـــب هـــذه الإمـــارة هـــو سليمـــان بـــن عبـــد اللـــه الكامـــل ابـــن الحســـن المثـــنى ابـــن الحســـن السبـــط ابـــن عـــلي بـــن أبي طالـــب.[1] وعليـــه فهـــو أخـــو إدريـــس الأكبـــر. هـــذا وقـــد تمكـــن سليمـــان مـــن إنشـــاء هـــذه الدولـــة في تلمســـان ــ الـــتي اعتبـــرت قاعـــدة للمغـــرب الأوســـط؛ وحاضـــرة لهـــذه الدولـــة العلويـــة ــ بفضـــل عـــون ومساعـــدة بعـــض القبائـــل الزناتيـــة المهيمنـــة عـــلى تلـــك الربـــوع. وتـــم ذلـــك عندمـــا لجـــأ إليهـــا مؤســـس الإمـــارة **(سليمـــان بـــن عبـــد اللـــه)**؛ فـــاراً مـــن العباسيـــين بالمشـــرق.

---

[1] **تضاربـت الأقـوال حـول الشخـص الـذي يمكـن أن تنسـب إليـه إمـارة تلمسـان؛ فـإن كـان معظـم المؤرخيـن والجغرافييـن يقولـون بأنـه سليمـان بـن عبـد اللـه؛ فـإن آخـرون يقولـون إنـه سليمـان بـن عبـد اللـه المنحـدر عـن الحسيـن بـن عـلي بـن أبي طالـب . مـن ذلـك مـا يقولـه الطبـري عـن سليمـان بـن عبـد اللـه؛ أنـه قتـل في وقعـة فـخ يـوم التروية في سـنة 169هـ. وفي المقابـل يـرى آخـرون أن الـذي تـولى إمـارة تلمسـان هـو شخـص يـدعى محمـد؛ ولكنـه مـن أبنـاء الحسيـن وليـس مـن أبنـاء الحسـن كمـا يتسلسـل نسـب بـني إدريـس بـن عبـد اللـه. ويقـول أيضـا آخـرون أنـه محمـد بـن سليمـان مـن ولـد الحسـن بـن عـلي؛ وليـس سليمـان مـن قـدم إلى تلمسـان. ويعتبـر البكـري أحـد القائليـن بهـذا القـول؛ الـذي يقـول عـن تلمسـان: ((وهي دار مملكـة زناتـة، وموسطـة قبائـل البربـر، ومقصـد لتجـار الآفـاق؛ ونزلهـا محمـد بـن سليمـان بـن عبـد اللـه بـن حسـن بـن عـلي بـن أبي طالـب)). أنظـر المغـرب، ص: 77. وللمزيـد مـن التوضيـح أنظـر كـل هـذه الخلافـات في كتـاب دولـة الأدارسـة؛ لإسماعيـل العـربي، ص ص: 137 ــ 146. غيـر أن ابـن حـزم ــ وهـو مـن المحققيـن المدققيـن الثقـاة ــ يـرى أن الـذي أقـام الدولـة بتلمسـان هـو سليمـان بـن عبـد اللـه بـن الحسـن بـن الحسـن بـن عـلي ابـن أبي طالـب. أنظـر جمهـرة أنسـاب العـرب، ص: 48.**

إذ تم ذلك عقب مقتل أخيه إدريس الأول؛[1] حيث جاء ــ هو الآخر ــ إلى هذه الديار بحثا عن الحماية والسلطان. ولما وصل إلى مشارف إفريقية؛ عرج جنوبا؛ اتقاء وخوفا من عيون أتباع العباسيين وولاتهم في القيروان.

وتبعا لذلك فقد وجد في أراضي الرستميين أمنا وسلاما؛ لا يمكن توفرهما في شمال البلاد. وكل ما يمكن قوله في هذا المجال؛ هو أن سليمان بن عبد الله بعد أن التحق ببلاد المغرب؛ عقب موت أخيه إدريس؛ كانت محطته الأولى منطقة تيهرت؛ حيث حاول فيها كسب تأييد القبائل المتواجدة بالمغرب الأوسط؛ طمعا في مناصرتهم، ودعمهم؛ غير أنهم كذبوه في بداية الأمر، ولم يصدقوا خبر انتسابه لعلي كرم الله وجهه. ولما لاحظوا ما يجري من عمليات مكثفة للبحث عنه؛ من طرف والي القيروان؛ تيقنت ــ عندئذ ــ قبائل المغرب الأوسط من صدقه، وصحة نسبه الهاشمي.

---

[1] يقول ابن خلدون: ((وأما سليمان أخو إدريس الأكبر؛ فإنه فر إلى المغرب أيام العباسيين؛ فلحق بجهات تاهرت بعد مهلك أخيه إدريس؛ وطلب الأمر هناك)). العبر، مج: 4، ص: 34.

فتحقق له ــ حينها ــ شرط أصحاب النصاب الملكي؛[1] واجتمعت حوله قبائل زناتة؛ التي كانت آنذاك في صراع مع أمراء الدولة الرستمية؛ بدءاً بفتنة ابن فندين اليفرني الزناتي، وما تبعه من وقائع دارت بين الدولة الرستمية وشريحة عريضة من قبيلة زناتة؛ ممن كانوا متمذهبين بالواصلية. وعليه فقد اختارت شريحة عريضة من القبائل الزناتية مبايعة سليمان ابن عبد الله، وإعلان الطاعة له. وفي هذا يقول ابن خلدون: ((**وطلب الأمر هناك** [أي سليمان]؛ **فاستنكره البرابر؛ وطلبه ولاة الأغالبة؛ فكان في طلبهم تصحيح نسبه. ولحق بتلمسان فملكها، وأذعنت له زناتة وسائر قبائل البربر هنالك**)).[2] وبذلك تمكن سليمان من إقامة ملكا ــ وإن كان محدود السيادة ــ بواسطة قبيلة زناتة في تلمسان. ويمكن تحديد امتداد نفوذ هذه الدولة بما كان يعرف في ذلك العهد بالمغرب الأوسط.[3]

---

[1] أنظر في هذا مقدمة ابن خلدون، ((فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية)). ج: 2، ص ص: 635 ــ 636.

[2] العبر، مج: 4، ص، 34.

[3] وقد ذكر عبد الرحمن الجيلالي بعض العلامات لحدود إمارة بني سليمان إذ قال: ((وإذا نظرنا إلى حدود الجزائر الإدريسية وجدناها لا تتعدى ــ من جهة الشمال الشرقي ــ مدينة وهران ونهر الشلف، ومن جهة الجنوب سهول غريس بناحية معسكر إلى جبال مديونة قبلي فاس؛ ولك أن تقول أنها تمتد ــ على الساحل ــ من الريف غربا إلى أرض الحضنة من عمالة قسنطينة

ويبدو أن إمارة بني سليمان هذه كانت عبارة عن ولاية كبرى تابعة للمملكة الإدريسية؛ ولكنها تتميز باستقلال داخلي؛ مكن أمراءها من التصرف بحرية مطلقة. ومع هذا فقد كانت الدولة الإدريسية هي التي تتحمل أعباء الدفاع عن هذه الإمارة؛ وهذا هو ما حدث بالفعل؛ حين أقام إدريس الثاني في جوار ابن عمه محمد بن سليمان بتلمسان، والمغرب الأوسط عموما؛ طيلة ثلاث سنين؛ بغرض تمهيد تلك الإمارة، وتأمين السلامة لحدودها؛ وتأديب بعض القبائل الصفرية المتمردة؛ من قبيلة نفزة وغيرها؛ وذلك في سنة 199هـ.[1]

شرقا، ثم تعود بناحية تنس غربا وجنوب شلف إلى مليانة وتنتهي بمتيجة)). تاريخ الجزائر العام، ج:، 1، ص: 183.

[1] وقد أورد هذا الخبر ابن أبي زرع إذ قال: ((ورجع [إدريس] إلى مدينة فاس؛ فأقام بها إلى شهر محرم من سنة تسع وتسعين [ومائة] ؛ فخرج منها برسم غزو قبائل نفزة؛ فسار حتى غلب عليهم، ودخل مدينة تلمسان؛ فنظر في أحوالها، وصلح أسوارها، وجامعها، وصنع فيها منبرا؛ قال أبو مروان عبد الملك الوراق: "دخلت مسجد تلمسان في سنة خمس وخمسين وخمسمائة فرأيت في رأس منبرها لوحا من بقية منبر قديم قد سمر عليه هنالك؛ مكتوب: هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله ابن حسن بن الحسين [الصحيح هو الحسن السبط] بن علي رضي الله عنهم في شهر محرم سنة تسع وتسعين ومائة". فأقام إدريس بمدينة تلمسان وأحوازها ثلاث سنين، ثم رجع إلى مدينة فاس الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 27.

وكان إدريس الثاني ـ قبل ذلك ـ قد أقام فترة من الزمن في تلمسان؛ عقد خلالها اتفاقية بينه وبين الأغالبة؛ رسمت بموجبها الحدود الفاصلة بين دولته ودولتهم. وقد اتفقوا على جعل شلف حداً فاصلا بينهما. وكما هو واضح؛ فقد اتخذ إدريس الثاني إمارة بني سليمان بمثابة الحاجز الواقي لدولته بفاس؛ في وجه أطماع بني الأغلب بالقيروان من جهة، ودريئة تمنع امتداد النفوذ الإباضي، والصفري من جهة أخرى. كل هذا ولم تذكر مصادر الدولة الإدريسية شيئا عن بني سليمان في تلمسان خلال تلك الفترة؛ بل ركزت حديثها على أعمال إدريس الثاني ونشاطه في تلك الربوع.

وربما يعود السبب في عزوف المؤرخين عن الإسهاب والتدقيق في الحديث عن إمارة بني سليمان راجع إلى اعتقادهم بأنها لا تعدو أن تكون سوى ولاية تابعة للدولة الإدريسية بفاس. لذا فقد اقتصروا على الأحداث التي صنعها السلاطين الأدارسة لا غير؛ خاصة عندما يعلم القارئ بأن المؤرخين ـ آنئذ ـ كانوا لا يهتمون كثيرا بغير محيط السلطان وحاضرته.

ومع هذا فلا بد من الاعتراف بأن هذا القول لا يخرج عن كونه قولا افتراضيا لا غير؛ وذلك بسبب اضطراب السند التاريخي إن وجد.. لأن الأحداث التاريخية لدولة سليمان بن عبد الله يكتنفها غموض كثيف؛ بسبب قلة المصادر التي يمكن أن تتكلم عنها بتوسع واستفاضة. وكل ما توفر لدينا حتى الآن؛ لا يتجاوز بعض المصادر الحاملة لمعلومات هزيلة؛ تشير إلى أمراء هذه الدولة، والمدن التي يحكمونها؛ بدون تفاصيل تذكر، ومن دون ذكر تواريخ يمكن الاعتماد عليها؛ في تحديد الفترات الزمنية التي حكم خلالها أمراء هذه الدولة.

هذا وتجمع المصادر المتوفرة على أن الذي خلف سليمان؛ على عرش تلمسان بعد وفاته هو ولده محمد. كما تقول المصادر أن محمدا هذا هو الذي استدعى ابن عمه إدريس الثاني إلى تلمسان؛ كي يساعده على إخضاع الأطراف الشرقية من مملكته، وتأديب الثائرين من القبائل الصفرية؛ وبالفعل لبى محمد بن إدريس طلب ابن عمه محمد بن سليمان وقدم إليه، كما سبقت الإشارة إليه؛ حيث ظل في تلك الربوع حتى استتب الأمر لبني سليمان بن عبد الله.

وحسب رواية ابن خلدون والتنسي؛ قد يكون محمد بن سليمان قام بتوزيع عمالات الدولة، ومقاطعاتها على أبنائه. فخص أحمد ابنه بولاية العهد، ونصب ابنه عيسى على عمالة أرشقول، وولده الحسن بمقاطعة في جهات تيهرت، وولده إبراهيم بتنس، وولده إدريس في جراوة؛ وهكذا.[1]

ويبدو أن أحفاد سليمان بن عبد الله قد انتشروا في ربوع المغرب الأوسط كله؛ بدءا بحدود بجاية شرقا، وحتى مدينة نمالتة **(مغنية**

---

[1] فمما قاله ابن خلدون مثلا: ((وورث [أي سليمان] ملكه ابنه محمد بن سليمان؛ على سننه؛ ثم افترق بنوه على ثغور المغرب الأوسط، واقتسموا ممالكه ونواحيه؛ فكانت تلمسان من بعده لابنه محمد بن أحمد بن القاسم ابن محمد بن أحمد [بن محمد بن سليمان]؛ وأظنّ هذا القاسم هو الذي يدّعي بنو عبد الواد نسبه؛ فإن هذا أشبه من القاسم بن إدريس بمثل هذه الدعوى. وكانت أرشكول [أرشقول] لعيسى بن محمد بن سليمان؛ وكان منقطعا إلى الشيعة. وكانت جراوة لإدريس بن محمد بن سليمان، ثم لابنه عيسى؛ وكنيته أبو العيش؛ ولم تزل إمارتها في ولده؛ ووليها بعده ابنه إبراهيم بن عيسى. وكان إدريس بن إبراهيم صاحب أرشكول منقطعا إلى عبد الرحمن الناصر، وأخوه يحيى كذلك... وكانت تنس لإبراهيم بن محمد ابن سليمان، ثم لابنه محمد من بعده، ثم لابنه يحيى بن محمد، ثم ابنه علي بن يحيى... وكان من ولد إبراهيم هذا أحمد بن عيسى بن إبراهيم صاحب سوق إبراهيم، وسليمان بن محمد بن إبراهيم من رؤساء المغرب الأوسط. وكان من بني محمد بن سليمان هؤلاء وَبَطْوُش بن حناتِش بن الحسن بن محمد بن سليمان. قال ابن حزم: وهم بالمغرب كثير جدا)). العبر، مج: 4، ص ص: 34 ـــ 36.

حاليا) غربا.[1] وكانوا بمثابة أمراء على مدن منعزلة؛ تقف كحصون في وجه منافسيهم: من بني الأغلب والرستميين. كما عرفت هذه الديار أيضا هجرات أخرى لأحفاد علي بن أبي طالب؛ وهو ما تؤكده الآثار الباقية بعدهم؛ ممثلة في أسماء الأماكن، والمدن الجزائرية؛ التي تنسب إليهم. كسوق حمزة **(البويرة حاليا)**، نسبة إلى أمير هاز حمزة بن الحسن بن سليمان بن سليمان وفيه يقول ابن حزم: **((ملك هاز من أرض المغرب،** [موقعها بالقرب من عين بوسيف الحالية] **وملك قطيعا من صنهاجة؛ وإليه ينسب سوق حمزة، وولده بها كثير؛ وكذلك أيضا ولد اخوته في تلك الجهة))**.[2] وحسبما يبدو فقد يكون السهل المعروف الآن بسهل بني سليمان منسوبا إلى سليمان بن عبد الله أيضا. ثم سوق إبراهيم؛ المنسوب كذلك إلى إبراهيم بن محمد بن سليمان؛ كما أن مدينة بوفريك الحالية؛ منسوبة إلى أبي فريك الكبير **[كتب في بعض المراجع خطأ ــ الكافر]**؛ وهو من نسل جعفر بن الحسن **(عم إدريس الأول)**؛ لأن منطقة متيجة ــ بقاعدتها قزرونة ــ كانت خاضعة لأبناء جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي كرم الله وجهه.

---

[1] لمزيد من التدقيق أنظر إلى ما كتبه موسى لقبال عن بني سليمان في ديار الجزائر؛ في كتابه دور كتامة. ص ص: 209 ـــ 213.

[2] جمهرة أنساب العرب، ص: 55.

وإذا ما تتبع القارئ المصادر التاريخية؛ سيجد أن جل بلاد المغرب أضحت ملجأ مفضلا لأبناء علي بن أبي طالب؛ حيث وجدوا في تلك الديار الأمن والتقدير والاحترام؛ تلك الأشياء التي فقدوه في جهات كثيرة من المعمورة.[1]

هذا وقد تم إسقاط دولة بني سليمان؛ بقواعدها كافة؛ بفعل ضربات جيوش الدولة الفاطمية؛ المنافسة لهم في النسب الهاشمي؛ تلك الدولة القوية المشكلة من قبائل: كتامة ومكناسة وصنهاجة. ونتيجة لذلك التهديد والتضييق؛ انكشف الجناح الشرقي لدولة الأدارسة؛ فأضحت ــ بدورها ــ عرضة لهجمات الفاطميين الشيعة من بني عبيد الله الفاطمي؛ الذين امتدت أيديهم إليها كذلك؛ فكانت نهايتها الحتمية هي الأخرى؛ بعد مدة من الزمن.

هذا ما توفر من معلومات حول دولة بني سليمان المغمورة في زوايا التاريخ المظلم تقريبا؛ كما أن موضوع الحضارة والنشاط الثقافي فيها يكاد الحديث عنه يدخل في عداد المستحيلات؛ وذلك بسبب غياب الشواهد اللازمة، وانعدام المعالم

---

[1] أنظر: العبر، ج: 4، ص ص: 34 ـــ 36. وتاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص ص: 474 ــ 484. وتاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص ص: 182 ــ 190. ودور كتامة، ص ص: 209 ـــ 215. ودولة الأدارسة، ص ص: 137 ـــ 146. 293 ــ 294.

الضرورية لتكوين الصورة مقبولة حول هذا الموضوع. وعليه فقد تعذر الكشف عما يمكن أن يكون قد أنجز في ظل تلك الدولة من منشآت وأعمال حضارية وثقافية؛ لأن المصادر التاريخية ــ كما سبق ذكره ــ لم تقدم شيئا يذكر عنها في هذه المجالات، أو في غيرها من المجالات التاريخية الأخرى. ومع هذا يبدو أن لهذه الإمارة بعض الصلات الثقافية مع محيطها؛ شرقا وغربا. وحتى إن فقدت الشواهد على ذلك فليس معنى ذلك انعدام الحركة الثقافية بالتمام في إمارة بني سليمان. وخير دليل على ذلك تلك القصيدة التي قالها الشاعر الفحل بكر بن حماد في الحسن بن أبي العيش عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان؛ وهي التي بقي منها مقطع صغير جاء فيه:

سَائِلْ زُواغة عن طعان سُيوفه

وَرماحه في العَارِضِ المُتهَلِل

وديار نفزة كيفَ دَاسَ حَريمَها

والخيلُ تمْرغ في الوشيج الذبَّل

وغشَّى مَغيلة بالسيوف مُذِلة

وسقىَ جَراوة من نقِيعِ الحَنظل)).

عــلى أنـــه يستحســن التنبيــه إلى دور البيئــة القبليــة المنغلقــة الــتي كانــت تحيــط بهــذه الدولــة؛ الأمــر الــذي أبقاهــا محاطــة بالغمــوض؛ الــذي كــان لــه تأثيــر حــتى عندمــا اقتصــر الأمــر عــلى مجــرد الســرد التاريــخي للمظهــر السيــاسي الخــاص بهــا.

****

4)ـ الدولـــة الفاطميـــــة:[1]

ينتسـب حكـام هـذه الدولـة إلى فاطمـة بنـت محمـد صـلى اللـه عليـة وسلـم، وإلى جدهـم عـلي بـن أبي طالـب رضي اللـه عنـه. ويسـمى مؤسسهـا وأول ملوكهـا ــ حسبمـا ورد في كتـاب أخبـار ملـوك بـني عبيـد وسيرتهـم ــ هـو: عبيـد اللـه بـن أحمـد بـن الحسيـن ابـن محمـد بـن إسماعيـل بـن جعفـر بـن محمـد بـن عـلي بـن الحسيـن بـن عـلي كـرم اللـه وجهـه.[2]

---

[1] ينحصـر البحـث هنـا في حـدود الدولـة الفاطميـة القائمـة ببـلاد المغـرب؛ وينتـهي الاهتمـام بهـا بـدءا بانتقـال الخليفـة المعـز إلى القاهـرة.

[2] تضاربـت الآقـوال حـول نسـب مؤسـس الدولـة الفاطميـة؛ ولـم تتفـق المصـادر عـلى سلسلـة واحـدة لآبائـه؛ وممـا يقولـه ابـن الأثيـر في هـذا البـاب: ((أول مـن ولي منهـم أبـو محمـد عبيـد اللـه؛ فقيـل: هـو محمـد بـن عبـد اللـه بـن ميمـون ابـن محمـد بـن إسماعيـل بـن جعفـر بـن محمـد بـن عـلي بـن الحسيـن بـن عـلي بـن أبي طالـب رضي اللـه عنهـم؛ ومـن ينسـب هـذا النسـب يجعلـه: عبـد اللـه بـن ميمـون القـداح الـذي ينسـب إليـه القداحيـة. وقيـل: هـو عبيـد اللـه بـن أحمـد بـن إسماعيـل الثـاني [ابـن] محمـد بـن إسماعيـل بـن جعفـر بـن محمـد ابـن عـلي بـن الحسيـن بـن عـلي أبـن أبي طالـب رضي اللـه عنهـم. وقـد اختلـف العلمـاء في صحـة نسبـه؛ فقـال ــ هـو وأصحابـه القائلـون بإمامتـه إن نسبـه صحيـح عـلى مـا ذكرنـاه، ولـم يرتابـوا فيـه. وذهـب كثيـر مـن العلوييـن العالميـن بالأنسـاب إلى موافقتهـم أيضـا؛ ويشهـد بصحـة هـذا القـول مـا قالـه الشريـف الـرضيّ:

مَا مُقَامِي عَلَى الهَـوَانِ وَعِـنْدِي ... مِقْـوَلٌ صَـارِمٌ وَاَنْـفٌ حَـمِيٌّ
أَلبَـسُ الذلَّ فِي بِـلاَدِ الأعَـادِي ... وَبِمِصْـرَ الخَلِيفَـةَ العَلَـوِيُّ
مَـنْ أبُـوهُ أبِي، وَمَـوْلاَهُ مَوْلاَ ... يَ إذَا ضَامَنِي البَعِيدُ القَـصِيُّ
لَـفَّ عِـرْقِي بِعِرْقِـهِ سَيِّدَا النَّا ... سِ جَمِيعـاً: مُحَمَّـدٌ وَعَـلِيُّ
إنَّ ذُلِّـي بِذَلِـكَ الـحَيِّ عِـزٌّ ... وَأوَامِي بِذَلِـكَ الرَّبْـعِ رِيُّ

هـذا وقـد اختلفـت المصـادر التاريخيـة في سـرد تسلسـل آبـاء هـذه الأسـرة الحاكمـة للدولـة الفاطميين؛ وحـتى نسبهـم الهاشـمي تضاربـت الآراء حولـه؛ فثمـة مـن أنكـره، وثمـة مـن صدقـه. ويبـدو أنهـم تعرضـوا لهجمـة إشاعـات، وحملـة تشويـه؛ نظمهـا ضدهـم أنصـار الدولـة العباسـية المنافسـة لهـم؛[1] وقـد رأينـا أنهـم استعملـوا الأسلـوب نفسـه مـع إدريـس الثـاني؛ حيـث حاولـوا نشـر الشكـوك حـول انتسابـه لأبيـه إدريـس الأول؛ إذ كلفـوا مـن يطعـن في نسبـه.

ولكـن بعـض المحققيـن ــ مـن أهـل العلـم والمؤرخيـن المدققيـن ــ يميلـون إلى تصديـق نسبهـم الهاشـمي.[2]

وإنمـا لـم يودعهـا ديوانـه خوفـا)). الكامـل في التاريـخ، ج: 6، ص : 124 ــ 125.

[1] لمـن يريـد أن يستزيـد بخصـوص محاولـة التشهيـر بالفاطميين ــ مـن طـرف العباسيين ــ ومـا نسـب إليهـم مـن تزويـر وانتحـال للنسـب النبـوي الشريـف؛ عليـه أن يراجـع مـا كتبـه ابـن الأثيـر في كتابـه الكامـل في التاريـخ، ج: 6، ص ص: 124 ــ 126. ومـا كتبـه المقريـزي في كتابـه اتعـاظ الحنفـا بأخبـار الأئمـة الفاطميين الخلفـا، ص ص: 25 ــ 40.

[2] ومـن بينهـم ابـن خلـدون الـذي يقـول: ((ولا عبـرة بمـن أنكـر هـذا النسـب مـن أهـل القيـروان وغيرهـم؛ وبالمحضـر الـذي ثبـت ببغـداد ــ أيـام القـادر ــ بالطعـن في نسبهـم، وشهـد فيـه أعـلام الأئمـة ــ وقـد مـر ذكرهـم ــ فـإن كتـاب المعتضـد إلى ابـن الأغلـب بالقيـروان، وابـن مـدرار بسجلماسـة؛ يغريهـم بالقبـض عليـه؛ لمـا سـار إلى المغـرب شاهـد بصحـة نسبهـم. وشعـر الشريـف الـرضي مسجـل بذلـك. والذيـن شهـدوا في المحضـر؛ فشهادتهـم عـلى السمـاع؛ وهي مـا علمـت. وقـد كـان نسبهـم ببغـداد منكـرا عنـد أعـدائهـم شيعـة بـني العبـاس منـذ مائـة سنـة؛ فتلـون النـاس بمذهـب أهـل الدولـة؛ وجـاءت شهـادة عليـه؛ مـع أنهـا شهـادة عـلى النـفي. مـع أن طبيعـة الوجـود في الانقيـاد إليهـم؛ وظهـور كلمتهـم حـتى في

من ذلك ما قاله ابن الأثير: ((**ففي امتناع** [الشريف الرضيّ] **من الاعتذار، ومن أن يكتب طعنا في نسبهم مع الخوف؛ دليل قوي على صحة نسبهم؛ وسألت أنا جماعة من أعيان العلويين في نسبه** [أي نسب عبيد الله مؤسس الدولة الفاطمية] **فلم يرتابوا في صحته... وزعم القائلون بصحة نسبه؛ أن العلماء ممن كتب في المحضر** [الذي طلب منهم التوقيع عليه الخليفة العباسي القادر بالله] **إنما كتبوا خوفا وتقية، ومن لا علم عنده بالأنساب فلا احتجاج بقوله**)).[1]

ومما لا شك فيه؛ أن نجاح الأدارسة في بلاد المغرب جعل بقية العلويين بالمشرق يحسون بعطف سكان تلك الديار تجاه قضيتهم، وميلهم إليهم؛ بحكم النسب الذي يربطهم مع نبي المسلمين عليه الصلاة والسلام. ومن هذا المنطلق أرسل سادس الأئمة العلويين؛ جعفر الصادق بن محمد الباقر داعيتين إلى المغرب هما: عبد الله بن علي بن أحمد المعروف باسم الحلواني، وأبو سفيان الحسن ابن القاسم. نزل الأول في أرض كتامة، والثاني في مرمجنة بالقرب من الحدود التونسية الجزائرية الحديثة.

مكة والمدينة أدل شيء على صحة نسبهم. وأما من نسبهم في اليهودية والنصرانية ليعمون القدح وغيره فكفاه ذلك إثما وسفسفة.)). العبر، مج: 4، ص: 64.

[1] الكامل في التاريخ، ج: 6، ص: 125.

وكان لهما الفضل الأول في التعريف بالقضية العلوية، ونشر الفكر الشيعي بين سكان المغرب الأوسط وإفريقية؛ حيث تمكنا من تحقيق طلب الإمام جعفر بتمهيد المناخ وحرث الأرض؛ انتظارا لمن سيقوم بالحصاد.[1] وما قدوم أبي عبد الله الشيعي ــ فيما بعد ــ إلا من باب استكمال العمل الذي بدأه هذان الداعيتان. ومع هذا فلا بد من الاعتراف بجهود أبي عبد الله الحسين بن أحمد ابن محمد المعروف بالشيعي وبالمحتسب وبالمعلم؛ فهو المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية.[2] حيث لم يكتف ــ كغيره ــ بالدعوة الكلامية؛ بل قام بدور القائد العسكري المحنك؛ الذي ألحق بالأغالبة الهزيمة تلو الأخرى؛ حتى تغلب على حاضرة ملكهم القيروان. كما استطاع إخضاع بقية الممالك بالمغرب الأوسط؛ كمملكة بني رستم بتيهرت، ومملكة بني مدرار بسجلماسة. ودام به الوقت في ذلك العمل الكبير بدءا من عام وصوله إلى ديار كتامة سنة 280هـ(893م)، وحتى بيعة عبيد الله المهدي؛ أول أئمة الدولة سنة 297هـ(909م).

---

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 54 ــ 58. والكامل، ج: 6، ص: 126. واتعاظ الحنفا، ص ص: 53 ــ 54. ودور كتامة، ص ص: 216 ــ 238.

[2] أنظر الأعمال التي قام بها هذا الداعية الفذ في كتاب رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 71 ــ 236. وكتاب الكامل في التاريخ، ج: 6، ص ص: 127 ــ 133. والعبر، مج: 4، ص ص: 65 ــ 76. ودور كتامة، ص ص: 231 ــ 329.

ولم يحقق أبو عبد الله الشيعي تلك النجاحات بسهولة ويسر؛ إذ كان عليه ــ في بداية الأمر ــ توحيد كلمة عشائر كتامة؛ ثم الانتقال بعدئذ إلى خارج القبيلة؛ كي يستطيع ضرب الأعداء بقبيلة موحدة وقوية. وعليه فقد استغرق وقتا طويلا في تحقيق وحدة قبيلة كتامة. وبهذا يكون قد اتبع الأسلوب الذي شرحه ابن خلدون ضمن "**فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك**".[1] حيث تعمل عشيرة معينة على إخضاع بقية عشائر القبيلة وإلزامها بالطاعة والانقياد لقيادة واحدة؛ وذلك بالعمل على مزج العصبيتين الصغرى والكبرى ضمن عصبية واحدة قوية؛ كل هذا يتم بغرض الانتقال إلى مرحلة أخرى؛ تقوم فيها

---

[1] جاء فيها: ((ثم إن القبيل الواحد ــ وإن كانت فيه بيوتات متفرقة، وعصبيات متعددة ــ فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها؛ تغلبها، وتستتبعها؛ وتلتحم جميع العصبيات فيها؛ وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى؛ وإلا وقع الافتراق؛ المفضي إلى الاختلاف والتنازع: "وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَت الأَرْضُ" [من الآية 251 من سورة البقرة]. ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها. فإن كافأتها، أو مانعتها؛ كانوا أقتالا، وأنظارا؛ ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها؛ شأن القبائل والأمم المفترقة في العالم. وإن غلبتها واستتبعتها؛ التحمت بها أيضا؛ وزادتها قوة في التغلب إلى قوتها؛ وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغلبة الأولى وأبعد. وهكذا دائما حتى تكافئ بقوتها قوة الدولة. فإن أدركت الدولة في هرمها؛ ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة؛ أهل العصبيات؛ استولت عليها، وانتزعت الأمر من يدها، وصار الملك أجمع لها)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 609 ــ 610.

العصبية الموحدة بالتغلب على غيرها من العصبيات الغريبة وإخضاعها؛ في سبيل تحقيق الملك القاهر. وهذا هو الذي حدث بين عشائر كتامة؛ حيث قضى أبو عبد الله الشيعي وأنصاره وقتا طويلا في تمهيد سلطانه، وتوحيد العصبيات والعشائر الكتامية المتفرقة؛ ضمن عصبية واحدة متينة وقوية.

ويبدو أن بوادر الوحدة أخذت تتحقق في أواخر سنة 298 هـ(910م)؛ حيث تمكن الداعية الشيعي أبو عبد الله من إخضاع العشائر الكتامية بكاملها؛ خاصة التي كانت بعيدة شيئا ما عن أطراف المدن.[1] هذا بخصوص العشائر الكتامية؛ أما القبائل

---

[1] وفي هذا يقول القاضي النعمان: ((واستولت أمور أبي عبد الله على عامة بلد كتامة؛ وظهرت دعاته في كل ناحية منها، وغلب أمره عليها، واستحكم فيها؛ ولم يبق فيها إلا من يدخل دعوته: إما راغبا، وإما راهبا، أو مخذولا؛ قد أنكرها بقلبه، وغلبت عليه شقوته؛ فأصر على إنكارها؛ فتمسك بما هو عليه؛ غير مدافع لأمر، ولا متوثب على أحد من أهله؛ بل قد صار كل من هذه حاله تحت أحكام الدين، وأيدي المؤمنين؛ يجري حكمهم عليهم، وينفذ أمرهم فيهم، ويحيط سلطانهم من ورائهم؛ بعد أن كانت لأبي عبد الله الشيعي في قبائل كتامة وقائع كثيرة يطول ذكرها؛ أقام ــ بعد انهزام الجميع عنه ــ نحو سنتين يوقعها بهم، وينقص أطرافهم، ويقتلهم، ويغنم أموالهم؛ حتى أجابوه، وسلموا لأمره؛ طائعين، ومكرهين، وراغبين، وخائفين. ولم يبق غير المدائن، ومن فيها من أمرائها، ومن انضم إليهم، وصار عندهم؛ من غلبت عليه الشقوة، وسبق في علم الله حلول البلاء به من رؤساء القبائل، ووجوه العشائر؛ ممن أنف عن الدخول في الدعوة، والوقوع تحت من كان يرى أنه واقع تحت أمره من العشيرة، ومن خامره الخوف من مقدمات سوء فعله، وزين له الشيطان التمادي على

الأخرى؛ فيظهر أن عشائر عجيسة وزواوة تكون قد التحقت بالدعوة خلال عام 288هـ(900م).[1] أما قبيلة تلكاتة الصنهاجية ــ ذات القوة والنفوذ ــ فقد بقيت على الحياد طيلة الفترة التي ناضل فيها أبو عبد الله الشيعي؛ في سبيل إقامة الدولة الفاطمية؛ كما أن المصادر لم تذكر أي محاولة منه للتعرض لتلك القبيلة الواسعة الانتشار. والذي بادر ــ حسبما يبدو ــ إلى عقد صلات مع تلكاتة الصنهاجية هو عبيد الله المهدي نفسه؛ وذلك لما استتب الأمر في القيروان لعبيد له، وظهرت أمامه الأخطار المحدقة بدولته؛ تلك الأخطار التي بدأت بوادرها تبرز من خلال تحركات القبائل الزناتية؛ نتيجة لتحريض الأمويين بالأندلس؛ لذا فقد سعى ــ بكل جهده ــ لكي يكسب ود خصوم الزناتيين التقليديين؛ وهم بالطبع الصنهاجيين.

غيه وجهله؛ وطوائف من القبائل ممن قارب المدايـن، وعاشر أهلها، واستمالهم أمراؤها؛ يدارونهم، ويكاتبونهم، ويتسللون إليهم في السر؛ وهم على ظاهر الطاعة، والوقوع تحت الدعوة في الجهر؛ تركوا على حالهم مستورين؛ كما ترك رسول الله صلى الله عليه وعلى آله من كان بالمدينة وحولها من المنافقين)). رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 121 ــ 122.

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 119 والعبر، مج: 4، ص: 69.

هـذا وقـد تضاعفـت الحاجـة إلى عونهـم بعـد استفحـال أمـر أبي يزيـد مخلـد بـن كيـداد اليفـرني؛ الـذي كـان عـلى رأس القبائـل الزناتيـة الثائـرة عـلى الدولـة. ومـن جهـة أخـرى فقـد وجـد المهـدي نفسـه في حاجـة ماسـة إلى التحالـف مـع عصبيـة أخـرى ذات قـوة تعـادل قـوة العصبيـة الكتاميـة؛ بغـرض تحقيـق شـرط التـوازن. وعليـه فقـد أخـذ يفكـر في هـذا الأمـر بعـد أن بـدأت فئـات مـن قبيلـة كتامـة تلجـأ إلى حركـات فيهـا مشاغبـة، وتمـرد في بعـض الأحيـان. وهكـذا شـرع عبيـد اللـه في إغـراء قبيلـة تلكاتـة، والعمـل عـلى كسـب ولائهـا. وبالفعـل وجـدت مساعيـه أذنـا صاغيـة لـدى الصنهاجييـن؛ نظـرا لأنهـم يميلـون إلى أبنـاء عـلي بـن أبي طالـب مـن جهـة؛ ونظـرا ــ أيضـا ــ لحاجتهـم الماسـة إلى حليـف قـوي يساعدهـم عـلى كبـح جمـاح خصومهـم الزناتييـن مـن جهـة أخـرى. وهكـذا توافقـت مصالـح الطرفيـن؛ فالتحمـت قواهمـا، وتناسقـت جهودهمـا في مواجهـة العـدو المشتـرك.[1]

---

[1] ويشيـر إلى هـذا ابـن خلـدون بقولـه: ((ولما استوسـق الملـك للشيعـة بإفريقيـة تحيـز إليهـم [أي زيـري بـن منـاد] للولايـة الـتي لعـلي رضي اللـه عنـه فيهـم. وكـان مـن أعظـم أوليائهـم؛ واستطـال بهـم عـلى عـدوه مـن مغـراوة؛ فكانـوا ظهـرا لـه عليهـم. وانحرفـت لذلـك مغـراوة وسائـر زناتـة عـن الشيعـة سائـر أيامهـم؛ وتحيـزوا إلى المروانييـن ملـوك العـدوة بالأندلـس؛ فأقامـوا دعوتهـم بالمغـرب الأوسـط والأقـصى ــ كمـا نذكـره إن شـاء اللـه تعـالى ــ ولمـا كانـت فتنـة أبي يزيـد؛ والتـاث أمـر العبيدييـن بالقيـروان والمهديـة؛ كـان لزيـري بـن

وبالإضافة إلى القبائل المذكورة؛ لابد من الإشارة إلى أنه سبق لأبي عبد الله الشيعي ــ داعية الفاطميين ــ أن أخضع بعض الفئات من قبيلة مكناسة لما تغلب على سجلماسة سنة 296هـ(908م). أضف إلى ذلك أنه بدأ اتصاله بالقبائل الزناتية في سنة 296هـ(908م) أيضا؛ وذلك عندما شرع في زحفه نحو سجلماسة؛ لتخليص عبيد الله المهدي من الأسر. ففي تلك الأثناء وفد عليه أمير زناتة ــ محمد بن خزر ــ عند وصوله إلى طبنة؛ طالبا الأمان لقبيلته، ومقدما العهد بالمسالمة، وعدم التعرض لعمال وعساكر الشيعي.[1]

وكان أمر أبي عبد الله الشيعي قد استفحل، واشتدت سطوته بعد أن احتل القيروان، وأسقط دولة الأغالبة؛ بفضل ما وجهه من ضربات صوب تلك الدولة الهرمة؛ إذ طاولها بالحرب، واستنزف بقية قواها؛ فانهارت تحت أقدام القبائل الكتامية؛ التي كانت تمثل القوة الضاربة بالنسبة للشيعة.

مناد منافرة إلى الخوارج؛ أصحاب أبي يزيد وأعقابهم؛ وتسريب الحشود إلى مناصرة العبيديين بالقيروان؛ كما ستراه العبر، مج: 6، ص : 313.

[1] وكان قد سقط ــ من قبل ــ رسل أبي عبد الله الشيعي في كمين نصبه جماعة من زناتة فقتلوهم؛ بينما كانوا طريقهم إلى سجلماسة؛ محملين ببعض المال إلى عبيد الله المهدي. أنظر رسالة افتتاح الدعوة، ص: 197 ــ 198.

وهنا يتحقق ما قرره ابن خلدون أيضا ضمن "**فصل في أن الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة**".[1] وذلك أن القبيلة المتمردة والطامعة في الاستيلاء على الملك، الساعية نحو تحقيقه بالقوة والغلبة؛ تعمل على إسقاط الدولة القائمة بواسطة حرب الاستنزاف؛ أو بتعبير ابن خلدون بواسطة المطاولة لا بالمناجزة.

ومن يتابع الأحداث السياسية والعسكرية منذ وصول الداعية أبي عبد الله الشيعي إلى بلاد المغرب سنة 288هـ(900م)؛ وحتى انتصاب عبيد الله المهدي على عرش القيروان سنة 297هـ(909م)؛ سيجد ــ حتما ــ أن الأعباء العظمى في مسيرة قيام الدولة الفاطمية تمت ــ بالدرجة الأولى ــ بفضل سواعد الكتاميين. وعليه فلا بد من التنويه بفضل هذه القبيلة الأمازيغية في تشييد صرح الدولة الفاطمية، وفي تمهيد سلطانها ببلاد المغرب، بالإضافة إلى الفتوحات العظيمة التي أنجزتها في بلاد المشرق. فهذه القبيلة وضعت أبناءها، وأموالها في خدمة الدعوة الفاطمية؛ نتيجة لما تزودت به عصبيتها من شحنات ذات طاقة معنوية هائلة؛ استمدت من تعاليم المذهب الشيعي؛ ذي السمات الدينية والسياسية.

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 873 ــ 878.**

وهنا تصدق ـ أيضا ـ نظرية ابن خلدون؛ التي شرحها ضمن: "**فصل في أن الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين؛ إما من نبوة، أو دعوة حق**" و"**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[1] فالدعوة الدينية هنا عززتها عصبية فياضة وقوية؛ مشخصة في قبيلة كتامة؛ التي تبنت المذهب الشيعي، وتحملت أعباء قيام الدولة الفاطمية بالمغرب الإسلامي.

ومفاد ذلك كله أنه إذا تحققت نشأة هذه الدولة على أسس مذهبية، ودعوة دينية؛ قد تفوز بنفوذ واسع، وسلطان عريض، وملك عظيم؛ ولكن بشرط أن توجد عصبية قوية تقف وراء تنفيذ العمل العسكري والسياسي. وهكذا توافرت شروط نجاح الدولة الفاطمية بالمغرب. وعليه نرى أنه ـ إلى جانب الدعوة الدينية ـ انتصبت عصبية كتامة؛ بصفتها الكفيلة بتنفيذ تلك المهمة في الميدان؛ ومن هنا تكون هذه القبيلة هي الوصية الفعلية على قيام وسلامة الدولة الفاطميين الفتية. لم لا..؟ أليس عبيد الله المهدي من أهل النصاب الملكي؟ لذا فهو جدير بالمساندة، والدعم؛ كما يمكنه ـ في هذه الحال ـ الاستغناء عن عصبيته الخاصة؛ لأنه سيجد عصبية أخرى مستعدة للانقياد إليه.

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 636. 638 ـ 642.**

وهذا هو الذي قصده ابن خلدون؛ ضمن: "**فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة؛ تستغني عن العصبية**".[1]

والدولة الفاطمية ــ مثلها مثل الدولة الإدريسية ــ جاءت نشأتها نتيجة لما وصلت إليه عصبية بني هاشم؛ من ضعف وانقسام. فبعد استفحال أمر بني العباس، وسعيهم لتصفية أبناء علي بن أبي طالب؛ التجأ هؤلاء إلى أقاصي البلاد وأطرافها؛ مستترين ــ خوفا وتقية ــ من أذى أبناء عمومتهم؛ بني العباس. فوجدوا في تلك المناطق النائية الأمن والأنصار معا. وقد عالج ابن خلدون هذه الظاهرة ضمن فصلين في مقدمته: "**فصل في انقسام الدولة الواحدة بدولتين**" و"**فصل في كيفية طروق الخلل للدولة**".[2] وكما سبقت الإشارة إليه؛ فقد تم التوسع في شرح رأي ابن خلدون في هذا الموضوع ضمن دراسة مستقلة وضعتها تحت عنوان "العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية" حيث تبرز نظرية ابن خلدون هذه؛ الكيفية التي تسقط بها الدول؛ عندما يتسرب إليها الفساد. وكيف تبدأ الدولة بالتفكك؛ حينما يتنكر حاكمها لأهل عصبيته؛ فيسعى لإذلالهم، وتقليم أظافرهم.

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 635 ــ 636.**

[2] **نفسه، ص ص: 859 ــ 862. 863 ــ 867.**

إذ يستشهد هذا العلامة بما حدث لعصبية بني عبد مناف؛ وهي عصبية مركبة؛ يجتمع فيها بنو هاشم وبنو أمية. حيث انقسمت هذه العصبية المركبة، الجامعة؛ بين بني هاشم وبني أمية. ثم انقسمت عصبية بني هاشم بدورها إلى بني العباس وبني أبي طالب.

وهكذا تتضح سلامة استقراء ابن خلدون. فكما نشأت الدولة الإدريسية من جراء الاضطهاد والقمع؛ المسلطين على أبناء علي بن أبي طالب. فقد نشأت الدولة الفاطمية بدورها عقب قمع وتشريد بني أبي طالب أيضا؛ إذ لجأ أعضاء هذه الأسرة إلى التقية والتستر؛ إلى جانب سعيهم الحثيث في نشر دعوتهم بأطراف البلاد النائية؛ بواسطة دعاة أكفاء. وتبعا لذلك؛ قدم إلى بلاد المغرب أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا؛ المعروف بالمحتسب وبالمعلم؛ ذلك الداعية الداعية الشيعي الفذ. جاء إلى بلاد المغرب بغرض نشر الدعوة الفاطمية الشيعية في تلك الديار؛ فانطلق بالعمل من وسط قبيلة كتامة؛ التي انقادت إليه؛ بعد أن وحد عشائرها؛ ضمن عصبية واحدة؛ متينة الأسس؛ معتمدا على فعالية التعاليم الدينية؛ التي أضفت عليها هالة من القدسية، والفخامة. واستطاعت هذه القبيلة ضم قبائل أخرى إلى صفوفها؛ كما سبق ذكره.

وبعد فترة تمكنت من اكتساح دولة بني الأغلب. وهنا فتح الباب على مصراعيه؛ أمام قيام دولة الفاطميين؛ على أنقاض دولة الأغالبة. وتم هذا ببيعة عبيد الله المهدي عام 297هـ(909م) برقادة.

وجملة القول.. فقد حققت دولة الفاطميين ما لم تتمكن دولة الأدارسة من تحقيقه. فالعصبية المناصرة للدولة الفاطمية تفوق العصبية المنحازة للأدارسة بكثير. إذ كان لدولة الفاطميين أتباع عددهم لا يحصى؛ مكنوها من التغلب على إفريقية والمغرب كافة؛ بل مدوا نفوذ هذه الدولة إلى بلدان المشرق أيضا؛ حيث شمل مصر والشام والحجاز. وفي حالات خاصة؛ وصل نفوذ الدولة الفاطمية إلى بغداد نفسها؛ إذ التهمت الدول المتواجدة في تلك الربوع كلها. فغدت الخلافة الفاطمية تزاحم الخلافة العباسية، وتهدد وجودها في عقر دارها. ومرد هذا ــ طبعا ــ يعود إلى ما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها؛ على نسبة القائمين بها؛ من القلة والكثرة**".[1]

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 644 ــ 646.**

ومن جهة أخرى يمكن ملاحظة صدق نظرية ابن خلدون؛ من خلال ما قرره ضمن: "**فصل في أن الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة؛ لا بالمناجزة**".[1] حيث صنف الدول المستجدة إلى صنفين: الصنف الأول؛ تنشأ الدولة فيه بالأطراف؛ التي تكون الدولة المستقرة عاجزة عن حمايتها. وهذا الصنف قاصر ومحدود الفعالية. وإذا تأملنا في أحداث الدولة الإدريسية يتبين لنا بأنها تمثل الصنف الأول هذا.

أما الصنف الثاني؛ فهو الذي يعتمد على الدعوة والدعاة؛ بغرض التعبئة المعنوية الموجهة سواء إلى الحلفاء أو الخصوم. ويتم ذلك ــ عادة ــ بأن يقوم أولئك الدعاة بنشر مفاهيم وأفكار تستند إلى أصول مذهب معين بأساليب جذابة ومثيرة للعواطف؛ عاملين كل جهودهم لكي تحققون الغرض المطلوب من خلال بث مؤثرات نفسية تلهب قلوب العامة، ومن خلال طرح حجج منطقية يمكنها أن تستميل الخاصة؛ ثم العمل بكل القوى على شحذ الهمم وبعث روح التضحية في النفوس، تشجيع المترددين وحثهم على العصيان والثورة؛ ضد كل ما هو قائم.

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 873 ــ 878.**

ومن جهة أخرى يسعون بكل الوسائل الممكنة إلى نشر الإشاعات الهدامة في صفوف الخصوم، والعمل على تثبط هممهم، وتفكيك وحدتهم وتشتيت شملهم؛ بواسطة حملات نفسية مدمرة. وهذا الصنف الثاني ــ طبعا ــ يمكن اعتبار الفاطميين مثلا بارزا له.[1]

ــ حكومة عبيد الله بن أحمد بن الحسين المهدي:

اختلفت الأقوال حول المكان الذي ولد فيه عبيد الله المهدي؛ فمن قائل بأنه ولد بسلمية في أرض الشام ومن قائل أنه ولد ببغداد سنة 260هـ(873م). كان قد تولى الإمامة بعد موت والده أحمد (أو محمد في بعض الأقوال) بن الحسين؛ حيث بقي في (عَسْكر مُكرَم) والشام مختفيا؛ إلى أن اشتد البحث عنه من طرف

---

[1] حيث يقول ابن خلدون: ((وكذا العبيديون؛ أقام داعيتهم بالمغرب؛ أبو عبد الله الشيعي؛ بيني كتامة؛ من قبائل البربر؛ عشر سنين ويزيد؛ يطاول بني الأغلب بإفريقية؛ حتى ظفر بهم، واستولوا [أي العبيديون] على المغرب كله، وسموا إلى مصر؛ فمكثوا ثلاثين سنة أو نحوها في طلبها؛ يجهزون إليها العساكر والأساطيل في كل وقت؛ ويجيء المدد لمدافعتهم برا وبحرا من بغداد والشام؛ وملكوا الإسكندرية، والفيوم، والصعيد؛ وتخطت دعوتهم من هنالك إلى الحجاز؛ وأقيمت بالحرمين. ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر؛ واستولى عليها، واقتلع دولة طُغُج من أصولها، واختط القاهرة؛ فجاء الخليفة بعدُ المعز لدين الله؛ فنزلها لستين سنة، أو نحوها؛ منذ استيلائهم على الإسكندرية)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 876 ــ 877.

العباسيين؛ خاصة بعد استفحال أمر الشيعة في المغرب واليمن؛ فاضطر عبيد الله ـ عندئذ ـ إلى الهروب مع ولده أبي القاسم نزار نحو مصر؛ وذلك قصد اتقاء شر الخليفة العباسي المكتفي؛ الذي أمر بالقبض عليه. ولما حل بمصر في زي التجار أكمل طريقه نحو بلاد المغرب. ويبدو أنه قام بذلك تبعا لما سبق له؛ حيث استقبل رسلا من كتامة بعثهم الداعية الفاطمي أبو عبد الله؛ يبشره بما تحقق له من الفتح. ولما وصل إلى إفريقية اتجه جنوبا نحو سجلماسة؛ بعد أن أحس بكثافة عمليات البحث عنه. غير أن أمره انكشف في تلك المدينة؛ حيث قبض عليه أميرها اليسع بن مدرار، وأودعه السجن؛ بعد أن وصله خطاب من الخليفة ببغداد ـ أو ابن الأغلب ـ يطلب منه ذلك. وظل في سجنه حتى أخرجه منه الداعية الشيعي أبو عبد الله؛ بعد أن تغلب على القيروان وأسقط دولة بني الأغلب؛ ثم زحف إلى سجلماسة؛ التي تغلب عليها هي الأخرى وقبض على أميرها اليسع.

ويصف القاضي النعمان لحظة اللقاء بين الداعية والإمام بقوله: ((**فخرج إليهم وجوه أهل المدينة** [مدينة سجلماسة]...**ودخلوا معهم إلى المكان الذي كان فيه المهدي عليه السلام فاستخرجوه، واستخرجوا القائم** [وهو أبو القاسم نزار بن المهدي]؛ **فكانت في الناس مسرة عظيمة؛ استفزتهم وكادت تطيش لها عقولهم. وقرِّب لهما عليهما السلام فَرَسَان؛ فركباهما، وحف المؤمنون بهما، والدعاة يمشون حولهما، وأبو عبد الله يمشي بين يدي الإمام ويقول: "هذا مولاي ومولاكم أيها المؤمنون"، ويحمد الله عز وجل ويشكره ويبكي من شدة الفرح؛ حتى وصل الإمام إلى فازة وقد فرشت له**)).[1]

وبعد أن تم للفاطميين تمهيد الوضع في سجلماسة، وبعد أن تمكنوا من القبض على اليسع ابن مدرار وقتله؛ تحركوا نحو رقادة؛ مقر الملك في القيروان؛ وفي الطريق عرجوا على إكجان؛ حيث أخذوا ما كان مكنوزا بها من الأموال والذخائر؛ ثم رحلوا صوب القيروان؛ فحلوا برقادة يوم خميس من أيام ربيع الآخر سنة 297هـ(909م).[2]

---

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: **239 ـــ 240**.

[2] وقد وصف ابن عذاري لحظة وصول المهدي ومن معه إلى رقادة؛ حيث قال: ((وصل عبيد الله إلى مدينة رقادة؛ ومعه ابنه أبو القاسم، وجعفر بن علي الحاجب، وأبو الحسن طيب بن إسماعيل المعروف بالحاضن؛ ولقيه الفقهاء ووجوه أهل القيروان؛ فدعوا له، وهنؤوه، واظهروا له السرور

وبادر المهدي في اليوم الثاني من وصوله ـ أي يوم الجمعة ـ بإصدار أوامر مكتوبة إلى خطباء المساجد؛ موضحا فيها الصيغة التي يجب إتباعها في الدعاء له ولأهل البيت. وقد أورد نص هذه الصيغة القاضي النعمان وهي: ((**اللهم فصلِّ على عبدك وخليفتك القائم بأمر عبادك في بلادك؛ عبد الله أبي محمد الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين؛ كما صليت على آبائه خلفائك الراشدين المهديين؛ الذين كانوا يقضون بالحق وبه يعدلون؛ اللهم وكما اصطفيته لولايتك، واخترته لخلافتك، وجعلته لدينك عصمة وعمادا، ولبريتك موئلا وملاذا؛ فانصره على أعدائك المارقين، واشف به صدور المؤمنين، وافتح له مشارق الأرض ومغاربها كما وعدته، وأيده على العصاة الظالمين؛ إله الخلق رب العالمين**)).[1]

بأيامه؛ وسألوه تجديد الأمان لهم. فقال لهم: "أنتم آمنون في أنفسكم وذراريكم"؛ ولم يذكر الأموال؛ فعاوده بعضهم، وسألوه التأمين لهم في الأموال؛ فأعرض عنهم؛ فخافه أهل العقل من ذلك الوقت. ودخل رقادة وعليه ثوبُ خزٍّ أدكنُ، وعمامة مثله، وتحته فرسٌ وَرْدٌ؛ وأبو القاسم ابنه خلفه؛ عليه ثوبُ خزٍّ خلوقيٌّ، وعمامة مثله، وتحته فرسٌ أشقر؛ ،أبو عبد الله أمام عبيد الله؛ وعليه ثوبٌ توتيٌّ، وظهارةُ كتّان، وعمامةٌ، ومنديلٌ اسكندرانيٌّ، وتحته فرسٌ كُمَيْت، وبيده سبنية يمسح بها العرق والغبار عن وجهه؛ والناس حواليه وبين يديه أقواط يسلمون عليه. فنزل عبيد الله في القصر المعروف بالصَّحْن، ونزل ابنه بقصر أبي الفتح. وتسمى عبيد الله بالمهدي)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 158.

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 249 ــ 250.

غير أن رأي ابن عذاري يخالف ما ذكره النعمان إذ يرى أن المهدي اتخذ بعض الإجراءات التي توضح تشيع عبيد الله بشكل متطرف، وينسب إليه العداء لبقية المذاهب السنية.[1] كما أن ما جاء في كتاب القاضي النعمان من أشعار مدح بها الشعراء المهدي؛ لا يؤخذ عليها بمكره؛ إلا أن ابن عذاري له نظرة أخرى إذ نسب إلى بعضهم شعرا ــ في مدح المهدي ــ يدخل في عداد النصوص المارقة الداعية للكفر.[2]

---

[1] يقول ابن عذاري: ((وأقر على عمالة القيروان الحسن بن أبي خِنْزِير، وعلى القضاء بها المَرُّوذي. وأمر أن تُقلع من المساجد والمواجل والقصور والقناطر أسماء الذين بنوها؛ وكتب عليها اسمه. وأظهر عُبَيْد الله التشَيُّع القبيح، وسب أصحاب النبي ــ صلعم ــ وأزواجه؛ حاشى علي بن أبي طالب، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري؛ وزعم أن أصحاب النبي ــ عم ــ ارتدوا بعده غير هؤلاء الذين سميناهم. ومنع المروذي الفقهاء أن يفتي أحدهم إلا بمذهب زعم انه مذهب جعفر بن محمد؛ منه سُقُوطُ الحِنْث عمن طلق البَتَّةِ، وإحاطة البنات بالميراث، وأشياء كثيرة يطول ذكرها)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 159 ــ 160. ويقول محمد الصنهاجي أيضا في هذا الباب: ((وكان من جملة ما أخذت عبيد الله أن قطع صلاة التراويح في شهر رمضان، وأمر بصيام يومين قبله، وقنت في صلاة الجمعة قبل الركوع، وجهر بالبسملة في الصلاة المكتوبة، وأسقط من أذان صلاة الصبح "الصلاة خير من النوم"، وزاد حي خير، محمد وعلي خير البشر العمل)). أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص: 27.

[2] من ذلك ما زعموا أنه لمحمد البديل الذي يقول (بسيط):

حَلَّ برَقَّادَة المَسِيحُ ... حَلَّ بِهَا آدَمُ ونُوحُ
حَلَّ بِهَا أحْمَد المُصَفَّى ... حَلَّ بِهَا الكَبْشُ وَالذّبِيحُ
حَلَّ بِهَا اللَّهُ ذُو المَعَالِي ... وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحُ

وربما يدخل ما ذكره ابن عذاري وغيره من مؤرخي السنة في عداد الإشاعات التي سلطت على الفاطميين من باب الحملة النفسية المضادة.

المهم أن عبيد الله المهدي بمجرد أن انتصب على سدة الحكم في رقادة ؛ ذلك الحكم الذي وجده جاهزا وممهدا؛ فإنه لم يترك لأنصاره الفرصة لكي يشاكوه في السلطان والحكم؛ إذ سارع إلى الانفراد بالحكم؛ وذلك بتعزيز مركزه، وإزاحة أبي عبد الله الشيعي من مكانته الهامة في الدولة. ولم يشفع له ما مقدمه للدولة وإمام الدولة من خدمات جليلة؛ لأنه في الحقيقة هو الذي أوصل المهدي إلى ذلك المركز المرموق؛ بعد أن أخرجه من سجنه بسجلماسة، وبعد أن طلب من القبائل المناصرة لدعوته بطاعة الإمام المنتظر؛ حيث قال لهم: ((**هذا مولاي ومولاكم، وولي أمركم، وإمام دهركم، ومهديكم المنتظر الذي كنت به أبشر؛ قد أظهر الله عز وجل أمره كما وعده، وأيد حزبه وجنده**)).[1]

ويضيف ابن عذاري قائلا: ((لعنه الله، وغضب عليه، وأخزى القائل والمقول فيه! وكانت إيمان كتامة أول دخولهم إفريقية: "وحق عالم الغيب والشهادة، مولانا المهديّ برقادة"! حتى كتب بعضُ أحداث القيروان هذين البيتين؛ وتلطفوا في وصولها إلى عبيد الله من حيث لا يعلم؛ وهي (مجتث):

الجُورُ قَدْ رَضِينَا لاَ الكُفْرُ وَالحَمَاقَةْ
يَا مُدَّعي الغُيُوبِ مَنْ كَاتِب البِطَاقَةْ؟)).

البيان، ج: 1، ص: 160.

[1] **رسالة افتتاح الدعوة، ص: 245.**

وهنا يصدق رأي ابن خلدون أيضا حين كتب: "**فصل في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد**"[1] إذ يرى أن ذلك يتم بعد أن يتحقق الملك لرئيس العصبية البارز بين الجميع؛ عندئذ يقتضي منه خلق الكبر والأنفة المسيطر عليه ــ وهذان الصفتان من خواص الطبيعة الحيوانية ــ إلى السقوط في الغيرة والحرص على الاستحواذ على ما اكتسبه؛ فلا يرضى بمشاركة غيره في ذلك المجد؛ الذي غدا بين يديه؛ وعليه يسعى إلى إبعاد الطامعين في المشاركة، والمزاحمين له في تحقيق المجد؛ ولما يصطدم بمقاومة ما أو أي اعتراض من طرف شركائه في الأمر؛ يحول اهتمامه إليهم، ويسلط آلة القمع والدمار ضدهم.

لذا فلا غرابة أن يكون أول ضحايا القمع المسلط من المهدي هو معاونه وداعيته، وصاحب الفضل عليه أبو عبد الله الشيعي؛ إذ وصل به حد الانتقام إلى قتله؛ بعد عام من بيعته؛ أي في سنة 298هـ(910م). وكان الذي نفذ أمر المهدي في أبي عبد الشيعي هو رفيقه وتلميذه القائد الكتامي عروبة بن يوسف.

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 649 ــ 650.**

ولما هم بتنفيذ الأمر بالقتل قال له أبو عبد الله الشيعي: ((**لا تفعل يا بني**))، فأجابه عروبة: ((**الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك**)).[1] ومن غرائب أمزجة الملوك ما قام به المهدي أيضا؛ إذ انه بعد مقتل أبي عبد الله الشيعي بأمره؛ تولى بنفسه الصلاة عليه، ثم قال: ((**رحمك الله أبا عبد الله، وجزاك خيراً بجميل سعيك**)).[2] ومن المفارقات أن يكون عروبة بن يوسف الملوسي ـ ذلك القائد الكتامي العظيم الذي ضرب به المهدي أبا عبد الله الشيعي ـ هو نفسه ضحية سخط وقمع المهدي؛ إذ لم يسلم حتى هو من الانتقام الملكي؛ إذ قتله المهدي بعد فترة قصيرة؛ مع أخيه حباسة ابن يوسف؛ ذلك القائد الذي فتح الإسكندرية.

هذا وقد حدثت ـ نتيجة لمقتل أبي عبد الله الشيعي، وأخيه أبي العباس، وأصحابه الكتاميين ـ بعض الثورات بين العشائر الكتامية؛ الناقمة والساخطة على المهدي؛ ولكن هذا الأخير استطاع إخماد ثورتهم، والتنكيل بهم؛ فعادوا إلى ديارهم بأرض كتامة؛ حيث أعلنوا العصيان من جديد، ونصبوا صبيا من بينهم؛ وهو كادو بن معارك المدعو بالماوطي؛ مدعين أنه المهدي المنتظر؛ بل يقال أنهم تطرفوا في ادعائهم؛ حتى أنهم زعموا

---

[1] **الكامل، ج: 6، ص: 135. البيان المغرب، ج: 1، ص: 164. واتعاظ الحنفا، ص: 96.**

[2] **الكامل، ج: 6، ص: 135. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 164. واتعاظ الحنفا، ص: 96.**

أنه نبي.[1] ولم تدم هذه الثورة؛ إذ جرد المهدي جيشا بقيادة ولده أبي القاسم محمد بن عبيد الله، وكان جل أفراده من قبيلة كتامة؛ فأخمدوا تلك الفتنة. وبهذا يتضح بأن قبيلة كتامة لم تتأثر بذلك الانقسام؛ إذ سرعان ما عادت إلى الطاعة، وإلى خدمة الدولة الفاطمية. ويبدو أن المهدي قد شغلهم بالفتوحات شرقا وغربا؛ فتركوا المشاغبات؛ واتجهوا صوب الفوائد التي تأتيهم من الحروب الخارجية. وقد كانت أيام الدولة الفاطمية بالمغرب مشحونة بالحروب والفتن والثورات؛ الأمر الذي جعلها لا تهنأ بفترة من الاستقرار والهدوء. وأخطر الثورات على الإطلاق هي التي نشبت في عهد أبي القاسم القائم بأمر الله؛ خليفة المهدي؛ وهي ثورة الخوارج؛[2] بقيادة أبي يزيد مخلد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار؛ إذ كادت هذه الثورة أن تقضي على الدولة الفاطمية نهائيا؛ لولا الانقسامات التي حدثت في صفوف القبائل الثائرة.

---

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص: 273. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 166 ــ 167.

[2] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 277 ــ 279. وأخبار ملوك بني عبيد، ص ص: 29 ــ 34. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 216 ــ 220. والعبر، مج: 4، ص ص: 84 ــ 93. مج: 7، ص ص: 26 ــ 35. واتعاظ الحنفا، ص ص: 109 ــ 125.

هذا ولم يهنأ عبيد الله طويلا؛ إذ انشغل بعض الوقت في إخماد ثورات عديدة قامت هنا وهناك؛ مثل ثورة الكتاميين بالقيروان، وثورتهم كذلك ببلادهم خلف الصبي المدعو كادو بن معارك، وثورة في صقلية بقيادة ابن وهب، وثورة أخرى بصقلية كذلك بقيادة أحمد بن زيادة الله ابن قرْهب وثورة في تيهرت قامت بها جماعة من قبيلة زناتة، وثورة هوارة بطرابلس بقيادة أبي هارون الهواري، وثورة أهل طرابلس أيضا بقيادة محمد بن إسحاق المعروف بابن القرلين وعصيان من طرف زناتة ولماية. هذا بالإضافة إلى الحملات العسكرية التي قام بها أبو عبد الله الشيعي المغرب الأوسط، وما قام به أبو القاسم بن المهدي من حملات أيضا ضد قبائل عديدة هنا وهناك.

ولم يكن هدف الفاطميين هو الاكتفاء بتشييد دولة لهم ببلاد المغرب فحسب ــ كما كان الحال بالنسبة للأدارسة ــ بل كانوا يتخذون من دولتهم بالمغرب خطوة تكتيكية؛ في سبيل تحقيق هدف استراتيجي؛ وهو الإطاحة بالخلافة العباسية، وقيام دولتهم بدلا منها. لذا فقد شرع المهدي منذ سنة 301هـ(913م) في غزو مصر. وكانت أولى خطوات تمت في هذا السبيل؛ هي أوامره بخروج حباسة ابن يوسف في أسطول نحو مصر؛ حيث احتل المدن المتاخمة لمصر في برقة؛ مثل سرت

وإجدابيـــة وبرقـــة؛ كمـــا اشتبـــك مـــع جيـــش قـــدم مـــن المـــدن المتاخمـــة لمصـــر في برقـــة؛ فانتـــهى السجـــال بينهمـــا أخيـــرا بهزيمـــة جيـــش مصـــر. ثـــم تقـــدم إلى الإسكندريـــة بحـــرا؛ حيـــث تغلـــب عليهـــا. وبعـــد ذلـــك تقـــدم حباســـة نحـــو مصـــر؛ أيـــن فتـــح بعـــض الحصـــون هـــناك؛ إلى أن لحـــق بـــه أبـــو القاســـم بـــن عبيـــد اللـــه في جيـــش عظيـــم؛ فاحتـــل الإسكندريـــة سنـــة 302هـــ(914م)؛ ثـــم تقـــدم أبـــو القاســـم إلى الفيـــوم؛ أيـــن عسكـــر بهـــا.[1] وهنـــاك وصلتـــه الأخبـــار بوصـــول القائـــد العبـــاسي مؤنـــس الخـــادم إلى مصـــر بغـــرض محاربـــة جيـــش الفاطميـــين. عندهـــا أرســـل أبـــو القاســـم إلى حباســـة يطلـــب منـــه الالتحـــاق بـــه، وتسليـــم أمـــر الجيـــش إلى أبي فريـــدن؛ فغضـــب حباســـة بسبـــب ذلـــك؛ وقـــال: ((**لمـــا أشرفـــت عـــلى أخـــذ البلـــد؛ يفـــوز أبـــو فريـــدن بخيـــره وذكـــره**)).[2] وكـــان رد فعلـــه أنـــه عـــاد مـــع مجموعـــة صغيـــرة إلى المغـــرب.[3]

---

[1] **أنظـــر الكامـــل في التاريـــخ، ج: 6، ص: 147. واتعـــاظ الحنفـــا،، ص ص: 98 ــ 100. والنجـــوم الزاهـــرة، ج: 3، ص ص: 172 ــ 173. 186 ــ 187. 196.**

[2] **البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص: 173.**

[3] **وكانـــت هـــذه الحادثـــة هـــي السبـــب في عصيـــان حباســـة وأخيـــه عروبـــة؛ إذ خرجـــا عـــن طاعـــة الدولـــة ؛ فانتـــهى أمرهمـــا إلى الإعـــدام.**

وكانت هذه ضربة شديدة ثبطت عزيمة أبي القاسم؛ فعاد أدراجه إلى القيروان؛ فانتهز الفرصة مؤنس الخادم فأغار على خلفيات الجيش الفاطمي وساقته.[1] ويرى ابن الأثير هنا أن الجيش الفاطمي تكبد خسائر كبيرة. ثم عاود المهدي في سنة 303هـ(915م) الكرة؛ حيث أمر بإرسال جيش آخر بقيادة أبي مدين ابن فروخ لجس النبض في الحدود المصرية؛ فاحتل برقة في سنة 304هـ(916م)؛ بعد حصار دام ثمانية عشر شهرا.

ولم يقتصر اهتمام عبيد الله المهدي بمصر والمشرق فحسب؛ بل اهتم ـ في الوقت ذاته ـ بالمناطق الغربية أيضا؛ حيث جرد جيشا بقيادة أمير تيهرت مصالة بن حبوس المكناسي لفتح البلاد الغربية الخاضعة للدولة الإدريسية، وإمارة بني صالح في نكور. وبالفعل فقد تحقق ما كان يرجوه عبيد الله المهدي من تلك الحملة؛ إذ تمكن مصالة من التغلب على مناطق شاسعة في المغرب الأقصى؛ بدولها وقبائلها؛ مثل نكور التي احتلها في سنة 305هـ(917م)؛ وفاس حاضرة الدولة الإدريسية؛ بعد أن أجبر ملكها الإدريسي يحيي بن إدريس بن عمر إلى تقديم الطاعة إلى المهدي إمام الدولة الفاطمية.

---

[1] تختلف رواية ابن الأثير عن رواية ابن عذاري؛ إذ يرى ابن الأثير أن الذي اشتبك مع مؤنس الخادم هو حباسة؛ ولم يشر إلى أبي القاسم بن عبيد الله. الكامل، ج: 6، ص: 149.

وفي سنة 306هـ(918م) جهز المهدي ولده أبو القاسم بن عبيد الله وأمره بالزحف ـ مرة ثانية ـ نحو مصر في جيش ضخم من كتامة وبعض قبائل إفريقية؛ فانطلق الجيش عن طريق البر؛ فتغلب على برقة؛ ثم تقدم إلى الإسكندرية فدخلها؛ وتقدم إلى الجيزة؛ فاحتل الأشمونيين وجزء كبير من الصعيد. ثم شحن عبيد الله أسطولا بحريا ـ مشكلا من ثمانين مركبا ـ نحو مصر؛ لدعم ولده أبي القاسم؛ بقيادة يعقوب الكتامي وسليمان الخادم. وبالمقابل بعث الخليفة العباسي مؤنس الخادم برا، وأسطولا من طرسوس ـ مشكلا من خمسة وعشرين مركبا ـ لمواجهة جيوش الفاطميين. وانتهت الحرب بهزيمة الجيوش الفاطمية؛ التي فتكت بها الأمراض والأوبئة.[1]

ومن طرائف بعض المؤرخين أنهم عللوا زحف أبي القاسم بن عبيد الله نحو مصر والمشرق؛ بأنه لم يكن سوى رد انفعالي على استفزاز العباسيين؛ بعد أن أمر الخليفة العباسي المقتدر ـ كما قالوا ـ الشاعر محمد بن يحيى المعروف بالصولي بأن يكتب قصيدة إلي أبي القاسم ابن المهدي؛ ردا على قصيدة كان قد أرسلها إليه أبو القاسم؛ مفتخرا بما فتح الله عليه؛ ومن قصيدة الصولي هذا البيت:

---

[1] **الكامل، ج: 6، ص: 161. واتعاظ الحنفا، ص ص: 103 ـ 104. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 181 ـ 182.**

فلوْ كانتِ الدُّنيَا مِثــالاً لِطائِــرٍ

لكانَ لكمْ مِنهَا بِمَا حُزتم الذنــبُ

مــن بيــن أولئــك المؤرخيــن المقريــزي؛ الــذي يكمــل حديثــه فيقــول: ((**فحــرك همتــه** [أي همــة أبي القاســم] **هــذا البيــت؛ فقــال**: "**واللــه لا أزال حــتى أملــك صــدر الطائــر ورأســه ــ إن قــدرت ــ وإلاّ أهلــك دونــه**". **وكابــد عــلى ديــار مصــر مــن الحــروب أهــوالا، ومــات ولــم يظفــر بهــا؛ وأوصى ابنــه المنصــور... وكــان الظافــر بهــا المعــز**)).[1] وحــتى أن صحــت حكايــة هــذه القصيــدة؛ فــلا يمكــن أن يقــوم المهــدي وولــده أبــو القاســم بشــن حــرب عــلى دولــة بــني العبــاس امتــدت زمنيــا بعشــرات السنيــن، وكلفــت الدولــة آلاف الأرواح، وأمــوالا لا تحــصى؛ لا لــشيء ســوى أنــه أصــر ــ بعنــاد ونكايــة في القــادر العبــاسي ــ أن يستــولي عــلى صــدر الطائــر ورأســه..!! فهــذا التعليــل فيــه كثيــر مــن الأصبــاغ الأسطوريــة مــا يضحــك. أمــا الحقيقــة فتكمــن في الرغبــة الجامحــة لــدى الفاطميــن للإطاحــة بالخلافــة العباسيــة ــ الــتي يــرون فيهــا دولــة مغتصبــة لحقــوق العلوييــن ــ حــتى يتســنى لهــم إقامــة الخلافــة الفاطميــة العلويــة الشرعيــة في نظرهــم.

---

[1] **اتعــاظ الحنفــا، ص: 99.**

وبعدها انشغل عبيد الله المهدي بتطويع القبائل المنتشرة في المغربين الأوسط والأقصى؛ كزناتة ومكناسة وهوارة ونفوسة وفي هذا يقول ابن خلدون: ((**واضطرب المغرب؛ فبعث المهدي ابنه أبا القاسم غازيا إلى المغرب في عساكر كتامة أولياء الشيعة سنة خمس عشرة وثلاثمائة؛ ففر محمد ابن خزر** [الزناتي] **وأصحابه في الرمال. وفتح أبو القاسم بلد مزاتة ومطماطة وهوارة، وسائر الإباضية والصفرية، ونواحي تاهرت قاعدة المغرب الأوسط إلى ما وراءها؛ ثم عاج إلى الريف؛ فافتتح بلد نكور من ساحل المغرب الأوسط(!) ونازل صاحب جراوة من آل إدريس وهو الحسن بن أبي العيش، وضيق عليه، ودوخ أقطار المغرب؛ ورجع ولم يلق كيدا**)).[1]

[1] **العبر، مج: 4، ص: 82.**

وفي سنة 322هـ(933م) توفي عبيد الله المهدي؛ بعد أن حكم الدولة الفاطمية ببلاد المغرب مدة أربع وعشرين سنة؛[1] فأخفى ولده أبو القاسم خبر موته مدة من الزمن قيل أنها وصلت إلى السنة تقريبا؛ بينما يقول أبي عبيد الله محمد الصنهاجي أنها لم تتجاوز الشهر؛ وذلك خوفا من حدوث فتنة أو بعض الاضطرابات[2].

ـ حكومة القائم بأمر الله أبو القاسم محمد بن عبيد الله:

ثمة من يقول أن اسمه عبد الرحمن أو نزار وليس محمدا. وتلقب من ألقاب الخلافة بلقب القائم بأمر الله. وولد هو الآخر في سلمية بأرض الشام؛ وقدم إلى المغرب رفقة والده؛ حيث تعرض لنفس الظروف التي عرفها والده؛ من خوف وتستر وسجن ..الخ. تولى شئون الدولة بعد ممات والده؛ دون أن يعلن موته في بداية الأمر؛ خوفا من حدوث فتن.

---

[1] قال محمد الصنهاجي: ((وتوفي عبيد الله يوم الإثنين الرابع عشر من ربيع الأول سنة 322هـ؛ وكسف القمر في تلك الليلة كسوفا كليا (؟!). وعمره اثنتان وستون سنة ـ أو ثلاث وستون ـ وكانت وفاته من دواء سقاه إياه ابن الجزار؛ يقال أنه حب (السورنجان)؛ لنقرس كان يشكوه؛ وكان إسحاق الإسرائيلي نهاه عنه، وأعلمه أنه يجد على إثره إفاقة، ثم يشتد عليه. وقد يتسبب في هلاكك. فلم يقبل منه قوله؛ لشدة ما يجده؛ فوجد تلك الإفاقة ثم مات)) أخبار ملوك بني عبيد، ص ص: 26 ـ 27.

[2] أخبار ملوك بني عبيد، ص: 27. والكامل، ج: 6، ص: 238.

ولم يعلن نبأ وفاة والده حتى تمكن من الأمر،[1] وقبض دفة التسيير بيد ثابتة.[2] ومع هذا فقد وقع ما كان يتوجس منه؛ إذ أنه ما أن أعلن وفاة والده حتى اشتعلت بعض الثورات في عدة جهات؛ كانت أبرزها ــ آنئذ ــ هي الثورة التي قام بها في نواحي طرابلس شخص يدعى ابن طالوت القرشي؛ إذ ادعى أنه ابن المهدي؛ غير أن أمره كشف، واتضح للناس كذبه؛ فقتله من كان في تلك الجهات من الأمازيغ. كما أرسل أبو القاسم جيشا بقيادة ميسور الفتى إلى النواحي الغربية بغرض إخضاع؛ حيث دخل إلى نكور وفاس.

---

[1] قال ابن عذاري: ((ولم يركب أبو القاسم طول إمارته بمظلة. فقام بسيرة أبيه، واظهر من الحزن عليه ما لا يعهد لمثله، وواصل الحزن لفقده، وأدامه من بعده؛ فما ركب دابة من باب قصره منذ مات أبوه إلى أن قبض سوى مرتين. وافتتحت في أيامه مدائن كثيرة من مدائن الروم بصقلية، وثار عليه عدة ثوار؛ فأمكنه الله منهم)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 208 209.

[2] يقول ابن الأثير: ((ولما توفي [أي عبيد الله] ملك بعده ابنه أبو القاسم محمد؛ وكان أبوه قد عهد له. ولما أظهر وفاة والده كان قد تمكن، وفرغ من جميع ما أراده، واتبع سنة أبيه. وثار عليه جماعة فتمكن منهم؛ وكان من أشدهم رجل يقال له: ابن طالوت القرشي؛ في ناحية طرابلس؛ وزعم انه ولد المهدي؛ فقاموا معه، وزحف إلى مدينة طرابلس؛ فقاتله أهلها؛ ثم تبين للبربر كذبه؛ فقتلوه، وحملوا رأسه إلى القائم)). الكامل، ج: 6، ص: 238.

ومن جهة أخرى فإنه لم ينس الهدف الرئيسي لوالده؛ وهو فتح الديار المصرية؛ لذا فقد جهز جيشا بقيادة خادمه زيدان فدخل الإسكندرية أيضا؛ ولكنه انهزم في الأخير أمام جيش الإخشيد.[1]

وفي سنة 333هـ(944م) اشتدت الثورة الخارجية في المغرب الأوسط وإفريقية ضد الدولة الفاطمية تلك الثورة التي كان يقودها أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي الخارجي؛ المعروف بصاحب الحمار. وكانت هذه الثورة أعنف الثورات وأعتاها على الدولة الفاطمية؛ حتى كادت أن تسقطها نهائيا؛ لولا ضربات من الحظ أنقذتها. وقد انهزمت أمامه جيوش الفاطميين مرات عديدة؛ حتى أن القائم بأمر الله نفسه اضطر إلى الفرار أمامه من رقادة إلى المهدية.[2] ويعود ــ في الحقيقة ــ ظهور أبي يزيد في الساحة المذهبية إلى عهد عبيد الله؛ وبالتحديد إلى سنة 316هـ(928م)؛ إلا أنه كان يقتصر ــ في نشاطه ــ على الدعوة باللسان؛ دون اللجوء إلى السلاح.

---

[1] **الكامل، ج: 6، ص : 238.**

[2] **قال ابن عذاري: ((وكان أبو يزيد أحد أئمة الإباضية النكار بالمغرب. قال الرقيق: "وقرأ على عمار الأعمى. وكان يركب الحمار. وتسمى شيخ المؤمنين." قال ابن سعدون: "فبعث الله على أبي القاسم الشيعي مخلد بن كيداد الخارجي؛ فقهره، وقتل جنوده، وقام المسلمون معه." وخرج الفقهاء والعباد مع أبي يزيد لحربه؛ سماهم ابن سعدون في كتابه رجلاً رجلاً)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 216 ــ 217.**

ولما مات عبيد الله خرج للعلن؛ رافعا لواء العصيان المسلح ضد الدولة الفاطمية. وبقي يكيل لجيوش الدولة الهزيمة تلو الهزيمة؛ ولم يترك للأبي القاسم فرصة لاسترداد أنفاسه؛ وحصره مدة طويلة في المهدية؛ دون أن يجد سبيلا لفك ذلك الحصار الذي أنهك أهل المدينة، وأوصلهم إلى حافة الهلاك جوعا.[1] بل مات أبو القاسم في الوقت الذي كان فيه أبو يزيد محاصرا لسوسة.[2] ولم تتمكن الدولة الفاطمية من أبي يزيد إلاّ بعد أن انفضت عنه القبائل الزناتية التي كانت تناصره؛ بعد أن انحرف عن الطريق السوي،[3] وبعد أن شعرت تلك القبائل مدى الخطورة هذا الرجل لو

---

[1] يقول ابن خلدون: ((واشتد الحصار على أهل المهدية حتى أكلوا الميتات والدواب، وافترق أهلها في النواحي؛ ولم يبق بها إلا الجند. وفتح القائم أهراء الزرع التي أعدها المهدي، وفرقها فيهم)). العبر، مج: 4، ص: 88.

[2] قال ابن خلدون: ((ثم زحف أبو يزيد إلى سوسة في جمادى الآخر من سنته [يقصد هنا سنة 334هـ وهذا يخالف التاريخ الذي ذكره ابن عذاري]؛ وبها عسكر القائم؛ وتوفي القائم وهو بمكانه [يقصد أبا يزيد] من حصارها)). العبر، مج: 4، ص: 89. أما ابن عذاري فيقول: ((وفي سنة 335هـ وصل أبو يزيد إلى المهدية. ثم نهض إلى سوسة؛ فناوشه أهلها؛ فقيل فيه (وافر):

ألَمَّ بِسُوسَةَ وَبَغَى عَلَيْهَا وَلَكِنَّ الإلَهَ لَهَا نَصِيرُ

[3] يقول ابن خلدون: ((ثم انتقض البربر عليه [أي على أبي يزيد] بما كان منه من المجاهرة بالمحرمات، والمنافسة بينهم؛ فانفضوا عنه؛ ورجع إلى القيروان سنة أربع وثلاثين [وثلاثمائة]. وغنم أهل المهدية معسكره؛ وكثر عبث البربر في أمصار إفريقية وضواحيها؛ وثار أهل القيروان بهم، وراجعوا طاعة القائم)). العبر، مج: 4، ص: 88.

استولى على الحكم. وبذلك انتهى أمره إلى الأسر والقتل.[1]

ـ حكومة المنصور بالله إسماعيل بن محمد القائم بأمر الله:

ولد المنصور بالله إسماعيل بن محمد القائم بالمهدية سنة 299هـ(911م) أو سنة 302هـ. ولما تولى الحكم ـ خلال المحنة التي مرت بها الدولة الفاطمية جراء حصار أبي يزيد لها ـ قام هو بدوره بإخفاء خبر موت والده القائم بأمر الله؛ خوفا من تثبيط عزائم أنصاره وجيوشه من جهة؛ وتشجيع أبي يزيد ـ الذي كان أمره قد استفحل في تلك الأثناء ـ من جهة أخرى؛ حيث كان يقف على أبواب سوسة محاصرا إياها. لذا فقد التزم بكتمان خبر موت والده: ((**فلم يُسمَّ بالخليفة، ولا غيَّر السكة، ولا الخطبة، ولا البنود إلى أن فرغ من أبي يزيد**)).[2] وكان المنصور يتمتع بعزيمة فولاذية، وشجاعة ملحوظة؛ ويبدي عند الحاجة إصرارا شديدا؛ في سبيل تحقيق أهدافه. وكان فصيح اللسان وخطيبا موهوبا؛ إذ يتمتع بقدرة على إنشاء وارتجال الخطبة حاضرا.

---

[1] **قال ابن خلدون في موت أبي يزيد: ((ثم هلك من الجراحة التي به؛ فأمر [المنصور إسماعيل] بسلخ جلده، وحشوه تبنا، واتخذ له قفصا؛ فأدخل فيه مع قردين يلاعبانه)). العبر، مج: 4، ص: 93.**

[2] **العبر، مج: 4، ص: 89.**

ومن أهم الأعمال التي قام بها بعد موت أبيه هي المبادرة بإرسال الإمدادات إلى سوسة بحرا؛ في أسطول محمل بالمقاتلين والأسلحة والأمتعة والميرة؛ فكانت هذه الخطوة الجريئة والحازمة منه سببا في هزيمة أبي يزيد، وفك الحصار عن المدينة؛ حيث خرج إليه أهلها مع المدد الذي جاءهم؛ فانهزم أبو يزيد أمامهم.[1] ولم يترك المنصور هذه الفرصة تفوت؛ إذ واصل ضغوطه المتتالية على أبي يزيد في كل مكان، وتابع تحركاته أينما سار حتى تمكن من القبض عليه أخيرا في جبل كيانة بالقرب من المسيلة؛ حيث وضع في قفص ونقل إلى المهدية. ويقال أنه سلخ لما مات وحشي جلده تبنا؛ ووضع مع قرد في قفص. وفي هذا يقول أحد الشعراء:

أمَّا النفاق فقدْ نسَخْ وَأبُو الكبَائر قدْ سُلِخْ
كانَ الفوَيسِقُ مُخلدٌ قرْداً وَلكنْ قدْ مسخْ
لوْ قدْ رَأيتَ محلهُ وَبنو الحداية تَصْطرِخْ

---

[1] وفي سوسة يقول أحد شعرائها آنئذ وهو أحمد بن افلح:

أَلَمَّ بِسُوسَة وَبَغَى عَلَيْهَا وَلَكِنَّ الإِلَهَ لَهَا نَصِيرُ
مَدِينَة سُوسَة لِلْمَغْرِب ثَغْرٌ يَدِينُ لَهَا المَدائِنُ وَالثُّغُورُ
لَقَدْ لُعِنَ الَّذِينَ بَغَوْا عَلَيهَا كَمَا لُعِنَتْ قُرَيْضَة وَالنَّضِيرُ
أعَزَّ الدِّينَ خَالِقُ كُلَّ شَيْءٍ بِسُوسَة بَعْدَمَا الْتَوَتِ الأمُورُ

لرَأيتَ مَا عَقَــدَ اللعِيــ ـــنُ بِلُطفِ رَبكَ قَد فُسِخْ

وقــال أحدهــم في أخــرى:

... فَسَلَختهُ مِنْ جِلــدِهِ وَحَشَوتهُ حَشْــوَ المَزَاوِدْ
وَضَرَبتــهُ مَثلاً يَسِيــ ـــر فِي الأقارِبِ وَالأبَاعِدْ
وَرَدَتْ بــهِ أطماعــهُ وَظُنونــهُ شرَّ المــوَارِدْ

وزحــف المنصــور نحــو تيهــرت ــ بعــد القبــض عــلى أبي يزيــد ــ حيــث ضبــط الأمــور بهــا؛ وانتقــم مــن الخارجيــن عــن طاعــة الدولــة الفاطميــة؛ الأمــوات[1] منهــم والأحيــاء. وكذلــك الحــال في القيــروان؛ إذ نقــل ابــن عــذاري عــن ابــن حمــادوه خبــر عمليــات التنكيــل الــتي سلطهــا المنصــور عــلى بعــض سكــان القيــروان.[2] ومــن إنجــازات المنصــور العمرانيــة تشييــده لمدينــة صبــرة الــتي سماهــا المنصوريــة؛ حيــث أمــر بالبــدء في بنائهــا سنــة 336هــ(947م)؛ إذ انتقــل إليهــا تاركــا المهديــة، الــتي تهدمــت جــل أحياؤهــا.

---

[1] قــال محمــد الصنهــاجي: ((ثــم انصــرف إسماعيــل إلى المسيلــة، وتوجــه منهــا إلى تاهــرت يــوم الثلاثــاء، لســت بقيــن مــن صفــر مــن هــذه السنــة؛ فلمــا وصــل إليهــا أمــر بنبــش عظــام مصالــة وفضــل بــني حبــوس، وأحرقهــا بالنــار، وأحــرق منبــر جامعهــا؛ لكونــه خطــب عليــه لعبــد الرحمــن بــن محمــد (الخليفــة الناصــر الأمــوي) وأقــام بهــا أيامــا وولى عليهــا)). أخبــار ملــوك بــني عبيــد، ص: 45.

[2] قال ابــن عــذاري: ((وقــال ابــن حمــادوه: "ولمــا ظفــر بــأبي يزيــد؛ نهــض إلى القيــروان؛ فدخلهــا في هــذه السنــة؛ فقتــل مــن أهلهــا خلقــا، وعــذب آخريــن؛ ولــم يزالــوا معــه في الامتحــان إلى أن هلــك")). البيــان المغــرب، ج: 1، ص: 220.

ومما نسب للمنصور أيضا سعيه لإعادة الحجر الأسود إلى الكعبة المشرفة؛ بعد أن انتزعه منها القرامطة. وهنا يظهر هذا الخبر مغلفا بكثير من الغموض والاضطراب؛ إذ يزعم بعض المؤرخين أن المنصور انتقل بنفسه للمشرق لإعادة الحجر الأسود إلى موضعه؛ بينما يرى آخرون أن القرامطة هم الذين أرجعوه بأنفسهم بعد أن هددهم المنصور؛ ومنهم أيضا من أشار لموضوع إعادة الحجر دون التطرق لدور الفاطميين في ذلك.[1] والخلاصة أن وفاة إسماعيل المنصور حدثت في سنة 341هـ(952م)؛ بينما كان في عز شبابه؛ إذ لم يتجاوز عمره آنئذ تسع وثلاثين سنة. ويقال أن سبب موته هي قرحة في كبده؛ تسببت في حدوث إسهال شديد لديه؛ فتوفي نتيجة لذلك الإسهال الحاد.

---

[1] يقول ابن عذاري: ((وفي سنة 339 تحرك أبو طاهر المنصور بن أبي القاسم بن عبيد الله الشيعي إلى بلاد المشرق، ورد الحجر الأسود إلى مكانه من الركن من بيت الله الحرام؛ وذلك بعد خمسة أعوام من دولة المُطِيع. وكان الذي اقتلعه سليمان بن الحسن القرمطي ــ لعنه الله ــ في سنة 317؛ في أيام المقتدر العباسي ــ رحمه الله ــ والذي تولى قلعه بيده بأمر القرمطي جعفر بن أبي علاج ــ لعنه الله ــ ولما مات القرمطي؛ وجه اخوته الحجر؛ فرد إلى موضعه في هذه السنة؛ ووضعه بيده حسين بن المروذي الكناني)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 220. غير أن أقوالا أخرى تخالف هذا الرأي؛ وردت في الكامل في التاريخ، ج: 6، ص: 335.

ـ حكومة المعز لدين الله معد بن إسماعيل:

خلف المعز لدين الله والده إسماعيل في سدة الملك بإفريقية وبلاد المغرب سنة 341هـ(952م) كما جاء في أشهر الأقوال. وكان مولد هذا الخليفة بالمهدية سنة 319هـ(931هـ) ولما ولي الخلافة كان عمره في حدود اثنين وعشرين سنة. ويعتبر المعز من أشهر الخلفاء الفاطميين على الإطلاق؛ إذ شاع ذكره في العالم الإسلامي؛ نظرا لكونه أول من تغلب على مصر بالكامل، ونقل مركز الخلافة الفاطمية إليها. وتقول المصادر التاريخية أنه بدأ عهده في سنة 342هـ(953م) بالخروج إلى جبل أوراس في جيش عظيم؛ بغرض تأديب وإخضاع من بقي متمردا عن الدولة؛ من أتباع أبي يزيد. فسلط غضبه على قبيلتي: هوارة ومليلة المنحازتين ـ سابقا ـ إلى أبي يزيد؛ ولم تثنهم موته عن مواصلة العصيان، والخروج عن طاعة الدولة الفاطمية. وبعد أن حقق المعز هدفه نحو الخوارج ـ من بقايا أنصار أبي يزيد ـ اتجه صوب المغرب الأقصى؛ حيث بعث إلى تلك الديار سنة 347هـ(958م) خادمه الوفي ـ الذي بدأ نجمه يسطع؛ جوهر الكاتب ـ قصد تطويع القبائل المتمردة من زناتة ومكناسة وغيرهما.[1]

---

[1] قال المقريزي في تلخيص لخبر ابن الأثير: ((وفي سنة سبع وأربعين عظم أمر أبي الحسن جوهر عند المعز، وعلا محله، وصار في رتبة الوزارة؛ فسيره في صفر منها على جيش كثيف؛ فيهم الأمير زيري بن مناد

وفي سنة 355هـ(965م) شرع المعز لدين الله في التمهيد للعمل الهام الذي شغله وحلم به هو آبائه منذ قيام دولتهم؛ ويتمثل ذلك الحلم في السعي بدون كلل للاستيلاء على مصر؛ التي ستكون خطوة أمامية في سبيل إسقاط الخلافة العباسية ببغداد، وقيام الدولة الفاطمية بدلا منها. وعليه فقد أمر بالشروع في حفر آبار الماء بين مصر وإفريقية؛ وكما أمر أن يبنى له عدة قصور على طول الطريق؛ فنفذ ما أمر به. وفي تلك السنة بالذات وصل خبر وفاة كافور الإخشيدي حاكم مصر؛ فازداد المعز لهذا عملا وإصرارا في سبيل تحقيق حلمه؛ فبادر إلى جمع المال والعتاد اللازمين للمهمة الكبرى؛ ويقال أنه خصص سنة 357هـ(967م) للحملة المقبلة على مصر مبلغا من المال يقدر بأربعة وعشرين ألف دينار؛ وضعت كلها تحت تصرف القائد الفاطمي جوهر الصقلي.[1]

الصنهاجي وغيره؛ فسار إلى تاهرت، وحارب قوما وافتتح مدنا، ونهب وأحرق، وسار إلى فاس؛ فنازلها مدة، وسار إلى سجلماسة؛ وقد قام بها رجل وتلقب بالشاكر، وخوطب بأمير المؤمنين؛ ففر من جوهر؛ فتبعه حتى أخذ أسيرا. ومضى جوهر إلى البحر المحيط؛ فأمر أن يُصاد من سمكه، وبعثه في قلال إلى المعز؛ وسلك ما هنالك من البلاد فافتتحها، ثم عاد فقاتل أهل فاس حتى افتتحها عنوة، وقبض على صاحبها، وجعله مع صاحب سجلماسة في قفصين، وحملهما إلى المعز بالمهدية، وعاد في أخريات السنة)). اتعاظ الحنفا، ص ص: 134 ــ 135.

[1] اتعاظ الحنفا، ص ص: 138 ــ 139.

وتحـــرك الجيـــش الفاتـــح مـــن القيـــروان نحـــو مصـــر يـــوم السبـــت رابـــع عشـــر شهـــر ربيـــع الأول مـــن سنـــة ثمـــان وخمسيـــن وثلاثمائـــة؛ فوصـــل إلى مصـــر في يـــوم الثلاثـــاء ثامـــن عشـــر شعبـــان مـــن السنـــة نفسهـــا.[1] وقـــال محمـــد بـــن هـــاني الأندلـــسي مودعـــا الجيـــش ومادحـــا جوهـــر الكاتـــب في قصيـــدة طويلـــة نذكـــر منهـــا:

رَأيتُ بِعيـــنِي فوقَ مَا كنتُ أسمـــعُ
وَقدْ رَاعـــنِي يوْمٌ مِنَ الحشرِ أرْوَعُ
غـــدَاة كـــأنَّ الأفـــقَ ســـدَّ بمثلـــهِ
فَعَادَ غرُوبُ الشَّمْسِ مِنْ حَيثُ تَطـــلَعُ
فلـــمْ أدْرِ إذْ سلمـــتُ كيـــفَ أشيـــعُ
ولَـــمْ أدْرِ إذْ شيعـــتُ كيـــفَ أوَدِّعُ
وكيفَ أخُوضُ الجَيشَ وَالجَيشُ لُجَة
وَإنِّي بمنْ قدْ قـــادَهُ الدَّهـــرُ مُولـــعُ
وَأينَ وَمَا لِي بَينَ ذَا الجَمعِ مَسْلـــكٌ
وَلاَ لِجوَادِي فِي البسِيطـــةِ مَوْضِـــعُ
ألاَ إنَّ هذَا حَشـــدُ مَنْ لمْ يـــذُقْ لـــهُ
غِرَارَ الكرَى جَفنٌ وَلاَ باتَ يَهجـــعُ

---

[1] **النجـــوم الزاهـــرة، ج: 4، ص: 28.**

نَصِيحَتَــهُ لِلمُلْــكِ سَدَّتْ مَذَاهِــبِي
وَمَا بَينَ قيدِ الرُّمْحِ وَالرُّمحِ إصْبَــعُ
فقدْ ضَرِعَتْ مِنهُ الرَّوَاسِي لِمَا رَأتْ
فكيفَ قلوبُ الإنس وَالأنسُ أضْــرَعُ
فلاَ عَسْكرٌ مِنْ قَبلِ عَسْكــرِ جَوْهــرٍ
تخبُّ المَطايــا فِيهِ عَشراً وَتُوضِــعُ
تَسيــرُ الجبــالُ الجامِــدَاتُ بسيــرِهِ
وَتسجدُ مِنْ أدنَى الحَفِيفِ وَترْكــعُ
إذَا حــلَّ فِي أرْضٍ بَناهــا مَدَائنــاً
وَإنْ سَارَ عَنْ أرْضٍ ثوَتْ وَهْيَ بَلقعُ

إلى أن يقــول:

وَنودِيَ بِالترْحَالِ فِي فَحمةِ الــدُّجَى
فَجَاءَتهُ خيلُ النَّصرِ تَرْدِي وَتَمــزَعُ
فلاَحَ لها مِنْ وَجْهــهِ البدْرُ طالِعــاً
وَفِي خــدِّهِ الشِّعرَى العبورُ تَطلــعُ
وَأضْــحَى مــرَدَّى بِالنجــادِ كأنــهُ
هِزَبرُ عَرِينٍ ضَــمَّ جَنبيــهِ أشجــعُ

فكبـــرَتِ الفرْســـانُ للـــهِ إذْ بـــدَا
وَظـــلَّ السِّـــلاَحُ المُنتضَى يَتقعْقـــعُ

ثـــم أضـــاف:
فسِـــرْ أيها الملـــكُ المطاعُ مُؤَيـــداً
فلِدِّيـــــنِ وَالدُّنيـــا إليـــكَ تطلـــــعُ
وَقدْ أشعرَتْ أرْضُ العِرَاقينِ خِيفـــة
تَكادُ لَهـــا دَارُ السَّـــلاَمِ تضَعضـــعُ
وَأعطـــتْ فِلسْطِينُ القِيـــادَ وَأهلُهـــا
فلـــمْ يبـــقَ مِنهـــا جَانـــبٌ يَتمَنـــعُ
وَمَا الرَّمْلة المَقصُورَة الحَظْوِ وَحْدَهَـــا
بأوَّلِ أرْضٍ مَا لهَا عَنـــكَ مَفـــزَعُ
وَمَا ابْنِ عُبيْدَ اللـــهِ يَدْعوكَ وَحـــدَهُ
غدَاةَ رَأى أنْ ليسَ فِي القوْسِ مَنزَعُ
بَلِ الناسُ، كلُّ الناسِ يَدْعُوكَ، غَيْرَهُ
فـــلاَ أحـــدٌ إلاَّ يـــذِلُّ وَيخضـــعُ
وَإنَّ بأهـــلِ الأرْضِ فقـــراً وَفاقـــة
إلَيـــكَ وَكلُّ الناسِ آتيـــكَ مهطـــعُ

أَلاَ إِنمَا البُرْهــانُ مَا أَنتَ مُوضِــحٌ
مِنَ الرَّأيِ وَالمِقدَارُ مَا أَنتَ مُزْمِــعُ
رَحَلــتَ إِلَى الفسْطاطِ أيمنَ رِحْلــةٍ
بأيمنِ فــالٍ فِي الذِي أَنتَ مُجْمِــعُ
وَلَمَّا حَثثــتَ الجَيــشَ لاَحَ لأَهلِــهِ
طرِيــقٌ إِلَى أَقصَى خرَاسَانَ مَهيــعُ

ثــم قــال:

وَمَا جهِلتْ مِصْرٌ وَقدْ قِيلَ مَنْ لَهَــا
بِأنــكَ ذَاكَ الهبــرزِيُّ السميــذَعُ
وَأنــكَ دُونَ النــاسِ فاتــحُ قفلِهــا
فأنــتَ لهــا المرْجــوُّ وَالمُتوَقــعُ
فإِنْ يــكُ فِي مِصْرٍ رِجالُ حلومِهــا
فقدْ جَاءَهمْ نِيلٌ سِوَى النيــلِ يَهــرَعُ
وَيممهــمْ مَــنْ لاَ يَغِيــرُ بنِعمــةٍ
فيسْلبهــمْ لكِــنْ يَزِيــدُ فيوسِــــعُ

ويبدو أن الذي شجع المعز لإرسال جيشه إلى مصر هو ما أصبحت عليه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية في مصر بعد موت كافور؛ إذ يقال أن بعض المصريين قد بعثوا إليه مستنجدين به، ومحفزين إياه لفتح البلاد، وطرد الاخشيديين.[1] ولما أصبحت مصر في يد الفاطميين؛ بادر جوهر من يومه الأول إلى رفع الدعوة في المنابر باسم

---

[1] قال يوسف بن تغري بردي: ((كان قد انخرم نظام مصر بعد موت كافور الإخشيذي؛ لما قام على مصر أحمد بن علي بن الإخشيذ وهو صغير؛ فصار ينوب عنه ابن عم أبيه الحسن بن عبيد الله بن طغج، والوزير ــ يومئذ ــ جعفر بن الفرات؛ فقلت الأموال على الجند؛ فكتب جماعة منهم إلى المعز لدين الله معد؛ وهو بالمغرب يطلبون منه عسكرا ليسلموا إليه مصر؛ فجهز المعز جوهرا هذا بالجيوش والسلاح في نحو ألف فارس أو أكثر؛ فسار جوهر حتى نزل بجيوشه إلى تروجة بقرب الإسكندرية؛ وأرسل إلى أهل مصر؛ فأجابوه بطلب الأمان، وتقرير أملاكهم لهم؛ فأجابهم جوهر إلى ذلك، وكتب لهم العهد. فعلم الإخشيذية بذلك؛ فتأهبوا لقتال جوهر المذكور؛ فجاءتهم من عند جوهر الكتب والعهود بالأمان؛ فاختلفت كلمتهم؛ ثم اجتمعوا على قتاله، وأمروا عليهم ابن الشويزني، وتوجهوا لقتاله نحو الجيزة وحفظوا الجسور؛ فوصل جوهر إلى الجيزة، ووقع بينهم القتال في= =حادي عشر شعبان، ودام القتال بينهم مدة، ثم سار جوهر إلى منية الصيادين، وأخذ مخاضة منية شلقان؛ ووصل إلى جوهر طائفة من العسكر في مراكب؛ فقال جوهر للأمير جعفر بن فلاح: "لهذا اليوم أرادك المعز لدين الله!"فعبر عريانا في سراويل وهو في موكب ومعه الرجال خوضا؛ والتقى مع المصريين، ووقع القتال بينهم، وثبت كل من الفريقين؛ فقتل كثير من الإخشيذية، وانهزم الباقون بعد قتال شديد. ثم أرسلوا يطلبون الأمان من جوهر فأمنهم؛ وحضر رسوله ومعه بند وطاف بالأمان ومنع من النهب؛ فسكن الناس وفتحت الأسواق، ودخل جوهر من الغد إلى مصر في طبوله وبنوده)). النجوم الزاهرة، ج: 4، ص ص: 30 ــ 31.

الخليفة المعز لدين الله الفاطمي؛ كما ألزم المؤذنين بإتباع نص الأذان المتبع عند الشيعة؛ وأمر بترك شعار السواد، ولبس الأبيض من اللباس. وبعدها أرسل بالبشرى إلى المعز يعلمه بما فتح الله له. فوصلت الأخبار إلى القيروان في رمضان من سنة 358هـ(968م).

وبهذا يكون قد امتد الزمن بالخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب؛ حتى حل عهد المعز لدين الله معد بن المنصور ــ وهو رابع ملوكهم ــ حيث استطاعت الدولة الفاطمية ــ في عهد هذا الخليفة ــ تحقيق أعظم إنجازاتها السياسية؛ إذ تمكنت من نشر سلطانها على ديار مصر كلها؛ ثم الحجاز وبلاد الشام بعد ذلك؛ ومن ثمة أصبحت تهدد الخلافة العباسية بحق. وما أن وصلت البشائر بالفتح؛ حتى أنشد شاعر البلاط الفاطمي؛ محمد بن هاني الأندلسي قصيدته الشهيرة التي قال فيها مادحا الخليفة المعز:

تقولُ بَنو العَبَاسِ هل فتِحَتْ مِصْرُ
فقلْ لِبنِي العباسِ قدْ قضِيَ الأمرُ
وَقدْ جاوَزَ الإسكِندَرِية جوْهرٌ
تُطالعهُ البشرَى وَيقدُمهُ النصْرُ
وَقدْ أوفدَتْ مِصرٌ إليهِ وُفودَها
وَزِيدَ إلَى المَعْقودِ مِنْ جسْرِها جِسرُ

فما جاءَ هذَا اليــوْمُ إلاَّ وَقدْ غــدَتْ
وَأيدِيكــمُ مِنها وَمِنْ غيرِها صفِــرُ
فلاَ تكثرُوا ذِكرَ الزَّمانِ الذِي خــلاَ
فذَلكَ عصْرٌ قدْ تقضَّى وَذَا عصْــرُ
أفِي الجيشِ كنتمْ تَمْترُونَ، رُوَيدَكــمْ
فَهذَا القنا العَرَّاصُ وَالجَحْفلُ المَجــرُ
وَقدْ أشرَفــتْ خيلُ الإلــهِ طوَالعــاً
عَلَى الدِّينِ وَالدُّنيا كَما طلعَ الفجــرُ
وَذَا ابنُ نبيِّ اللــهِ يطلــبُ وِتــرَهُ
وَكانَ حــرٍ أنْ لاَ يضيعَ لــهُ وِتــرُ
ذَرُوا الوِرْدَ فِي مَاءِ الفرَاتِ لِخيلِــهِ
فلاَ الضَّحلُ مِنهُ تَمنَعُونَ وَلاَ الغمــرُ
أفِي الشمْسِ شكٌ أنها الشَّمسُ بَعدَمَــا
تَجلتْ عِياناً ليسَ مِنْ دُونهــا سِتــرُ
وَمــا هِيَ إلاَّ آيــة بعــدَ آيــةٍ
وَنــذْرٌ لكمْ إنْ كانَ يغنِيكــمُ النــذرُ
فكونوا حَصِيداً خامِدِينَ أوِ ارْعــوُوا
إلَى مَلِكٍ فِي كفــهِ المَوْتُ وَالنشــرُ

أطيعــوا إمامــاً للأئمــةِ فاضــلاً
كما كانتِ الأعمــالُ يفضُلهــا البــرُّ
رِدُوا سَاقيــاً لاَ تنزِفــونَ حِياضــهُ
جموماً كما لاَ تنزِف الأبحرُ الــذَّرُّ
فإنْ تتبعــوهُ فهوَ موْلاَكــمُ الــذِي
لهُ برَســولِ اللــهِ دُونكــمُ الفخــرُ
وَإلاَّ فبعــداً لِلبعِيــدِ فبينــهُ
وَبينكــمُ مــا لاَ يقرِّبــهُ الدَّهــرُ
أفِي ابنِ أبِي السِّبطَينِ أمْ فِي طلِيقِكمُ
تنزَّلــتِ الآيــاتُ وَالســوَرُ الغــرُّ؟

ومــا أن استقــر جوهــر في مصــر؛ حــتى بــادر إلى بنــاء جامــع الأزهــر، وبعــض الأحيــاء مــن المدينــة الــتي سماهــا القاهــرة؛ حســب وصيــة المعــز. ثــم جــرد في سنــة 359هـ(969م) جيشــا بقيــادة جعفــر بــن فــلاح الكتــامي لفتــح بــلاد الشــام؛ فكــان لــه ذلــك؛ إذ تمكــن ذلــك القائــد الكتــامي مــن أســر الحســن بــن عبــد اللــه ابــن طغــج بالرملــة؛ ثــم زحــف عــلى طبريــة ودمشــق؛ فصالــح الأولى وتغلــب عــلى الثانيــة بسيــف القــوة والقهــر. وفي سنــة 361هـ(971م) تحــرك المعــز لديــن اللــه نحــو مصــر؛ تاركــا بــلاد المغــرب بيــن أيــدي

الصنهاجيين من بني زيري؛ وذلك أنه قرر نقل سلطات الدولة الفاطمية إلى المشرق بعد أن تم بناء القاهرة؛ من خلال انتقاله هو بنفسه إليها؛ واستقراره بها. وتعتبر هذه الفترة نهاية لمجال هذه الدراسة؛ المخصصة للدول التي قامت وسقطت في المغرب والأندلس لا غير. لذا فأحداث الدولة الفاطمية بالمشرق تخرج عن هذا السياق.

ـ الحضارة والنشاط الثقافي:

وفيما يخص المنجزات الثقافية والحضارية التي تمت في الدولة الفاطمية؛ يمكن استخلاص أن لهذه الدولة مرحلتين متباينتين: الأولى تمتد عبر حياة الدولة في بلاد المغرب، والثانية تمثلها الفترة الزمنية التي انتقل فيها مركز الدولة إلى بلاد المشرق. ومع أن هذه الفترة المشرقية تزخر بالإنجازات الرائعة والأعمال العظيمة إلا أنها خارجة عن اهتمام هذه الدراسة. لذا ستترك لمجال آخر. وأما حياة الدولة في بلاد المغرب فلم تكن كلها حبلى بالأعمال الجليلة؛ من حيث الإنجازات الحضارية والنشاطات الثقافية؛ إذ كانت في معظمها مليئة بالحروب والفتن؛ الأمر الذي لم يسمح للقائمين بشئون الدولة أن يتفرغوا ـ بشكل أوسع ـ للإنجازات الحضارية، والنشاط الثقافي؛ تلك الإنجازات؛ التي لا يمكن أن تزدهر إلا في ظل الاستقرار والأمن؛ كما أن النشاط الثقافي لا يتحقق

وينمو إلا عندما تكون الظروف الاقتصادية والاجتماعية في وضع جيد. لذا فقد كانت منجزات الدولة الفاطمية: العمرانية والثقافية في بلاد المغرب؛ تتم في محيط قبلي ضيق، ومنغلق على نفسه؛ وقد ازداد تضييقا وانغلاقا بسبب التوجه المذهبي المتعصب لأصحاب الدولة الفاطمية؛ ذلك التوجه المبني على أساس أن الدولة الفاطمية كانت تستخدم الثقافة باستمرار لتحقيق أغراض سياسية وعسكرية ومذهبية؛ تلك الأغراض التي حرصت الدولة الفاطمية على ترسيخها وتمتين أسسها؛ لكي تحقق سيطرة وهيمنة مذهبها الشيعي في كامل أقطار المغرب.

ويتضح هذا التوجه من خلال ما استحدث وأنجز من منشآت عمرانية في هذه الربوع؛ إذ كل ما أنجز في ظل الدولة الفاطمية ببلاد المغرب؛ يخدم بالأساس أهدافا عسكرية وسياسية قبل كل شيء؛ فالمدن ــ مثلا ــ التي بنيت في تلك الفترة كـ: المهدية والمحمدية والمنصورية؛ كلها تدخل في هذا المعنى. وما أستحدِث أيضاً من أعمال ثقافية؛ كانت كلها تخدم المذهب الشيعي فقط؛ بل كان القائمون على هذه الدولة يقمعون كل إنجاز ثقافي يخالف تعاليم مذهبهم. إذ وصل بهم الحد إلى إتلاف كل الأعمال التي كانت قائمة قبل دولتهم، تلك الأعمال التي تتعارض مع معتقداتهم المذهبية؛ من ذلك مثلا ما قاموا به تجاه مكتبة المعصومة

بتيهرت؛ التي يقال ــ إن صح الخبر ــ أن أبا عبد الله ــ الداعية الشيعي ــ أتلف معظم مجلداتها؛ التي تبلغ نحو الثلاثمائة ألف من المجلدات؛ ولم يترك منها سوى الكتب التي وجد انه سيستفيد منها؛ وهي الكتب ذات الطابع العلمي والتقني؛ ويقال أن ما حدث للمعصومة حدث أيضا لمكتبة الأغالبة بالقيروان. ومع ذلك فقد استفادت الدولة الفاطمية واستعانت بما ورثته عن الدول التي تغلبت عليها في بلاد المغرب؛ مثل: الدولة الأغلبية والدولة الرستمية والدولة المدرارية والدولة الإدريسية وغيرها؛ من إنجازات عمرانية، وتراث علمي وثقافي؛ إذ استولى الفاطميون على خزائن الكتب التي وجدت في تلك الدول المنهارة. كما أن جل علماء الدولة وأدبائها وشعرائها؛ ورثتهم عن دولة القيروان؛ وحتى كبار موظفيها وفقهائها كانوا من أتباع الدولة الأغلبية قبل ذلك؛ وإن كان بعضهم ينتمي ــ في السابق ــ إلى مذاهب غير المذهب المالكي؛ مثل: الفقيه إسحاق بن أبي المنهال؛ المتمذهب بالحنفية قبل ظهور الشيعة. والفقيه علي ابن منصور الصفار؛ الذي كان من أتباع سعيد ابن الحداد، والفقيه عبد الملك بن محمد الضبي المعروف بابن البردون؛ الذي كان مالكيا من قبل، والفقيه أبي بكر بن سليمان؛ الحنفي المذهب كذلك؛ وغيرهم.

وجملة القول إنه كان لهذه الدولة ببلاد المغرب نشاط ثقافي معين؛ في حدود ما يسمح به المذهب الشيعي؛ حيث عمل أصحاب الدولة على نشر مذهبهم الشيعي بواسطة الدعاة والخطباء؛ وبواسطة المدلرس التي أنشئت في ربوع الدولة؛ بغرض تعليم الصغار والكبار مبادئ المذهب الإسماعيلي؛ وهي المدارس التي عرفت بمدارس الدعوة. كما كان للآداب والشعر حظوة لدى ملوك الدولة وأمرائها. حيث كان أئمة الدولة يقرضون الشعر ويتذوقونه؛ بدءا بعبيد الله المهدي؛ الذي يعتبر هو نفسه من علماء الشيعة الباطنية؛ ويقال أنه ألف بعض الكتب؛ منها كتاب الأسرار. كما كان يقرض الشعر أحيانا. ومن الشعر المنسوب إليه هذه الأبيات التي بعث بها لسعيد بن صالح صاحب نكور يتوعده:

فإنْ تَستقيموا أستقمْ لِصَلاَحكمْ

وَإنْ تعدِلوا عنِّي أرَى قتلكم عدْلاَ

وَأعلو بسيفِي قاهراً لسيوفكم

وَأدْخلها عفواً وَأملؤُها قتلاَ

ثم إن الداعية أبا عبد الله الشيعي ـ أيضا ـ كان من العلماء المتفقهين في المذهب الإسماعيلي؛ وقد عرف بالقدرة على الإقناع؛ والتمكن من فنون الخطابة؛ وحب الآداب. وكان ولده أبو القاسم يقرض الشعر أيضا. كما اشتهر كذلك إسماعيل المنصور بالفصاحة والبيان، وبالتفنن في الخطابة، والقدرة على اختراع الخطبة ارتجالا في حينها. أما المعز لدين الله فقد كان يحسن عدة لغات؛ منها: العربية والأمازيغية واللاتينية والصقلبية والإسبانية والسودانية؛ وكان يقول: ((**والله ما تلذذت بشيء تلذذي بالعلم والحكمة**)). ويقول فيه القاضي النعمان: ((**نظر في كل فن وبرع في كل علم**)). وهو إلى جانب كل ذلك يقرض الشعر؛ ومن شعره:

أطلعَ الحسنُ مِنْ جبينكَ شمسا
فوقَ وَرْدٍ فِي وَجنتيك أظلاَّ
وكأنَّ الجمالَ خافَ عَلَى الوَرْ
دِ جفافاً فمدَّ بالشعرِ ظلاَّ

وتنسب إليه هذه الأبيات أيضا:

لِلهِ مَا صَنعتْ بنا
تلكَ المحاجرِ فِي المعاجرْ

أمضَى وَأقــضَى فِي النفــو

سِ مِنَ الخناجرِ فِي الحناجرْ

وَلقــدْ تعبـــــتُ ببينكـــــمْ

تعب المهاجرِ فِي الهوَاجــرْ

هــذا ويحتــل عصــر المعــز ــ في بــلاد المغــرب ــ الــذروة في مجــال نشــر العلــم والأدب والفنــون. ومــع هــذا يبــدو أن الشعــر كــان هــو الفــن الأكثــر حظــوة واستحسانــا لديــه، ولــدى حكــام الدولــة الفاطميــة ببــلاد المغــرب؛ لأنــه ــ في نظرهــم ــ كــان بمثابــة الســلاح الــذي يستخــدم في الدعايــة للدولــة ومذهبهــا؛ كمــا يستخــدم لتشويــه صــور الأعــداء في أذهــان النــاس. وكمــا كــان المعــز شغوفــا بالعلــوم وحفــظ اللغــات، ومحبــا للآداب والشعــر؛ فقــد ســار عــلى نهجــه جــل أبنائــه؛ فهــذا ولي عهــده العزيــز باللــه؛ الــذي ولــد في المهديــة سنــة 344هــ(955م)؛ كــان يجيــد ــ كوالــده ــ لغــات عديــدة؛ ويتمتــع أيضــاً بــذوق فــني رفيــع؛ وقــد أبــدا تسامحــا جليــلا في قضايــا الديــن والمذهــب؛ واعتــنى بنشــر العلــوم؛ إذ يعتبــر هــو صاحــب المبــادرة في جعــل الأزهــر منــارة للعلــم بمصــر.

وكان أيضاً يجيد قول الشعر؛ ومن شعره هذه الأبيات التي نظمها في يوم عيد؛ جلس فيه للعزاء بسبب موت ولد له:

نحنُ بنو المصطفَى ذَوُو إحنٍ
جرِّعها فِي الحياةِ كاظِمنا
عجيبة فِي الأنامِ محنتنا
أوَّلنا مبتلى وَآخرُنا
يفرَحَ هذَا الوَرَى بعيدِهمْ
طراً وَأفرَاحنا مآتمنا

واشتهر أيضا ــ من بين أبناء المعز ــ ولده تميم الذي برع في الآداب وتفنن في قرض الشعر؛ وهو من مواليد المنصورية سنة 337هـ(948م). ولكنه انغمس في اللهو والمجون؛ وقد تعددت الأغراض التي تناولها في شعره؛ ومن شعره:

مَا بانَ عذْرِي فيهِ حتَّى عذِّرَا
وَمشَى الدُّجَى فِي خدِّهِ فتحيَرا
همتْ تقبلهُ عقاربُ صُدْغِهِ
فاسْتلَّ ناظِرُهُ عليها خِنجرا
وَاللهِ لوْلاَ أنْ يقالَ تغيرَا
وَصبَا وَإنْ كانَ التصَابِي أجدَرَا

لأعــدْتُ تفــاحَ الخــدُودِ بنفسَجــاً
لثمــاً وَكافــورَ الترَائــبِ عنبــرَا

ومــن شعــره أيضــا:
أما وَالذِي لاَ يملــكُ الأمــرَ غيــرُهُ
وَمنْ هــوَ بالســرِّ المكتــمِ أعلــمُ
لئــنْ كانَ كتمَانُ المَصَائبِ مُؤلِمــاً
لإعلاَنهــا عنــدِي أشــدُّ وَآلــــمَ
وَبي كلُّ مَا يبــكِي العيــونَ أقلــهُ
وَإنْ كنــتُ منــهُ دَائمــاً أتبســـمُ

ولــه كذلــك:
وَمَا أمُّ خشفٍ ظــلَّ يوْمــاً وَليلــةٍ
ببلقعــةٍ بيــدَاءَ ظمــآنَ صادِيــا
تَهيــمُ فلاَ تــدرِي إلَى أينَ تنتــهِي
مُوَلهــة حيــرَى تجوبُ الفيافيــا
أضَــرَّ بها حرُّ الهجيــرِ فلمْ تجــدْ
لغلتهــا مِــنْ بــارِدِ المــاءِ شافيــا
فلَمَّا دَنتْ مِنْ خِشْفِهَا انعَطفــتْ لــهُ
فَألفتــهُ ملهــوفَ الجوَانــحِ طاوِيــا

بأوْجــعَ منِّي يوْمَ شــدَّتْ حمولهــمْ
وَنــادَى منادِي الحيِّ أنْ لاَ تلاَقيــا

ومــن شعــره أيضــا هــذه الأبيــات:
يــومٌ لنا فِي النيــلِ مختصــرٌ
ولَكــلِّ يــوْم مســرَّةٍ قصــرُ
وَالسفــنُ تصْعدُ كَالخيولِ بنــا
فيــهِ وَجيــشُ المــاءِ ينحــدِرُ
فكأنمــا أموَاجــهُ عكــنٌ
وَكأنمــا دَارَاتــهُ ســررَ

ومــا قــال أيضــا:
اشرَبْ عَلَى غيمٍ كصِبغِ الــدُّجَى
أضحكَ وَجهَ الأرْضِ لما بــكَى
وَانظــرْ لماءِ النيــلِ فِي مــدِّهِ
كأنمــا صنــدل أوْ مسكــا

ومــن شعــره الــذي يفتخــر فيــه:
أنا ابنُ المعــزِّ سليــل العــلا
وَصِنــوُ العزِيــزِ إمام الهــدَى

سمـــا بي معـــدٌّ إلَى غايـــةٍ
مِنَ المَجـــدِ مَا فوقهـــا مرتـــقَى
فرُحـــتُ بها فاطِـــمِيٌّ النجـــارِ
حسينيـــهُ علـــــوِيٌّ الجـــنى
وَمَا احتجتُ يوْمـــاً إلَى ناصِـــرٍ
وَلاَ رُحتُ يوْماً ضَعِيف القـــوَى

وقـــد بـــرز في هـــذه الدولـــة كذلـــك شعـــراء محترفـــون، وآخـــرون جعلـــوا مـــن الشعـــر وسيلـــة للترويـــح عـــن النفـــس، والتعبيـــر عمـــا تنطـــوي عليـــه صـــدورهـــم مـــن مشاعـــر وأفكـــار. وضمـــت أيضـــا إليهـــا عـــددا كبيـــرا مـــن العلمـــاء في الديـــن واللغـــة، وقـــادة عسكرييـــن وأمـــراء يهتمـــون بالعلـــم والثقافـــة. وفي هـــذا السيـــاق نذكـــر أهـــم علمـــاء الدولـــة الفاطمييـــن في الفتـــرة المغربيـــة؛ وأولهـــم بالطبـــع هـــو:

ـ أبـــو عبـــد اللـــه الحسيـــن بن أحمـــد بن محمد بن زكريـــاء؛ المعروف بالمحتسب وبالمعلم والداعية الشيـــعي:
ويعتبـــر هـــذا الداعيـــة المتميـــز هـــو المؤســـس الحقيـــقي للدولـــة الفاطميـــة. وكـــان أبـــو عبـــد اللـــه الشيـــعي ـ كمـــا لا يخـــفى ـ مـــن العلمـــاء البارزيـــن في المذهـــب الشيـــعي؛ كمـــا كـــان خطيبـــا قـــوي الحجـــة. وقـــد وصفـــه ابـــن الأثيـــر بقولـــه: ((**وكـــان لـــه علـــم وفهـــم ودهـــاء**

ومكـــر)).[1] ويقـــول المقريـــزي أن أصلـــه مـــن رَامَ هُرْمُـــزْ بخراســـان؛ وولـــد بالكوفـــة؛ غيـــر أن بعضهـــم كابـــن الأثيـــر ينسبـــه إلى اليمـــن؛ إذ يسميـــه الصنعـــاني نسبـــة إلى صنعـــاء. وثمـــة مـــن يقـــول أنـــه اشتغـــل ــ في بدايـــة الأمـــر ــ في التعليـــم؛ حيـــث كـــان مـــن العلمـــاء المعلميـــن في مذهـــب الإماميـــة الباطنيـــة. بينمـــا يقـــول آخـــرون أنـــه كـــان محتسبـــا في ســـوق الغـــزل بالبصـــرة.[2] ويقـــول عنـــه القـــاضي النعمـــان بـــن محمـــد: **((كـــان أبـــو عبـــد اللـــه هـــذا مـــن الكوفـــة؛ واســـمـــه الحسيـــن بـــن أحمـــد بـــن محمـــد بـــن زكريـــا؛ وكـــان ذا علـــم وعقـــل وديـــن وورع وأمانـــة ونزاهـــة؛ وكـــان أكثـــر علمـــه الباطـــن؛ ونظـــر في علـــم الظاهـــر نظـــراً لـــم يبالـــغ فيـــه))**.[3] ويقـــال أنـــه اتصـــل بالإمـــام محمـــد بـــن جعفـــر؛ فأعجـــب بـــه، وبعثـــه إلى أبي القاســـم بـــن حوشـــب داعيـــة الشيعـــة في اليمـــن؛ حيـــث أكمـــل أعـــداده هنـــاك للقيـــام بالمهمـــة الـــتي تنتظـــره؛ وذلـــك مـــا تجـــلى مـــن خـــلال تكليفـــه بأمـــر الدعـــوة في بـــلاد المغـــرب.

---

[1] **الكامـــل في التاريـــخ، ج: 6، ص: 127.**

[2] **اتعـــاظ الحنفـــا، ص: 68.**

[3] **رسالـــة افتتـــاح الدعـــوة، ص: 59.**

وبعد أن اكتمل تكوينه خرج إلى مكة لأداء فريضة الحج؛ أين تعرف على بعض الحجيج من قبيلة كتامة؛[1] فرافقهم إلى المغرب؛ دون أن يفصح عن الغرض الحقيقي لهجرته معهم. ولما حلت الفرصة المناسبة صرح بما تنطوي عليه نفسه، وما ينوي عمله. فلقي استجابة لدى مضيفيه، ونهضوا معه ضد الدولة الأغلبية؛ ودام الصراع مدة طويلة بين الدولة والقبائل المؤيدة لأبي عبد

---

[1] يقول ابن عذاري في هذا: ((فلما وصل للموسم ــ لا للحج؛ لأن الحج ليس من مذهبهم الفاسد؛ بل تكلف حضوره ليتسبب في مراده ــ فرأى في الموسم قوما من أهل المغرب؛ فلصق بهم وخالطهم. وكانوا نحو عشرة رجال من قبيل كتامة؛ ملتفين على شيخ منهم. فسألهم عن بلادهم؛ فأخبروه بصفتها؛ وسألهم عن مذهبهم؛ فصدقوه عنه. فتكلم أبو عبد الله الداعي عن المذاهب؛ فوجد الشيخ يميل في مذهبه إلى مذهب الإباضية النكارة؛ فدخل عليه من هذه الثُّلْمة؛ ولم يزل يستدرجهم، ويَخْلُبهم بما أوتيَ من فضل اللسان والعلم والجدل؛ إلى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه. فلما حان رجوعهم إلى بلادهم؛ سألوه عن أمره وشأنه؛ فقال لهم: "أنا رجل من أهل العراق؛ وكنت أخدم السلطان؛ ثم رأيت أن خدمته ليست من أفعال البرّ؛ فتركتها وصرت أطلب المعيشة من المال الحلال؛ فلم أرَ لذلك وجها إلا تعليم القرآن للصبيان؛ فسألت: أين يتأتى لي ذلك تأتيا حسنا؛ فذكر لي بلاد مصر". فقالوا له: "ونحن سائرون إلى مصر؛ وهي طريقنا؛ فكن في صحبتنا إليها". ورغبوا منه في ذلك؛ فصحبهم في الطريق؛ فكان يحدثهم، ويميل بهم إلى مذهبه، ويلقي إليهم الشيء بعد الشيء؛ إلى أن أشربت قلوبهم محبته؛ فرغبوا منه أن يسير إلى بلادهم ليعلم صبياتهم؛ فاعتذر لهم ببعد الشقة، وقال: "إن وجدت بمصر حاجتي، أقمت بها؛ وإلا فربما أصحبكم إلى القيروان". فلما وصلوا مصر، غاب عنهم كأنه يطلب بغيته. ثم اجتمعوا به وسألوه؛ فقال لهم: "لم أجد بهذه البلاد ما أريد". فرغبوه أن يصحبهم؛ فأنعم لهم بذلك)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 124 ــ 125.

اللـــه؛ حـــتى انتـــهى الأمـــر بسقـــوط الدولـــة الأغلبيـــة السنيـــة وإعـــلان قيـــام الدولـــة الفاطميـــة الشيعيـــة.

ـ ثـم أبـو جعفـر محمـد بـن عمـر بـن يحـيى بـن عبـد الأعـلى المَـرْورُذي أو مـرُّوذي: وهـو منسـوب إلى مَـرْو الـروذ في خراسـان. وقـد اختلفـت المصـادر في رسـم اسمـه وفي تسلسـل آبائـه؛ ويقـال أنـه كـان مـن جنـد خراسـان. وقـد كـان مـن علمـاء المذهـب الحنـفي في القيـروان[1] قبـل ظهـور الفاطميـين؛ إلا أنـه أصبـح مـن المتعصبيـن للمذهـب الشيـعي؛ عندمـا تغلـب الفاطميـون عـلى القيـروان؛ خاصـة وأن لـه ـ مـن قبـل ـ ميـلا للشيعـة. ولمـا دخـل أبـو عبـد اللـه الشيـعي للقيـروان مسقطـا بذلـك دولـة الأغالبـة؛ ولاه ـ مؤقتـا ـ قضـاء القيـروان؛ ثـم أقـره في منصبـه عبيـد اللـه المهـدي؛ ولكنـه انقلـب عليـه فيمـا بعـد؛ خاصـة بعـد مقتـل عبيـد اللـه الشيـعي؛ وذلـك بعـد اتهامـه بانتقـاد الدولـة ومعارضـة المهـدي؛ لـذا فقـد قبـض عليـه ورمي في إسطبـل مقيـد الأيـدي والأرجـل؛ فقتلتـه الـدواب بحوافرهـا. وهكـذا مـات تحـت العـذاب في محبسـه برقـادة سنـة 303هـ(919م) عـلى الرغـم مـن ولائـه وإخلاصـه وتفانيـه في نشـر المذهـب الشيـعي. ويقـول فيـه ابـن عـذاري: ((**ولَّى أبـو عبـد اللـه عـلى قضـاء مدينـة القيـروان محمـد بـن عمـر بـن يحـيى بـن عبـد**

---

[1] **تراجـم أغلبيـة، ص: 516.**

الأعلى المروذي؛ من جند خراسان؛ يوم الخميس لاثني عشر ليلة بقيت من شعبان؛ فقعد في الجامع، وأمر بإسقاط صلاة الإشفاع في شهر رمضان؛ واحتج في ذلك على الفقهاء، وأنكر عليهم الإقتداء بفعل عمر بن الخطاب في القيام، وتركهم الإقتداء بفعل علي بن أبي طالب في زيادة "حي على خير العمل" في الآذان؛ وقال لهم: "اعملوا بمذهب أهل البيت واتركوا الفضول". فلما كان في أول يوم من شهر رمضان؛ أقبل المروذي إلى المسجد الجامع؛ فوجد في حائط المسجد في القبلة، في موضع جلوسه مكتوبا: "وَمَنْ أظلمُ مِمَّنْ مَنعَ مَسَاجِدَ اللهِ أنْ يُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِها" إلى آخر الآية. فلما رآه سأل القَوَمَة؛ هل رأوا من جلس في ذلك الموضع؛ فقالوا: "لا" فأمر بمحوه، وانتقل عن الجلوس بذلك الموضع. ووقف يوما على المرُّوذي رجُلٌ مُحمَقٌ خليعٌ، والناس حوله؛ فقال له: "قد لطفتَ لنا ـ أصلحك الله ـ في قطع قيام شهر رمضان؛ فلو احْتلتَ في ترك صيامه؛ لَكفيتنا مَؤُونتهُ كلّها". فقال له المروذي "اذهب عنِّي يا ملعون"، وأمر بدفعه)).[1] وكان المروذي شديد التعصب ضد الفقهاء المالكية؛ إذ تسبب في قتل عدد منهم والتنكيل بآخرين.

---

[1] البيان المغرب،، ج: 1، ص ص: 151 ــ 152.

ـ **ثم إسحاق بن أبي المنهال**: وهو من أسرة معروفة بالعلم والجاه في القيروان، ومن العاملين في خدمة الدولة الأغلبية؛ وكان من قبل حنفي المذهب، ثم تحول إلى المذهب الإسماعيلي؛ مثله مثل المروذي وبعض فقهاء الحنفية الآخرين. ويقال أنه ولي قضاء صقلية أيام بني الأغلب؛ قبل أن يلتحق بخدمة الدولة الفاطمية؛ في المنصب نفسه بصقلية عند قيام الدولة؛ ثم ولاه عبيد الله المهدي خطة القضاء ـ بعد المروذي ـ في فترتين: الأولى من 307هـ(919م) إلى 311هـ(923م)؛ والثانية من 312هـ(924م) إلى أن مات في عهد ولده أبي القاسم. وذكر ابن عذاري السبب في عزله من منصبه وعودته إليه؛ فقال: ((**وفي سنة 311هـ عزل عبيد الله إسحاق بن المنهال عن قضاء مدينة القيروان؛ يوم السبت لعشر بقين من جمادى الآخرة؛ وأخرج إليه عبيد الله من قال له: "لم نعزلك عن حرجة؛ وإنما عزلناك للينك ومهانتك". وولى قضاء مدينة القيروان محمد بن عمران النفطي؛ وكان قبل ذلك في قضاء مدينة إطرابلس؛ فجمع بها أموالا كثيرة من الرِّشى والأحباس، ورفعها إلى عبيد الله؛ فكانت له وسيلة إليه**)).[1]

---

[1] **البيان المغرب،، ج: 1، ص: 188.**

أمـــا عودتـــه إلى منصبـــه فيقـــول ابـــن عـــذاري عنـــه: **((وفي هـــذه السنـــة [سنـــة 312هـــ] مـــات بالقيـــروان القـــاضي محمـــد بـــن عمـــران النفـــطي؛ في شهـــر ربيـــع الأول؛ وكـــان يرتـــشي عـــلى الأحكـــام، ويستهتـــر في ضـــروب المنكـــر. فـــولى عبيـــد اللـــه القضـــاء مكانـــه إسحـــاق ابـــن أبي المنهـــال مـــرة ثانيـــة؛ وكتـــب في عهـــده: "وإنمـــا كنـــا عزلنـــاك للينـــك ومهانتـــك؛ ورددنـــاك لدينـــك وأمانتـــك"))**.[1] وتجمـــع جـــل المصـــادر عـــلى أن إسحـــاق ابـــن أبي المنهـــال هـــذا قـــد ســـار عـــلى نهـــج المـــروذي في اضطهـــاد فقهـــاء المالكيـــة والتنكيـــل بهـــم.

ـ ثـــم أبـــو حنيفـــة القـــاضي النعمـــان بـــن محمـــد بـــن حيـــون المغـــربي: ولـــد هـــذا الفقيـــه بالقيـــروان ســـنة 302هـــ(914م) ضمـــن أســـرة تنتهـــج المذهـــب المالـــكي؛ ولنكـــه اختـــار ـ عندمـــا كبـــر ـ المذهـــب الإسماعيـــلي؛ حيـــث أصبـــح أبـــرز فقيـــه إسماعيـــلي بالمغـــرب؛ بـــل أهـــم منظـــر في أصولـــه؛ إذ كـــان المجتهـــد الأول في الفقـــه الإسماعيـــلي أيـــام الدولـــة الفاطميـــة؛ حيـــث يعتبـــر هـــو الواضـــع الحقيـــقي لأســـس الفقـــه الإسماعيـــلي؛ وذلـــك ضمـــن كتابـــه دعائـــم الإســـلام. هـــذا وقـــد شغـــل في الدولـــة الفاطميـــة وظيفـــة قـــاضي القضـــاة في عهـــد الخليفـــة المعـــز لديـــن اللـــه؛ علمـــا بأنـــه عمـــل في ميادـــين علميـــة عديـــدة خـــلال الفتـــرة المغربيـــة مـــن حكـــم آبـــاء

---

[1] **البيـــان المغـــرب،، ج: 1، ص: 189.**

المعـز. ومـن مؤلفاتـه: رسالـة افتتـاح الدعـوة، وكتـاب دعائـم الإسـلام في ذكـر الحـلال والحـرام والقضايـا والأحكـام، وشـرح الأخبـار في فضائـل الأئمـة الأطهـار، وتأويـل دعائـم الإسـلام، وتأويـل الشريعـة، وكتـاب الهمـة في آداب أتبـاع الأئمـة، وكتـاب المجالـس والمسايـرات. هـذا وكانـت وفاتـه بمصـر سنـة 363هـ(973م).

ـ ثـم أبـو اليَسـر إبراهيـم بـن محمـد الشيبـاني البغـدادي المعـروف بالريـاضي: وهـو مـن الأدبـاء البارزيـن في القيـروان. ويرجـع في أصولـه إلى بغـداد. وكـان مكلفـا ـ في زمـن الأغالبـة ـ بديـوان الرسائـل؛ ثـم وأسندت إليـه مهمـة الإشـراف عـلى بيـت الحكمـة؛ وذلـك إلى جانـب ديـوان الإنشـاء. وذكـر ابـن عـذاري حكايـة طريفـة وقعـت لـه عندمـا ذهـب إلى الأندلـس؛ قـال فيهـا: ((**وكـان** [أي أبـو اليسـر] **ظريفـا، أديبـا، مُرَسـلاً، شاعـرا، حسـن التأليـف؛ وقـدم الأندلـس عـلى الإمـام محمـد بـن عبـد الرحمـن** [الأمـوي] **ـ رحمـه اللـه ـ بكتـاب اخترقـه إليـه عـلى ألسِنـةِ أهـل الشـام؛ فتقبلـه الإمـام محمـد، وأنزلـه، ووسـع عليـه، ووصلـه؛ وأطلـع عـلى أن الكتـاب مختـرَقٌ مصنـوع؛ فلمـا أراد أبـو اليسـر الانصـراف؛ دُفـع إليـه كتـابٌ مختـومٌ؛ جوابـاً عـن كتـاب أهـل الشـام فيمـا أرى.**

فلما جاز البحر؛ فك أبو اليسر الكتاب ليقرأه؛ فإذا هو بياضٌ؛ وليس فيه إلاَّ: "بسم الله الرحمن الرحيم". فعلم أنَّ تمويهه لم يَجزْ؛ وأن الذي أعطِيَ وحبي عن تكرم وفضل؛ وعظم في عينه ملوك الأندلس ورجاله؛ وحدث بما عرض له، وعجب الناس منه. وكتب أبو اليسر لبني الأغلب حتى انصرمت أيامهم؛ ثم كتب لعبيد الله حتى مات. وله مؤلفات حسان في فنون من العلم، ومسند في الحديث، وكتاب في القرآن سماه "سراج الهدى"، وله كتاب "لقيط المرجان" ورسالة "الوحيدة المؤنسة"، و"قطب الأدب"؛ وغير ذلك من الأوضاع)).[1] هذا وتوفي أبو اليسر في سنة 298هـ(910م)

ـ ثم أبو جعفر محمد بن أحمد بن هارون البغدادي: كان هذا الرجل بمثابة وزير في دولة عبيد الله المهدي؛ وقد لعب دورا أساسيا في الإيقاع بأبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس. ويقال أنه كان ـ من قبل ـ يشتغل في ديون بني العباس ببغداد؛ ثم فر إلى عبيد الله المهدي؛ حيث انضم إليه قبل قيام الدولة الفاطمية؛ فكلفه بمهمة القيام بنشر الدعوة في بلاد الأندلس؛ ولما نشأت الدولة الفاطمية برقادة التحق بها. وقد تولى ـ في

---

[1] **البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 162 ـ 163.**

البداية ــ المهام التي كانت مسندة إلى أبي اليسر بعد وفاته سنة 298هـ(910م)؛ منها الكتابة وديوان البريد؛ ثم كلفه ــ بعد قتل أبي عبد الله الشيعي ــ بتسيير شئون الدولة؛ الأمر الذي جعله بمثابة الوزير. وكان أبو جعفر البغدادي هذا شديد الذكاء والدهاء؛ كما عرف بالعلم والتمكن من فنون الأدب؛ ولقد تمكن ــ بدهائه ــ من تصفية كثير من المقربين من المهدي كـ: أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس؛ والقاضي أبي جعفر المروذي وغيرهم.

وظهر ــ إلى جانب هؤلاء الفقهاء والعلماء ــ في الفترة المغربية للدولة الفاطمية أدباء وشعراء عديدون نذكر عينة من شعرهم الذي قيل بدءا بعهد عبيد الله المهدي وانتهاء بعهد المعز لدين الله قبل رحيله إلى مصر:

ــ أبو عثمان سعدون بن سعيد الورجيني: وهو من موالي بني الأغلب، ومن شعرائهم المعدودين. ولما تغلب الفاطميون على الأغالبة التحق بشراء البلاط الفاطمي. ومما قاله فيه القاضي النعمان: ((**وكان أول من مدحه** [أي عبيد الله] **منهم** [أي الشعراء] **وأنشده من شعراء إفريقية سعدون الورجيني؛ وكان شاعرا يمدح بني الأغلب، ويلي أعمالهم، وكان قد أسر ببلد الروم وفدي؛ واستؤذن له في الدخول عليه** [أي عبيد الله]

وإنشاده ما قال فيه؛ وكان ذلك بعقب وصول الحرم وقد جلس وهنأه الأولياء بسلامتهم؛ فدخل إليه وأنشده الشعر الذي يقول فيه:

قِفْ بِالمطِيِّ عَلَى مرَابعِ دُورِ
لبِسَتْ مَعالمِهنَّ ثوبَ دُثُورِ
لَعِبَتْ بِها حتَّى مَحَتْ آثارَها
رِيحانُ: رِيحِ صَبا وَرِيحِ دُبُورِ

فلما انتهى إلى قوله:

وَسَفِيهةٍ هبتْ تَصُدُّ عَنِ النوَى
وَيَدُ النوَى مَلكتْ عَنانَ مَسِيرِي
خافتْ عَليَّ مِنَ الخطوبِ لأنني
مِنْ قبلُ غِبتُ فأبتُ بَعدَ دُهورِ
ثمَّ اجتمَعنا بَعدَ ذَاكَ فيَالها
مأسورَة جمعتْ عَلَى مَأسُورِ

فلما قال هذا استعبر المهدي عليه السلام وتلقى دموعه بكمه؛ فسكت سعدون، وأومأ إليه أن قل؛ فمر فيها حتى انتهى إلى قوله:

أعَنِ ابْنِ فاطِمَةٍ تَصُدِّينَ امرءاً
بِنتِ النبِيِّ وَعترَةِ التطهيرِ

كــفِّي عَــنِ التثبيــطِ إنِّيَ زَائــرٌ

مِنْ أهلِ بَيــتِ الوَحْيِ خيرَ مُــزُورِ

فقــال لــه أبــو عبــد اللــه ــ وكــان بيــن يــدي المهــدي ــ صدقــت هــو افضــل العالميــن؛ فقبــل سعــدون الأرض بيــن يــدي المهــدي عليــه الســلام، ومــرّ فيهــا حــتى انتــهى إلى قولــه:

هذَا أميــرُ المُؤمنيــنَ تَضَعْضَعــتْ

لقدُومِــهِ أركــانُ كــلّ أميــرِ

هذَا الإمــامُ الفاطــميُّ وَمــنْ بــهِ

أمنــتْ مغاربهــا مِــنَ المَحــذُورِ

وَالشــرقُ ليسَ لشَامِــهِ وَعِرَاقــهِ

مِنْ مَهرَبٍ مِنْ جَيشِــهِ المَنصُــورِ

حَتَّى يَفــوزَ مِنَ الخِلاَفَــةِ بِالمــنَى

وَيَفــازَ مِنــهُ بعدلــهِ المَنشــورِ

فقــال أميــر المؤمنيــن: "مــا شــاء اللــه"؛ ومــرّ فيهــا إلى أن ذكــر أبــا عبــد اللــه فقــال:

يا مَنْ تَخيــرَ مِنْ خِيارِ دُعَاتــهِ

أرْجاهــمُ لِلعسْــرِ وَالميســورِ

حَتَّى استمـــالَ إليـــهِ كـــلَّ قَبيلـــةٍ
وَرَمَى إليـــهِ قيـــادَ كـــلِّ عشـــورِ
أشْبَهـــتَ مُوسَى وَهوَ حَيتكَ الـــتِّي
تلـــقَى فتلقـــفُ كلَّ إفـــكِ سُحـــورِ

فنظـــر المهـــدي إلى أبي عبـــد اللـــه وتبســـم؛ فقبـــل أبـــو عبـــد اللـــه الأرض؛ قـــال للورجيـــني: "أنـــا دون ذلـــك بعـــد مـــا بيـــن الســـماء والأرض". فأمـــر لـــه [أي للشاعـــر] أميـــر المؤمنيـــن بصلـــة جزيلـــة، وبـــأن يجـــرى عليـــه لكـــل عـــام؛ ووصلـــه أبـــو عبـــد اللـــه أيضـــا)).[1]

وكـــان سعـــدون الورجيـــني هـــذا قـــد تعـــرض ــ أيـــام الأغالبـــة ــ للأســـر مـــن طـــرف النصـــارى؛ ثـــم وجـــد مـــن افتـــداه. فلمـــا وصـــل إلى صقليـــة مـــن القسطنطينيـــة؛ وهـــو في حـــال يـــرثى لهـــا؛ تمكـــن مـــن الدخـــول عـــلى والي صقليـــة أبي الحسيـــن محمـــد بـــن الفضـــل؛ وكـــان هـــذا الـــوالي مـــن أفاضـــل القـــوم ومـــن أدبائهـــم وشعرائهـــم المجيديـــن؛ فواتتـــه فرصـــة ذهبيـــة حيـــن عـــرض كاتـــب ابـــن الفضـــل بيتيـــن قالهمـــا سيـــده عـــلى الشعـــراء الجالسيـــن؛ طالبـــا منهـــم الزيـــادة عليهمـــا بأبيـــات تناسبهمـــا. والبيتـــان همـــا:

---

[1] رسالـــة افتتـــاح الدعـــوة، ص ص: **254 ــ 256**.

تَثــنَى فَقلتُ: الغُصْن مِنــهُ تعلمــا
وَأزْرَى بِحُسنِ البــدْرِ حينَ تبَسَّمــا
هــلاَلٌ كأنَّ اللــه نــاجَى جمالــهُ
بتصوِيــرِهِ إيــاهُ لمــا تجسمــا

فبــادر سعــدون الورجيــني فــورا قائــلا:
تناثــرَ مِنــهُ الــدُّرُّ لمــا تكلمــا
وَأبصــرَهُ بــدْرُ السمــاءِ فأظلمــا
هــلاَلٌ كستــهُ الشَّمسُ حلة وَجْهــهِ
وَأهــدَى إليهِ الغصْــنُ قداً منعمــا
سقــاَنِي بكفِّ الحُسنِ كأسَ صُبابــةٍ
وَوَكــلَ بِي قلبــاً عليــلاً متيمــا
فما زِلــتُ أشْكوهُ إلَى حُسنِ وَجْهــهِ
بخطِّ يدِي حتَّى بــكَى قلــبِي دَمــا
وَمسمعــة لمــا رَأتْ ذُلَّ موقــفِي
لدَيــهِ تغنــتْ كَيْ يــرَقَّ وَيرْحمــا
((تثــنَى فقلتُ: الغُصْن مِنهُ تعلَّمــا
وَأزْرَى بِحسنِ البــدْرِ حينَ تبسمــا))

فقلتُ لها مَنْ ذَاكَ؟ قالــتْ مُجيبــة

وَأوْميــت بعينيهــا إلي ليفهمــا

((هلاَلٌ كأنَّ اللــه نــاجَى جمالــهُ

بتصويــرِهِ إيــاهُ لمــا تجسمــــا))

فأعجــب كاتــب محمــد بــن الفضــل ببديهتــه وحســن طريقتــه؛ فكافــأه بصــرة مــن الدنانيــر؛ أصلحــت حالــه، وفكــت حاجتــه.

ويبــدو أن سعــدون الورجيــني هــذا كــان مــن الشعــراء المعروفيــن في الدولــة الأغلبيــة؛ وقــد ورد ذكــره في ريــاض النفــوس للمالــكي، وفي مــدارك القــاضي عيــاض؛ حيــث نشــرت فيهمــا قصيــدة لــه رثــا بهــا العالــم الصالــح الزاهــد يحــيى بــن عمــر بــن يوســف الأندلــسي؛ جــاء فيهــا:

عيــنُ ألــمَّ بهــا وَجــدٌ فلــمْ تنــمِ

تبكِي بدَمْــعٍ كنظمِ الــدرِّ منسَجــمِ

مدَامع الصَّــبِّ أقــلاَمٌ تخــطُّ بهــا

أيدِي الصَّبابةِ مَا بِالقلــبِ مِنْ سَــدَمِ

لفــظُ الضَّمِيرِ لِسَانُ الدَّمعِ ترْجمَــهُ

حَتَّى بَــدَا كلُّ سِــرٍّ فِيــهِ مُنكتِــمِ

لوْلاَ المَدَامِــعُ لــمْ يعْلــمْ بلوْعتــهِ
يُخفِي تبارِيحَ وَجدٍ غيــر مُنْصــرمِ
وَهلْ تلــذُّ بطعمِ النوْمِ مُقلــة مَــنْ
كستــهُ كــفُّ الرَّزَايــا حلة السَّقــمِ
وَكلُّ جَارِحَــةٍ مِنْ جسْمِــهِ قدَحــتْ
فِيها يــدُ البــثِّ نِيرَانــاً مِنَ الألــمِ
لمْ يعــدَمِ الحــزْنَ إلاَّ أنَّ مهجتــهُ
قدْ أبدِلتْ مِنْ سُرُورِ العَيشِ بِالعَــدَم
تأبَى الليالِي عَلينا أنْ تــدُومَ عَــلَى
جَمعٍ مِنَ الشمْلِ أوْ سَــدٍّ مِنَ الثلــمِ
لاَ لوْمَ إنْ كنتُ بَعدَ الثكــلِ لمْ أنــمِ
لوْ ذَاقَ مَنْ لاَمنِي مَا ذُقــتُ لمْ ينــمِ
أنَّى يجيبُ إلَى جَنبِ الكرَى رَجُــلٌ
قدْ أفرَدَتهُ المَنايا مِــنْ ذَوِي الرَّحِــمِ
عَجبتُ أنْ لمْ أمُتْ حُزناً وَقدْ دَفنــتْ
كفَايَ فِي التربِ أتقَى العُربِ وَالعَجَمِ
يا مَــوْتُ أثكلتِنــا يَحيَى وَكانَ لنــا
فِي بَلدَةِ الغربِ مِثل البَدرِ فِي الظلمِ

يَنجابُ عَنا بهِ غيــمُ الخنــا وَمَــتَى
نقِــسْ بهِ الناسَ فَضلاً كانَ كَالْعَلَــمِ
مَا كانَ إلاَّ سرَاجاً يُستضــاءُ بــهِ
فِي العِلمِ يُسْمَعُ مِنهُ العِلمُ فِي الحُلَــمِ
وَكانَ يَحْيَى ــ إذَا خفنا ــ لنا حَرَماً
نلجَأ إليهِ، فقــدْ صِرنا بــلاَ حَــرَمِ
وَكانَ يَحيَى لنا سَيفــاً يُعــزُّ بهِ الــ
ــدِّينُ الحَنِيفُ وَيُحمَى كلُّ مُهتضــمِ
وَكانَ يَحــيَى لنا فِي الزَّائِغيــنَ إذَا
ضَلوا لِسانــاً يُبينُ الحــقَّ عَنْ أمَــمِ
وَكانَ يَحيَى لنا حِــرْزاً، وَكانَ لنــا
كنــزاً، وَكانَ لنا كالغيــثِ فِي الأزَمِ
لتبكِ يَحــيَى عيــونٌ بِالدَّمــعِ فــإنْ
غاضــتْ مَدَامِعهــا فلتبكــهِ بــدَمِ
أبكِي عَلى العِلمِ وَالتقوَى بِهِ اجْتَمَعــَا
وَمَنْ مَضَى وَهوَ أوفَى الناسِ بالذِّمَمِ
أبكِي عَلَى الحِلمِ ثــوْبٌ كانَ يَلبَسُــهُ
أبكِي عَلَى طاهِرِ الأخــلاَقِ وَالشيــمِ

أبكِي فتى الدَّهرِ، أبكِي شَيْخَ كلِّ حِجَى
أبْكِي أخَا الفَضْلِ، أبكِي مَعدَنَ الكرَمِ
مَنْ كانَ مِنْ بَعدِ سَحْنــون لنا خلفــاً
مَنْ كانَ فِي الحَقِّ مِثلُ الصَّارِمِ الخذِمِ

إلى أن يقــول:
مَا كانَ أشجعــهُ، مَا كانَ أوْرَعــهُ
مَا كان أفصَحهُ فِي مَحفــلِ الكلــمِ
مَا كانَ أرْغبهُ فِي سنــةِ درَســتْ
يُشِيدُهــا ببنــاءِ الحــاذِقِ الفهــمِ
مَا كانَ أفقهــهُ، مَــا كــانَ أعلمــهُ
مَا كانَ أحماهُ عِندَ الخــوْفِ لِلحــرَمِ
مَا كانَ أطهرَ تِلكَ النفس مِنْ رِيَــبٍ
مَا كانَ أكتــبَ تِلكَ الكــفّ بِالقلــمِ
سَقاكَ يَا قبرَ يَحيَى عَــارِضٌ لجــبٌ
سمحُ الــرَّذَاذِ كرِيمُ الوَبــلِ وَالدِّيــم
مُبارَكُ الظلِّ يكسو الأرْضَ أرْدِيــةٍ
كالوَشْيِ يُلقَى عَلَى القِيعَانِ وَالأكــمِ

يا رَبّ! صَاحِبُ هذَا القبــرِ خادِمــ
ــكَ المَعْرُوفِ بالنُّصْحِ وَالإحْسَانِ وَالخدَمِ
أتاكَ ضيفاً فلاَ تجعــلْ قــرَاهُ سِــوَ
ى الرِّضْوانِ، إنّكَ ذُو فَضْلٍ وَذُو كرَمِ

ــ ثــم محمــد بــن رمضــان النفــطي: كــان يعتنــق المذهــب الشيــعي قبــل ظهــور أبي عبــد اللــه داعيــة الفاطميــين بالمغــرب. ويبــدو أنــه كــان مــن المتأثريــن بالدعــوة الــتي بثهــا أبــو سفيــان؛ الــذي استقــر في تالــة أو **(تــالا)** جنــوب الكــاف. وتقــول المصــادر أن أهــل نفطــة تشيعــوا بتأثيــر منــه.[1] وكــان محمــد بــن رمضــان شاعــراً؛ فاتخــذ مــن شعــره وسيلــة للدعــوة ونشــر مــا يتناقلــه أهــل الحدثــان عــن المهــدي المنتظــر. ومــن شعــره في هــذا البــاب قولــه:

ســلاَ ظبيــة القنــاصِ أينَ احتلاَلهــا
فقــدْ هاجــنِي تفتِيرُهــا وَامذِلاَلهــا
لعــلَّ الــتِي عنهــا تفــرِّقَ أهلهــا
فبــادَتْ مَغانيهــا وَطــالَ احتيَالهــا
أرَقــتُ لها مِــنْ بعدِ أنْ نــامَ إنسهــا
خناطِيــلُ آرَامِ الظبــاءِ جمالهــا

[1] رسالــة افتتــاح الدعــوة، ص ص: 54 ــ 55.

فعــدِّ عنِ الــدَّارِ الــتِي بــانَ أهلهــا
وَعَنْ كَيفَ مِنْ بَعْدِ البلَى صَارَ حَالُهَــا
فهــذَا أوَانُ الحــقِّ قــدْ حــانَ حِينــهُ
وَدَوْلــة أهــلِ البــغْيِ آنَ زَوَالهـــا
كأنِّي بشَمْسِ الأرْضِ قدْ طلعــتْ لنــا
مِنَ الغــرْبِ مقرُونــاً إليهــا هِلاَلهــا
فيمــلأ أرْضَ اللــهِ قسطــاً بعدْلــهِ
بمــا ضــمَّ مِنهــا سَهلهــا وَجبالهــا
وَآمــنُ فيهــا مــا أخــافُ وَأتــقِي
وَأظفــرُ بالزُّلـــفَى بــه وَأنالهـــا

ويقــول القــاضي النعمــان أن محمــد بــن رمضــان هــذا أدرك أيــام عبيــد اللــه المهــدي؛ بعــد أن وصــل مــن العمــر عتيــا؛ وبعــد أن خــرف؛ ومــع هــذا فقــد ولاه المهــدي قضــاء ميلــة؛ وبــقي في منصبــه حــتى مــات. كمــا أورد القــاضي النعمــان ــ أيضــا ــ حكايتــه مــع الأميــر الأغلــبي إبراهيــم بــن أحمــد؛ حيــث هجــاه محمــد بــن رمضــان؛ بعــد المجــزرة الــتي قــام بهــا في حــق أهــل بلزمــة؛ إذ غــدر بهــم وقتــل منهــم ألــف رجــل ببــرودة وبشاعــة؛ وكــان محمــد بــن رمضــان في تلــك الأثنــاء ببلزمــة في جــوار أهلهــا وفي ضيافتهــم؛ فقــال:[1]

[1] رسالــة افتتــاح الدعــوة ، ص ص: 88 ــ 90.

جلَّ المصَابُ لئِنْ كانَ الذِي ذَكــرُوا
مِمــا أتتنــا بــهِ الأنبــاءُ وَالخبــرُ
عَنْ ألفِ أرْوعٍ كالآســادِ قدْ قتلــوا
لِساعَــةٍ مِنْ سوَادِ الليلِ إذْ غــدِرُوا
لوْ كانَ مَنْ بيــتَ الآســادَ أيقظهــمْ
حلــتْ بــهِ منهمُ الأحدَاثُ وَالغِيــرُ
قلْ لابــنِ أحمــدَ ابرَاهِيــم مألكــة
عَنِ الخبيــرِ بما يــأتِي وَما يــذَرُ
عَنِ المشرَّدِ فِي حبِّ الأئمــةِ مِــنْ
آلِ النبيِّ وَخيــرِ الناسِ إنْ ذُكِــرُوا
اعلمْ بأنَّ شِــرَارَ النــاسِ أطوَلهــمْ
يداً بمكرُوههــمْ يوْمــاً إذَا قــدِرُوا
لاَ سِيمَا الضيْفُ وَالجَارُ الغرِيبُ وَمَنْ
أعطــوْهُ ذِمتهمْ مِنْ قبلِ مَا خفــرُوا
فما اعْتــذَارُكَ مِنْ عارٍ وَمنقصــةٍ
أتيتهــا عامِــداً إنْ قــامَ مُعتــذِرُ
جرَّعتَ ضَيفكَ كأساً أنتَ شارِبهــا
عمــا قليــلٍ وَأمــرُ اللــهِ ينتظِــرُ

فدَوْلة القائمِ المهــدِيِّ قــدْ أزِفــتْ
أيامُهــا وَالــذِي أنبــا بــهِ الأثــرُ
عنِ النــبيِّ، وَفيهــا قطــعُ مدَّتكــمْ
يا آلَ أغلبَ أهلَ الغدْرِ فاقتصِــرُوا
وَقطــعُ أمرِ بنِي العَبــاسِ بعدَكــمُ
وَقطعُ آلِ بنِي مَــرْوَانَ إذْ بطــرُوا

ولمــا علــم إبراهيــم بــن أحمــد بالقصيــدة؛ أراد خداعــه واستدراجــه؛ إذ قــال: ((**لعــن اللــه مــن طلبــه وشــرده؛ فمــا مثــل هــذا يــؤذى؛ ولــو أتانــا لصفحنــا عنــه وأحسنــا إليــه؛ ولقــد أحســن في الوفــاء لمــن أجــاره، وصنــع المعــروف إليــه؛ ومثــل هــذا تزكــو عنــده الصنائــع، ومــا ينتقــم عليــه تشيعــه؛ بــل ذلــك مــا يقربــه منــا ويدنيــه عندنــا؛ فأبلغــوه عنــا ذلــك؛ فــإن أحــبَّ القــدوم إلينــا فهــو آمــن، ولــه عندنــا ــ مــع ذلــك ــ الحبــاء والإكــرام**)). ولمــا وصــل قولــه إلى محمــد بــن رمضــان؛ لــم تنطــل عليــه الخدعــة؛ وعلــم بالفــخ الــذي نصبــه لــه إبراهيــم؛ فقــال:

لوْ لمْ أعاينهُ يَصِيــدُ بِحبــهِ للقطتُ حبــهْ
مَنْ ذَا يغــرُّ بغــادِرٍ ما إنْ يخافُ اللهَ رَبهْ

ـ **ثم علي بن محمد الإيادي**: كان من شعراء بني الأغلب قبل أن يتغلب عليهم الفاطميون؛ ثم أصبح من شعراء البلاط الفاطمي بعد ذلك. وله قصائد في مدح عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم، ثم إسماعيل المنصور بن أبي القاسم. وتوفي الإيادي في سنة 365هـ(975م). ومن شعره في وصف قصر صبرة:

وَلَما استطالَ المَجدُ وَاستَوْلتِ العلاَ
عَلَى النّجمِ وَامتدَّ الرِّوَاقُ المروّقُ
بنَى قبة للمُلكِ فِي وَسطِ جنةٍ
لَها مَنظرٌ يزْهَى بهِ الطرْفُ مونقُ
وَإنْ صَافَحتها لاَحتْ كأنها
فرِندٌ عَلَى تاجِ المعزِّ وَرَونقُ
كأنَّ شرُفاتِ المقاصرِ حوْلها
عذَارَى عَليهنَّ مِلاء الممنطق

ومن شعره في وصف الأسطول الفاطمي في عهد إسماعيل المنصور:

أعجب لأسطولِ الإمامِ محمدٍ
وَلحسنهِ وَزَمانهِ المستغربِ

لبسَــتْ بهِ الأمواَجُ أحسَــنَ مَنظــرٍ
يبــدُو لعيــنِ الناظِــرِ المتعجــبِ
مِنْ كــلِّ مُشرِفــةٍ علَى مَا قابلــتْ
اشرَافُ صَدْرِ الأجــدَلِ المنتصِــبِ
دَهمــاء قدْ لبســتْ ثيــابَ تصنَــعٍ
تســبِي العقولَ علَى ثيــابٍ ترْهــبِ

ـ **ثــم أيــوب بــن إبراهيــم**: يبــدو أنــه كــان مــن أعــوان الدولــة الفاطميــة وأتباعهــا المخلصيــن. ولــم نعثــر عــلى مــا يفيــد عنــه؛ أكثــر مــن هــذه الأبيــات الشعريــة الــتي مــدح بهــا أبــا طاهــر إسماعيــل المنصــور؛ وهي:

يا ابْنَ الإمَامِ المُرتضَى وَابنِ الوَصِيِّ
المُصْطــفَى وَابنِ النــبيِّ المرْســلِ
اللــهُ أعطــاكَ الخلاَفــة وَاهبــاً
ورَآكَ للإســلاَمِ أمنــعَ معقــلِ
نلتَ الخِلاَفــة وَهْيَ أعظــمُ رُتبــةٍ
نِيلتْ، وَليسَــتْ مِنْ علاَكَ بِأفضَــلِ
فمَنَعتَ حوْزَتَهَــا وَحطــتَ حَرِيمَهَــا
بالمَشرَفيــةِ وَالوَشِيــجِ الذُبــلِ

ـ ثم أبو العباس خليل بن إسحاق: وهو من القادة العسكريين والأمراء الذين يتكل عليهم إمام الدولة الفاطمية؛ وقد ولاه الخليفة أبو القاسم صقلية فظل بها أربع سنوات تقريبا؛ حيث أظهر فيها سوء سيرة، إذ ارتكب جرائم شنيعة في حق الرعية. ومما جاء في مجموع المكتبة العربية الصقلية: ((**وفي سنة 325هـ قدَّم أبو القاسم بن عبيد الله الشيعي على صقلية خليل بن إسحاق؛ فعمل بها ما لم يعمله أحد قبله ولا بعده من المسلمين؛ أهلكهم قتلا وجوعا حتى فروا إلى بلاد الروم، وتنصر كثير منهم؛ وبقي بصقلية أربعة أعوام؛ ولما قدم منها سنة 329هـ؛ قال يوما مفتخرا بظلمه في مجلس حَضَرَهُ جماعة من وجوه الناس؛ تكلموا فيه معه في أمور شتَّى؛ ثم جرى ذكر خروجه إلى صقلية؛ فقال: "إنِّي قتلت ألف ألف ـ يقول المُكثرُ؛ والمُقللُ يقول مائة ألف ـ في تلك السفرة"؛ ثم قال: "لا والله الآ أكثر". فقال له أبو عبد الله المؤَدِّب: "يا أبا العباس لك في قتل نفس واحدة ما يكفيك"**.

وكان خليل هذا يكنى أبا العباس؛ وكان عبيد الله الشيعي يصرفه في الأعمال وجبايات الأموال ومحاسبة الدواوين والعمال؛ ثم وقعت فيه أقوال فكرهه عبيد الله وأبغضه؛ ولولا ابنه أبو القاسم لأهلكه)).[1] ومن شعره الذي قاله في عبيد الله المهدي:

إنَّ الإمامَ أقامَ سنة جدِّهِ
للمسلمينَ كما حذَوْتَ نِعالها
أحيَى شرَائعهُ وَقوَّمَ كتبها
وَفرُوضها وَحرَامها وَحلاَلها

وقال أيضا هذه الأبيات الشعرية عندما بعثه إسماعيل المنصور لقتال أبي يزيد؛ وهي:

وَمَا وَدَّعتُ خيرَ الخلق طراً
وَلاَ فارَقتهُ عَنْ طِيبِ نفسِ
وَلكِنِّي طلبتُ بهِ رِضَاهُ
وَعَفوَ اللهِ يوْمَ حُلولِ رَمسِ
فعاشَ مُلكاً مَا لاَحَ نجمٌ
عَلَى الثقلينِ مِنْ جنٍّ وَإنسِ

---

[1] **البيان المغرب، ج:1، ص: 215. والمكتبة العربية الصقلية (نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع)، جمع: المستشرق الإيطالي ميخائيل أماري، ص ص: 368 ــ 369.**

ـ ثم أبو جعفر بن أحمد بن محمد المروذي:
على الرغم من توافق اسم هذا الرجل مع اسم سابقه قاضي القيروان محمد بن عمر المروذي؛ الذي توفي سنة 303هـ من شدة العذاب الذي سلطه عليه عبيد الله المهدي؛ إلا أن العلاقة الأسرية بين الرجلين ليست واضحة ـ بالضبط ـ إذ يبدو أن هذا الشاعر الزجال المدعو أحمد بن محمد المروذي ربما كانت له صلة قرابة مع ذلك القاضي. المهم إن المصادر التاريخية ترسم اسمه ـ كسابقه ـ أحيانا بالمروذي، وأحيانا أخرى بالمروزي، وفي بعض الحالات الموزي. وعليه تشدنا فكرة أنه ربما كان من أبناء القاضي المذكور؛ تبعا لتوافق الأسماء ولحظوة المروذي الشاعر في بلاط الفاطميين. وجملة القول لم يصل إلينا عنه سوى بعض الأبيات المتواضعة المتناثرة هنا وهناك؛ وهي لا تدل على شاعرية كبيرة أو على تمكن من علوم اللغة؛ لذا لم نر له قدرة كبيرة في ابتكار وابتداع الصور الشعرية الجميلة؛ إذ كان شعره ـ في الحقيقة ـ عبارة عن تسجيل للأحداث بواسطة النظم الشعري. ومما قاله في أرجوزة عن

وصــول إسماعيــل المنصــور بجيشــه إلى مدينــة المحمديــة أثنــاء مطــاردة أبي يزيــد؛ قولــه:

ثمَّ إلَى مَدِينــةٍ مرْضِيــهْ
أسَّتْ عَلى التقوَى محَمدِيهْ
أقبل حتّى حَلهــا عَشِيــهْ
بِالنورِ مِنْ طلعَتِهِ المُضيهْ
فَحلَّ فِي عَسْكرِهِ المَسِيلــهْ
فِي هيــأةٍ كامِلةٍ جَمِيلــهْ

وقــال أيضــا في أخــرى عــن حركــة إسماعيــل ومطاردتــه لأبي يزيــد:

لقدْ تَاهــتْ بِطلعتِــكَ الغــرُوبُ
كما ابتهجتْ بدَوْلتِــكَ القلــوبُ
لقدْ زَهتِ الخِلاَفــة إذْ حدَاهــا
نَجيــبٌ رَاحَ بِحملِــهِ النَّجيــبُ

وقال عند الوصول إلى طبنة أثناء مطاردة أبي يزيد أيضا:

سِرنا وَقدْ حلَّ بقرْبِ طبنهْ

وَصَارَ مِنها أهلها فِي مِحنهْ

فأعظمَ اللهُ العزِيزُ المنهْ

وَبدَّلوا مِنْ بعدِ نارٍ جنهْ

ـ **ثم محمد بن المنيب**: كان في جيش إسماعيل المنصور؛ عندما طارد أبا يزيد في المغرب الأوسط؛ ولم نعثر في المصادر أكثر من اسمه وقصيدته هذه:

حَلَّ البَلاَءُ بمخلدٍ

وَجَمِيعِ شِيعتِهِ النوَاكِرْ

أمسَى بأرْضِ كيانةٍ

قدْ بانَ مِنهُ كلُّ ناظِرْ

يرنو بطرفٍ خاشِعٍ

نَظرَ المُحَاصَرِ للمُحَاصِرْ

يرنو إلَى عدَدِ الحَصَى

وَالرَّمْلِ مِنْ تِلكَ العَسَاكِرْ

يــا مُخلــدُ بــنِ سَبيكــةٍ
يا شَرَّ بيتٍ فِي العشائِــرْ
ذُقْ مَا جَنتــهُ يَدَاكَ قــبــ
ــلُ مِنَ الكَبَائِرِ وَالصَّغائِرْ
ذُقْ هَــولَ شقــكَ لِلبطــو
نِ وَمَا ارتَكَبْتَ مِنَ الجَرَائِرْ
يــا شــرَّ مَــنْ بكيانــةٍ
وَكيَانــة شــرُّ البرَابــرْ
أنظرْ إلَى القفــصِ الــذِي
لاَ بدَّ فِيــهِ أنتَ صَائِــرْ
أنظــرْ إلَى يَدَيــكَ فيــ
ــهِ وَمؤنِسِيكَ وَمَنْ تجَاوِرْ
قدْ طــالَ شوقِهمَــا إليْــ
ــكَ فزُرْهمَا يَا شرَّ زَائر

ـ ثــم أبــو القاســم محمــد بــن هــاني بــن سعــدون الأندلــسي: ولــد بإشبيليــة ـ في عهــد الخليفــة الأمــوي الناصــر لديــن اللــه بيــن سنــتي: 322هـ و 326هـ ـ مــن أســرة كانــت تسكــن المهديــة بإفريقيــة. وينســب ابــن هــاني في أصولــه الأولى إلى قبيلــة الأزد اليمنيــة

العربية. ويقال أنه منحدر من أسرة يزيد بن حاتم بن قبيصة. كما تذكر المصادر أنه تأثر بالمذهب الشيعي منذ صباه في الأندلس؛ إذ تشبع بالأفكار الفلسية ذات المنطلق العقلاني المعتزلي.

ويكون ابن هاني قد ترك الأندلس، وانتقل إلى الضفة المغربية سنة 347هـ(958م)؛ حيث التحق ببني علي بن حمدون: جعفر ويحيى؛ أمراء المسيلة؛ فلما علم به المعز لدين الله الفاطمي بعث يطلبه؛ جاعلا منه شاعر البلاط الفاطمي الأول. فقدم غليه حيث حلاه بأفضل ما قيل في مدح الملوك؛ من غرر الأشعار؛ لولا بعض الغلو الذي نسب إليه، والذي يدخل في سياق الكفر وكبائر القول. أما خبر وفاته فقد اكتنفه غموض كبير؛ سواء من حيث المضمون والتفاصيل أو في تحديد تاريخ وقوعها. وكل ما يمكن قوله هنا أنه قتل، أو مات في برقة بينما كان متوجها إلى مصر ليلحق بالمعز هناك. وقال عنه ابن خلكان: **((ولما بلغ المعز وفاته وهو بمصر تأسف عليه كثيرا وقال: "هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق؛ فلم يقدر لنا ذلك". وله في المعز المذكور غرر المدائح ونخب الشعر... وفي هذا الأنموذج دلالة على علو درجته وحسن طريقته. وديوانه كبير؛ ولولا ما فيه من الغلو في المدح المفضي إلى الكفر لكان من أحسن الدواوين؛ وليس في المغاربة من هو في طبقته: لا من متقدميهم ولا**

من متأخريهم؛ بل هو أشعرهم على الإطلاق؛ وهو عندهم كالمتنبي عند المشارقة؛ وكانا متعاصرين؛ وإن كان في المتنبي مع أبي تمام من الاختلاف ما فيه...

ويقال أن أبا العلا المعري كان إذا سمع شعر ابن هانيء يقول: "ما أشبهه إلاّ برَحَى تطحن قرونا"؛ لأجل القعقعة التي في ألفاظه؛ ويزعم أنه لا طائل تحت تلك الألفاظ؛ ولعمري ما أنصفه في هذا القول؛ وما حمله على هذا إلاّ فرط تعصبه للمتنبي؛ وبالجملة فما كان إلاّ من المحسنين في النظم)).[1]

ومن شعر ابن هاني هذه القصيدة؛ وهي أولى القصائد التي مدح بها المعز؛ فور قدومه من المحمدية. ويقال أنه كافأه عليها بدست ثمنه ستة آلاف دينار؛ فقال ابن هاني: "يا أمير المؤمنين ما لي موضع يسع الدست إذا بسط"؛ فأمر له ببناء قصر؛ فغرم عليه ستة آلاف دينار، وحمل إليه آلة تشاكل القصر والدست قيمتها ثلاثة آلاف دينار. وقد رأيت أنه من الأفضل أن أثبت معظم أبياتها هنا؛ نظرا لما تشتمل عليه من أفكار ومعان توضح ما يتضمنه المعتقد الشيعي الفاطمي آنئذ؛ وقد بدأها بهذا المطلع:

---

[1] وفيات الأعيان، ج: 4، ص ص: 423 ــ 424.

هــلْ مِــنْ أعِقــةِ عالــجٍ يبرِيــنُ
أمْ مِنهمَــا بقــرُ الحــدُوجِ العِيــنُ[1]
وَلمــنْ ليــالٍ مَــا ذَممنــا عَهدَهــا
مــذْ كــنَّ إلاّ أنهــنَّ شجــونُ[2]
المشرِقــاتُ كأنهــنَّ كوَاكــــبٌ
وَالناعمــاتُ كأنهــنَّ غصــــونُ
بيــضٌ وَمَا ضَحِكَ الصَّباحُ وَإنهَــا
بِالمِسْكِ مِنْ طرَرِ الحِسَــانِ لَجُــونُ[3]
أدْمَى لَها المَرْجــانُ صَفحَــة خــدِّهِ
وَبــكَى عليْهــا اللؤْلــؤُ المَكنــُونُ
أعْدَى الحَمَــامَ تــأوُّهِي مِنْ بعدِهــا
فكأنــهُ فيمــا سَجعــنَ رَنيــــنُ
بَانــوا سرَاعــاً لِلهــوَادِجِ زَفــرَة
ممــا رَأيــنَ وَلِلمــطِيِّ حَنيــــنُ

---

[1] الأعقــة: جمــع عقيــق؛ أي الــوادي. وعالــج: موضــع مــا في البادية. يبريــن: مكــان في البحريــن بــه رمــال كثيــرة. بقــر العيــن: تشبيــه للنســوة ذات العيــون الجميلــة. الحــدوج: جمــع حــدج وهــو عبــارة عــن مركــب تركبــه النســاء.

[2] الشجــون: الهمــوم.

[3] جــون: شديــد الســواد.

فَكأَنَّمَــا صبَغــُوا الضُّحَى بِقبَابِهــمْ
أوْ عَصْفــرَتْ فِيها الخدُودَ جُفــونُ[1]
مَاذَا عَلى حُلــلِ الشَّقِيقِ لــوَ انَّهــا
عَــنْ لاَبِسِيهــا فِي الخــدُودِ تبيــنُ[2]

وهنــا يشــرع في مــدح المعــز بطريقتــه المستفــزة؛ المليئــة بالمبالغــة الغريبــة، والغلــو الفاضــح؛ وهــو مــا رفضــه معظــم المسلميــن مــن أهــل السنــة ونــددوا بــه؛ وفي ذلــك يقــول:

هــذَا معــدٌ وَالخلاَئــقُ كلهــا
هــذَا المعِــزُّ متوَّجــاً وَالدِّيــنُ
هذا ضَمِيــرُ النشــأةِ الأولَى الــتِي
بــدَأ الإلــهُ وَغيبهــا المكنــونُ
مِنْ أجــلِ هذَا قــدِّرَ المقــدُورُ فِي
أمِّ الكتــابِ وَكــوِّنَ التكوِيــنُ

---

[1] أي احمــر الضــحى مــن احمــرار قبابهــم. وصبغــت دموعهــم الداميــة خدودهــم.

[2] حلــل الشقيــق: الثيــاب الحمــر الــتي تشبــه شقائــق النعمــان.

وَبــذَا تلـــــقى آدَمٌ مِــنْ رَبـــــهِ
عفــواً وَفــاءَ لِيونــسَ اليقطِيــنُ
يَا أرْضُ كَيفَ حَمَلتِ ثِــنْيَ نِجَــادِهِ
وَالنَّصْــرُ أعظــمُ مِنــكِ وَالتمْكِيــنُ[1]
حَاشــا لِمَا حُمِّلــتِ تَحمِــلُ مِثلــهُ
أرْضٌ وَلَكــنَّ السمــاءَ تعيـــنُ
وَلوْ يَلتــقِي الطُّوفانُ قَبْــلُ وَجُــودُهُ
لمْ يُنــجِ نوحــاً فلكــهُ المَشحُــونُ
لوْ أنَّ هَذَا الدَّهــرَ يَبْطــشُ بَطشَــهُ
لمْ يَعْقــبِ الحَركــاتِ مِنهُ سُكــونُ
الــرَّوْضُ ما قــدْ قيــلَ فِي أيامــهِ
لاَ أنـــــهُ وَرْدٌ وَلاَ نسْرِيـــــنُ
وَالمِسْكُ مَا لَثمَ الثرَى مِــنْ ذِكــرِهِ
لاَ أنَّ كــلَّ قـــــرَارَةٍ دَارَيـــــنِ[2]

---

[1] **الثــني: الطــي. تقــول: "أرسلتــه ثــني كتــابي" أي طي كتــابي. النجــاد: حمائــل السيــف؛ لأنــه يعلــو العاتــق. يقــال: "هــو طويــل النجــاد" كنايــة عــن انــه طويــل القامــة.**

[2] **داريــن: موضــع بالبحريــن؛ وهــو همــزة وصــل لجلــب المســك مــن الهنــد.**

مَلَــكٌ كمــا حُدِّثْــتَ عنــهُ رَأفــة
فالخمــرُ مــاءٌ وَالشرَاســة ليــنُ
شِيــمٌ لوْ أنَّ اليــمَّ أعــطِيَ رِفقهــا
لمْ يَلتقــمْ ذَا النــونِ فِيــهِ النــونُ[1]
تاللــهِ لاَ ظلــلُ الغمــامِ معاقِــلٌ
تــأبَى عليهِ وَلاَ النُّجــومُ حُصُــونُ
وَوَرَاء حَقِّ ابْنِ الرَّسولِ ضَرَاغــمٌ
أسْــدٌ وَشَهبــاءُ السِّــلاَحِ منــونُ
الطالبــانِ: المِشرَفيــــة وَالقنــــا
المدْرِكــانِ: النصْــرُ وَالتمكِيــــنُ

ثــم يضيــف قائــلا:
أنظــرْ إلى الدُّنيــا بِإشفــاقٍ فقــــدْ
أرْخَصْــتَ هذَا العِلــقَ وَهوَ ثمِيــنُ
لوْ يَسْتَطِيعُ البَحْرَ لاسْتَعْــدَى عَــلى
جــدْوَى يَدَيــكَ وَإنــهُ لقميــــنُ

[1] ذا النــون: النــبي يونــس عليــه الســلام. والنــون الحــوت الــذي التهمــه.

أمــددهُ أوْ فاصْفَــحْ لــهُ عنْ نيلِــهِ
فلقــدْ تَخــوَّفَ أنْ يقــالَ ضَنِيــنُ
وَأذَنْ لــهُ يغــرِقْ أميــة معلِنــاً
مــا كــلُّ مــأذُونٍ لــهُ مــأذُونُ
وَاعــذِرْ أميــة أنْ تغــصَّ بريقهــا
فالمهــلُ مَــا سُقِيتــهُ وَالغِسْلِيــنُ[1]
ألقــتْ بِأيْدِي الذُّلِّ مُلــقَى عَمْرِهَــا
بِالثــوْبِ إذْ فغــرَتْ لــهُ صِفِيــنُ[2]
قــدْ قــادَ أمْرَهــمُ وَقلــدَ ثغرَهــمُ
مِنهــمْ مهيــنٌ لاَ يكــادُ يبيــنُ

ويقــول أيضــا:
وَرَمَى إلَى البلــدِ الأمِيــنِ بِطرفــهِ
ملــكٌ عَــلَى ســرِّ الإلــهِ أمِيــنُ
لمْ يَــدْرِ مَا رَجــمُ الظنــونِ وَإنمَــا
دُفــعَ القضَــاءُ إليــهِ وَهــوَ يقيــنُ

---

[1] **المهــل: الصديــد والقيــح. الغسليــن: مــا يسيــل مــن جلــود أهــل جهنــم.**

[2] **عمرهــا: المقصــود هنــا عمــرو بــن العــاص؛ وأراد بعبــارة ملــقى: مــا جــرى لــه حيــن طعنــه عــلي بــن أبي طالــب فألقــاه أرضــا في موقعــة صفيــن.**

كذِبتْ رجَالٌ مَا ادَّعَــتْ مِنْ حَقكُــمْ
وَمِــنَ المقــالِ كأهلــهِ مأفــونُ
أبــنِي لــؤَيٍّ أينَ فضــلُ قدِيمكــمْ
بلْ أيــنَ حِلــمٌ كَالجبــالِ رَصِيــنُ[1]
نازَعتــمُ حــقَّ الــوَصِيِّ وَدُونــهُ
حــرَمٌ وَحِجــرٌ مانــعٌ وَحجــونُ[2]
نَاضَلتمُــوهُ عَــلَى الخِلاَفــةِ بِالــتِي
رُدَّتْ وَفِيكــمْ حَدُّهــا المسْنــونُ
حَرَّفتُمُوهَا عَنْ أبِي السِّبْطَيْــنِ عَــنْ
زَمَــعٍ ولَيــسَ مِنَ الهجــانِ هجيــنُ[3]
لــوْ تتقــونَ اللهَ لــمْ يَطمــحْ لَهــا
طــرَفٌ ولَمْ يَشمــخْ لَهــا عرنِيــنُ[4]

---

[1] بنــو لــؤي: قريــش.

[2] الــوصي: عــلي بــن أبي طالــب.

[3] السبطيــن: الحســن والحسيــن. عــن زمــع: أي عــن إصــرار ومضــاء في الأمــر. الهجــان مــن كــل شــيء: خيــاره. والهجيــن: مــن كــان أبــوه عــربي وأمــه أمــة.

[4] العرنيــن: الأنــف كلــه؛ جمعــه عرانيــن.

لكِنكـــمْ كنتـــمْ كَأهـــلِ العِجْـــلِ لـــمْ
يُحفـــظْ لمـــوسَى فِيهـــمُ هـــارُونُ[1]
لوْ تَسْألـــونَ القبـــرَ يَـــومَ فرِحتـــمُ
لأجـــابَ أنَّ محمـــداً محـــــزُونُ
مَاذَا تريـــدُ مِنَ الكِتـــابِ نوَاصِـــبٌ
ولَـــهُ ظهـــورٌ دُونهـــا وبَطـــونُ[2]
هِيَ بُغيَـــة أضْللتمُوهَـــا فَارْجِعُـــوا
فِي آلِ يَاسيـــنٍ ثـــوَتْ ياسِيـــــنُ
رُدُّوا عليْهـــمْ حكمَهـــمْ فَعَليهـــــمُ
نـــزَلَ البيـــانُ وَفِيهـــمُ التبييـــــنُ
البَيْـــتُ بَيْـــتُ اللـــهِ وَهـــوَ معَظـــمٌ
وَالنـــورُ نـــورُ اللـــهِ وَهـــوَ مبيـــنُ
وَالسِّترُ سِترُ الغيْـــبِ وَهْوَ مُحَجَّـــبٌ
وَالسِّـــرُّ سِرُّ الوَحْيِ وَهْوَ مصُـــونُ
النـــورُ أنـــتَ وَكـــلُّ نـــورٍ ظلمـــة
وَالفـــوقُ أنـــتَ وَكـــلُّ فـــوقٍ دُونُ

---

[1] أهـل العجـل: بنـو إسرائيـل.

[2] النواصـب: الذيـن ينصبـون لعـلي بـن أبي طالـب العـداء.

لــوْ كانَ رَأيــكَ شَائِعــاً فِي أمــةٍ
عَلِمُــوا بما سَيَكــونُ قبْــلَ يَكــونُ
أوْ كَانَ بِشْرُكَ فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ لــمْ
يُكْسَفْ لَهَا عِنــدَ الشُّــرُوقِ جَبِيــنُ
أوْ كَانَ سُخطكَ عدْوَةً فِي السُّمِّ لــمْ
يَحْمِلــهُ دُونَ لَهاتــــهِ التنِيــــنُ
لــمْ تسْكــنِ الدُّنيَــا فــوَاقَ بَكِيــةٍ
إلاَّ وَأنــتَ لِخوفهــــا تأميــــنُ
اللــهُ يَقبَــلُ نُسكنــا عنــا بمــا
يُرْضِيــكَ مِنْ هــدْيٍ وَأنتَ مُعِيــنُ
فَرْضَانِ مِنْ صَوْمٍ وَشُكــرِ خلِيفــةِ
هــذَا بهــذَا عِندَنــــا مَقــــرُونُ
فَارزُقْ عِبَــادَكَ مِنكَ فَضْلَ شَفَاعَــةٍ
وَاقــرُبْ بهمْ زُلْــفَى فأنــت مَكِيــنُ
لــكَ حمْدُنــا لاَ أنــهُ لــكَ مَفخــرٌ
مَــا قــدْرُكَ المَنثــورُ وَالمَــوزُونُ
قْد قالَ فِيــكَ اللــهُ مَــا أنــا قائــلٌ
فكــأنَّ كــلَّ قصِيــدَةٍ تَضْمِيــــنُ

اللـــهُ يَعْلَمُ أنَّ رَأيـــكَ فِي الـــوَرَى
مَأمـــونُ حـــزْمٍ عِنـــدَهُ وَأمِيـــــنُ
وَلأنتَ أفضَـــلُ مَنْ تشِيـــرُ بِجَاهِـــهِ
تحْـــتَ المِظلـــةِ بِالســـلاَمِ يَمِيـــنُ

ومـــع مـــرور الوقـــت، وتفـــاوت الزمـــن؛ بـــدأت أعـــراض الشيخوخـــة تـــدب في كيـــان الدولـــة الفاطميـــة؛ وذلـــك بعدمـــا فســـدت عصبيتهـــا، وتلاشـــت قوتهـــا؛ بافتـــراق الأنصـــار، وزوال الدعـــوة الصادقـــة، وانعـــدام الدعـــاة الأكفـــاء. وتلـــك هي سنـــة اللـــه في الحيـــاة، وذلـــك مـــا تقتضيـــه طبيعـــة الـــدول. وعليـــه فقـــد انتـــهى الأمـــر بالدولـــة الفاطميـــة ــ كمـــا انتـــهى بـــدول أخـــرى في ذلـــك العصـــر ــ إلى السقـــوط والاندثـــار في القاهـــرة سنـــة 567هـــ(1171م)؛ بواسطـــة صـــلاح الديـــن الأيـــوبي.

وعنـــد المقابلـــة بيـــن الدولتيـــن: الإدريسيـــة والفاطميـــة؛ ضمـــن منظـــور يبـــرز إنجازاتهمـــا الحضاريـــة والثقافيـــة. سرعـــان مـــا يتضـــح قصـــور الأدارســـة، وعجزهـــم، وضيـــق إمكاناتهـــم أمـــام الفاطميين. لأنهـــم لـــم يتمكنـــوا مـــن إنجـــاز معالـــم حضاريـــة ذات قيمـــة كبيـــرة؛ تضـــاهي المعالـــم الحضاريـــة الفاطميـــة. وقـــد يعـــود السبـــب ــ عـــلى مـــا يبـــدو ــ إلى الوســـط القبـــلي الكثيـــف الـــذي يكتنـــف الدولـــة الإدريسيـــة، وإلى عجزهـــا عـــن التخلـــص منـــه. أمـــا الدولـــة الفاطميـــة؛ فقـــد شـــرع حكامهـــا في بعـــث بـــوادر حضاريـــة وثقافيـــة منـــذ البدايـــة.

ولكن في حدود ضيقة؛ لأن شدة الفتن القبلية وتلاحقها الواحدة بعد الأخرى في بداية عهدهم خلال المرحلة المغربية عطلت حركتها التنموية. ولم تتمكن هذه الدولة من تشييد حضارتها الممتازة إلا بعد التخلص من الوسط القبلي؛ الذي نشأت فيه ببلاد المغرب، أي بعد انتقالها إلى وسط آخر؛ يختلف عن الأول؛ في كونه انتقال من طور القبلية؛ إلى طور المؤسسات المتمدنة.

****

وهكذا نكتفي بهذا القدر من المعلومات التي تخص دول: الخوارج والعلويين في بلاد المغرب والأندلس. على أنه من الواجب التنبيه هنا إلى أن اهتمام هذا البحث كان محصورا ضمن فترة زمنية محددة؛ وعليه فقد تكون بعض الدول والإمارات التي ظهرت في فترات زمنية متأخرة لم يرد ذكرها في هذا البحث؛ وذلك تبعا لأسباب منهجية لا غير. على أن ذلك متروك للذين يرغبون في استكمال الموضوع حسب وجهة نظرهم.

تم بحمد الله

المصادر والمراجع

المصـــادر والمراجـــع العربيـــة:

ـ **آراء الخـــوارج الكلاميـــة**: (تحقيـــق وتقديـــم عمـــار طالـــبي لكتـــاب الموجـــز لأبي عبـــد اللـــه الكـــافي التنـــاوتي الإبـــاضي)، الشركـــة الوطنيـــة للنشـــر والتوزيـــع، الجزائـــر، 1978م.

ـ **الإباضيـــة بالجريـــد في العصـــور الإسلاميـــة الأولى**: صالـــح باجيـــة، دار بوسلامـــة للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع، تونـــس، 1976م.

ـ **الإباضيـــة في موكـــب التاريـــخ (الحلقـــة الثانيـــة: الإباضيـــة في ليبيـــا)**: عـــلي يحـــيى معمـــر، مكتبـــة وهبـــه، القاهـــرة.

ـ **ابـــن هـــاني**: أحمـــد خالـــد، الشركـــة التونسيـــة للتوزيـــع، تونـــس، والشركـــة الوطنيـــة للنشـــر والتوزيـــع، الجزائـــر، 1976م.

ـ **إتحاف أهـــل الزمـــان بأخبـــار ملـــوك تونـــس وعهـــد الأمـــان**، أحمـــد بـــن عمـــر بـــن أبي الضيـــاف، (ت: 1291هـــ/1845م): الشركـــة الوطنيـــة للنشـــر والتوزيـــع، الجزائـــر، والـــدار التونسيـــة للنشـــر، تونـــس، 1976م.

ـ **إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**: أحمد ابن علي المقريزي، (ت: 845هـ/1441م)؛ تحقيق جمال الدين الشيال، دار الفكر العربي، القاهرة، 1948م.

ـ **الإحاطة في أخبار غرناطة**: لسان الدين ابن الخطيب، (ت: 776هـ/1374م)؛ تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بمصر، القاهرة، ج: 1، ط: 2، 1973م، ج: 2، ط: 1، 1974م، ج: 3، ط: 1، 1975م، ج: 4، ط: 1، 1977م.

ـ **أحزاب المعارضة السياسية والدينية في صدر الإسلام (الخوارج والشيعة)**: فلهوزن؛ بوليوس: ترجمة عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1958م.

ـ **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها يرحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم**: لمجهول، مكتبة المثني، بغداد، طبع بمطبعة رِبَدَنَيرَ Rivadeneyra بمدريد 1867م.

ـ **أخبار ملوك بني عبيد**: محمد بن علي بن حماد الصنهاجي، (ت: 626هـ/1230م)؛ تحقيق جلول البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

ـ **أخبار وتراجم أندلسية (مستخرجة من معجم السِّفر للسِّلَفِي)**: أحمد بن محمد السِّلَفِي (ت: 576هـ/1180م)؛ تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1963م.

ـ **الأدب المغـربي**: محمـد بـن تاويـت، و محمـد عفيـفي، دار الكتـاب اللبنـاني، بيـروت، 1969م.
أزهـار الريـاض في أخبـار عيـاض: أحمـد بـن محمـد التلمسـاني المقـري (ت:1041هـ/1631م)؛ تحقيـق مصطـفى السقـا، وإبراهيـم الأبيـاري، وعبـد الحفيـظ شلـبي، مطبعـة التأليـف والترجمـة والنشـر، القاهـرة، 1892م ــ 1942م.
ـ **الإستقصـاء لأخبـار دول المغـرب الأقـصى**: أحمـد بـن خالـد الناصـري السـلاوي، (ت: 1315هـ/1897م)؛ تحقيـق جعفـر الناصـري، ومحمـد الناصـري، دار الكتـاب بالمغـرب، الـدار البيضـاء، 1954 ــ 1956م.
ـ **الإسـلام في إسبانيـا**: لطـفي عبـد البديـع، مكتبـة النهضـة المصريـة، القاهـرة، ط: 1، 1958م.
ـ **الأعـلام (قامـوس تراجـم لأشهـر الرجـال والنسـاء مـن العـب والمستعربيـن والمستشرقيـن)**: خيـر الديـن الزركـلي، مطبعـة كوستـا تسومـاس وشركـاه، 1954م ــ 1959م).
ـ **أعمـال الأعـلام في مـن بويـع قبـل الاحتلام مـن ملـوك الإسـلام**: لسـان الديـن محمـد بـن الخطيـب السلمـاني (ت: 776هـ/1374م)، (القسـم المخصـص لتاريـخ إسبانيـا الإسلاميـة)؛ تحقيـق ليـفي بروفنسـال، دار المكشـوف، بيـروت، 1956م.

ـ **أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**: لسان الدين محمد بن الخطيب السلماني (ت: 776هـ/1374م)، (القسم الثالث المخصص لتاريخ المغرب العربي تحت عنوان: **تاريخ المغرب العربي**)؛ تحقيق أحمد العبادي، ومحمد الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م.

ـ **الأغالبة، نظامهم الاداري والسياسي**: محمد المسعود الشابي، الدار التونسية للنشر، تونس، (سلسلة اعلم)، 1970م.

ـ **أنموذج الزمان في شعراء القيروان**: حسن بن رشيق القيرواني (قد تكون وفاته في سنة 456هـ/1063م)؛ تحقيق محمد العروسي المطوي، وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

ـ **الأنيس المطرب بروض القرطاس**: علي بن عبد الله بن أبي زرع، أو عبد الحليم بن صالح، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، ثم نسخة مطبوعة حجريا؛ تحقيق كارل يوحنا تورنبورغ، دار الطباعة المدرسية، أوبسال، السويد، 1943م.

ـ **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**: يحيى بن خلدون (ت: 780هـ/1378م)؛ تحقيق ألفرد بل،

والغوثي أبو علي، مطبعة فنطانة الشرقية، الجزائر، ج: 1، 1903م، وج: 2، 1910م، والنسخة المحققة للجزء الأول من طرف عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980م.

ـ **بغية الملتمس في تلريخ رجال أهل الأندلس**: أحمد بن يحيى بن عميرة الضبي (ت: 599هـ/1202م)؛ مكتبة المثنى، بغداد، وطبع بمطبعة روخس، مدريد، 1884م.

ـ **بلاد الجزائر تكوينها الإسلامي والعربي**: إبراهيم العدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1970م.

ـ **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**: محمد بن عذاري المراكشي (ت: 669هـ/1272م)؛ تحقيق ليفي بروفنسال، وكولان، وإحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1967م.

ـ **تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)**: إحسان عباس؛ دار الثقافة، بيروت، 1978م.

ـ **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**: حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ج: 1 ــ 2، ط: 7، 1964، ج: 3، ط: 7، 1965م، ج: 4، ط: 1، 1968م.

ـ **تاريخ افريقية والمغرب**: إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق القيرواني (ت: بعد 417هـ/1026م)؛ تحقيق المنجي الكعبي، نشر رفيق السقطي، تونس، 1968م.
ـ **تاريخ الأمم والملوك**: محمد بن جرير الطبري (ت: 310هـ/923م)، مكتبة خياط، بيروت.
ـ **تاريخ الجزائر العام**: عبد الرحمن الجيلالي، دار الثقافة، بيروت، 1980م.
ـ **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**: مبارك بن محمد الميلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م.
ـ **تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب**: حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط: 3، 1964م.
ـ **تاريخ صقلية الإسلامية**: عزيز أحمد، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، 1980م.
ـ **تاريخ علماء الأندلس**: عبد الله بن محمد الأزدي بن الفرضي (ت: 403هـ/1012م)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م.
ـ **تاريخ الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين**: علي مصطفى الغزالي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، 1959م.

ـ **تاريخ قضاة الأندلس (وهو كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)**: علي بن عبد الله النُّباهي الأندلسي (ت: بعد 793هـ/1390م)، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

ـ **تاريخ مسلمي إسبانيا (ج: 1، الحروب الأهلية)**: دوزي؛ رينهارت؛ ترجمة حسن حبشي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1963م.

ـ **تاريخ المغرب الكبير**: محمد علي دبوز، طباعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1963م ـــ 1974م.

ـ **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر**: محمد بن عبد القادر الجزائري، دار اليقظة العربية، بيروت، 1964م.

ـ **تراجم أغلبية (مستخرجة من مدارك القاضي عياض)**: القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت: 544هـ/1149م)؛ تحقيق محمد الطالبي، منشورات الجامعة التونسية، 1968م.

ـ **التكملة لكتاب الصلة**: محمد بن عبد الله بن الأبار البلنسي (ت: 658 أو 659هـ/1260م)، مكتبة الخانجي بمصر، والمثنى ببغداد، 1956م.

ـ **تلمسان عبر العصور (دورها في السياسة وحضارة الجزائر)**: محمد بن عمرو الطمار، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

ـ **الثغر الأعلى الأندلسي (دراسة في أحواله السياسية)**: خليل إبراهيم صالح السامرائي، جامعة بغداد، 1976م.

ـ **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**: محمد ابن أبي نصر الحميدي الأزدي (ت: 488هـ/1095م)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م.

ـ **جمهرة أنساب العرب**: علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت: 456هـ/1063م)؛ تحقيق عبد السلام محمد هارون.

ـ **حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول**: شكري فيصل، دار العلم للملايين، بيروت، 1967م.

ـ **حضارة العرب في الأندلس**: خير الله طلفاح، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1977م.

ـ **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**: محمد بن محمد السراج الأندلسي (ت: 1149هـ/1736م)؛ تحقيق محمد الحبيب الهيله، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970 ـ 1973م.

ـ **خريدة القصر وجريدة العصر (قسم المغرب والأندلس)**: محمد بن محمد الأصفهاني (ت:

597هـ/1200م)؛ تحقيق محمد المرزوقي، وآخرين، الدار التونسية للنشر، تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971ـ 1972ـ 1973م.

ـ **الخوارج في المغرب الإسلامي (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، موريطانيا)**: محمود إسماعيل.

ـ **دائرة المعارف الإسلامية**: محمد ثابت الفندي وآخرون، القاهرة، 1933م.

ـ **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**: أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع.

ـ **الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي**: جمع وتعليق: محمد رمضان شاوش، المطبعة العلوية، مستغانم، 1966م.

ـ **دليل المؤرخ في المغرب الأقصى**: عبد السلام بن سودة؛ دار الكتاب، المغرب، الدار البيضاء، 1960م.

ـ **دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي**: محمد بن عميرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

ـ **دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية**: موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م.

ـ **دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة**: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

ـ **دولة الإسلام في الأندلس (العصور: الأول، والثاني، والثالث، والرابع)**: محمد عبد الله عنان، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1960م ـ 1969م.

ـ **الدولة الأغلبية (التاريخ السياسي)**: محمد الطالبي؛ ترجمة المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985م.

ـ **الدولة العربية في إسبانيا**: إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1980م.

ـ **ديوان ابن هاني الأندلسي**: دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980م.

ـ **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**: علي بن بسام الشنتريني الأندلسي (ت: 542هـ/1147م)؛ تحيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، وتونس، 1975م ـ 1979م.

ـ **رسالة افتتاح الدعوة**: القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد بن حيون (ت: 363هـ/973م)؛ تحقيق وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت، 1970م.

ـ **رسائل بن حزم الأندلسي**: علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت: 456هـ/1063م)؛ تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط: 1، 1981م.

ـ **الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي مع مسرد عام)**: محمد بن عبد المنعم الحميري (ت: 727هـ/1326م)؛ تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975م.

ـ **السجلات المستنصرية**: تحقيق عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي، القاهرة، 1954م.

ـ **السياسة الداخلية للدولة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي**: محمد الصالح مرمول، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

ـ **شذرات الذهب في من أخبار من ذهب**: عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت: 1089هـ/1678م)، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

ـ **صبح الاعشى في صناعة الإنشاء**: أحمد بن علي القلقشندي (821هـ/1418م)، المؤسسة المصرية العلمية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1963م.

ـ **الصـــراع المذهـــبي بإفريقيـــة إلى قيـــام الدولـــة الزيريـــة**: عبـــد العزيـــز المجـــدوب، الدار التونسيـــة للنشـــر، تونـــس، والشركـــة الوطنيـــة للنشـــر والتوزيـــع، الجزائـــر، 1975م.

ـ **صلـــة الصلـــة**: أحمـــد بـــن إبراهيـــم بـــن الزبيـــر الأندلـــسي (ت: 708هـــ/1308م)، مكتبـــة خيـــاط، بيـــروت.

ـ **ضـــحى الإســـلام**: أحمـــد أميـــن، دار الكتـــاب العـــربي، بيـــروت، ط: 10.

ـ **طبقـــات علمـــاء إفريقيـــة وتونـــس**: أبـــو العـــرب محمـــد بـــن أحمـــد القيـــرواني (ت: 333هـــ/944م)؛ تحقيـــق عـــلي الشـــابي، ونعيـــم حســـن البـــاني، الـــدار التونسيـــة للنشـــر، 1968م.

ـ **طبقـــات المشائـــخ بالمغـــرب**: أحمـــد بـــن سعيـــد الدرجيـــني (ت: 670هـــ/1271م)؛ تحقيـــق إبراهيـــم طـــلاي، مطبعـــة البعـــث، قسنطينـــة، 1974م.

ـ **ظهـــر الإســـلام**: أحمـــد أميـــن، مكتبـــة النهضـــة المصريـــة، القاهـــرة، 1952 ـ 1959م

ـ **العبـــر وديـــوان المبتـــدأ والخبـــر في أيـــام العـــرب والعجـــم والبربـــر ومـــن عاصرهـــم مـــن ذوي السلطـــان الأكبـــر**: عبـــد الرحمـــن بـــن خلـــدون (ت: 808هـــ/1405م)، دار الكتـــاب اللبنـــاني، بيـــروت، مج: 1، 1967م، ومج: 2، 3، 1977م، ومج: 4، 1968م، ومج: 5، 6، 7، 1968م.

ـ **عصر هشام بن عبد الملك**: عبد المجيد محمد صالح الكبيسي، جامعة بغداد، بغداد، 1975م.
ـ **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية**: عبد الكريم جودت، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
ـ **العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب**: عبد العزيز فيلالي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.
ـ **فتوح مصر والمغرب**: عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (ت:257هـ/871م)؛ تحقيق عبد المنعم عامر، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1961م.
ـ **فجر الإسلام**: أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 10، 1969م.
ـ **فجر الأندلس**: حسين مؤنس، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، 1985م.
ـ **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم**: ألفرد، بل؛ ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1181م.
ـ **فوات الوفيات والذيل عليها**: محمد بن أحمد بن شاكر الكتبي (ت: 764هـ/1362م)؛ تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1973 ـ 1974م.

ـ **في التاريخ العباسي والفاطمي**: أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1971م.
ـ **في تاريخ المغرب والأندلس**: أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1978م.
ـ **القبائل الأمازيغية**: بوزياني الدراجي؛ دار الكتاب العربي، الجزائر، (ج: 1: 1999م ـ وج: 2: 2000م).
ـ **قلائد العقيان في محاسن الأعيان**: الفتح بن محمد بن خاقان الإشبيلي (ت: 529هـ/1134م)؛ تحقيق: محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م.
ـ **القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي**: الحبيب الجنحاني، الدار التونسية للنشر، 1968م.
ـ **الكامل في التاريخ**: علي بن أبي المكارم الجزري المعروف بابن الأثير (ت: 630هـ/1332م)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983م.
ـ **كتاب الجغرافيا**: علي بن موسى بن سعيد (ت: 685هـ/1274م)؛ تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.
ـ **كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية**: عبد الله بن محمد المالكي (قد تكون وفاته في سنة 474هـ/1081م)؛ تحقيق بشير البكوش، ومحمد

العـروسي المطـوي، دار الغـرب الإسـلامي للطباعـة والنشـر، بيـروت، 1981م ــ 1983م.

ــ **كتـاب سيـر الأئمـة وأخبارهـم**: أبـو زكريـاء يـحي بـن أبي بكـر الورجـلاني (ت: 471هـ/1078م)؛ تحقيـق إسماعيـل العـربي، ديـوان المطبوعـات الجامعيـة، الجزائـر، 1984م.

ــ **كتـاب الصلـة**: خلـف بـن عبـد الملـك بـن بشكـوال (ت: 578هـ/1182م)، الـدار المصريـة للتأليـف والترجمـة.

ــ **كتـاب فتـوح البلـدان**: أحمـد بـن يـحي البـلاذري (ت: 279هـ/892م)؛ تحقيـق صـلاح الديـن المنجـد، مكتبـة النهضـة المصريـة، القاهـرة.

ــ **كتـاب المفصـل في الملـل والأهـواء والنحـل**: عـلي بـن أحمـد بـن حـزم الأندلـسي (ت: 456هـ/1063م)؛ ج:1، 1317هـ، ج: 2 ــ 3، 1320هـ، المطبعـة الأدبيـة بمصـر، ج: 4، 1321هـ، مطبعـة التمـدن بمصـر، ج: 5، 1321هـ، مطبعـة الموسوعـات بمصـر.

ــ **المجتمعـات الإسلاميـة في القـرن الأول (نشأتهـا، مقوماتهـا، تطورهـا اللغـوي والأدبي)**: شكـري فيصـل، دار العلـم للملايـين، بيـروت، 1966م.

ــ **مجموعـة الوثائـق الفاطميـة**: جمـال الديـن الشيـال، دار المعـارف بمصـر، القاهـرة، ط: 2، 1965م.

ـ **مختصر تاريخ الإباضية**: سليمان الباروني (ت: 1359هـ/1940م).

ـ **المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا**: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969م.

ـ **مصر في عصر الدولة الفاطمية**: محمد جمال الدين سرور؛ مكتبة النهضة المصرية، القاهرة؛ (سلسلة 1000 كتاب)، 1960م.

ـ **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**: عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي (كان حيا سنة 621هـ/1224م)؛ ضبط وتصحيح محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1949م.

ـ **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**: عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980م.

ـ **معجم البلدان**: أبو عبد الله الرومي البغدادي المعروف بياقوت الحموي (ت: 626هـ/1228م)، دار صادر، بيروت، 1977م.

ـ **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة**: عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1978م.

ـ **المغـرب الإسـلامي منـذ بنـاء معسكـر القـرن حـتى انتهـاء ثـورات الخـوارج (سياسـة ونظـم)**: مـوسى لقبـال، الشركـة الوطنيـة للنشـر والتوزيـع، الجزائـر، 1981م.

ـ **المغـرب في حـلى المغـرب**: أبـو محمـد الحجـاري، وعبـد الملـك بـن سعيـد، وآخـرون؛ تحقيـق شـوقي ضيـف، دار المعـارف بمصـر، 1964م.

ـ **المغـرب عبـر التاريـخ**: إبراهيـم حركـات، مطبعـة دار السلـمي بالمغـرب، الـدار البيضـاء 1965م

ـ **المغـرب العـربي تاريخـه وثقافتـه**: رابـح بونـار، الشركـة الوطنيـة للنشـر والتوزيـع، الجزائـر، 1969م.

ـ **المغـرب في ذكـر بـلاد إفريقيـة والمغـرب (جـزء مـن أجـزاء كتـاب المسالـك والممالـك)**: عبـد اللـه بـن عبـد العزيـز البكـري (ت: 487هـ/1094م)؛ تحقيـق مـاك قوكيـن دي سـلان MAC GUCKIN DE SLANE، مكتبـة أمريكـا والشـرق، بباريـس، Librairie D'Amérique et D'Orient, Paris، 1965م.

ـ **المقتبـس في أخبـار بلـد الأندلـس**: حيـان بـن خلـف بـن حسيـن بـن حيـان القرطـبي (ت: 479هـ/1076م)؛ القطعـة الـتي حققهـا عبـد الرحمـن عـلي حـجي، دار الثقافـة، بيـروت، 1965م.

ـ **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**: حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي (ت: 479هـ/1076م)؛ وهي القطعة التي حققها محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973م.

ـ **مقتبس من نزهة المشتاق (القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس)**: محمد بن عبد الله الحمودي الإدريسي السبتي (يكون قد توفي سنة 560هـ/ 1164م)؛ تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

ـ **مقدمة ابن خلدون**: عبد الرحمن بن خلدون (ت: 808هـ/1405م)؛ تحقيق علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، ج: 1، 1965م، وج: 2، 1966م، وج: 3، 1967م، وج: 4، 1968م.

ـ **المكتبة العربية الصقلية (نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع)**: أماري؛ ميخائيل: مكتبة المثنى، بغداد و PRESSO F. A. BROCKHAUS Libraio .Della Societa LIPSIA. 1857.

ـ **ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري**: إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1979م.

ـ **الملـل والنحـل**: محمـد بـن عبـد الكريـم الشهرستـاني (ت: 548هـ/1153م)، دار المعرفـة للطباعـة والنشـر، بيـروت، 1975م.

ـ **المهـدي المنتظـر بيـن العقيـدة الدينيـة والمضمـون السيـاسي**: حجـاب؛ محمـد فريـد؛ المؤسسة الوطنية للكتـاب بالجزائـر 1984م.

ـ **نبـذ تاريخيـة في أخبـار البربـر في القـرون الوسـطى (منتخبـة مـن المجمـوع المسـمى بكتـاب مفاخـر البربـر**: **ل**مجهـول عـاش في سنـة 712هـ (وربمـا كـان لأبي عـلي صالـح بـن عبـد الحليـم؛ حسـب تحقيـق مـوسى لقبـال)؛ تحقيـق ليـفي بروفنسـال 1934م.

ـ **النجـوم الزاهـرة في ملـوك مصـر والقاهـرة**: أبـو المحاسـن يوسـف الأتابـكي ابـن تـَغـرِي بَـرْدِي (ت: 874هـ/1469م)، المؤسسـة المصريـة العامـة للتأليـف والترجمـة والطباعـة والنشـر، 1963م.

ـ **نظـم الحكـم والرسـوم في دولـة بـني عبـد الـواد الزيانيـة**: بوزيـاني؛ الـدراجي، ديـوان المطبوعـات الجامعيـة، الجزائـر، 1993م.

ـ **نظـم الـدر والعقيـان في بيـان شـرف بـني زيـان وذكـر ملوكهـم الأعيـان ومـن ملـك مـن أسلافهـم ممـا مـضى**

مـــن الزمـــان: محمـــد بـــن عبـــد اللـــه التلمســـاني التنـــسي (ت: 899هـــ/1493م)، مخطـــوط الخزانـــة العامـــة بالربـــاط.

ـ **نظـــم الفاطميـــين ورسومهـــم في مصـــر**: عبـــد المنعـــم ماجـــد، مكتبـــة الأنجلـــو المصريـــة، القاهـــرة، 1953م.

ـ **نفـــح الطيـــب مـــن غصـــن الأندلـــس الرطيـــب وذكـــر وزيرهـــا لســـان الديـــن بـــن الخطيـــب**: أحمـــد بـــن محمـــد التلمســـاني المقـــري (ت: 1041هـــ/1631م)؛ تحقيـــق إحســـان عبـــاس، دار صـــادر، بيـــروت، 1968م،

ـ **نهايـــة الأرب في فنـــون الأدب**: أحمـــد بـــن عبـــد الوهـــاب النويـــري (ت: 733هـــ/1332م)، المؤسســـة المصريـــة العامـــة للتأليـــف والترجمـــة والطباعـــة والنشـــر بمصـــر، 1954م.

ـ **نهايـــة الأرب في معرفـــة أنســـاب العـــرب**؛ أحمـــد بـــن عـــلي القلقشنـــدي (821هـــ/1418م)؛ تحقيـــق إبراهيـــم الأبيـــاري، الشركـــة العربيـــة للطباعـــة والنشـــر، القاهـــرة، 1959م.

ـ **الوثائـــق السياسيـــة والإداريـــة العائـــدة للعصـــر الأمـــوي**: محمـــد ماهـــر حمادة، مؤسســـة الرسالـــة، بيـــروت، ط: 1، 1974م.

ـ **ورقـــات عـــن الحضـــارة العربيـــة بإفريقيـــة التونسيـــة**: حســـن حســـني عبـــد الوهـــاب، مكتبـــة المنـــار، تونـــس، 1966 ـ 1972م.

ـ **الـوزارة والـوزراء في العصـر الفاطـمي**: محمـد حمـدي المنـاوي، دار المعـارف بمصـر، القاهـرة، 1970م.

ـ **وصـف إفريقيـا**: الحسـن بـن محمـد الـوزان الفـاسي الشهيـر بليـون الأفريـقي (ت: بعـد 957هـ/1550م)؛ ترجمـه عـن الفرنسيـة: محمـد حـجي، و محمـد الأخضـر، دار الغـرب الإسـلامي، بيـروت 1983م.

ـ **وفيـات الأعيـان وأنبـاء أبنـاء الزمـان**: أحمـد بـن محمـد بـن خلكـان (ت: 681هـ/1282م)؛ تحقيـق إحسـان عبـاس، دار صـادر ببيـروت. ج:1، 1968م، ج: 2، 1969م، ج:3، 1970م، ج: 4، 5، 6، 1971،7م، ج: 8، 1972م.

المـراجـع باللـغـة الأجـنـبـيـة:

- ABOU OBEID EL-BEHRI: - **Description de l'afrique septenrionale**. Tràduit par MAC GUCKIN de Slane. librairie D'Amerique et D'Orient ADRIEN- MAISONNEUVE, PARIS,1965.
- BEL - ALFRED: - **La religion musulmanes en Berbérie** (Esquisse d'histoire et de sociologie religieuses), PARIS,1938.
- BOURDIEU. PIERRE: - **Sociologie de L'Algérie**. Presses Universitaires de Paris, 1970.
- BOUSQUET (G.H.): - **Les Berberes**. Presses Universitaires de france 1967.
- BREMOND. C.R (Général): - **Berbères et Arabes**, Payot, Paris, 1950.

- FARHAT. DACHRAOUI: - **LE CALIFAT FATIMIDE au MAGHREB.** S. T. D. TUNIS. 1981.
- GAUTIER. (EMILE .F.): - **Le Passé de L'Afrique du Nord. (les Siécles Obscures)** Payot , Paris, 1952.
- IDRIS. Hady Roger: - **La Berbérie Orientale .Sous les Zirides (Xème - XIIème Siècles).** Librairie D'Amérique et D'Orient Adrien - Maisonneuve , Paris, 1981.
- JEAN LEON LAFRICAIN: - **Description de L'Afrique.** Librairie d'Amérique et D'Orient Maisonneuve, Paris 1981.
- KADDACHE; MAHFOUD: - **L'Algérie Medievale.** S. N. E. D. Alger.1982.
- MARCAIS GEORGES: - **La Berbérie Musulmane et L'Orient Au Moyen Age,** Editions Montaigne , Paris. 1946. et
-MARCAIS
GEORGES: **Les Arabes en Berbérie**

فهرس المحتويات

ـ المقدمة:..... 3
ـ مدخل:..... 9
ـ دول الخوارج:..... 22
ـ الدولة البرغواطية:..... 33
ـ حكومة صالح بن طريف:..... 34
ـ حكومة إلياس بن صالح:..... 43
ـ حكومة يونس بن إلياس:..... 44
ـ حكومة أبي غفير معاذ بن يونس:..... 45
ـ حكومة أبي الأنصار عبد الله بن محمد:..... 47
ـ حكومة أبي منصور عيسى بن عبد الله:..... 48
ـ الحضارة والحركة الثقافية:..... 51
ـ حكومة سقوط البرغواطي:..... 55
ـ حكومة الحاجب ضياء الدولة بن سقوط:..... 61
ـ الحضارة والحركة الثقافية:..... 64
ـ دولة بني مدرار:..... 67
ـ حكومة سمغون بن واسول المكناسي:..... 69
ـ حكومة اليسع بن سمغون:..... 71
ـ حكومة مدرار بن اليسع:..... 72
ـ حكومة محمد بن ميمون:..... 74
ـ حكومة اليسع بن مدرار:..... 75
ـ حكومة واسول الفتح بن ميمون بن مدرار:..... 75
ـ حكومة أبي العباس أحمد بن ميمون بن مدرار:.. 76
ـ عهد التبعية للفاطميين:..... 77
ـ حكومة الشاكر محمد بن الفتح:..... 78
ـ حكومة ولدي الشاكر: المنتصر والمعتز:..... 80

ـ الحضارة والحركة الثقافية:..... 82
ـ الدولة الرستمية:..... 84
ـ حكومة عبد الرحمن بن رستم..... 86
ـ حكومة عبد الوهاب بن عبد الرحمن:..... 93
ـ حكومة أفلح بن عبد الوهاب:..... 98
ـ حكومة أبي بكر بن أفلح:..... 100
ـ حكومة أبي اليقظان محمد بن أفلح:..... 105
ـ حكومة أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان:..... 106
ـ حكومة اليقظان بن أبي اليقظان:..... 107
ـ إمارة بني دمر:..... 119
ـ إمارة بني مسالة الهواريين:..... 120
ـ الحضارة والحركة الثقافية:..... 108
ـ دولة بني برزال:..... 121
ـ أمراء الحرب والثورة من الخوارج:..... 130
ـ الدول العلوية:..... 197
ـ الدولة الإدريسية:..... 200
ـ حكومة إدريس بن عبد الله:..... 202
ـ حكومة إدريس الثاني:..... 207
ـ حكومة محمد بن إدريس بن إدريس:..... 215
ـ حكومة ابني محمد: علي ويحيى:..... 217
ـ حكومة يحيى بن يحيى بن محمد:..... 219
ـ حكومة علي بن عمر بن إدريس:..... 220
ـ حكومة يحيى بن القاسم بن إدريس:..... 221
ـ حكومة يحيى بن إدريس بن عمر:..... 222
ـ حكومة الحسن بن محمد بن القاسم:..... 227
ـ عصر التفكك والشتات:..... 232
ـ حكومة أبي العيش أحمد بن القاسم:..... 244
ـ حكومة الحسن بن أحمد قنون الأولى:..... 248

ـ حكومة الحسن بن قنون الثانية:..... 259
ـ الحضارة والنشاط الثقافي:..... 261
ـ دولة بني حمود بقرطبة:..... 275
ـ حكومة علي بن حمود بقرطبة:..... 285
ـ حكومة المأمون القاسم بن حمود بقرطبة:..... 302
ـ حكومة المعتلي يحيى بن علي بقرطبة:..... 314
ـ دولة بني حمود خارج قرطبة:..... 322
ـ حكومة المعتلي يحيى بن علي في مالقة:..... 324
ـ الانقسام الثاني في أسرة بني حمود:..... 329
ـ حكومة المهدي محمد بن القاسم بن حمود:..... 332
ـ حكومة القاسم بن محمد بن القاسم:..... 334
ـ حكومة المتأيد بالله إدريس بن علي بن حمود:... 336
ـ حكومة المستنصر الحسن بن يحيى بن علي:.... 339
ـ حكومة العالي إدريس بن يحيى بن علي:..... 342
ـ الانقسام الثالث في أسرة بني حمود:..... 352
ـ حكومة المهدي محمد بن إدريس بن علي:..... 353
ـ حكومة المستعلي محمد بن إدريس المتأيد:..... 356
ـ الحضارة والحركة الثقافية:..... 358
ـ دولة بني سليمان:..... 453
ـ الدولة الفاطمية:..... 464
ـ حكومة عبيد الله الهدي:..... 479
ـ حكومة القائم بأمر الله محمد بن عبيد الله:..... 494
ـ حكومة المنصور بالله إسماعيل بن محمد:..... 498
ـ حكومة المعز لدين الله معد بن إسماعيل:..... 502
ـ الحضـــارة والنشـــاط الثقـــافي:..... 512
ـ المصـــادر والمراجـــع:..... 563
ـ فهـــرس المحتويـــات:..... 585